الموسوعة الإسلامية العربية

٥

الإسلام وحركة التاريخ

رؤيا جديدة في فلسفة تاريخ الإسلام

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري

بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

دار الكتاب المصري
القاهرة ج.م.ع
٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX No 2336 CAIRO
A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
تليفون ٢٥١٢٩٤ ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٠

الإسلام وحركة التاريخ

موضوعات البحث

(الباب الأول) : بناء الجماعة الاسلامية

(الباب الثاني) : بناء الاسلام وتوسعاته

(الباب الثالث) : مرحلة الانصهار والبلورة

(الباب الرابع) : مرحلة الغزو الخارجي

(الباب الخامس) : مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية

(الباب السادس) : اليقظة العربية الاسلامية

(الباب السابع) : معالم أساسية في تاريخ الاسلام

(الباب الثامن) فلسفة تاريخ الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

إطار البحث

ظهر الاسلام بعد انهيار الحضارة الرومانية التي أوشكت على الانحلال عام ٤٤٠ م فما كادت كلمته ترن في الآفاق حتى أخذ مكان القيادة في العالم كله خلال مائة عام ، فقد نشأ في الجزيرة العربية ، ولكنه لم يلبث بعد اثني عشر عاماً من الهجرة أن وسع نفوذه إلى العراق وفارس ، وإلى الشام ومصر وأفريقيا حتى بلغ الأندلس عام **٩٣ هـ ٧١١** م - ثم بلغ السند وما وراء الهند ، وأشرف على أوربا وأوغل في فرنسا وجنوبي إيطاليا حتى أوقفه اتساع الدائرة التي امتدت من دمشق إلى بواتيه عابرة هذه الألوف من الأميال في معركة بلاط الشهداء(**١١٤هـ -٧٤١م**)

وقد امتدت هذه الدولة من حدود الصين إلى حدود فرنسا في أقل من مائة عام وبلغت من السعة الضخمة في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، الواسع في الامتداد الجغرافي على غير نحو مسبوق في الحضارات والامبراطوريات كالدولة الرومانية وغيرها .

ولا شك أن القيم والمبادىء التي يحملها الاسلام تفسر هذا التوسع والتطور ، لم يكد يبدأ القرن الثاني الهجري حتى كان الغرب قد بدأ الصراع مع القوة الجديدة محاولا إيقاف مدها في معركة بلاط الشهداء . هذه المعركة التي

قادها كارل مارتل والتي عدها بعض المؤرخين الغربيين تجميداً لنمو الاسلام واتساعه . ولقد اعترف الكثير من المؤرخين المنصفين بأن معركة بواتيه (بلاط الشهداء) كانت شراً على اوربا ، وأنها أوقفت الحضارة الجديدة الاسلامية عن النمو والامتداد سبعة أو ثمانية قرون .

هكذا نظرت أوربا الى الاسلام ، وقد وسعت هذه النظرة من بعد،فحسبت أن سوريا ومصر وشمال إفريقيا كانت كلها تابعة للدولة الرومانية ، وأن الاسلام قد انتزعها من الغرب ، وأن من حق الغرب أن يستعيد هذه الأرض ويرد الاسلام الى الجزيرة العربية .

وفي خلال قرن ونصف توالت الحملات الصليبية (ثمان حملات من **٤٨٩** هـ إلى **٦٤٤** هـ إلى **١٠٩٦**م الى **١٢٥٣**م) لم تتوقف ، وجاءت حملة لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاماً على تونس ، وهي ما يطلق عليها المؤرخون الحملة الصليبية الثامنة . وكانت هذه هي قمة الضغط على الاسلام ومحاولة تمزيقه والقضاء عليه .

وقد مضت أوربا عن طريق بيزنطة لا تتوقف عن مهاجمة حدود عالم الاسلام تترقب الفرصة بعد الفرصة للتوغل والسيطرة على هذا المدخل الحيوي ، وظلت القوة الاسلامية تردها وتديل منها حتى هزمت بيزنطة في معركة ملاذكرد ، وأحس الغرب بأنها لم تعد قادرة على تحقيق مطامعها ، هنالك قذف الغرب عالم الاسلام بالحملات الصليبية المتوالية ، وأقام المملكة اللاتينية في قلب عالم الاسلام ،وظلت تمتد حتى برز صلاح الدين فانتصر في حطين عام **٥٨٣** هـ **١١٨٧** م واسترد بيت المقدس .

وكانت حملة التتار التي اجتاحت « عالم الاسلام » منذ عام **٦١٦** هـ **١٢٤٩** م فاستطاعت ان تستولي على بغداد **٦٥٦** ـ **١٢٥٨** م وأن تتوالى توسعاتها حتى ردها المسلمون في عين جالوت **٦٥٩** ـ **١٢٦٠** م . وكانت معركة تصفية الأندلس من العرب والاسلام قد بلغت ذروتها عام **١٦٠٩** م باتفاق فرديناند وإيزابيلا ، واستطاعت في خلال مائة وعشرين عاماً ان تجلي المسلمين نهائياً عن الأندلس وأوربا ، فتم ذلك عام **١٠١٨** هـ ـ **١٦٠٩** م . غير أن حملات الغزو على عالم الاسلام لم تتوقف إلا بقدر ما أتيح لأوربا استعادة الأندلس . ومن ثم

انطلقت البرتغال وأسبانيا إلى تطويق عالم الاسلام في حركة ضخمة سيطرت على سواحل أفريقيا ، وحولت مجرى التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي على العالم الاسلامي واضعافه اقتصادياً . وقد وصلت عملية التطويق الى الهند وتجاوزتها إلى الملايو ومهدت « لعصر الاستعمار » الذي بدأ في أوائل القرن التاسع عشر بالحملة الفرنسية على العالم العربي كمقدمة للسيطرة على العالم الاسلامي كله . وقد بلغت ذروتها في نهاية الحرب العالمية الأولى عام **١٩١٨** .

وهكذا تبدو صورة العالم الاسلامي في معركة مستمرة بينه وبين القوى المعادية له ، المندفعة الى السيطرة عليه في عمليات غزو متصلة ، خرج منها الاسلام ظافراً منتصراً لم يتوقف خلال هذا التاريخ عن الامتداد والاتساع بقوته الذاتية . فاذا كان قد انحسر نفوذه عن أوربا من ناحية الغرب والأندلس ، فإنه امتد إلى قلب أوربا من ناحية الشرق عندما سيطر العثمانيون على القسطنطينية **٨٥٨** هـ **١٤٥٢** م ومدوا نفوذهم حتى بلغ أسوار فينّا **١٠٩٥** هـ **١٦٨٣** م في قلب أوربا .

ويمكن القول بأن ما بلغه العالم الاسلامي في فترة الحكم العثماني من ضعف إنما جاء نتيجة عدة عوامل أبرزها « دورة التاريخ » ذات الحكم الذي لا مردّ له ، نتيجة التوسع الجغرافي من ناحية والامتداد الزمني من ناحية أخرى ، غير أن العامل الحاسم في حركات الجزر إنما ترجع بقدر أكبر من الأهمية إلى العوامل الخارجة وهي عمليات الغزو التي جرت على فترات متوالية خلال هذا التاريخ الطويل ، وأبرزها عملية الغزو الاستعماري الحديث الذي بدأ عام **١٧٩٨** - **١٢١٣** م .

وإذا كان النفوذ الغربي الذي سيطر على العالم الاسلامي وامتد حتى اليوم خلال القرنين **١٣** و **١٤** الهجريين قد حقق من النتائج في مجال الاستعمار ، فإن الاسلام - الذي سقطت دولته في براثن الاحتلال الفرنسي البريطاني - الاسباني الايطالي - لم يوقف أمرين :

(الأول) الفكر العربي الاسلامي الذي ظل حيا متحركاً قوياً ممتداً ، والذي تعمق خلال هذين القرنين الأخيرين وتوسع وكشف عن نفسه غطاء

الجمود والتخلف والتقليد وبدت معالمه أشد وضوحاً وأكثر إشراقاً مما كانت في فترة الضعف التي سيطرت على العالم الاسلامي .

(الثاني) توسع الاسلام نفسه بالانتشار في إفريقيا وجنوب شرق آسيا ، بالرغم من سيطرة الهيئات التبشيرية المختلفة المسنودة بالحكومات والاحتلال . فقد استطاع الاسلام أن يحقق عن طريق التوسع الذاتي انتصاراً ساحقاً يمكن أن يوصف بأنه اضعاف للاسلام أكثر من خمسمائة مليون مسلم .

والظاهرة الواضحة أن تاريخ الاسلام لم يتوقف في أي مرحلة من مراحله عن تقديم بناة الدول وقادة الفكر ، وكان جرياً على ناموس الحياة يمر بمراحل القوة ، ثم يمر بمراحل الضعف ، ثم يعود مرة أخرى إلى القوة من خلال الدول المتجددة ، والبناة الذين يقومون على هذه الدول ، ومن خلال الفكر الاسلامي العربي المتجدد وقادته الذين لم يتوقفوا يوماً عن إتاحة الفرصة للنمو الانساني والحضاري ، وفتح الطريق لالتقاء الاسلام بالحياة والحضارة ، كاشفاً عن قدرة الاسلام على الالتقاء الدائم ، والحركة المتصلة في العلاقة بين مجتمعه وبين مختلف الحضارات والثقافات والمجتمعات مع القدرة على الأخذ والعطاء ، ومع المحافظة الدائمة على مقوماته الاساسية .

* * *

ويمكن النظر إلى تاريخ الاسلام كوحدة تامة منذ بزوغ فجره الى اليوم ، وتتمثل صورته شاملة كاملة في مجاليه الواسعين :

(١) مجال بناء الحضارة **(٢) مجال بناء الفكر**

ولا يمكن - حين إلقاء النظر نحو أحدهما دون الآخر - أن تكون الصورة واضحة أو تكون النظرة صحيحة ، فقد كان بناء الحضارة وتطور الفكر يجريان في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجمود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية في آن واحد .

فمن خلال الجماعة الاسلامية الأولى التي كونها الرسول : محمد (صلى الله عليه وسلم) أمكن تعميق مفهوم الاسلام الذي حملته هذه الجماعة ، ومضت تشق به وجه هذا الكوكب شرقاً وغرباً منطلقة من قلب الجزيرة - ذلك المنطلق

الذي قدم موجات بشرية متعددة من قبل ـ حتى بلغت حدود الصين وحدود فرنسا .

وإلى الذين يعجبون من قدرة الاسلام ـ التي توصف بأنها خارقة ـ على التوسع في خلال هذه الفترة القصيرة ذلك المدى ، أن يذكروا أثر عملية البناء التي أجراها (محمد) الرسول ، بتعاليم (القرآن) لهذه الجماعة الصغيرة من أتباعه حين سيطر مفهوم جديد للحياة ، يحمل طابع التوحيد لله والايمان بدعوته والاندفاع في صدق لنشرها في آفاق الأرض ، وبذل النفس والتضحية بالروح في سبيل هذه الرسالة ، وهذا التحول النفسي في جماعة المسلمين الأولى التي كانت من العرب أساساً ، هو المصدر الحقيقي لذلك التوسع السريع الشامل ، وقد كان دور العرب في هذا العمل ضخماً وشاملاً ، وحين توقف التوسع على هذه الجبهة من افريقيا وآسيا بما أطلق عليه (عالم الاسلام) كانت المرحلة التالية هي أخطر مرحلة : مرحلة الانصهار الاجتماعي والفكري بين الامم والقبائل والشعوب والأجناس .

ولا ننسى أن نذكر أن مفهوم الاسلام وأيدلوجيته قد استكملت مفهومها قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وأنه لم تجر إضافة أي شيء جديد إلى « مقومات الاسلام » بعد ذلك ، وأن الخطوط العامة والأسس الأولى كانت قد رسمت فعلا خلال حياة الرسول ، ومن خلال النص القرآني الثابت على النحو الذي يكفل للانسانية صورة رسالة إنسانية عالمية خالدة تمتد مع التاريخ والبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

في ضوء هذه المفاهيم وبعيداً عن النظرة التقليدية يمكن تقسيم تاريخ الاسلام الى عصور ستة :

(الأول) عصر بناء الجماعة الاسلامية التي بناها الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً في مكة والمدينة التي قام بها مجتمع موحد في الجزيرة العربية كلها ، وإلى هذه الجماعة تعزى تلك القوة التي وصفت بانها معجزة في سبيل اذاعة الاسلام في أطراف الأرض .

(الثاني) توسع الاسلام وامتداده ، وهي تمثل المرحلة التي بدأت بعد اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، حتى تم للاسلام امتداد عاله من حدود الصين

الى أطراف فرنسا وهي مرحلة تمتد إلى عام **١١٤** تقريباً من الناحية التاريخية وإن كانت امتدادات الاسلام لم تتوقف الا بعد فترة طويلة .

(الثالث) مرحلة بناء الفكر الاسلامي في مواجهة محاولات تحريفه ، وبناء الحضارة الاسلامية وهي مرحلة مزدوجة النباء في مجال الثقافة والمدنية معاً وفيها ظهر بناة الدول وقادة الفكر ، ويمكن ان توصف تاريخياً بأنها تمتد من بدء حركة التدوين الى الحرب الصليبية الأولى **١٠٩٦** م **٤٨٩** هـ .

(الرابع) مرحلة أزمة الاسلام والغزو الخارجي : حين واجه عالم الاسلام غزوات الصليبيين والتتار ومؤامرات الباطنية (الحشاشون) وفي هذه المرحلة قامت المملكة اللاتينية في قلب العالم الاسلامي ، ثم تقلصت وانتهت كما انتهت غزوات المغول ، وفيها توسع الاسلام بالكلمة ، وحيث تسقط الخلافة في بغداد ويتقلص النفوذ الاسلامي في الأندلس ، يقتحم الاسلام آفاقاً جديدة في جنوب شرق آسيا وقلب إفريقيا وتمتد هذه المرحلة تاريخياً الى قيام الدولة العثمانية **٦٩٩** ـ **١٣٠٠** واندماج القوة العربية معها في عام **٩٢٧** هـ **١٥١٧**م.

(الخامس) ظهور مرحلة الوحدات الثلاث في عالم الاسلام : (**١**) الدولة العثمانية في منطقة آسيا الصغرى والعالم العربي (**٢**) الدولة الصفوية في فارس (**٣**) دولة المغول في الهند . وتمتد هذه المرحلة تاريخياً حتى عام **١٢٤٦** هـ ـ **١٨٣٠** م وهو تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وصول الحملة الفرنسية الى مصر والشرق .

(السادس) مرحلة اليقظة العربية الاسلامية . وتبدأ هذه المرحلة بالدعوة الى التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وحيث تجري مرحلة الاحتلال الغربي لعالم الاسلام ، وهي مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام تتمثل في نهضة الفكر والحضارة التي تحمل لواءها الأمة العربية مرة اخرى .

***

وقد سار تاريخ الاسلام في خطوط متساوية متسارعة :

* خط التوسع والامتداد ، ونمو الفكر الاسلامي وتطوره .
* خط المقاومة لمحاولات هذا الفكر الاسلامي ومقاومة الهجوم الخارجي .

* قيام بناة الدول وقادة الفكر في كل المراحل التاريخية وفي كل اجزاء عالم الاسلام .
* بناء الحضارة وتطورها في مجالاتها المختلفة ، وتطور المجتمع .
* اثر الاسلام في العالم الخارجي من توسع عقدي ونمو فكري .

« ا - ج »



(الباب الأول)

بناء الجماعة الاسلامية



(١)
« الاسلام والتاريخ »

التقى الاسلام والتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتداً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلا مؤثراً بعيد المدى والأثر ، فما من حدث من أحداث العالم والانسانية الا والاسلام متصل به ومؤثر فيها ومتفاعل به .

تلك حقيقة في حاجة الى بيان فكيف بدأ التقاء الاسلام بحركة التاريخ ؟

منذ بدأ الانسان يتصل بالحياة ويترك بصماته على أحجارها ويعرف الكتابة والنار . فقد بدأ عصر التاريخ . وتكاد تجمع التحقيقات العلمية على أن ذلك كان قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . هنالك سارت الحضارة والأديان في موكب واحد ، لترسم للبشرية طريقها الى حياة أفضل ، وقد التقى التاريخ في مسيرته الطويلة بأديان وحضارات وقادة في محاولة بناء الكيان الانساني وترقية البشرية وتحقيق رسالة الكائن الأسمى . وفي خلال هذه المسيرة التقى التاريخ بقمم عالية وأحداث ضخمة ما تزال علامات كبرى في تاريخ الانسانية .

ولقد كان الاسلام واحداً من أكبر هذه القمم ، ولكن مزيته أنه جاء بعد ان مرت البشرية بحضارات وأديان ومواقف أتاحت لها أن تنصقل وتسمو وترتفع عن خشونتها وبداوتها لتمضي في طريق الارتقاء .

ومن خلال حلقات الحضارة الفرعونية ، وحضارة حمورابي ، والحضارة

الفينيقية ، والحضارة الفارسية ، والحضارة الاغريقية ، والحضـارة الرومـانية . ومن خلال الديانات العبرية والزرادشـتية والهنـدوكية والبـوذية والكنفوشـوسية والمسيحية التقي التاريخ بالاسلام .

كانت هذه الديانات علامات على الطريق الى الحضارة والنور والعرفـان ونمو العقل والفكر ، وكانت الأديان علامات على الطـريق الى ضياء القلـب ، وصفـاء النفس حتـى جاء الاسـلام جامعـاً في مزيج دقيق لطـريقـي« العقـل والقلب » معاً في تناسق يمكن أن يطلق عليه (رسالة حياة) .

ولقد كانت البشرية في خلال تطورها الطويل ، ومراحل نموهـا المتصـل تلتقي من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبياء والرسل والهداة على مراحل ، وكانت الأديان مصـادر للحضـارات ، وكانـت رسـالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدي البشرية الى الطريق ، ولكنها كانت « جـزئية » تقوم في قطر أو أمة أو شعب ، وتختص به ، وقد يقوم أكثر من هاد في وقت واحد ، في قطرين متجاورين .

كانت كل رسالات السماء ودعوات المصلحين اذ ذاك ، دعوات مرحلية وجزئية وزمنية ترتبط بالانسانية في مسارها الطويل ، ليظل مشعل ضيائها موقداً ، فهي تمده بالزيت بين حين وحين . ولما كانت الانسانية لا تزال لما تبلغ رشدها . فقد توالت الدعوات والرسالات ، فكلما طال بها الزمن وانحرفت عن مسيرتها ، جاءت دعوة اخرى لتصحح المفاهيم وتردها إلى الدعوة الأصلية : دعوة التوحيد والايمان بالله وحده ، وإحلال « الانسان » مكانه في الأرض بوصفـه سيد هذا الكون تحت ظل الله .

ولقد كانت اليهودية قبل ألف ومائتي عام من ميلاد المسيح رسالة السماء ، رسالة إلى أمة العبرانيين ، فلما انحرفت وغلبـت عليهـا المادية جاءت المسيحية تصحيحاً لها وتكميلاً ، جاءت لنفس الأمـة والشعـب في خلال فتـرة اليهـودية والمسيحية ، وكانت هناك البوذية والكنفـوشيوسية والزرادشـتية ولهـا مجتمعاتهـا وأممها ونموها . ولكن هذه الأديان كلهـا قد خلـت من روحهـا ودخلـت إليهـا انحرافات وزيوف كثيرة ، وفقدت سلطانها وأثرها في البشرية ، وتحولت الى وثنية وتحلل ، اضطربت معه المجتمعات . اما الحضارات السائدة إذ ذاك ، حضارة

الفرس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب ، فقد شاخت كلتاهما بعد ذلك الصراع العنيف والمعارك الدامية ، والاضطراب البالغ الذي استأثر بمصادر النماء والقوة والحركة فيهما .

ومن هنا سقطت روما في القرن الخامس وبقيت بيزنطة تعاني شيخوخة وعجزاً . ولعل المؤرخ الكبير جيبون صاحب كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية هو اصدق من يرسم صورة بيزنطة في هذه الفترة : يقول : في أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية في ترديها وهبوطها آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها الا الجذع الذي لا يزداد كل يوم الا ذبولاً .

ويقول درابر : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة الى اقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى أسفل الدركات . بطر الرومان في معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً . وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر يحتف بها خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسناء ، ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً . وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دوّخوا العالم أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو « القوة » .

أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس يدعون أن دماً إلهياً يجري في عروقهم ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون وفوق البشر . وقد استحوذت على الناس في الامبراطورية الرومانية ـ حياة الترف والبذخ ، وكان لكسرى ابرويز **١٢** ألف امرأة وخمسين ألف جواد . وكانت عبادة فارس : النار والشمس . أما المجوسية فقد اضطربت واشتبكت فرقها في صراع متواصل . في نفس الوقت الذي بدأ فيه انحلال السلطة الفارسية . كما وقع الصراع بين الفرق

المسيحية حول طبيعة المسيح ، وبلغ الجدل قمته والخلاف غايته ، وأصيبت « البوذية » بالانحطاط وابتلعتها البرهمية فتحولت إلى « وثنية » تحمل معها الأصنام أينما سارت ، تبني الهياكل وتنصب التماثيل .

وانتقلت الأديان من بساطتها ويسرها إلى التعقيد والجدل ، وسيطرت عليها الفلسفات والوثنيات المفرقة ، وانقلبت المشاحنات المذهبية إلى فتن ومذابح ، ومع صراع الأديان كان صراع الامبراطوريتين الكبريين : « فارس وبيزنطة » وقد اشتبكتا في صراع مستمر دائم كل منهما تطمع في السيطرة على العالم وقيادته . وبالجملة فقد كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف حيث ساد الانحلال والفوضى وسوء النظام وعسف الحكام .

بلغت الوثنية أوجها ، سيطر نظام الطبقات الجائر ، وبلغ ظلم الحكام والأباطرة والأكاسرة غايته ، وانحط مركز المرأة ، وسيطر الربا على معاملات الاقتصاد ، وسيطرت الاباحة على حياة المجتمع ، وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها ، وغلب الخمر ، والانحراف الجنسي ، والطمع وشهوة المال ، وأصبح الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ، ووأد الناس الأولاد وقتلوهم .

وبدأ عالم متداع قد شارف النهاية . وكانت الأحداث كلها تتمثل في تطلع كبير الى رسالة جديدة ودعوة جديدة ترد البشرية إلى الحق ، إلى التوحيد ، إلى عقيدة سمحة بعيدة عن تعقيدات الفلسفة وظلام الوثنية ، وزاد هذا التطلع اصطراع الفرق في مختلف الأديان ، حتى فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات ، وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول .

***

هكذا وصلت البشرية في أكبر مظهر من مظاهرها : الحضارات والأديان إلى أبعد مهاوي الاضطراب والضعف ، مما ينذر بسقوط كثير من النظم والعقائد التي فشلت في هداية الانسانية إلى الحق ، وكان لا بد من دعوة يتمثل فيها الرشد الانساني من خلال مرحلة جديدة تتيح تقبل رسالة عالمية إنسانية شاملة بعد أن انطوت مرحلة الدعوات والرسالات والنبوات المحدودة والجزئية والاقليمية والزمنية ، رسالة جديدة تعيد صياغة الفكر الانساني والحضارة وفق مفهوم

التوحيد ، وتحمل في أعماقها طابع الشمول والتكامل . ومن هنا كان التقاء التاريخ بالاسلام التقاء حاسماً ومؤثراً وبعيد المدى .

وكانت بؤرة اللقاء هي : « الجزيرة العربية » بوصفها منطقة عذراء بعيدة عن تأثرات الحضارتين الفارسية والرومانية فضلا عن « أن العرب بوصفهم جماعة » لم يخضعوا كثيراً للأديان والحضارات السابقة ، ولا شك كان ظهور الاسلام في الجزيرة العربية كدعوة عالمية ، ورسالة إنسانية ، هو أول علامات الظفر والقوة التي حققتها هذه الدعوة ، إذ لم تكن منطقة ظهوره غارقة في تبعية فكرية للوثنية أو المسيحية أو اليهودية ، ولم تكن متحضرة قد عقدتها الحضارة وأصابتها بالانحلال ، ولم تكن تطويها عقيدة واضحة أو نزعة سالفة عميقة الأثر ، وكانت إلى ذلك فقيرة وغير مسرفة الثراء ، وبذلك كله أصبحت قادرة على أن تحمل لواء دعوة جديدة دون عناء من تبعات المعتقد أو الحضارة .

فإذا ألقينا نظرة على « الجزيرة العربية » وجدناها قبائل متصارعة ، ضعيفة ، تعيش على هامش الحياة ، تتطلع إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة ، والثراء البالغ ، والترف الواسع ، وهي من دون ذلك معزولة ضعيفة لا تقوى الا على التجارة في أطراف الجزيرة رحلة الشتاء والصيف ، غارقة في الوثنية ، مضطربة بين الربا والبغاء ، والتفكك والصراع القبلي ، وإن كانت قريش على قدر من الثقافة والبلاغة تقول الشعر ، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال ، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا في الوثنية ، وأحرار ضاقوا بظلم الطغاة والأثرياء يترقبون ساعة الخلاص .

* * *

كانت الجزيرة العربية « بؤرة الرسالة » تعيش بعيدة عن الأحداث وتحركات الدولتين المتصارعتين إلا ما تتأثر به أطرافها ، مبقية على وثنيتها ، لا تبلغ من صراع الأديان ما يدفعها إلى أن تتخلص من سلطانها ، فالكعبة في مكة قاعدة الوثنية ، ولكل قبيلة صنم تعبده ، اللات لثقيف ، ومناة للخزرج ، والعزى لكنانة ، وأساف ونائلة لأهل الصفا والمروة ، وسواع لبني هذيل ، ويغوث لبني مذجح ، ويعوق لهمدان ، ونسر لذي الكلاع ، ومن حول الكعبة ثلاثمائة صنم .

و « مكة » بعد مقر النفوذ الوثني الضخم يحج إليها الناس من كل مكان ، ثم هي مقر التجارة مع العالم كله ، شمالا إلى الشام ، وجنوباً إلى اليمن ، ومن هنا فهي متأثرة بأحداث الصراع السياسي والعقائدي ، يجري فيها الجدل حول المجوسية والمسيحية واليهودية ، ويصطرع الخلاف حول أفق الغد ، الذي تترقبه البشرية ، وقد ثبت فيها قبل البعثة رأي عام مثقف ، حمل لواء الخصومة للوثنية ودعا إلى شجب عبادة الأصنام ، قوامه ورقة بن نوفل أعلم أهل عصره ، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمر بن نفيل . ولكن قريشا كانت تصر على وثنيتها باعتبارها مصدر النفوذ والسلطان ، فهم سدنة البيت ، ولهم امتيازات قريبة من امتيازات الكهنة ، وفي حسبانهم أن الوثنية هي مظهر الزعامة والسيادة للجزيرة كلها . غير أن الأحداث لم تلبث أن هزت مجتمع مكة والجزيرة كلها ، حين زحف أبرهة من اليمن على مكة فحاصر الكعبة ، ثم انصرف عنها منهزماً ، وقد ترك آثاراً بعيدة المدى ، كانت إرهاصة العصر والجزيرة ، وعلامة على ما وقع بعدها بأربعين عاماً ، وفي نفس العام : **٥٧٠** م علم الفيل وُلِدَ « محمد بن عبد الله » الذي اختاره الحق لحمل لواء هذه الرسالة التي غيرت مجرى التاريخ .

برزت دعوة الاسلام في إبان الحاجة إليها ، حاجة الضرورة والتطور ، لتعيد إلى البشرية الثقة في الانسانية ، وتفتح من جديد آفاق الحرية والعدل والكرامة ، رسالة جديدة في صياغتها ، قديمة في مصادرها وجذورها ، من خلال قيادة محمد بن عبد الله ، ومنهج « القرآن » تستهدف دفع البشرية خطوات إلى الأملم في طريق الانسانية .

ومن خلال الصورة التي كانت تحياها البشرية في القرن السادس الميلادي التقى التاريخ في مسيرته بالاسلام ، ومنذ بزغ فجر الاسلام إلى اليوم وهو بالغ الأثر في حركة التاريخ وفي تطور الانسانية ، غير منفصل عن العالم في مسيره ومصيره . نعم ، منذ ظهر الاسلام إلى اليوم في خلال أربعة عشر قرناً ما زال مؤثراً في مجرى التاريخ لم يتوقف أثره في كل أحداث العالم والانسانية منذ ظهوره إلى اليوم . فالاسلام هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب

التي اتصلت به . ولقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية دلالة واضحة ، هي اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث « محمد » من أهلها ونزل القرآن بلغتها ، فكانت الجماعة الاسلامية الأولى التي صاغها الاسلام في الجزيرة العربية هي القوة الدافعة التي حملت هذه الرسالة وسارت بها الى الآفاق لتحقق بها حركة التاريخ نحو الحرية والاخاء والمساواة ، وبناء حضارة جديدة وفق مضمون انساني عالمي يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(٢)
« بناء الجماعة الاسلامية »

يمكن أن توصف المرحلة التاريخية التي تبدأ من بعث الرسول الى اختياره الرفيق الأعلى بمرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » ففي خلال ثلاث وعشرين عاماً أمكن بناء مجتمع جديد ، بدأ في مكة في قلب الجزيرة العربية ، وفي دار الأرقم بمكة ، ثم امتد في مرحلتين : مرحلة مكة (ثلاثة عشر عاماً) ومرحلة المدينة (عشرة أعوام) تتوسطهما « الهجرة » وهما مرحلتان متكاملتان لا انفصال بينهما ، تكمل الثانية الأولى ، وتعد امتداداً ونمواً ونتيجة لها . يمكن أن يطلق على الأولى مرحلة بناء الفرد المسلم ، والأخرى مرحلة بناء الجماعة الاسلامية ممثلة في الأمة العربية التي تقيم في الجزيرة العربية .

وكلتا المرحلتين تسيران في تدرج واضح من الدعوة السرية في مكة إلى إنذار العشيرة الأقربين ، ثم إعلان الدعوة واحتمال الأذى ، والتعذيب ، والهجرة إلى الحبشة ، والمقاطعة في الشعاب ، ثم بدأت دعوة الرسل للوافدين في موسم الحج ، وظهور عصبة مؤمنة في يثرب استطاعت أن تبرز بعد ثلاثة مواسم في قوة ، تبايع الرسول بالحماية والنصرة له ، وللدعوة إذا هاجر إليهم ، ثم تكون الهجرة تأميناً للدعوة . وفي يثرب « المدينة » يبدأ الرسول في إتمام رسالته في ثلاثة جوانب : (١) - بناء المجتمع الجديد . (٢) - تأمين الدعوة بالسرايا والغزوات . (٣) تشكيل (ايديولوجية الاسلام) فكراً وشريعة وديناً ومجتمعاً .

وفي مكة تبدو الأحداث خلال ثلاثة عشر عاماً كشريط متتابع دقيق لمحاولة رائدة في غزو فكرة جديدة مليئة بالايجابية والسمو والتقدمية لمجتمع راكد مغلق ، فيه - شأن كل هذه المجتمعات - عنف المقاومة للجديد ، وصلابة العداء لكل ما يغيره عن اوضاعه ، بيد أن هذه الخصومة وهذه المقاومة إنما تتمثل في الطبقة التي تسود المجتمع وتحكمه وتسيطر عليه ، والتي تجد في الدعوة الجديدة انهياراً لسلطانها وزوالا لنفوذها وثرائها . أما الطبقات الفقيرة المغلوبة المغبونة . فقد وجدت في الدعوة الجديدة : ضياء ونوراً ، فسارع هؤلاء الفقراء والأذلاء الى جناح الرجل الذي حمل لواء كلمة التوحيد ، وانضموا إليه ، ولم يكن هذا الرجل قادراً - إذذاك - على أن يحمي نفسه فضلا عن أن يحمي أعوانه المنضوين تحت لواء الاسلام . ومن هنا بدأت عملية تعذيب واضطهاد طويلة امتدت خلال هذه الفترة أو أغلبها في أكثر من صورة ، في صورة تعذيب الموالي حتى كان يعتقهم الموسرون من المسلمين ، وفي تحالف قريش على مقاطعة بني هاشم ، فأقاموا ثلاث سنين محصورين في شعاب مكة لا يبتاعون ولا يباع لهم ، ولا يعاملون معاملة اقتصاد أو اجتماع .

وفي دار الأرقم وفي الشعاب كان الرسول يعلم أصحابه الصبر ويعدهم للدعوة ويمكن في أعماق نفوسهم لايمان عميق يستطيع أن يندفع بعد قليل في الأرض وفي مرتين أتاح الرسول لأصحابه التحرر من هذا المجتمع الظالم ، كانت الأولى بالهجرة إلى الحبشة حيث هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة . والمرة الثانية بالهجرة إلى يثرب ، وكانت هجرة شاملة بعد أن تحقق بها قيام جماعة إسلامية صغيرة حملت لواء الحماية والاستعداد لاستقبال المسلمين .

وكان اسلام حمزة وخالد من أهم نقط الارتكاز في بناء هذه الجماعة ، وكانت اصابة الرسول بوفاة زوجته خديجة وعمه ابي طالب في عام واحد من الوقائع البعيدة الأثر في مسار الدعوة . غير أن الأعوام الثلاثة عشر في مجموعها قد استطاعت أن تنقل الدعوة من مرحلة السرية إلى دعوة العشيرة إلى إعلان الدعوة الشاملة وأن تحملها من مرحلة الى مرحلة تنمو ويزداد أنصارها . وكانت قريش تنظر الى الدعوة اول الامر ساخرة ، فلما بدأ عُودُها يورق ، وجذرها يثبت تآمرت للقضاء عليها ، واشتد الأذى على من في مكة من المسلمين وكان الرسول - وهو

صاحب دعوة عالمية إنسانية ـ قد أخذ يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة لزيارة في موسم الحج . ومن هنا بدأ ضياء خافت من قِبَلِ يثرب . ثم توسع خلال عامين بزيادة « الأنصار » الذين دعوا النبي من تلقاء أنفسهم ، دعوة أكيدة ملحة إلى الهجرة إليهم وعقدوا معه بيعة تعاهدوا فيها بنصرته وحماية اتباع الاسلام بما يحمون به أهلهم وعشيرتهم ، هنالك أذن النبي لأصحابه في الهجرة ، فتجهزوا في خفاء وستر ، وتسللوا ، وكان بين أولهم وآخرهم أكثر من علم ، مضوا خلاله يترافدون بالمال والظهر ، ويترافقون . هنالك اشتد الخطر على قريش حين أفلت هؤلاء . فأزمعوا قتل حامل اللواء وصاحب الدعوة ، وتآمروا للقضاء عليه في مؤامرة جماعية يضيع بها دمه بين القبائل ، واستطاع الرسول في يقظة القائد وعمق البصيرة ان يفلت من المؤامرة ، وأن يشق طريقه الى يثرب حتى بلغها ، حيث أقام الجماعة الاسلامية ، ولم يكن هذا آخر العهد بقريش ، ولكنه كان في الحق أول العهد بمقاومة خصومتها وعدوانها وتآمرها المركز لتقويض دعائم الجماعة الجديدة بالتآمر مع القبائل المجاورة في الجزيرة خارج يثرب ، وبالتآمر مع اليهود داخل يثرب ذاتها .

كان بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » هو مقر الدعوة الاسلامية الأول ، حيث اجتمع النبي بمن آمنوا به من شباب خلال ست سنوات وهي فترة الدعوة السرية حتى أسلم عمر بن الخطاب . وقد أتاحت هذه الفترة فرصة تكوين هذه الجماعة التي لم تلبث ان انداحت في الارض بعد أقل من خمسة عشر عاماً حاملة لواء الاسلام الى كل مكان .

فكانت دار الأرقم بذلك المدرسة الاسلامية الأولى التي جمعت القادة والعلماء وبناة الدول من بعد ، وقد علمهم النبي في هذه الفترة : دروس الصبر والايمان والثبات والايثار ، فقد بناهم بالقرآن أمةوسطا فأقاموا مجتمعاً صغيراً بعد ان انفصلوا من أهليهم ، ولم يكن لأغلبهم مورد أو مال ، فكان الرسول يضم الغني إلى الفقير ، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن . ومن ثم شهد نظام « المؤاخاة » أول صورة له في هذا المجتمع ، ثم تحول إلى نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة ، فقد خلط الجميع بين طعامهم وشرابهم

وملابسهم وأدواتهم ، فلما جهر النبي بالدعوة بعد أن انضم إليها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، خرجوا إلى الكعبة فصلوا بها وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة .

هذه المجموعة الشابة المؤمنة التي انضوت تحت لواء الاسلام حين دعاها « محمد رسول الله » تمثل أبرزصحابة النبي الذين اشتركوا من بعد في الهجرة والغزوات والفتوح . وقد برز في هذا الرعيل : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، طلحة بن عبيد الله ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبد الله بن مسعود ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن مظعون ، مسعود بن ربيعة ، جعفر بن أبي طالب ، صهيب الرومي ، قدامة بن مظعون ، زيد بن حارثة ، عثمان بن عفان ، عامر بن أبي وقاص ، السائب بن مظعون ، طليب بن عمير ، خباب بن الأرت ، عامر بن فهيرة ، مصعب بن عمير ، المقداد بن الأسود ، عبد الله بن جحش ، عمر ابن الخطاب ، أبو عبيدة بن الجراح ، عتبة بن عزوان ، أبو حذيفة بن عتبة ، بلال بن رباح ، عمر بن سعيد ، خالد بن سعيد ، عباس بن أبي ربيعة ، عامر بن ربيعة ، نعيم بن عبد الله ، عثمان بن مظعون ، ابو مسلمة بن عبد الأسد ، عبد الرحمن بن عوف ، عمار بن ياسر ، أبو بكر الصديق ، حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، ابو ذر .

كما أسلمت منذ بدء الاسلام :خديجة بنتُ خويلد، أم أيمن ، أسماء بنت أبي بكر ، فاطمة بنت الخطاب ، أسماء بنت عميس ، أم سلمة بنت حذيفة ، أسماء بنت سلامة ، أمينة بنت خلف، فاطمة بنت سوان ، ليلى بنت أبي حثمة ، وقد جمع الاسلام في مجتمعه الاول : بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ،وسلمان الفارسي ، فتمثل بذلك رمز الطابع الانساني في دعوة الاسلام ، وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية الى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب ، وقد كان هذا الجيل مقدمة لجيل ثان تكون من خلال سنوات اعلان الدعوة والهجرة ، وما بعد الهجرة . وقد أبى هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل ، وظل ينظر إليه نظرة الاعجاب بالسبق ، وكانت المشاركة في « بدر » رمزاً للمدرسة الأولى لبذل النفس والاستشهاد . فأعطي أهل بدر درجة مميزة في تاريخ الاسلام .

ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعائشة .

الجماعة الاسلامية في مكة

(**١**) نزول الوحي بالقرآن . . ٦١٠م
(**٢**) الجهر بالدعوة . . **٦١٣**م .
(**٣**) هجرة الحبشة . . **٦١٥**م
(**٤**) اسلام عمر . .
(**٥**) صحيفة المقاطعة . .٦١٦م .
(**٦**) نقض الصحيفة . . **٦١٨**م
(**٧**) وفاة ابي طالب وخديجة . . **٦١٩**م
(**٨**) الاسراء . . .
(**٩**) بيعة العقبة الأولى . . **٦٢٠**م
(**١٠**) الهجرة . . **٦٢٢**م .

***

مرت الدعوة الاسلامية في مكة خلال (**١٣** عاماً) بعشرة مواقف حاسمة :

(**١**) ـ عند ما هبط الوحي على محمد في غار حراء في سنّ الأربعين بالقرآن (**٦١٠**م) .

كان ذلك نقطة البدء في مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الانسانية من ازهر هذه المراحل وألصقها أثراً ببناء الحضارة الانسانية ، واعطاء البشرية عالمية انسانية قوامها : التوحيد والمساواة . وكان محمد بن عبد الله « النبي » الذي حمل هذه الرسالة ، إنساناً ممتازاً ، قد هيأته عوامل كثيرة لكي يكون أقدر الناس على حمل هذه الأمانة ، أبرز هذه العوامل أنه لم يكن منتمياً إلى دين سابق أو إلى عبادة الأوثان ، وكان في تقدير الجماعة التي اختير لتبليغ الاسلام إليها غاية في الأمانة والشرف ، ملتمساً ذلك من مكانة أسرته وقبيلته ، ومن سلوكه الشخصي والاجتماعي ، وكان إلى ذلك تاجراً عرف الرحلة ، ومعاملة الناس ، واتسعت

آفاق فكره وحياته . وقد مرت الدعوة في ثلاث مراحل خلال ثلاث سنوات : (الدعوة السرية ، اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، ثم الجهر بالدعوة للناس جميعاً) وقد واجه هذه المراحل بإصرار وثبات ، وصادف من البيئة جموداً ومعارضة تمثلت في ردود فعل مختلفة ، أقلها تعذيب أتباعه ، ثم مقاطعتهم ، ثم محاولة قتله بوصفه صاحب اللواء ، فإذا سقط انتهت دعوته .

(٢) - الجهر بالدعوة (٦١٣م) .

وكان جهر محمد بالدعوة إعلاناً واضحاً بالمعارضة لكل مفاهيم قريش وقضاء على السيادة القبلية وهي أبرز مفاهيم العالم في ذلك الوقت ، كانت دعوته تحمل بذور أمرين خطيرين يمثلان المقاومة والشجب للمفاهيم التقليدية التي يفرضها سلطان الرؤساء ونفوذ الطبقات الحاكمة . (١) عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان ، وفي هذا مقاومة للوثنية وللدعوات المنحرفة باسم بعض الأديان ، وقضاء على نفوذ سدنة الكعبة (٢) المساواة بين الناس جميعاً ، لا أبيض ولا أسود ، ولا غني ولا فقير ، وفي هذا هدم لنظام الطبقات التي تفرض للسادة نفوذاً وسلطاناً ، وتجعل ممن دونهم عبيداً وخدماً لا حقّ لهم في شيء ما .

وقد تابع النبي على دعوته : العبيد والضعفاء لأنهم وجدوا في صيحته وسيلة الى تحررهم . وقد واجه الرسول والذين اتبعوه من المستضعفين والفقراء حملة متصلة من الاضطهاد لم تزدهم الا صلابة وثباتاً على ما آمنوا به ، واحتمل العبيد الأذى في سبيل ماوهبهم الاسلام من حرية ، وقاوموا إلى أبعد حد ، واستطاع المسلمون بعد قليل ان يجتمعوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم بحسبانها أول جامعة لتكوين الفرد المسلم وبنائه عقلياً وروحياً ، وعذب بلال وخباب بن الأرت ، ومات ياسر وهو يعذب وطعنت زوجته ، وتعرض لايذاء قريش أبو بكر وعثمان والزبير وأبو عبيدة . ولم يكن أمام المسلمين الا الصبر والانتظار حتى يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم . فلما ازداد الأذى بالمسلمين أذن الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة .

(٣) - هجرة الحبشة (السنة الخامسة بعد البعثة) ٦١٥م

فكانت هجرة الحبشة علامة على مفهوم الدعوة الاسلامية في الحركة ، وفي

رفض الجمود على موقف الذل ، وترك البيئة التي لا تحقق الامن لأفرادها ، ولا النمو للدعوة . وكانت تجربة لها أهميتها في مسير الدعوة ، فقد كشفت عن جوهر الاسلام في آفاق جديدة ، وفتحت الطريق لهجرة أكبر من بعد قد ضمت الهجرة إلى الحبشة عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبي طالب . وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين (ابن هشام وابن القيم في زاد المعاد) وحاولت قريش ان تسترد المسلمين . فكان ذلك مجالا لحوار واسع مع النجاشي حول مفاهيم الاسلام ، كشف عن جوانب جديدة للصورة أكدت نبوة النبي وصدق ما جاء به .

(٤) ـ اسلام عمر

وكان إسلام عمر رأس مرحلة جديدة . فقد أتاح للمسلمين الخروج من « الاختباء » في دار الأرقم إلى « جهارة » الدعوة والصلاة في الكعبة . وكان عمر بعد حمزة علامة على التطور الطبيعي للدعوة التي استطاعت أن تكسب من محيط جديد غير محيط الضعفاء ، وأن توسع نطاقها وآفاقها ، وحاولت قريش الضغط على الرسول وإغراءه بالعروض ، وفي هذه المناسبة قال كلمة الحرية الخالدة « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ولما لم يجد الاغراء بالمناصب والمال والجاه بدأت حملة الهجوم والايذاء والتهديد .

(٥) ـ صحيفة المقاطعة ـ ٦١٦ م

هنالك كان لا بد أن تضغط قريش بقوة فتفرض المقاطعه على المسلمين ، هنالك تحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم فأقاموا ثلاث سنوات محصورين في الشعاب لا يبيعون ولا يتبايعون ، فقد وقعت بذلك قريش « وثيقة » التزمت بها مكة ، وكانت تلك قمة الاضطهاد كجزء من خطة الضغط السياسي من جانب قريش ، وكانت مقاومة المسلمين حلقة من تجربة التكوين النفسي او الروحي والاجتماعي الذي اعده الاسلام للمؤمنين به ، وهي المرحلة التالية للاضطهاد الفردي ، تتمثل في الاضطهاد الجماعي . غير ان صمود المسلمين ـ والرسول على رأسهم قدوة ومعلما ـ كشف عن فشل هذه المحاولة ، وجمع للمسلمين قلوبا جديدة ، وفتح الباب مرة أخرى أمام المسلمين لمرحلة جديدة .

(٦) ـ نقض الصحيفة ٦١٨ م

وكان حدث نقض الصحيفة انفتاحاً للطريق أمام الدعوة الاسلامية إلى نصر جديد ، ثم بلغت ذروة المساءة والاضطهاد عام ٦٢٠ م .

(٧) ـ وفاة عمه ابي طالب وزوجته خديجة

وكلاهما كان سنداً قوياً لمحمد ، أضف إلى ذلك ما لقي من أهل الطائف ، إذ دعاهم إلى الاسلام فردوه رداً غير جميل . هنالك فتح لمحمد الطريق إلى نهج جديد عريض هو عرض دعوته على القبائل في موسم الحج ، ولم يكن هذا الطريق يسيراً ولا سهلا . فقد سار وراء عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب ـ أينما سار يرد الناس عنه . ويكذبه ويحرض الناس عليه أينما ذهب ، وكان لذلك رد فعل عكسي هو : اتجاه الناس إليه ومحاولة استكشاف كلمته . وصمد محمد لهذا النهج ، وزاد عليه أن زار بعض قبائل العرب فأتى « كندة » في منازلها وكلبا وبني حنيفة وبني عامر بن صعصعة وردوه جميعاً رداً غير جميل .

(٨) ـ الاسراء

وكان حادث الاسراء بالرسول امتحاناً جديداً لأصحابه وخصومه على السواء ، وكانت هذا المحن والاحداث كلها غربلة لا بدّ للتابعين للاسلام والموالين لمحمد حتى تستصفي جماعته على تلك النماذج التي عرفت من بعد بالبطولة والنبل والتصميم .

(٩) ـ بيعة العقد الأولى (أول وفد من يثرب) ٦٢٠ م

وكان ثبات محمد على دعوته رغم كل ما لقيه ، هو مصدر النصر ، ذلك النصر الذي تمثل في إيمان جماعات من أهل يثرب بدعوة الاسلام ونصرة رسوله في مراحل ثلاث . فقد قدم في السنة الحادية عشرة للبعثة نفر من الخزرج يريدون الحج فاستقبلهم النبي ودعاهم إلى الله فآمنوا وعادوا ، فإذا ذلك بين قومهم ، وتنافس الأوس والخزرج في الاستباق الى الاسلام ، وفي السنة التالية تمت بيعة العقبة الأولى وكانت اثني عشر رجلا ومعهم امرأة « عفراء بنت عبيد » قدموا الى رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وعاهدوه : « لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا

نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في مكروه » .

(١٠) - الهجرة - ٦٢٢ م

وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الصلاة ، وقد هز مصعب يثرب وجمع إليه رؤساءها فاستمع الناس إليه وانضووا تحت لواء الدعوة الجديدة . وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة تمت البيعة الثانية وكانت في ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين قدموا من يثرب ودعوا رسول الله الى الهجرة ، وبايعوه زعيماً ونبياً وعاهدوه انهم ينصرونه ويحمونه ويحاربون لأجله الأبيض والأحمر من الناس ، قال العباس لوفد بيعة العقبة الكبرى : إن محمداً منّا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فاذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما عملتم في ذلك ، وإن كنتم أنتم مسلموه وخاذلوه ، فمن الآن فدعوه . قال الوفد : « تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت من العهود والمواثيق » . قال الرسول : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم » فبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال في كل حال .

(٣)
الجماعة الاسلامية في المدينة - « الهجرة »

(١) بناء المسجد
(٢) نظام الاخاء
(٣) العقد السياسي
(٤) فرص الجهاد
(٥) بناء المجتمع الاسلامي
(٦) الغزوات : بدر - احد - الخندق
(٧) دعوة الملوك الى الاسلام
(٨) فتح مكة
(٩) تبوك وتأمين شمال الجزيرة
(١٠) الوفود ومبايعة الجزيرة بعامة .

***

لم تكن « الهجرة » الا مرحلة طبيعية من مراحل تطور الدعوة في سبيلها الى غايتها ، كانت مرحلة مكة في أعوامها الثلاثة عشر تمهيداً طبيعياً للكلمة ، وإعداداً لمعتنقيها ، وهزاً لمجتمع مكة حتى يلتقي بالاسلام بعد الهجرة بسنوات وحتى يكون ذلك مقدمة لوحدة الجزيرة العربية كلها خلال الاعوام الثلاثة

والعشرين . فتصبح « الجماعة الاسلامية الأولى » هذه التي كونها الرسول ، هي قائدة التوسع الاسلامي الى الآفاق ، وحاملة لواء الحضارة والفكر الى الفرس والترك والبربر .

وقد كانت الهجرة تطبيقاً حقيقياً لمفهوم الاسلام ، وهو : الحركة ، وتغيير الوطن اذا استعصى على الفكرة انطلاقهاإلى غايتها أو أصاب صاحبها الاضطهاد. لقد كان لقاء الرسول للوافدين الى مكة في مواسم الحج من مختلف الأقطار ، وعرض الاسلام عليهم هو منطق الاسلام إلى الانسانية كلها ، وهو اتجاه الرسول بالاسلام الى وطن جديد أكثر تقبلا لفكرته ، حتى إذا وجد تجاوباً وقبولا من أهل يثرب ، سارع فدعا أتباعه الى الهجرة إليها ، تخليصاً لهؤلاء المؤمنين الضعفاء الفقراء من اضطهاد أهل مكة ، فلما قامت الجماعة الاسلامية في المدينة ، كانت نموذجاً للمجتمع الاسلامي الأمثل ، من حيث بناء الكيان الداخلي على مستوى الترابط الكافي بالمسجد والترابط الفكري بالقرآن والاجتماعي بالاخاء . ثم التعاقد مع أهل الوطن بوثيقة مكتوبة تقوم على أساس المشاركة في العمل الاجتماعي والوطني ، وبقي بعد هذا - لاستكمال اطار الجماعة - حماية هذا المجتمع من الغزو الخارجي ، وكانت قريش التي حاربت الدعوة وحالت بينها وبين أن تقوم في مجتمع مكة ، ثم حاولت القضاء على صاحب الدعوة بعد إذنه لأصحابه بالهجرة ، قد توعدت هذه الدعوة بالقضاء عليها في مجتمعها الجديد . فكان لا بد للجماعة الاسلامية أن تدافع عن نفسها ، وأن تديل من خصومها ومن ثروتها لقاء ما صادرت من ثرواتهم .

وقد تمت بيعة أهل يثرب للمسلمين على مراحل ثلاث في سنوات ثلاث . وتمت البيعة الكبرى حين تقدم اليثربيون للرسول داعين إياه وقومه الى ارتضاء بيئتهم مكاناً لدعوته . وقد اشترك فيها النساء مع الرجال ، وكان تعهدهم فيها واضحاً أنهم يحمون النبي والمسلمين مما يحمون منه أهلهم وأبناءهم ، وكانت دعوة الاسلام خلال ذلك قد انتشرت في المدينة واتسع نطاقها . ومن هنا قامت الجماعة الاسلامية على دعائم وطيدة . وقد جرى نماء الجماعة الاسلامية في المدينة من نقطة الهجرة منطلقاً حتى تمت بوحدة الجزيرة العربية كلها للاسلام واذعانها بالولاء له . كقوة موحدة ضاربة ، استكملت عوامل القوة النفسية القادرة على العمل من أجل اذاعة الاسلام ، تحمل إيماناً لا حد له بصدق الدعوة ، وتحمل

بيعة كاملة تقدم أرواحها مستشهدة في سبيل النصر والتوسع .

ولا شك كانت مرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » امتداداً طبيعياً وتطوراً متصلا لحياة الدعوة الاسلامية التي بدأت من خلال مجتمع مكة المضطرب الذي اهتزت قواعده حين انفصل عنه هؤلاء الذين والوا الدعوة الجديدة .

وقد استمر نمو هذه الفئة القليلة المستضعفة في مجال الاضطهاد ، وبين عوامل الانتصار حتى تمت الهجرة التي كانت تعبيراً صلباً جهيراً على قدرة الدعوة على الحركة لاستنقاذ نفسها من الاضطهاد والفناء ، وإتاحة الفرصة للمستضعفين في جو مؤمن قادر على حمايتهم ، وكنقطة بدء لبناء مجتمع جديد في أرض أشد خصوبة وأوفر قدرة على استقبال الدعوة ونموها في يثرب .

بناء المسجد

وكان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه أداة صهر المؤمنين بالاسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء ، وإقامة المناسبات المختلفة ، فالمسجد هو مكان الندوة العامة ، ومجال المشاورة ، ومقر عقد الألوية للجيوش ، وارسال البعوث ، فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الاسلام نفسه ، متكاملا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع .

نظام الاخاء

ثم قام في الوقت نفسه تنظيم الحياة الاجتماعية الاقتصادية للمسلمين الذين يتمثلون في المهاجرين القادمين من مكة والأنصار (الأوس والخزرج) وقد تم على مرحلتين : « المرحلة الأولى » هي دعم الوحدة بين الأنصار وإصلاح ما بينهم ، والقضاء على خلافاتهم ، وإذابة العوامل القديمة والتقليدية في بوتقة الوحدة ممثلة في كلمة « الأنصار » ثم إجراء عملية صهر كبرى بين هذه الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبلة للمهاجرين على أرضها ، وبين (المهاجرين) . وقد أقام النبي نظام الاخاء أو المؤاخاة حين عمد رابطة أخوة قوامها رجلان أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار . وقد بدأت هذه الرابطة على

نحو إيجابي يتمثل في تحقيق المعيشة والعمل لهما معاً ، وكان المهاجرون الـذين تركوا أموالهم في مكة لا يملكون شيئاً . فاقتسم الأنصار أموالهم معهم على نحو أو آخـر ، وكان تصرف الأنصـار في هذا الموقف مثـلا عالياً من المروءة والـكرم والايثار ، فلم يلبث المهاجرون أن شاركوا في التجارة وعملوا في مزارع الأنصار على نظام المؤاجرة أو الزراعة ، ولم تلبث أن انتظمت حياتهم الاقتصادية ، كما انتظمت حياتهم الاجتماعية بإقامة أسر جديدة ، والاصهار إلى الأنصار ، وقـد حققت هذه الخطوة « انصهار الجماعة الاسلامية » في وحدة شاملة على أسـاس رباط العقيدة بعد أن كانت الروابط تقوم على أساس المفهوم القبلي .

مجتمـع المدينـة : المهاجـرون - والانصار - واليهود

(٣) النقد السياسي

ثم لم يلبث الرسول أن عقد مع مختلف الأطراف في المدينة عقداً هو أشبـه بدستور دولة . وقد دخل في هذه « الصحيفة » - كما أطلق عليهـا المؤرخـون - مختلف القبائل والبطون والعشائر ، حيث أقر الدستور لكل من الأطراف الثلاثة شخصيتهم ودورهم في بناء وممارسة الحياة في المجتمع الجديد ، وقد أبـرز هذا العقد « أمة الاسلام » لأول مرة أمة واحدة ، يجمعها رباط التعاون والتضامن والتكافل ، كما رسم الروابط بين المسلمين وبين اليهود في نظام الجماعة اليثربية ككل ، وكان في مجموعه صورة تطبيقية لمفهـوم الاسـلام في إقـرار نظـام سياسي واجتماعي يشترك فيه المسلمون وغيرهم على سنة المساواة والتعاون ومراعاة حقوق الجوار .

ويعد هذا العقد أول نظام مكتـوب قامـت على أساسـه دولـة منـذ أول تكوينها ، كما يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع والسياسة ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة ، وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الانصار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، ثم ترابطت هذه الجماعـة المسلمـة مع اليهـود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة إلى أمد ، ولأول مرة يحكم القانون حيث ترد الأمور إلى الدولة ويرجع بالرأي الأخير إلى رئيسها . وبـذلك بدأ قيام مجتمـع

جديد على مفاهيم جديدة ، بعيداً عن القيم القبلية ، ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع يطوي صفحة اجتماعية طابعها القبلية ويفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية ، وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية ، تنمو خلالها العلاقات الانسانية وترتفع فوق مفاهيم الثأر والعصبية والفردية والقبلية .

(٤) فرض الجهاد ، وبناء الجيش القوي

وكان من أهم ما شغل الرسول في مرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » هو تأمين أمرين هامين (١) أمر الجماعة وأمر الدعوة الاسلامية وفتح الطريق الآمن لتوسعها ولاعطاء الراغبين في اعتناقها الاحساس بالأمن والحماية (٢) وخلق جو الهيبة التي ترهب خصومها فيحجمون عن الانتماء بها أو الانقضاض عليها . وقد فرض « الجهاد » لتأمين الدعوة الاسلامية ، وحماية حدود المجتمع الجديد ، ومواجهة من يقف في سبيله أو سبيلها ، وأعطى انطلاقة كبرى ، هي أن على معتنقي الاسلام والمؤمنين به رسالة متجددة على الزمن ، هي أن يجاهدوا في سبيل كلمة الله وإذاعتها في الآفاق ، وكان هذا العمل مقدمة للخطوة التالية مباشرة وهي : توحيد الأمة العربية في كيان نفسي وفكري واجتماعي . غير أن « الجهاد » لم يفرض إلا بعد مرحلة طويلة من الاعداد النفسي والاجتماعي له بوصفه دفاعاً عن النفس ، وتأميناً للدعوة الاسلامية ، وأنه ليس هدفاً مسبقاً للدعوة ، بل هو آخر المراحل حين يقف خصوم الاسلام في وجهه يحولون دون انتشاره ، أو حين يحاولون الانقضاض على بنائه وجماعته .

وقد أمضى المسلمون مرحلة « الاعداد والدعوة » في مكة في احتمال عجيب للأذى دون أن يسمح لهم الرد بالمثل ، ثم كانت الهجرة محاولة جريئة لتحرير الدعوة من عوامل القضاء عليها ، واستنقاذها بالحركة وبناء الجماعة في مكان أكثر قبولاً لها وأكثر أمناً واستعداداً لدور جديد من أدوارها في سبيل وحدة « أمة العرب » : وحدة اجتماعية وجغرافية تمثل القوة الأولى التي ستتحرك الى آفاق الأرض تحمل أمانة الدعوة ، غير أن انتقال الدعوة إلى يثرب لم يوقف خصومة قريش لها ، بل زادها رغبة في تقويض دعائمها ، هنالك كان لا بد من الدفاع عن النفس ، وتأمين الدعوة الاسلامية ، فأذن للذين يقاتلهم خصومهم ظلماً أن

يواجهوا الموقف على مستواه في تقدير دقيق . وهو ليس إذناً مفتوحاً بغير قيود : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » .

ومن هنا كان نظام « السرايا » الذي هو أشبه بدوريات « أمن وحماية » لمجتمع المدينة وحدودها الخارجية فضلاً عن تدريب المسلمين وإعدادهم على المقاومة المسلحة ، وذلك بعد أن تم إعدادهم فكرياً وتربوياً ، وبناء شخصيتهم الاجتماعية الصلبة في مجتمع مكة . وقد جرى ذلك مع تقدير محسوب للدور الذي سيلقى على هذه الطلائع بعد تمام الدعوة للاندفاع في آفاق الأرض من أجل إذاعة الدعوة وتحطيم العوائق التي تقف أمام نشرها . وقد كانت فريضة الجهاد موجهة أساساً للدفاع لا للهجوم ، وفي مفهوم الاسلام كله لم يكن هدف الاسلام الهجوم ، ولا هو من أساليبه وغاياته . فالاسلام أساساً : « عقيدة فكر » لا يتحقق قبولها إلا بالانقطاع العقلي والتقبل النفسي ، وقد حرص الاسلام على أن يترك أصحاب العقائد في حرية مع عقائدهم ، بل ومع حمايتهم ، وكل وثائق الرؤساء في الحرب والحكم والقادة تحمل في تضاعيفها تأكيد هذا المفهوم في وضوح تام .

وكان الرسول شديد الايمان بأن الاسلام بوصفه توحيد الله وعدالة اجتماعية سيجد من قلوب الطبقات المختلفة تقبلاً وإيماناً ، وأن المقاومة لن تصدر إلا من الآخذين بيدهم زمام السلطة والنفوذ والمستغلين والطغاة ، هؤلاء الذين يخشون من ضوء الاسلام على مراكزهم وثرواتهم ، والذين يتشبثون بالقيم القديمة البالية للابقاء على نفوذهم . أما القوى الشعبية الغالبة التي تعيش حياة الظلم والفقر والاستعباد فإنها سوف تنضوي تحت لواء الاسلام بوصفه رسالة التوحيد والعدل الاجتماعي ، وأنها ستنقض ولاءها لحكامها الظالمين المستبدين . ومن هنا فليس الاسلام في حاجة إلى قتال لنشر كلمته ، ولكنه في حاجة إلى أن يجد الوسيلة لابلاغ هذه الكلمة إلى الناس وحملها إليهم أيّاً كانوا . ومن هنا كانت فريضة الجهاد لا تعني غير الدفاع عن النفس ، وإزالة العوائق من طريق انتشار الاسلام مع قدر كبير من التسامح والعدل والمساواة .

ويبدو مضمون هذا التفسير واضحاً في آية القرآن نفسه التي فرضت الجهاد « أذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا

من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد فرض الجهاد في السنة الثانية من الهجرة بعد أن أتيحت الفرصة للجماعة الاسلامية أن ترسي قواعد مجتمعها ، وتعلن نظامها وفق مفهوم الاسلام ، وقد كان يعني أمرين أساسيين : (١) حماية مجتمع الاسلام بوصفه دولة لها حدودها ، ولها هيبتها ضد أي اعتداء خارجي (٢) فتح الطريق أمام كلمة الاسلام لتشق طريقها إلى العالم كله بوصفه رسالة عالمية وإنسانية شاملة .

ولم تبدأ خطة الدفاع عن الدعوة ومجتمعها إلا بعد أن حدد « القرآن » خطة الجهاد : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » والاذن هنا مشروط بالدفاع وعدم الاعتداء ، وقد بدأت قريش عدوانها حين تخطت بقوافلها حدود الدولة الاسلامية في محاولة للاستهانة بها . والانقضاض عليها ، فكان لا بد للمسلمين أن يخرجوا لمواجهة الأمر . إما بالاستيلاء على القافلة نفسها بوصفها جزءاً من أموالهم التي صادرتها قريش عند هجرتهم إلى يثرب أو مواجهة الموقف مواجهة دفاع .

(٥) بناء المجتمع الاسلامي

منذ استقر المسلمون في يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامي وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والأنصار وفيما بينهم وبين اليهود المقيمين في المدينة ، وبدأت إجراءات الأمن في حماية يثرب من غارات خصوم المسلمين - وفي مقدمتهم قريش - عليها . وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادي ، والتنظيم الاجتماعي . وقد تم إعداد تنظيم اقتصادي قوامه العمل والكسب والملكية الفردية ، وشرعت الزكاة تقريباً بين الطبقات ، وضماناً لحق الفقير والشيخ والعاجز والمريض ، وألغي الربا ، فقد أحل الاسلام البيع وحرم الربا . وكانت الزكاة إحدى أركان الاسلام الخمس : تعطي الفقير الحق في مال الغني ، فهي ليست صدقة أو منحة ، ولكنها حق أكيد قائم تقوم الدولة عليه وتنفقه في وجوهه ، ويتمثل في مقدار معين يدفع في وقت محدد ، ويرتبط بمحاصيل الزرع والثمار والذهب وعروض من التجارة .

وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل ، ونزل التشريع على دفعات ، وامتد على سنوات ، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمور البيع والاجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث . وكان تدرج التشريع في إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطي صورة الانتقال على مراحل ، حتى لا يصاب المجتمع باضطراب او نكسة من جراء الانتقال الفوري ، أو الطفرة ، كما نظم الاسلام المجتمع أمور المرأة وحقوقها وعلاقاتها بالرجل وأمور الزواج والطلاق . بما يحقق حماية الأسرة ودعمها ، وصلات الزوجين والأبناء على نحو غاية في الكمال والدقة ، بما يحقق سلامة الأسرة والمجتمع . وبما يضمن نمو المجتمع الاسلامي على دعائم ثابتة . وكان قضاء الاسلام على : الزنا ووأد البنات وتقييده تعدد الزوجات نقلة واسعة عن مجتمع ما قبل الاسلام ، وقد تحقق للمرأة المسلمة بهذا النظام حقوقها الكاملة في حرية البيع والتصرف في المال والاجارة والميراث ، وضمن لها حقها في الزواج والطلاق والحضانة على نحو لم يكن معروفاً لا في الجزيرة العربية وحدها ، ولا في العالم كله في هذه الفترة . وكان ذلك دفعاً لها لتكون عضواً حيّاً عاملاً في المجتمع الاسلامي مما أهلها لأن تخطو خطوات واسعة في مجال العلم والحرب وبناء الأسرة ، وأن تبرز شخصيتها في تاريخ الاسلام وتلمع ، وكان الرسول حريصاً على أن يثقف النساء كما تعهد الرجال وان يوجههن ويفتح لهن الطريق ، وكانت زوجات الرسول المثل المتقدم في هذا المجال . وقد استطاعت عائشة وحفصة أن تكونا من رواة أحاديث الرسول ، وتحقق من بعد للكثيرات المشاركة في ذلك .

(٦) - المرأة في الجماعة الاسلامية

أولاً :

كان للمرأة المسلمة دورها الواضح في الجماعة الاسلامية ، هذا الدور الذي تتميز فيه المرأة عن حياة ما قبل الاسلام ، كان أساس هذا الدور هو موقف الاسلام الواضح الذي ترتب عليه دورها في المجتمع ، وتمثل ذلك في شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل ، والتسوية في الخطاب والتبعات بين الرجل والمرأة ، وإقرار القرآن لأهلية المرأة . « أهلية حقيقية » للارث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد والكسب دون أن يكون ذلك منوطاً بموافقة الرجل

وإذنه ، والتسوية في التكاليف العامة بين الرجل والمرأة من زكاة وحج وصوم وصلاة ، وأعطى الاسلام للمرأة حريتها كاملة في أمور الزواج والطلاق والبيع وحق الارث . وكرم المرأة بنتاً وزوجة وأماً ، وكرم الأم وساوى بين المرأة والرجل ، وأكد الرفق بالبنات وتعليمهن والعناية بالأسرة في نصوص صريحة في القرآن « ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » .

وفي تعاليم الرسول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عون لكم ، الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، نعم الولد البنات ، وأباح الاسلام تعدد الزوجات ولم يفرضه ، ووضع له من الضمانات ما يذهب الظلم وينفي الضرر .

ثانياً : شاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : أم عطية . أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية . صفية بنت عبد المطلب ، ومنهن من غزت مع النبي سبع غزوات (أم عطية) وكن يخلفن الرجال في رحالهم ، ويصنعن الطعام ، ويداوين الجرحى ، ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى كأم عمارة أول مبايعة للنبي عنها . وقد شهدن مختلف الغزوات ، وكان لهن دور عظيم ضخم .

ثالثاً : في مجال العلم والفصاحة والبلاغة ، وقد نافسن الرجال في العلم بالاسلام ، حافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وشاركن في كل مجال ، ودخلن المساجد وشهدن حلقات العلم والصلاة جماعة وخضن المعارك وألقين الخطب والأشعار ، وكان الرسول يُعِدّ لهن في مجالسه وفي الصلاة أماكن خاصة ، واشتهر نفر من النساء غير قليل بالحديث والفقه ، حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من الصحابيات ، بل إننا نرى بعض الأحاديث تروى مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجال ، وروت عائشة عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وجاء في الاصابة أن عائشة أم المؤمنين كانت تجيد القراءة وأن حفصة كانت تحسن الكتابة ، علمتها إياها « الشفاء » بنت عبد الله بن شمس القرشية .

(٧) ـ قيام المجتمع الاسلامي في الجزيرة العربية

كان لا بد لمجتمع المدينة أن تبرز فيه ظاهرة الغزو والحرب والقتال . فقد كان ضرورياً لبناء الجماعة الاسلامية في المدينة أن تؤمن من الخارج ، ولما كانت قريش قد أحست بفداحة الخطر الذي سيلحقها من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وقيام مجتمع جديد شاب بها من شأنه أن ينشر الاسلام في أنحاء الجزيرة ، وأن يعود قوياً زاحفاً إلى مكة من بعد ، لما كانت قريش قد أحست بذلك إحساساً قوياً فإنها قد أخذت تتآمر للقضاء على هذه الجماعة ، لذلك كان لا بد للمسلمين من إحساس دائم باليقظة والحركة والحراسة ، حتى لا تؤخذ الجماعة على غرة . ومن هنا كانت السرايا وكان الاستعداد الدائم لمواجهة أي موقف من مواقف الغزو . وقد تمثل هذا حين زحفت قريش بعد استنقاذ قافلتها إلى ماء بدر قريباً من المدينة . وكان لا بد وقد أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يهاجمهم أن يصطدموا مع قريش ، وأن ينتصروا على قلة العُدَدِ والعَددَ ، وكان ذلك بدء صدام مسلح ، وعدوان متصل شنته قريش خلال أعوام متصلة في غزوة أُحد بعد عام واحد من بدر ، وفي مؤامرة ضخمة حشدت لها كل قبائل العرب واليهود وخصوم الاسلام جميعاً في غزوة الخندق . غير أن الهزيمة التي منيت بها «الأحزاب» قد دفعت مجتمع الاسلام إلى القوة وأضافت إليه انتصارات ومكاسب جديدة ، فقد ذاع الاسلام في الجزيرة ، ورجحت كفة « الجماعة الاسلامية » بانضمام قبائل جديدة إليها ، وكان لا بد أن يتجه المسلمون إلى الكعبة : البيت الحرام في مكة ، وقد استوى مجتمعهم ، معتمرين . فقد كان الحج فريضة من فرائض الاسلام ، وقد ساقوا أمامهم الهدي علامة السلم لا الحرب ، والحج لا القتال ، واستطاعت قريش أن ترى قوة الاسلام ، والتي أصبحت وشيكة أن تدخل مكة ، فلم تلبث أن عقدت مع النبي « صلح الحديبية » الذي كان أول علامات « نصر الله والفتح » وعاد الرسول والمسلمون ليرجعوا في العام القادم يؤدون عمرة القضاء .

وفي خلال ذلك أخذ النبي والمسلمون يوطدون المجتمع ويقاومون مؤامرات اليهود بحصارهم في خيبر وإجلائهم بعد أن تواصلت محاولاتهم للقضاء على الجماعة الاسلامية ، وكان عقد الحديبية وعمرة القضاء مقدمة لأكبر

نصر في تاريخ الجماعة وهو « فتح مكة » . وحقق المسلمون في هذه المرحلة أعظم توسع سلمي لهم بتضاعف عدد المنضوين تحت لواء الاسلام ، وحقق فتح مكة انتصار الدعوة الاسلامية وتركزها ، وقد أصبحت مكة مصدر الدعوة الأولى ، وقد دانت للاسلام ، وتطهرت الكعبة من الوثنية ، وتقدم دعاة الاسلام الذين أوفدهم النبي إلى القبائل ناشرين لواء الاسلام ، وحاولت حنين أن تغزو مكة فبادرها الرسول في اثني عشر ألفاً ، ثم كانت الطائف هي الخطوة الثانية في تركيز الاسلام في الجزيرة العربية ، والتفت الرسول إلى مشارف الجزيرة حيث « الروم » تريد أن تنقضَّ على الجماعة الاسلامية فبادرها في ثلاث جولات متصلة . إحداها معركة مؤتة ، ثم كانت غزوة العسرة الشاقة التي زحف على رأسها الرسول في ثلاثين ألفاً من المسلمين إلى تبوك ، ولم يقع قتال . وكان بعث أسامة قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى على تأمين الشمال وتأكيد الحرص على خطر انقضاض الروم منه .

وفي خلال هذه السنوات العشر في المدينة تحقق للاسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانطوت تحت لواء الاسلام ، ثم أتم الرسول الحلقة بافراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . وبذلك قام مجتمع الاسلام الأول منتظماً الجزيرة العربية . وقد أتم الله الرسالة وأكملها وتم نزول القرآن . وكان الرسول قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الاسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلناً إياهم ومبلغاً . وقد استقبلها بعضهم بالقبول وبعضهم بالتحفظ والبعض الآخر بالنقمة . وكان ذلك كله تمهيداً لحركة الاسلام المتصلة ، ومرحلته التالية في التوسع والانتشار ، وتكوين الجماعة الاسلامية الكبرى ، وقدمت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها مبايعة للرسول بالاسلام ، وأذن رسول الله في القبائل بالحج الأكبر فاجتمع مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة في ركب الرسول ، وفي عرفات أعلن رسول الله تمام الرسالة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » . فكان ذلك إيذاناً باكتمال المرحلة الأولى من بناء الاسلام . ولم يلبث رسول الله أن اختار الرفيق الأعلى وكانت كلمته الأخيرة « أنفذوا بعث أسامة » .

***

وباختيار الرسول الرفيق الأعلى كانت « رسالة الاسلام في أيديولوجيتها الكاملة قد تمت واستكملت ، ولم تدخل عليها أي إضافات أخرى من بعد . وقد دار الفكر العربي الاسلامي بمختلف مفاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد ، وحتى اليوم في إطار مفهوم الاسلام - كما رسمه القرآن وقام عليه الرسول - ولم يخرج عنه ، وإنما كان الفكر الاسلامي تفسيراً وتحليلا وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الاسلام والحياة .

(٤)

« تكامل مفهوم الاسلام »

كانت فترة « الثلاثة والعشرين عاماً » منذ بزوغ فجر الاسلام إلى اختيار الرسول للرفيق الأعلى هي فترة بناء « مفهوم الاسلام » وتكوين « القاعدة » التي اندفع منها إلى العالم كله ، وبناء النماذج القادرة من القادة المحاربين ، وبناة الدول ، وقادة الفكر . وقد اكتملت مقومات الاسلام ومفاهيمه في حياة النبي من حيث هو دين ومدنية وفكر ومجتمع . وتم وضع الخطوط العامة لها . هذه الخطوط التي لم يدخل عليها بعد إلى اليوم أي إضافة جديدة ، فكان كل ما جاء من بعد تفسيراً لها وتوسيعاً لآفاقها ، وتحليلا لدقائقها ، مستمداً من جوهرها القابل للحركة والتطور وعلى النحو الذي أتاحته في صميم مقوماتها من سعة وحيوية ومرونة ، جعلتها قادرة أبداً على مسايرة الحياة والانسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة . فقد استطاعت أن تمتزج بالثقافات والحضارات المختلفة وتصهرها في بوتقتها وتحولها إلى طابعها ، وتتقبل من أسلحة الفكر الانساني وفلسفاته ومذاهبه ما يزيدها قوة على البقاء والحياة والتمدد . وقد ظل الاسلام إطاراً ثابتاً للثقافة والحكم والاجتماع والحضارة ، تتحرك صوره وفق مجريات الزمن وتطورات الأحداث ، دون أن تخرج من طابعه الأصيل ومقوماته الأساسية .

و « الاسلام » بمفهومه الأصيل هو دعوة التوحيد مع التكامل والوسيطة بين جوانب السياسة والاجتماع والحضارة والاقتصاد والثقافة ، تلتقي هذه الجوانب من خلال الاسلام وتنصهر ، قوامها العقل والقلب ، والدين والعلم ، والمادة والروح ، والدنيا والآخرة . ومن خلال الاسلام لا تبدو هذه الجوانب متصارعة ، ولا يتمثل في لقائها ثنائية . بل تنتظم في امتزاج وتكامل . وقد أعطى الاسلام للحياة في المجتمع الجديد رسالة أسمى من الصراع القبلي ، وهدفاً أكبر من المطامع الذاتية . أما القرآن فهو : « الوثيقة الاسلامية الخالدة » التي لم يصبها تحريف أو يعتورها نقص بوصفها المنهج الكامل لمقومات الاسلام والفكر العربي الاسلامي ، ومفاهيمه والأرضية الكاملة له ، والمنطلق ، وقوام جذوره الأساسية .

« ومحمد بن عبد الله » هو رسول الله بالاسلام إلى الانسانية كافة وهو التطبيق الفعلي البشري لمفهوم القرآن للانسان ، والدافع للقيم الانسانية إلى التفاعل مع الحياة . وقد عاشت سيرته نموذجاً حيّاً لتطبيق « أخلاق القرآن » وظلت سنته مصدراً لتقدم النموذج الانساني الكامل بوصفها تفسيراً للقرآن وتطبيقاً له . وقد كانت حياة النبي نموذجاً كاملاً رفيعاً للانسان في أسمى صورة ومفاهيمه وتصرفاته . فقد وصفت ذلك السيدة عائشة بدقة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

(٢) ـ ولقد كانت الجماعة الاسلامية الأولى محاولة لتطبيق « مفهوم الاسلام » في بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله تمده بالقوة والنموذج والمثل العملي كلما افتقر الناس إلى فهم مضمون الاسلام في مجالي الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، ففي خلال هذه الثلاثة وعشرين عاماً اختصرت صورة كاملة لتحول أمة من النقيض إلى النقيض عن طريق مفهوم الاسلام ، كان القرآن فيها هو الدستور ، وكانت السنة هي المذكرة التفسيرية ، وتطبيق القرآن على النموذج الأول « محمد » حامل لواء الدعوة .

وقد مرت هذه المرحلة من حياة الجماعة الانسانية الأولى بمرحلتين (١) مرحلة الدعوة (٢) مرحلة بناء الجماعة التي حملت لواء الدعوة وانطلقت بها إلى أطراف الأرض ، كانت المرحلة الأولى في مكة منبع الدعوة في محاولة التحدي

الكبير لاخراج مجتمع من أوضاعه القائمة الموروثة إلى أوضاع جديدة أكثر تقدماً وإيجابية وإخاءً ووحدة .

ولقد قاوم المجتمع القديم بكل قوته في سبيل المحافظة على قديمه ، وصادم بكل وسائله وأدواته الدعوة والداعي بكل ما استطاع أن يصل إليه من أسلحة ، إلا بضعة نفر من الفقراء والضعفاء تبعوا الداعي ، وآمنوا بدعوته ووهبوا أنفسهم للدفاع عنها . ثم كانت « الهجرة » نتيجة لظهور مجموعة من المؤمنين بالدعوة في يثرب سعوا (ثلاث سنوات متوالية) في اعداد متزايدة إلى مكة موسم الحج ليلتقوا بالداعي ، ثم عاهدوه على أن ينصروه إن هاجر إليهم ، وأن يحفظوه كما يحفظون أبناءهم وذويهم ، فكانت الهجرة إلى المدينة هي « حركة الاستجابة » لتحدي مكة خلال ثلاثة عشر عاماً ، ومن ثم بدأ مجتمع الدعوة الجديدة يتكون ويمارس حياته وفق أنظمة الدولة ، ويمضي ليقر هذا النظام في الداخل ويبث الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية خلال عشرة أعوام كاملة ، تحقق خلالها قيام « مجتمع إسلامي جديد » في الجزيرة العربية كلها ، فكانت بذلك هي الطاقة المشعة ، والأمة الحاملة لدعوة الاسلام إلى العالم كله ، والجماعة الأولى التي تلقت الأمانة ، واستطاعت بما قدمه لها الاسلام من قيم ومفاهيم أن تغير نفسها وتتحول إلى أمة موحدة ، وتسعى لتنشر الاسلام في الأرض .

هذه هي أمانة « الأمة العربية » ممثلة في الجماعة العربية الاسلامية الأولى التي تكونت في خلال عشر سنوات في مجتمع المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من صراع مع القوى المسيطرة المتحكمة . وفي خلال هذه السنوات العشر استطاعت الجماعة الاسلامية التي قامت في المدينة أن تسيطر على مجتمع مكة وأن تذيبه في الاسلام ، وأن تصهره في بوتقة الدعوة الجديدة وتشده معها في كفاحها ونضالها من أجل إعلاء كلمة الاسلام في الأرض .

ومن هنا كان مفهوم الاسلام نفسه هو الحكم والمقياس ، فهو الذي استطاع أن يبني هذا المجتمع ، وأن يكون هذه النماذج القادرة من الأبطال القادة وبناة الدعوة والمفكرين ، وفق مفاهيمه صيغت هذه العقليات والنفوس التي خلقت به شيئاً آخر ، فكانت لها هذه القدرة المعجزة التي أدهشت الباحثين خلال أيام التاريخ الاسلامي كله من استطاعتها تحقيق بناء هذا التوسع خلال مائة عام .

ومن هنا تبدو أيضاً سلامة المقاييس التي لا تخطىء في الحكم على الأحداث فيما بعد ، فكلما قربت الأحداث من مفاهيم الاسلام كانت مندفعة في الطريق الصحيح ، وكلما انحرفت عن هذه المفاهيم الأولى كانت الهزات والأزمات والهزائم .

إنه مقياس لم يخطىء خلال أربعة عشر قرناً كاملة . الارتباط بمقومات الاسلام ومفاهيمه هي الصحة والسلامة والنصر والقوة والقدرة على البقاء والحركة ، والانحراف عنها هو الخطأ والهزيمة والضعف والعجز عن الحركة والبناء ، وفي كل نهضة نهض بها « بناة الدول » في عالم الاسلام ، يبدو هذا المعنى واضحاً ، وكلما انهارات دولة او حركة كان مصدر الانهيار هو الانحراف عن معنى الاسلام بدعوته الى الأخوة والقوة واليقظة .

(٣) كان المجتمع الاسلامي الذي كونه الرسول خلال عشر سنوات في المدينة ، وثمرة دعوته خلال ثلاثة عشرة سنة في مكة هو بؤرة الدعوة الاسلامية كلها ، وفيه انصهر ذلك الفريق من صحابة الرسول الذي أطلق عليه اسم « الصحابة » وكان تكوينه وانصهاره في مجالات احتمال الأذى والصبر على التعذيب والايمان بالرأي والاصرار عليه في مكة ، والكر والفر والقتال والاشتراك في السرايا والغزوات والبعوث في المدينة ، إيماناً بالاسلام وبيعة الروح لله في سبيل نصر الاسلام ونشره والدفاع عنه والشهادة في سبيله . وكانت حياة الرسول هي النموذج الاعلى لذلك الايمان باحتمال الأذى والنضال في سبيل مقاومة خصوم الاسلام . فقد كان هو المثل الذي لا يرقى إليه مثل في هذا المجال ، يتقدم أعوانه في القتال حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ويصرف الأمور في حكمة واتزان ، وهو صاحب الكلمة المشرقة ، والنفس المتسامية على الحقد والهوى والمطامح . ومن حوله هذا الرعيل الأول قد صهره الاسلام وحوله الى قوة جارفةعارمة بالحقيقة التي لا تجادل : « احرص على الموت توهب لك الحياة » وبالفكرة العليا التي تستغرق هذه النفوس ، وهي إذاعة الاسلام في العالمين والتضحية بمتاع الدنيا ، والمال والنفس ، في سبيل هذه الغاية ، وكل عجب يوجه إلى انتشار الاسلام في أقل من مائة عام من الصين إلى الأندلس ، يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التي قام بها محمد رسول الله لهذه الجماعة المسلمة في مجتمعي مكة والمدنة .

(٤) - إنما أقبل على دعوة محمد في أول الأمر الفقراء والمستضعفون والعبيد ، أولئك الذين كانوا يحسون الضعف والمهانة ، وكانوا يترقبون في ظل الاسلام عزة وكرامة . هم المستضعفون والفقراء والعبيد في كل مكان . هؤلاء الذين ترقبوا دعاة الاسلام حين أقبلوا عليهم فانضووا تحت لوائهم طامعين في التخلص من الطغيان والذل والحرمان . وهؤلاء الضعفاء الذين التفوا حول « محمد » هم الذين حملوا من بعد رايات الاسلام إلى كل مكان بعد أن صهرتهم الأحداث من تعذيب واضطهاد ومساءة خلال سنوات مكة القاسية ، وخلال سنوات المدينة المليئة بحركات الدفاع عن المجتمع الجديد من سرايا وقتال وبعوث .

(٥) - كان على الجماعة الاسلامية في يثرب أن تنظم نفسها على مفهوم الاسلام : ديناً ودولة ، ومجتمعاً وحضارة ، لتكون نموذجاً تطبيقياً ، وأن تنشر الدعوة إلى الاسلام في شبه الجزيرة كلها حتى تصبح في نهاية عهد النبي « أمة موحدة » وجماعة كاملة ، وأن تكون متأهبة للكفاح والاندفاع في الأرض لنشر الاسلام وإذاعته وإقامة مجتمعه الكبير .

وقد استطاعت فعلاً هذه السنوات العشر أن تديل من خصوم الاسلام في الجزيرة ، وأن تحقق انتصارات متعددة : أبرزها دخول الرسول مكة فاتحاً واستسلامها له . ثم استسلام القبائل المتعددة التي دخلت في الاسلام واعتنقته ، وكان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم دعوته بأن يبعث إلى الملوك والأباطرة والأمراء في شتى الأنحاء من حوله داعياً إياهم جميعاً إلى الاسلام كعلامة على الطريق الذي سيسلكه الاسلام من بعد ، وكان أبرز قوتين تجاوران الجزيرة العربية : فارس ، والروم .

(٦) - ولا شك كان إرسال الرسل إلى مختلف الشعوب والأمم بالدعوة إلى الاسلام علامة على « عالمية الرسالة » وبحسبانها ليست للعرب وحدهم ، ودلالة على الطريق الذي يسلكه الاسلام بعد في اندفاعه إلى العالم كله . وقد فهم المسلمون في الجماعة الاسلامية الأولى تلك الصفة الانسانية . وذلك الطابع العالمي لرسالة الاسلام . وهذا هو ما عبر عنه الفقهاء بمعنى « عموم الرسالة » باعتبار أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم

أوصى به اليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين ، وقد حمل القرآن آيات كثيرة تثبت عالمية الاسلام .

وقد ارسل الرسول الكتب إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨ م) إلى هرقـل قيصر الـروم ، كسرى فارس ، حاكم اليمــن ، حاكم مصر ، نجاشي الحبشة . ولقد كان مقتنعاً منذ اليوم الأول لرسالته بمفهوم عالمية الرسالة وإنسانيتها معاً ، وأن تركيز دعوته في الجزيرة العربية وتحويلها إلى مجتمع واحد ، وأمة واحدة . إنما كان يهدف إلى تكوين القوة التي تستطيع أن تحمل لواء هذا الدين وتندفع به خارج الجزيرة العربية إلى العالم كافة . وكان ذلك يتمثل في قوله إن بلالاً هو أول ثمار الحبشة ، وصهيباً هو أول ثمار الروم ، وأن سلمان هو أول ثمار الفرس .

(٧) ـ ومنذ تكونت الجماعة الاسلامية واكتمل بناؤها ، ثم اكتمل بنـاء الاسلام في حياة النبي . بدأت في التاريخ صورة جديدة ، ذات طابع جديد ، وبرز مفهوم جديد للحياة من خلال « رسالة » وجماعـة تقـوم على « فـكرة » قد قهرت خلافاتها العصبية والعقلية ، وتجمعت لتشق في التاريخ خطاً جديداً . منذ ذلك الوقــت بدأ تأثـير الاســلام في التاريــخ ، حــين مضى يدك صرح الامبراطوريتين العظميتـين : فارس والـروم ويديل منهما ويقيم بنـاءه الجـديد الضخم على امتداد عريض متصل من الصين الى الأندلس في مائة عام ، فيصهر الفرس والبربر والترك ويصوغ المصريين والمغاربة والهنود والسوريين في بوتقـة واحدة ، ويقف ليواجه الصراع مع أوربا والدولة الرومانية الشرقية « بيزنطـة » وريثة الدولة الرومانية في روما بإحساس أن أرض الاسلام كانت تحت سلطان الروم والشام ومصر والغرب ، ثم سيطرة الاسلام على الأندلس ، وهي جزء من أرض الغرب ، ثم محاولات العرب السيطرة على أطراف فرنسا وروما .

(٨) ـ إن قوة بناء « الشخصية » التي أعطاها الاسـلام في هذه المرحلـة للذين التفوا حول محمد ، والنموذج الذي تمثلوه في الرسول ، هذه القدرة الرائعة هي التي أمدت هذا الرعيل الأول بتلك الصلابة التي صارت من بعد مضرب المثل في الايمان باللـه ، وفي الشـوق للشهـادة من أجلـه ، وفي الاندفـاع لنشر

الاسلام بالحق في أقطار الأرض من خلال نفوس تستعلي على متاع الدنيا ، وتطمع في أن تذود عن هذه الرسالة حتى تستحصد وتقوى ، هذا هو التفسير الذي يعطي مفهوم معجزة التوسع الذي حققه الاسلام في خلال فترة قصيرة على نحو أعجز الباحثين وأدهشهم . إن قوة بناء الشخصية إنما يتمثل من خلال الحياة المضطربة التي عاشتها تلك القلة في مجتمع مكة في اضطهاد لم يتوقف .

(٩) - أعطى الاسلام بمجتمعه الصغير الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلاً يحتذى ، وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الانساني السليم المتكامل الذي يقوم على الاخاء والحب والتسامح والتكافل . ليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الاسلام ومضمونه وأيديولوجيته ، وما تزال صورة هذا المجتمع الاسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلامتها في فهم مضمون الاسلام ومنهجه تعطي علامة القوة في تطبيق الاسلام . فمن هذه الجماعة الاسلامية انطلقت الدعوة الاسلامية الى العالم كله ، فبلغت الصين شرقاً ، والأندلس غرباً . وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران ، أو أنها توقفت على رجال يندر اجتماعهم في عصر .

(١٠) - كان مجتمع مكة غير متقبل لقيام مجتمع جديد في داخله ، أو على أطرافه متحرراً من الزعامة القبلية ، أو قاضياً على الصراع القبلي ، أو متجمعاً تحت لواء محمد ، هذه الألوية القبلية التي كانت تتكون من خلال العصبية الخاصة والسلطان والمال . أما « مجتمع المدينة » على النحو الذي كان عليه . فقد كان متقبلا لقيام هذه الجماعة ، بعد أن ذابت القوتان القويتان فيه - وهما الأوس والخزرج - في جماعة المسلمين ، ودانت بالولاء لصاحب رسالة الاسلام . ومن هنا نما مجتمع جديد له مفهوم جديد قوامه الايمان بالرسالة والدفاع عنها وإذاعتها في الناس . ومن هنا كان لا بد للجماعة الاسلامية من تنظيم سياسي واجتماعي واقتصادي يحفظ قوام الجماعة ويرد عنها خصومها ، ويدفعها في تماسك وقوة للاندفاع براية الاسلام الى آفاق الأرض ، وقد توسعت هذه الجماعة من بعد ، ولكنها ذابت في المحيط الواسع الكبير . ولم تكن صورة الدولة أو الحكومة التي

قامت إلا تطبيقاً لنظام حكم يتحرك في إطار الاسلام . ومن هناك كانت سعة الاسلام ورحابته ومرونته في فرض نظام معين يلتزم به المسلمون . وكان الالتزام الوحيد أن يكون الاسلام هو إطار الدولة والجماعة والفكر مع قدرة كل منها على الحركة والتجاوب مع تطور الزمن وتغير البيئة .

(١١) - ولم يكن مجتمع المدينة كما تحاول أن تصوره مختلف كتب السيرة ، مجتمع حرب وغزوات وقتال . فلو أننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجموعه بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فإن المجتمع الاسلامي في المدينة قد قام فعلا وبنى خلالها دعامتين واضحتين : نظام مجتمع ، ونظام دولة . كما بنى تشريعاً وقانوناً . ثم كانت الحرب إحدى وسائله للحفاظ على بقائه ومدافعة خصومه ، ثم كانت المهمة الكبرى التي أولاها رسول الاسلام اهتمامه البالغ ، وهو نشر الدعوة إلى آفاق الجزيرة العربية . ثم ابلاغها إلى ملوك العالم القريب منه في رسائل ودعوات خلال السنوات الأخيرة من حياته ، وفي خلال هذه السنوات العشر الخصبة تشكل منهج الفكر ونظام المجتمع وتشريعه ، وسارت الدعوة إلى غايتها في التبليغ . وكانت الغزوات لدفع العدوان جزءاً من هذا العمل الكبير ، ولكنها لم تكن هي كل شيء كما تحاول أن تصورها كتب التاريخ التي بين أيدينا .

(١٢) - كانت مدرسة الأرقم بن ابي الأرقم في مكة بالاضافة إلى مدرسة مصعب بن عمير بالمدينة قد كونت تلك الطليعة التي ظلت خلال سنوات المدينة تخرج في بعوث متوالية تحمل كتب النبي إلى شيوخ القبائل العربية ، وتزامل الوفود المتوالية التي كانت تتقدم معلنة إسلامها إلى المدينة ، وفي كلتا الحالتين كانت تقوم بالدعوة إلى الاسلام لأولئك أو تعلمها لهؤلاء . وقد لقي بعض هؤلاء الدعاة الإعنات والتعذيب والشهادة .

وقد أرسلت بعثة من أربعين مسلماً إلى قبيلة بني عامر فقتلوا غدراً ولم ينجح إلا ثلاثة منهم . كما لقيت هذه القبائل من محمد رسول الله تفهماً عميقاً لمشاكلهم وقضاياهم ومنازعاتهم ساعدت على الصلح بينهم . وكانت حكمة النبي وسماحته وحسن معاملته عاملا هاماً في تجمع القلوب حوله .

(١٣) - قبل أن يلحق محمد رسول الله بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة

التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الاسلامية تجمعها « وحدة فكر » قوامها الاسلام « وقيم أساسية » تستمدها من القرآن و « زعامة واحدة » هي زعامة محمد . وقد ارتقت فوق عوامل التناحر والصراع ، وبدأ لها اتجاه واضح ، وهدف محدد ، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم ، لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والتمرد في خطين واسعين : أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالا إلى الروم .



(الباب الثاني) :
بناء الاسلام وتوسعاته .



(٥)

« بناء الاسلام »

كان « بناء الجماعة الاسلامية » في الجزيرة العربية إلى أن اختار الرسول الرفيق الأعلى هو نقطة الانطلاق لبناء الاسلام : أمة ودولة وحضارة . وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضر اتجاهاً طبيعياً . فبعد أن تكونت الجماعة الاسلامية في قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب ، ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة كان طبيعياً أن يتجه الاسلام إلى الآفاق .

وقد عرف الاسلام بظواهر ثابتة استمرت خلال تاريخه كله وأبرزها « القدرة على الحركة » تبدو واضحة في نشأة الدعوة ، فالدعوة التي ظهرت في مكة لم تتوقف ، حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وعقولها .

فلما واجهتها المعارضة والتحدي والاضطهاد تحركت حركات متوالية ، تحركت بالهجرة إلى الحبشة ، وبالدعوة خارج مكة في الطائف . ثم تحركت بالهجرة نحو يثرب ، وفي يثرب بدأت « مرحلة جديدة » لقد انتقلت إلى أرض أكثر قابلية وأكثر يسراً ورخاءً . ثم عادت إلى مكة ظافرة ، ثم استطاعت أن تؤلف الجزيرة العربية في « وحدة فكر » وفي « مجتمع موحد » . ثم كانت حركتها في أواخر سنوات النبي إلى الشمال نحو الحضر ، نحو عنق الزجاجة ، نحو الفوهة التي خرجت منها الهجرات المختلفة ، وكان يدفعها الى ذلك عاملان هامان :

الأول : نشر الدعوة الاسلامية وإذاعتها والجهاد في سبيل تحقيق رسالتها .
الثاني : المبادأة بالحركة واليقظة ، وإبراز الهيبة الرادعة للخصوم المتربصين على الأطراف والذين يحاولون الانقضاض عليها .
وقد أشارت تحركات الرسول في خيبر ، ومؤتة ، وبعث أسامة الذي لحق الرسول بالرفيق الاعلى ورايته منصوبة أمام المسجد ، والذي كان آخر ما أوصى به « أنفذوا بعث أسامة » والذي أنفذه أبو بكر في أول أعمال ولايته ، كانت كل هذه الارهاصات توحي بالخط الذي يسلكه الاسلام ، وهو خط طبيعي ، فإن دعوة « عالمية إنسانية » لا بد أن تنطلق إلى الآفاق . لأن من أقوى دعائمها الجهاد في سبيل الله لنشرها ، وقد بدأ الرسول هذه الخطوة بأن أرسل رسائله إلى الملوك والأمراء ، داعيا إياهم إلى الاسلام . لذلك كان طبيعيا أن يتجه الاسلام إلى مجاله الحيوي وأن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتاخمتين للجزيرة العربية .

وكانت دولتا فارس والروم قد أحستا في السنوات الأخيرة من حياة الرسول بخطر الدعوة الاسلامية ، فقد ألفت مجتمع الجزيرة العربية . وقد تجمع في وحدة فكر قوامها التوحيد والاخاء والعدل الاجتماعي ، وبلغتها رسائل النبي بدعوتها إلى الاسلام ، فكان لا بد أن تفكر طويلا في أمر هذه الجماعة الوليدة ، ومدى الخطر الذي يترتب على وجودها ونموها . ومن ثم بدأت تتآمر حتى كان بعث أسامة . فكان لا بد أن يندفع الاسلام لمواجهة هذا الموقف ، وكان التحاق النبي بالرفيق الأعلى علامة الطريق على الخطر وعلى خط مسيرة الاسلام نفسه ، ومن هنا لم تكن حروب المسلمين مع فارس والروم حروب غزو ، بل حروب دفاع ووقاية . ولم يكن من الطبيعي أن ترى دعوة الاسلام الشابة العالمية هذا الخطر يتربص بها على أبواب الجزيرة ثم تتقاعس عنه ، ثم زاد هذا الخطر قوة حين واجه الاسلام بعد انتقال الرسول للرفيق الأعلى انتقاضا شاملا في شبه الجزيرة . فارتد كثير من العرب وثبتت قريش والطائف ، وواجه المسلمون الموقف على عزمة أبي بكر خليفة رسول الله الذي أصر على مقاومة المرتدين ، وكان موقف أبي بكر حاسماً وهو من المواقف الخالدة في تاريخ الاسلام كله وفي تاريخه هو بوصفه أول حاكم بعد النبي ، فقد أصر على مقاومة من منعوا الزكاة . وقال « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه . والله لأجاهدنهم ما استمسك

السيف في يدي » ورفض رأي بعض الصحابة الذين قالوا : نقبل منهم الاسلام ، قال عبد الله بن مسعود : والله لقد قمنا بعد رسول الله مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أبو بكر أجمعنا أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فغرم الله لأبي بكر على قتالهم . ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر . وقال عمر : والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة ، ووالله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق .

وكان أبو بكر قد تقلد سيفه وأزمع أن يخرج وحده لقتال المرتدين ، من هنا فقد حقق قتال أهل الردة « وحدة الجزيرة العربية » ذلك الدور الذي لعبه الفرس في حروب الردة . فقد تآمر الفرس وتآمر مع بقايا اليهود في شمال الحجاز . بل لقد جدد انتقاض الجزيرة العربية في « حركة الردة » ـ جدد الأمل عند الفرس والروم ـ على محاولة القضاء على الاسلام ، هنالك قدمت الفرس والروم لخصوم الاسلام عوامل الإغراء للانتقاض . وكانت في هذه المرة بعض المساعدات العسكرية كما آوت المتمردين ، لذلك فما كاد المسلمون يعيدون وحدة الجزيرة حتى قرروا الزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين المتربصين بالاسلام .

ثم كان إنفاذ بعث أسامة من علامات التمسك والقوة . فقد رفض أبو بكر تأخير جيش أسامة ، وكان قد جهزه النبي ، وأمره أن يسير إلى الموضع الذي استشهد فيه أبوه « زيد بن حارثة » وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، ومشارف الشام . وقد أوصى النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى : « انفذوا بعث أسامة » .

وكان أول أعمال أبي بكر هو إنفاذ هذا الجيش . وقد عارض الصحابة حين سمعوا أخبار الردة وانتقاض العرب فقال : لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله . فلم يلبث أن بث الجنود في بلاد قضاعة وأغار وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً . وقالت العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه .

والحق أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة للنبي ، كان عملا بعيد المدى في تطور الدعوة الاسلامية واجتيازها الجزيرة العربية ودعم قواعدها . ففي خلال الفترة القليلة التي أمضاها والياً لأمر المسلمين خلال عامين استطاع أن يحقق ثلاثة

مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام .

(١) بيعة السقيفة وجمع كلمة المسلمين على ولاية الأمر .

(٢) مواجهة خطر « الردة » بالحسم .

(٣) دفع الاسلام الى آفاق الانطلاقة الكبرى .

وقد ساد الاسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية في مرحلتين متتابعتين هما : مرحلة « الابعاد والاعماق » . كانت مرحلة الابعاد تعني التوسع والامتداد الجغرافي ، حيث حمل العرب رسالة الاسلام من الجزيرة العربية فانطلقوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الاسلامية في ثلاث موجات :

الموجة الأولى : (١) من ١٢ - ٢٢ هـ إلى العراق ودمشق ومصر وفارس والقدس وطرابلس الغرب .

الموجة الثانية : (٢) من ٤٠ - ٥٠ هـ في شمال افريقيا .

الموجة الثالثة : (٣) من ٨٣ - ٩٣ هـ إلى الاندلس غربا والسند شرقا .

ولم تلبث المنطقة كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا أن رفعت راية الاسلام . ولكن حركة الاسلام لم تتوقف منذ اقتحمت قارة اوربا من الأندلس حينا كانت تلح على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينية .

ومن هنا بدأ الصدام بعالم الفرنجة والغرب والمسيحية . وهو صدام لم يتوقف حتى اليوم ، وكان على الاسلام أن يواجه هذا الخطر من طرفين أساسيين : خطر البيزنطيين على حدود الشام ، وخطر الفرنجة على حدود الأندلس . ومنذ اقتحم الاسلام الأندلس (أسبانيا) واستولى عليها ٩٣ هـ ٧١١ م منذ ذلك اليوم بدأت معركة ذات صراع وهول بين عالم الاسلام وعالم الغرب ، وبين الاسلام نفسه كرسالة ونظام وفكر وبين الغرب وفكره وحضارته التي قامت أساسا على المنهج التجريبي الذي ابتدعته من حضارة الاسلام . وقد وصل الصدام إلى مداه في معركة بلاط الشهداء ١١٤ هـ ٧٣٢ م غير أن ذلك لم يوقف التوسع الاسلامي في فرنسا وإيطاليا وسواحل اوربا .

أما حركة « الأعماق » فتتمثل في بناء المجتمع الاسلامي بالانصهار والفكر الاسلامي بالتبلور ، وهي مرحلة تالية لمرحلة بناء الاسلام وتوسعاته .

(٦)
« حركة التوسع »

على الموجة الأولى من حركة التوسع ، تقدمت القوات الحربية الاسلامية إلى حدود الشام والعراق في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية ، وإلى حدود العراق لمقاومة نفوذ الدولة الفارسية . فقد وجه أبو بكر إلى الشام ابا عبيدة إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وشرحبيل بن حسنة الى وادي الأردن . وقد بدأت حركة التقدم في أرض العراق على يد المثنى ابن حارثة الشيباني ، فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة « بخالد بن الوليد » فتقدم إلى الحيرة فالأنبار فعين التمر ، أهم مواقعها ذات السلاسل . . .

وبينما كان خالد في تقدمه في قلب العراق ، دعي إلى إنجاد قوات الشام ، وارتد جيش المثنى إلى أطراف الجزيرة العربية ، وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها ، وكان اهتمام المسلمين بغزو الروم هو بالدرجة الأولى ، لتخليص شعب الشام وفلسطين من احتلال الروم . وقد واجه الروم قوات المسلمين بزحوف ضخمة ، اضطرتها إلى توحيد قواتها ، واتجه خالد من العراق لمساندتها . إذ قطع المفازة بين العراق والشام في رحلة أسطورية ، ثم جمع القادة الخمسة على خطة موحدة .

وواجه المسلمون الروم في معارك (اجنادين) في **٣٠** ألف مسلم في مواجهة مائة ألف ، وفي معركة (دمشق) دخل المسلمون المدينة من ناحيتين . دخل خالد من الباب الشرقي قسرا ، وأبو عبيدة من باب الجبانية سلما (**١٤** هـ)

وعزل عمر بن الخطاب خالداً من الرئاسة بعد معركة (اجنادين) وتلقى خالد عزله راضيا ، وعمل جنديا تحت قيادة أبي عبيدة . وقال عمر : اني لم أعزله عن ريبة . ولكن الناس عظموه فخشيت أن يفتنوا به . وكان هذا الموقف من عمر غاية في تحرير الفكر الاسلامي من عبادة الفرد ، وكانت استجابة خالد بتقبل عزله عن ميدان الحرب كلية مثلا عاليا لعمق مفهوم الاسلام في نفسه ، وسلامة شخصيته ، وقد وصف تصرف عمر فوق ما صوره هو ، بأنه براعة سياسية . فقد كان أبو عبيدة في تقديره أقدر على المسألة .

وفي معركة « اليرموك » كان المسلمون في **٢٤** ألفا بقيادة ابي عبيدة ، والرومان في مائتي ألف بقيادة جبلة بن الايهم آخر ملوك الغساسنة . وقد انتصر المسلمون في كل هذه المعارك بالرغم من تفاوت العدد والعدد ، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالد على حمص وحماه وقنسرين واللاذقية وحلب . واستولى عمرو بن العاص وشرحبيل على عكا وحيفا ويافا وغزة . ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعاً شديداً ، فلما اشتد حصار المسلمين له طلبوا الصلح على أن يتم ذلك على يد الخليفة نفسه ، ليكتب معهم عهدا . وقد قدم عمر بن الخطاب في رحلة ذات طابع عجيب ، وكتب بنفسه كتاب الأمان .

ثم استسلمت مصر لقوات الاسلام . وقد سارع المصريون إليه خروجا من ظلم الرومان ، بعد أن جرت المعارك في أكثر من موقع . وهزم جيش الرومان وتم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس (**٢١** هـ) على دفع الجزية وحرية العبادة ، ورحيل حامية الروم ، ولا شك قد رحب السوريون والمصريون بالمسلمين وهم عرب من بني جنسهم ، تخلصا من الغاصبين .

وفي فارس استانف المسلمون الزحف على فارس ، وكان معركة القادسية (**١٦** هـ) بقيادة سعد بن أبي وقاص والمسلمون في عشرة آلاف في مواجهة قائد الفرس : رستم ذا الحاجب في مائة وعشرين ألف مقاتل ، ونصر أبو محجن الثقفي قوات المسلمين . فقد انتزع نفسه من القيد ، وركب البلقاء فرس سعد . وفي معركة المدائن على ضفتي نهر دجلة انتصر المسلمون على قلة عددهم ، وسقطت العاصمة (**١٦**هـ) وفي معركة جلولاء التي أعد يزدجرد عظيم الفرس فيها آخر محاولاته . وكانت من أعنف معارك فارس . وصفها البلاذري فقال : إن

المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا السيوف حتى انثنت ، وثبت المسلمون وكتب لهم النصر ، وفي معركة نهاوند (**١٩ هـ**) تم النصر النهائي فأطلق عليها (فتح الفتوح) وكان الفرس في مائة ألف بقيادة الفيرزان والمسلمون في « قيادة النعمان بن مقرن المزني الذي ولاه عمر بعد عزل خالد ، وسقط النعمان في مطلع المعركة وخلفه حذيفة بن اليمان على القيادة ، ثم استولى المسلمون على الأهواز ، وقم ، وكاشان .

* * *

من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل ، وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان ، وساد حكم الاسلام العراق وفارس والشام والقدس ومصر .

غير أن هذا النصر لم يكن ليستقر أو يستمر دون حراسة ويقظة دائمة . فقد كانت عوامل الانتقاض تحاول أن تجتاحه من أطرافه ، ومضى أصحاب السلطان المنهار في استئناف محاولات جديدة لاسترداد نفوذهم . أما الروم فقد هاجموا الاسكندرية بجيش كثيف ، وأما خراسان فقد انتقضت في محاولة انقلاب . وقد رد المسلمون الحركتين وأبادوهما . وكانت معركة ذات الصواري (**٣١ هـ**) اشتركت فيها قوات إسلامية في أسطول مكون من مائتي سفينة في مواجهة ثمانمائة سفينة رومانية بقيادة قسطنطين امبراطور الروم ، وكان النصر للمسلمين .

ثم اتصل التوسع الاسلامي مرة أخرى في خلال عهد عثمان ، وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة : بناء الاسطول الاسلامي ، وتولى معاوية بن أبي سفيان أمره ، وفي خلالها انضم إلى الكيان الاسلامي برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة وبلاد أرمينية ، وأجزاء من بلاد طبرستان جنوبي قزوين ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراه وكابول وغزنة من بلاد الترك .

وعن طريق البحرية الاسلامية دخلت (قبرص) في إطار الدولة الاسلامية ، وقد قام معاوية بغزوها بحراً (٢٨ هـ) . ثم توقفت هذه الاندفاعة ثمة لتعود مرة اخرى في أوائل حكم معاوية الذي أولى اهتمامه النافذة الشمالية بينه وبين الروم ، فقد كانت هذه الثغرة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم كله . وقد أولى معاوية هذا الميدان اهتمامه في موالاة حصار القسطنطينية سبع سنوات متوالية ، وغزو بعض جزر البحر الأبيض .

(الموجة الثانية)

وتجددت موجة التوسع مرة أخرى في عهد عبد الملك بن مروان ، والوليد ابـن عبد الملك في امتداد جناحي الاسلام « إحداهما » استكمل الامتداد العربي فيما يلي برقة حتى الأندلس . ثم بلغ قلب فرنسا . « والآخر » استكمل الامتداد الشرقي فيما يلي فارس وما وراء النهر وانقسم الى قسمين : (أحدهما) سار إلى الشمال تجاه ما وراء النهر و (الثاني) مضى الى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين . ففي خلال حكم الـوليد بن عبـد الملك (٥٩٣ م) حيث اتجه التوسع إلى الأندلس وأطراف فرنسا من ناحية ، وإلى السند من ناحية أخرى . ثم ثناها إلى مرحلة من أعمال الولايات خلال حكم الأغالبة لتونس ، وإذا كان في الامكان أن يقال إن القرن الأول كان عام التوسع في ظل القوات المندفعة خلال هذا الأفق الواسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فإن هناك أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل :

(الأول) : ان مرحلـة التوســع الثـانية (٤٠ ـ ٩٣) في خلال حكم الأمويين لم تكن في عمق المرحلة الأولى ، فقد كانت أقل درجة في الكفـاءة ، ولذلك فإن أغلب الأرض التي كسبتها لم تثبت طويلا كما ثبتت الأرض التي كسبتهاالجولة الأولى .

(الثاني) : إن الاسلام بعد القرن الأول لم يكن في حاجة إلى أن يجري في ظل الحركات العسكرية ، بل بدأ خطوات جديدة مستقلة ، واستطاع أن يفتح آفاقا جديدة بقوته الذاتية ، ومعنى هذا أن قيام « عالم الاسلام » على النحو الذي قام به خلال القرن الأول . وعلى هذا النحو الرائع العجيب وما حققه من نتائج رائعة في نقل سكان البلاد إليه بالدعوة ، وعلى أساس جوهر مفاهيمه : « التوحيد العدل الاجتماعي ـ المسـاواة » كان ذلك كافيا لأن يدفعه اندفاعـا ذاتيا ليحقـق توسعات جديدة في أرض لم يكن للاسلام عليها دولة أو كيان سياسي .

(الثالث) كانت الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أقل درجة من ناحية الاعتصام بمفاهيم الاسلام وقيمة الأسس التي رسمها « نبي » الاسلام وحرص صحباته وخلفاؤه على الاستمساك بها .

(الرابع) كان منهج التوسع الاسلامي في عهد الأمويين أقل درجة من ناحية العمل على نشر الاسلام والدعوة إليه . وكانت « القدوة » التي تمثل رأس القيادة الاسلامية أقل قدرة على إعطاء المثل الأعلى للاسلام مما كانت أيام الراشدين ، فقد كانت بساطة الخلفاء الراشدين عاملا عجيباً في كسب غير المسلمين في الأقطار التي تولاها الاسلام ، منها في عهد الأمويين ، غير أننا نؤمن بأن التطور الذي بلغته القيادة السياسية كان تطوراً طبيعيا .

دخل الاسلام في الجولة الثانية : « الأندلس والهند » ولكنه لم يتعمق نفوس المسلمين . كان من أسباب ضعفه حرص الولاة على إيراد الخزينة العامة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فحطم هذا القيد ، وألغى الأوضاع التي كانت تفرض على المسلمين ما كان خليقا أن يرفع عنهم من ضرائب بعد إسلامهم . فقد أوقف عمر بن عبد العزيز الجزية عمن دخل الاسلام منهم ، فدخل الناس في الاسلام أفواجاً ، ودعا ملوك السند فدخلوا بدعوته وتبعتهم شعوبهم كما دخل الاسلام كثير من أهالي مصر والشام وفارس وهو القائل لواليه الذي اعترض على إلغاء الجزية لأنها تنقض مال الخزانة : « قبح الله رأيك ،ارفع الجزية عمن أسلم . فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمري لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه » .

وفي هذه المرحلة ظهر من أسماء الفاتحين : طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير (الأندلس والمغرب) وقتيبة بن مسلم (ما وراء النهر إلى حدود الصين) . ومحمد بن القاسم الثقفي (السند) ويزيد بن المهلب (جرجان وطبرستان) ومعاوية بن أبي سفيان (حصار القسطنطينية) وعقبة بن نافع (فتح أفريقيا إلى المحيط) وقد شمل التوسع العسكري الميادين الثلاثة :

(١) الحرب ضد الدولة الرومانية (بيزنطة) ومحاصرة القسطنطينية .

(٢) شمال أفريقيا . وقد امتد حتى المحيط ، ثم عبر مضيق جبل طارق وامتد إلى أسبانيا (الأندلس) .

(٣) شرق آسيا : سار إلى (١) الشمال تجاه ما وراء النهر (٢) والى الجنوب فشمل السند .

ولقد كان قادة المعارك نماذج نادرة في البطولة والايمان « قتيبة بن مسلم » غزا ما وراء النهر وأغار على الصفد وفتح مدائن خوارزم صلحا ، وغزا سمرقند ، وسار إلى حدود الصين (٩٦) فأرسل ملكها وفدا له يقول:ارجع ، فقد عرفت حرص من أرسلك وقلة أصحابه ، قال قتيبة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا على الدنيا من خلف الدنيا وغزاك . أما تخويفك إيانا بالقتل . فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهها ولا نخافه » .

و« يزيد بن المهلب » غزا جرجان وطبرستان بجيش مكون من مائة الف .

أما « محمد بن القاسم الثقفي » فقد حمل لواء الحرب وهو في سن السابعة عشرة وجمع بين البطولة والشجاعة وسداد الفكر . مما تجدر الاشارة إليه أن ما أورده كثير من المؤرخين من خلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير لا تؤكده المصادر الأمينة ، وكل ما روي في هذا سنده ضعيف ، ومن وضع وضاع العصر العباسي . لقد كمل أحدهما الآخر ، أرسل موسى طارق فلما تحقق النصر ودانت أرض الأندلس ، عبر من منطقة أخرى ليكمل التوسع ، وليحكم الخطة ، فلما التقيا سارا معاً إلى الشمال حتى وصلا جبال البرانس .

وفي الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أنشأ الأمويون الأسطول البحري ، وقد غزا معاوية في البحر واستعمل على أسطوله عبد الله بن قيس ، كما أغرى معاوية « عقبة بن عامر » فوجهه إلى رودس ، وركب معاوية البحر إلى قبرص فافتتحها . وكان معه ألف وسبعمائة سفينة للسلاح والأموال ، وأجرى معاوية محاولته لفتح القسطنطينية ، وكانت صور وعكا وطرابلس موانيء متخصصة لصناعة السفن .

تفسير لنجاح التوسع الاسلامي

إن أبرز ما يرتكز عليه مفهوم عموم الرسالة في الاسلام هو تبليغها وإذاعتها ونشرها في الآفاق . ذلك هو هدف الاسلام الأكبر ، والغاية المنوطة بكل من يعتنق الاسلام والأمانة التي يحملها كل مسلم . فالاسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين ورسالة ، قد وكل إلى معتنقها أن يذيعها في أنحاء الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، سجل ذلك القرآن : حين وصف الاسلام بالعالمية ، وحين بعث محمد للعالمين نذيراً ، وكافة للناس ، ورسول الله إلى الناس جميعاً[1] . وقد سجل الرسول ذلك في عديد من أحاديثه : « إني بعثت رحمة للناس كافة » . ومن هنا كانت دعوته إلى ملوك العرب وأمرائها بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة . ثم رسائله إلى الملوك قبل فتح مكة .

فقد بعث إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الاسلام ، إلى هرقل امبراطور الروم ، وإلى كسرى فارس (هوأبرويز بن هرمز) ونجاشي الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، وقد صدرت هذه الرسائل عن يقين ثابت ، وحماس متقد على حد تعبير (توماس ارنولد) وتدل دلالة واضحة على (عموم الرسالة) التي تكررت في القرآن . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وليس في طبيعة الاسلام ، ولا في خطط الرسول في دعوته ، ولا في أحوال الأمم عند مبعث الرسول أمر لا يؤكد (عموم الرسالة) . وقد صدقت الأحداث ذلك من بعد وأيدته . وقد أمر القرآن بالدعوة إلى الله بإقناع ونهي عن الاكراه . (**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**) وقد كان الاسلام منذ بدء ظهوره ، « دين دعوة »

---

(١) سورة الفرقان ، وسبأ ، والاعراف في القرآن الكريم

وكان مفهوم « عالمية الاسلام » واضحا في النماذج التي اعتنقت الدعوة الاسلامية في المدينة ، بلال أول ثمار الحبشة وصهيب أول ثمار الروم وسلمان أول ثمار الفرس . هكذا كان يطلق عليهم ، ومن ذلك ما ذكره الرسول عن بلاد كثيرة تفتح على المسلمين ، وما أوصى به لقيط مصر ، وما أشار إلى من سيعطى أساور كسرى ، ويعني هذا كله أن عالمية الاسلام وعموم رسالته كانت أمراً مقطوعاً به ، وأن المسلمين كانوا في جماعة الاسلام التي كونها محمد في المدينة يفهمون منطلق الاسلام ، هذا المنطلق الذي بدأ فعلاً ببعث أسامة الذي أعده الرسول وأمر بإنفاذه . وكان اتجاهه إلى عنق الجزيرة العربية إلى الشمال .

وعلى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن ننظر إلى حركة التوسع التي قام بها الاسلام ، والتي حققت قيام دولة ممتدة من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فقد كانت هذه الحركة تحقيقا لمفهوم عموم رسالة الاسلام ، ودفعا للقوة الحاجزة دون انتشاره والقضاء عليها ، مما يطلق عليه عبارة « الفتح » إذا جاز لنا ان نستعمل لفظ « الفتح » فإنما يتم ذلك بمفهوم واحد . هو إزالة القوة التي تقف أمام أمانة « عموم الرسالة » التي حملها المسلمون عن الرسول ، وكانت في تقديرهم مهمة حياتهم ، يهبون لها أرواحهم ، ويستشهدون من أجلها . فالفتح هو كسر الحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الاسلام رغبة في تحقيق اللقاء بين الاسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ، الغارقة في : (١) الظلم الاجتماعي (٢) الوثنية ، ولذلك فقد استقبلت هذه الشعوب الاسلام بغبطة كبيرة ، وتقدير لا حد له ، لأنه أتاح لها التحرر من مظالم الاستبداد ، وحفظ لها حقها في ديانتها وطقوسها القديمة . دون أن يفرض عليها عقيدته ، وسمح لها أن تتأكد بمزيد من الحياد كيف يحقق الاسلام : العدل - المساواة - هنالك اندفعت تحت لواء الاسلام بإرادتها الحرة ، وباقتناعها العقلي والروحي الكامل .

وفي كل خطوة من خطوات الصدام كان الاسلام معتدى عليه ، أو محالا بينه وبين إذاعة كلمته ، ونشر دعوته . وقد انتفضت الجزيرة العربية بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وقطعت روابطها ، كان معنى هذا الانتقاض انفراط عقد الوحدة التي كانت موضع هيبة الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وقيد نظرهما في حركة الاسلام ، لذلك كان لا بد من صدام مسلح يعيد وحدة الجماعة

الاسلامية ، غير أن انتقاض أهل الردة شجع الفرس والروم على العمل للقضاء على الدعوة الناشئة . وسارعت الفرس والروم فقدمت للمنتقضين مساعدتها وآوت المتمردين ، ولذلك فقد كان طبيعيا أن يتجه المسلمون إلى مواجهة الفرس والروم ، بعد القضاء على الردة في موقعة فاصلة ، يزيلون بها هذا الخطر الذي يقف أمام نمو الاسلام وانتشاره ، والذي كان يتربص به ، ويستعد لضربه ضربة قاتلة ، ومن ثم اتجهت القوات المسلمة إلى أطراف الامبراطوريتين في وقت واحد ، وفي معركة زمنية واحدة ، وكان ذلك من علامات القوة بالرغم من أنها تخالف العرف العسكري والحربي الذي يرى أن لا يشترك المحارب في معركتين معاً في وقت واحد . غير أن ذلك أرهب العدوين وأدال منهما .

وتوالت الانتصارات حاسمة متتابعة في كلا المعسكرين ، وبرزت بطولات رائعة ، وظهر قادة ابطال ، واعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الاسلام وانصهاره في نماذج حية رباها محمد ، وكونها خلال كفاح طويل ، وبرزت صور من التضحية والاستشهاد والبطولة غير عادية .

ولقد لفت التوسع الاسلامي نظر الباحثين ، فذهبوا في تحليله مذاهب شتى . يقول : لوردستروب : كلما زدنا استقصاء باحثين عن سر تقدم الاسلام زادنا ذلك العجب العجاب بهراً ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئا متلافية كل صعب ، حتى أن قيض الله لكل دين ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه ، حتى رسخت اركانه ومنعت جوانبه .

فبطل النصرانية : « قسطنطين » وبطل البوذية : « أسوكا » وكل منهم ملك جبار أيّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والايد ، إنما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء ، حيث القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته من جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود ، وعلى شدة المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبيناً عميقاً . إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة في البرانس حتى هملايا ، وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا . وعندنا

أن العامل الأول في نجاح التوسع الاسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثورة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب ، ولم يكن مصدر النصر الوحيد هو ضعف هذه الدول . ولكن العامل الأول في الحقيقة إنما هو مفهوم الاسلام وسلامته ، وقربه من الفطرة الانسانية ، ومطابقته للواقع ، هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد : وكانت القوة الدافعة هي إيمان هذه الجماعة إيماناً لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل دفع لواء الاسلام إلى كل أرض . أما السلطان والثروة ، فقد كان الاسلام في أعمق مفاهيمه جامعاً بين الدنيا والآخرة ، والمادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما ، ولم تكن الوسائل الحربية التي اتخذها المسلمون هي وحدها سبب النصر ، فقد كان هناك دوماً فارق بعيد في العدد والعُدد بين المسلمين وخصوم الاسلام ، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو ذلك الايمان بالقاعدة الذهبية : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ولقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية التقليدية التي تقول : على المحارب أن يركز قواته في ميدان واحد ، ودفعوا قواتهم في ميدانين واسعين في وقت واحد ، ومهما يكن من العوامل التي يوردها المؤرخون تفسيرا لهذا النصر الرائع . فإن العامل الأول والأعظم ، هو ذلك الايمان العميق بالله ، والثقة في نصره ، وطلب الموت في سبيل إذاعة الاسلام ، وإبلاغه للعالمين ، والتضحية بالروح ، والتماس الشهادة ، هذا هو العامل الأول والأعظم من بين العوامل المتعددة .

لقد كانت الامبراطورية الرومانية قد شاخت وبلغت المدى في الضعف والتحلل ، وكان الأباطرة الرومان قساة مستبدين ، وكانت حياة الترف والانحلال بادية ، وكان الخاضعون للروم يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة ، وفساد الموظفين . فلم يكونوا يدينون بشيء من الولاء لهذا الحكم ، وكانت مصر مزرعة قمح لروما . أما الفرس فقد كانت الحروب مع الرومان قد أنهكتها . وكان جنودهم يحاربون من غير حافز روحي ، حتى اضطر القائد الفارسي في أحد المواقع أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا . وذلك في موقعة ذات السلاسل .

لقد ذهب البعض إلى عرض مفهوم « الجهاد » في الاسلام عرضا غير

منصف ، محاولا أن يجعله عملا حربيا هجوميا عدوانيا . بينما لم يكن الجهاد جهاد حرب أو قتال أو عدوان ، بل كان عملاً بنّاءً للشخصية الانسانية أساساً ، وللمجتمع وللدفاع عن الاسلام ، ونشر لوائه . فهو دعوة خالصة وسيلتها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى . فإذا فرض العدو المعركة ووقف في طريق الدعوة كانت الحرب وهي في مفهومها تقوم على أساس غاية في الرحمة والعدل .

والحق أن موجة التوسع الاسلامي كانت حركة عدل ورحمة ، فقد صادفت أقطاراً غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد ، والفقر والذل ، فكانت دعوة الاسلام بمفهومها « دعوة التوحيد والعدل والمساواة » علما على تحرير الرقيق والعبيد والضعفاء وتخليصهم من سلطان المستبدين والظالمين ، وسلطان الأباطرة . فبقوة مفهوم الحرية والعدل كانت تشق طريقها بعزيمة ، وتجد في كل مكان تحل فيه قبولا ، لأنها كانت تزيل السلطة المستبدة الطاغية ، وتحل محلها سلطة جديدة قوامها العدل ، لا ترغم الناس على دينها ، ولكنها تؤمن للناس حياتهم ، وحرية أديانهم .

لقد كان المسلمون يصلون إلى الأقطار فيقيمون فيها نظامهم ، فيلقاهم الناس بالرضا ، لأنهم كانوا يحررونهم من الظلم ، ولا يفرضون عليهم الاسلام ، ويؤمنونهم على أموالهم وأملاكهم ، ويدعون لهم حرية دينهم . بل لقد تركوا الأرض لاصحابها على أن يدفعوا خراجها . بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض وللعاملين فيها .

وكان المسلمون يتركون لغير المسلمين أن يحكموا قانونهم المدني في شؤونهم وإلى جوار ذلك كان دعاة المسلمين والفقهاء يتحدثون عن الاسلام ومبادئه وقيمه . ومن هنا أخذ الاسلام ينتشر ببطء . وأخذت الجماعات المختلفة تتخلص من أديانها وتعتنقه ، وتتخلص من لغاتها ، وتعتنق اللغة العربية أيضا ، حتى رجال الكنيسة في القرن الرابع الهجري وضعوا كتاباتهم باللغة العربية .

وقد سجل سلوك عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الأمم الداخلة تحت لواء الاسلام ، فلم يزد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه ، وطلب الى البطرك

صفرونيوس ان يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة . وقد أعطى الأمان لسكان المدينة وقطع لهم عهدا باحترام كنائسهم وأموالهم ، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم ، وكذلك فعل عمرو بن العاص ، فقد منح المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقا ومساواة كاملة ، واحتراما كبيرا لاموالهم ، وتبديلا للضرائب الجائرة التي فرضها قياصرة الروم .

وهكذا وجد الفرس والمصريون والسوريون في الاسلام منقذاً من الظلم والطغيان والاستغلال ، حين ضمن لهم حرية الاديان ، وترك الأرض لاصحابها على أن يدفعوا خراجها ، وهو أقل بكثير مما كانوا يدفعونه للأكاسرة والقياصرة . كما أمن غير المسلمين على أموالهم وأهليهم . وقد نفذ النظام الاسلامي على المسلمين ، وترك لغيرهم الفصل في شؤونهم وفق القانون الذي كان مصدراً لقضائهم . ولقد تابعت حركات الفتح اعمال الدعوة والتعريف بالاسلام ، فقد انبث الفقهاء والدعاة في كل مكان يتحدثون عن مبادىء الاسلام وقيمه . وكانت صورة الرسول كنموذج وقدوة وما التمسه أصحابه وتابعوه من شمائل وخلق من العوامل الأساسية لفهم الاسلام وقبوله ، مما دعا الكثيرين الى اعتناقه . وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام . إذ أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة السياسية والاجتماعية . وفي الحق لم تكن أعمال التوسع مجرد أعمال عسكرية تهدف إلى السيطرة أو تحقيق المجد الشخصي أو توسيع رقعة الأرض . بل كانت أساساً تحمل دعوة الاسلام إلى كل مكان ، ولم تكن الشخصيات التي برزت في هذا المجال شخصيات طامحة الى السلطة ، او راغبة في الظفر الذاتي أو المادي . بل لقد استهدفت حركة التوسع الاسلامية نشر الاسلام أولاً ، وإزالة القوى الحاكمة الظالمة المسيطرة ذات النفوذ والمصلحة الخاصة ، لاتاحة الفرصة لأهالي الأقطار المختلفة تحقيق قيام حكومات شعبية أهلية .

ولقد كانت نتائج الحروب والمعارك مفضية الى هذه الحقيقة ، فقد كان الهدف الدنيوي في الدرجة الثانية . وكان هدف تضحية الروح والاستشهاد في سبيل الغاية هو أبرز الدوافع . إذ إن البسالة الفائقة والتضحية بالنفس لا تكون مصدراً للمطامع الدنيوية بذاتها . ولقد كانت مختلف المواقف تشهد بأن المسلمين كانوا الصف الأقل عددا بينما كان عدوهم يمثل ضعف عددهم أو أضعافه . ومع

ذلك كان مرجع النصر الذي يكسبونه دائماً إلى قوة أخرى غير القوى المادية وحدها . ومع هذا العامل القوي فإن المسلمين لم يتخلفوا عن الامتياز والتفنن، والابتكار والبراعة في فنون الحرب والقتال ، واصطناع أحدث الوسائل ، وأذكى الخطط ، وما تزال المعاهد العسكرية العالمية تدرس خططهم الاستراتيجية .

(٧)

الاسلام والحرب

لم تكن مواقع التوسع الاسلامي مجرد أعمال عسكرية تستهدف زيادة رقعة الأرض الاسلامية . وإنما كانت تتمثل في القضاء على المقاومة التي تحـول دون اندفاع دعوة الاسلام إلى مداها ، بعد أن تكفلت الجماعة الاسلامية التي صنعها محمد في الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاماً إبلاغ الاسلام الى العالمين .

وظلت الحرب في مفهـوم الاسـلام حرب دفـاع لا حرب هجـوم ، ورداً للعدوان وذوداً عن الحمى ، وكانت القوة في الاسلام إرهاباً أكثر منها تدميراً . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقد صاغ الاسلام لفكرة الحرب مفهوماً يختلف عن مفهومها العدواني ، فصانها عن قتـال الأطفـال والشيوخ والعبّاد من أي دين ، وارتفـع بهـا عن التدمـير والابادة ، ولم يجعل مفهوم انتشار الاسلام مرتبطاً بالحرب ، بل جعلـه منوطـاً بالاقتناع والتقبل النفسي ، وكان أهم ما أدخله الاسلام من تطوير لنظرية الحرب هو السمّو بها ، ووضع مبادىء تقود المحاربـين إلى النصر بالاعـداد للمعـركة إعداداً سليماً يضمن كسبها .

واتسعت مواقع التوسع الاسلامي بالبسالة الفائقة ، والتضحية بالنفس ، كان المجاهد حين يقاتل يطمح في إحدى الحسنيين على النحو الذي علمه الرسول للجماعة الانسانية : النصر أو الشهادة . ولم تكن مطامع الغزو المادية منكورة ،

غـير أنهـا لم تكن أبـداً الهـدف الأول كما تحـاول كتابـات بعض الغـربيين أن تصورها .

وإذا اعتبرنا أن المسلمين في هذه المرحلة قد اعتنقوا عقيدة نشر الاسـلام والسير بلوائه إلى أقصى ما يستطيعون بلوغه في الأرض . فإن هذا الايمان العميق قد فتق أذهان وعقول هذه النخبة الممتازة إلى فنون من الحرب وابتـكار أدوات للقتال وأساليب للدفاع .

وقد رسم الرسول قاعدة الغزو في كلمات حاسمة دقيقـة ظلـت دستـور الاسلام في الحرب : « أغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعـزلا بصومعـة ، لا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجـرة مثمـرة ، ولا تهدمـوا بنـاءً ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكله ، سوف تمرون على أقـوام قد فرغـوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا له ، أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً » .

* * *

وقد حقق الرسـول صلى اللـه عليه وسلـم بوصفـه القائـد الأول لجيش الاسلام مبادىء عسكرية ونظريات حربية جديدة طبقها في موقعة بدر . ثم جاء قادة المسلمين فأضافوا إليها . وأهم هذه القواعد :

(١) تقسيم مواجهة الهجوم
(٢) القضاء على القوة الرئيسية للعدو
(٣) تخصيص قوة حارسة تحمي مؤخرة الجيش
(٤) السيطرة على ممر في جبل لمنع العدو من المرور فيه
(٥) دراسة شخصيات قادة العدو .
(٦) الاستعداد لمواجهة طباع وعادات وأساليب الحرب لكل قائد منهم
(٧) تطبيق مبدأ الوقاية
(٨) مبدأ المبادأة .

كما اتخذ الرسول : خطة اختيار الموقع الملائم لجنده ، كان يخـرج للقـاء

عدوه ، وكان يعاود الخروج ولو كان متعباً ، كما فعل بعد معركة أحد ، وكان يفرض الحصار وفقاً لخطة حربية ، والسيطرة على الماء ، وحفر الخندق ، وكان مع هذا لا يكل نفسه إلى القوة العددية ، ولا يكتفي بها . بل يلجأ إلى اللـه . وكان يؤمن بخطر الحرب في نتائجها بما يختلف من بداءتها فيقول : « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا القيتم العدو فاثبتوا » . وكان حريصاً على تعرف قوة العدو بوسيلة أو بأخرى ، فقد يسأل عن الجزور التي تعود ذبحها كل يوم ، ثم يستنتج منها عدد جيش أعدائه ، ولا يضطرب في الأزمة أو القارعة ، بل يثبت في صمود ، وفي موقفين غاية في الحظر ثبت الرسول ولم يضطرب ، أولهما عند الفشل في أحد ، فقد ثبت بقوة كما ثبت بقوة في حنين بعد أن فارقه أكثر أنصاره .

ولم تذهله المعركة عن واجباته كقائد لقومه ، وهو لا يمنع عن تغيير مكان المعركة إذا وجد في رأي أعوانه صواباً ، ولا يستهين برأي أحد من رجاله ، ففي بدر غيرّ الموقع ، وفي الخندق غيرّ الخطة . وكان من أسلحته القضاء على اقتصاديات العدو ومحاصرته . وذلك بالتعرض لقوافل قريش . وكان لا يتعرض للآمنين الوادعين الذين لم يشتركوا في الحرب ، ولا يغير على قوم لم يخاصموه أو يعادوه . فإذا عرف بعزمة قوم على مهاجمته سارعهم بالهجوم . وإذا بلغه أن قوماً يحملون عليه أو يهاجمون دعوته أرسل إليهم من يناصحهم ويدعوهم إلى الاسلام ، فإذا رفضوا حاربهم . وكان في خط النار أقرب ما يكون إلى العدو . قال أصحابه « كنا إذا حمي وطيس الحرب وحميت الحدق نثق به فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

وقد تطورت خطط الحرب بعد ذلك وتوسع نطاقها وتعددت أساليبها ، ولكنها لم تخرج عن المثل الأعلى للاسلام ، فلا يتأخر المسلمون عن أداء الصلاة في مواعيدها ، ولا يهاجمون غير المحاربين ، ولما صادفتهم مواقف جديدة استحدثوا لها ما يواجهها ، لما واجهتهم الفيلة ضربوا خراطيمها ، ولما واجههم النهر خاضوه بالفرسان .

(٢) ابتكر القعقاع بن عمرو فناً عسكرياً جديداً . فقد وصل قادماً إلى معركة القادسية من العراق في نجدة من الجنود في اليوم التالي . فلما رأى قلة عدد المسلمين قسم جنوده ، وكانوا يعدون ألف فارس أقساماً صغيرة ، كل قسم عشرة

وأميرهم ، ثم أمرهم أن يتواتروا إقبالاً على المعركة عشرة بعد عشرة ، وأن يبدأوا الهجوم عند وصولهم فيزيدوا في قوة المسلمين ، ويظن الفرس أن الامدادات متتابعة فيساعد ذلك على خذلانهم .

(٣) كانوا يسيرون إلى الحرب يرتلون الآيات القرآنية ، ويكبرون عند الهجوم ، ويستعملون الطبول ، يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا ، وللمسلمين دوي القرآن كدوي النحل ، وبات أولئك في خمورهم وملاعبهم » .

(٤) كانت النساء تصحب المقاتلين وتخصص لهن أماكن وراء الجيش ، وكن يعملن مع الرجال في أثناء المعركة ويقمن بتحريض الرجال على الصبر والاستبسال وينقلن الماء ، ويشتغلن بتمريض المرضى ومواساة الجرحى ، وقد وقفت النساء المسلمات خلف الجيش في معركة اليرموك وبأيديهن العمد والحجارة يضربن بها من يحاول الهرب .

(٥) برز طابع الاستقامة الخلقية في معاملة أهالي المدن المفتوحة ، فلا فساد ولا خمور . أما الجندي فلا يقيم في الجيش أكثر من أربعة أشهر ، ثم يسمح له بزيارة أهله ،وكان عمر قد سأل ابنته عما يمكن ان تنتظر المرأة غيبة الرجل فقالت أربع شهور .

(٦) عرف خالد ببراعته في خططه الحربية ، وفي « مؤتة » استطاع الارتداد بثلاثة آلاف مقاتل لما ظهر رجحان الروم عليهم . وفي معارك الردة كان يتقدم لمبارزة قائد المعركة فيقتله ويتفرق أصحابه ، وفي معارك العراق أخذ بالمفاجأة . وفي موقعة ذات السلاسل فرق جيشه (١٠ آلاف مقاتل) إلى ثلاث فرق وواعدهم (الخفير) وفي معركة الولجة حارب أعداءه في ثلث جيشه ، وأرسل الثلثين كميناً له على أن يأتوا العدو من خلفه ، وبدأت المعركة والعدو لا يظن إلا أن خالداً في هذه القوة القليلة ، وأنه ظاهر عليه حتماً ، وخالد يماكر عدوه ويخاتله ، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو فأصبح محاصراً من خلف ومن أمام .

وكان خالد يتحرك دائماً على تعبئة ، وفي معركة (أليس) واجه خصومه وهم يتهيأون لطعامهم ، فلما رأى عددهم وقوتهم تعجلهم بالسيف فشتت

شملهم . وفي (الأنبار) وجد القوم قد خندقوا واعتصموا في حصونهم ، فاقتحم الخندق بجثث الابل الضعيفة نحرها ورماها في الخنـدق ركاماً . وأمـر جيشـه بالعبور على هذا الجسر ، وكان من أساليبه القدرة على نقل جيش عدوه بعيداً عن مراكزه ، فقد عسكر في (الحفير) فلما تحرك هرمز قائد الجيش غادر المكان إلى (كاظمة) فكبد عدوه السير مسافة طويلة وواجههم ، وقد أضنناهم التعب ، وكان الانتقال في الرمال والمغاور أمراً سهلاً على العرب مهلكاً للفرس . ولم يلبث أن هاجم هرمز وقتله وبدد جيشه . وكانت أبرز مفاهيم خالد الحربية .

(١) معرفة مواطن الضعف في عدوه
(٢) سرعة الحركة
(٣) العزيمة والجرأة .

وفي اليرموك كان في أربعين ألفاً وكان الروم في مائة ألف فقسم جيشه إلى كراديس . كل كردوس ألف فارس ليوهم الروم أن العرب مثلهم عدداً .

(٧) ومن القواعد التي سنها عمر بن الخطاب : أن يكون كل مسلـم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد في كل لحظة دفاعاً عن دينه ، وأن يمنح من بيت المسلمين عطاءً معيناً .

وقـد حدد قادة الحـرب المسلمـون خطـوات العمـل الحربـي على خمس مراحل :

(١) الاستيلاء على المراكز ذات الخطورة العسكرية .
(٢) استدبار الجند عين الشمس أو الريح .
(٣) كتمان أخبار الجيش في حله وترحاله .
(٤) وضع الأسلاك الشائكة حول الجيش .
(٥) إقامة الكمين « حركة التعويق » .

واهم من هذا كله الحرص على الموت : احـرص على الموت توهـب لك الحياة .

■ عن البلاذري أن النعمان بن مقرن قال لرجاله في معركة نهاوند : إني هاز لوائي ثلاث هزات . فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها . أما الهزة الثانية

فلينظر الرجل بعدها إلى سيفه وليتهيأ وليصلح من شأنه ، أما الثالثة : فإذا كانت فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد .

■ عند اقتحام دمشق بعد معركة اليرموك سبح المسلمون عبر الخندق الذي يحيط بها ، وكان مليئاً بالماء ، وعلى ظهورهم القرب . ثم رموا بالحبال والأنشوطة فعلقت بالأسوار فتسلقوها وفتحوا الأبواب .

وكان القادة يجعلون من أنفسهم القدوة في كل آن ، فيدعون أشجع الشجاعان إلى المبارزة قبيل كل معركة . فإذا قضوا عليهم حلت الهزيمة بالخصوم . كان من الحرب أول الأمر جديداً على المسلمين . وكانت أبرز مقومات غزوهم : الايمان والشجاعة والاقدام ، غير أنهم لم يلبثوا أن درسوا أنظمة الحرب فأنشأوا كتائب منظمة ، وكانوا يرتقبون الاشتباك قبل صلاة الظهر ، ويحافظون على التوازن الحربي حتى المساء ليعودوا إلى المعركة بكتائب جديدة ، واتخذ خالد طريقة إخراج الجيش إلى مكان بعيد وإعادته في الصباح فرقة وراء فرقة ليفت في عضد العدو ، وليزيد أصحابه قوة برفع روحهم المعنوية بإمدادات جديدة ، ولم تمثل الغنائم إلا دوراً ثانوياً في مفهوم المسلمين المحاربين ، وعني الاسلام بتأمين أسر المحاربين . ففرض عمر بن الخطاب راتباً لأرملة الجندي ، وذلك لأول مرة في تاريخ العالم ، وفي مجمل الصورة تبدو ظاهرة اقتصار العدد القليل من المسلمين على العدد الأكبر من خصومهم « قضية » عاودها بالبحث كثير من المؤرخين ، ومجمل القول فيها أن مقاتلة المسلمين كانوا من طراز خاص ، لقد أعطاهم الايمان بالله مع تضحية النفس في سبيل نصر الاسلام قوة على الاندفاع في الحرب دون خوف الموت ، ومع إكبار لهذا المعنى كانت نفوسهم تحمل الازدراء لحكام الدنيا ولا تحرص عليه .

وحرص قادة المسلمين على تأمين القوى المحاربة ، وكانت صيحة الخلفاء والولاة : لا تقدموا بالمسلمين على مواقع شديدة الأهوال ، كما حقق الاسلام للداخلين فيه مشاركة على قدم المساواة ، في معاركه وغنائمه وقياداته ، فكان أهل الوحدات الاسلامية دائماً غالبية المحاربين وإليهم ينسب النصر والظفر ، وفي مختلف توسعات الاسلام فيما وراء النهر والهند والمغرب والأندلس كان أهل البلاد من فرس وترك وبربر هم أهم القوى المحاربة ، ولم يكن الطمع في الغنائم هو

الدافع الأول إلى انضمام هؤلاء كما يصور بعض المؤرخين ، وإنما كان الاسلام في مفهومه متكاملا جامعاً بين نصر الاسلام وخير الدنيا يملأ نفوس هؤلاء المحاربين .

يقول فون كريمر : كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم ، فحرم الرسول عليهم قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكفوفين ، كما حرم عليهم تدمير المزارع وقطع الأشجار . وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية ، فلم ينتهكوا الحرمات ، ولا أفسدوا الزرع ، وبينما كان الروم يرمونهم بالسهام المسمومة ،فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى واشتعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها . أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى ، فلم يحاولوا من هذا شيئاً .

ولا شك كان لحرب المسلمين في جبهتين في وقت واحد وانتصارهم فيهما ، وهو مما لم يقع كثيراً في التاريخ ـ أثر كبير في تقدير المؤرخين والباحثين . يقول لين موتبروز في كتابه (الحرب على مر العصور) : لقد كان من القواعد العسكرية المقررة المتفق عليها ألا يحارب قائد في جبهتين . وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدهما على الآخر ، ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة . ففي الوقت الذي كانوا يحاربون الفرس ، أرسلوا جيشاً إلى سورية لمحاربة الروم ، وظفر العرب في الحربين ، وقضوا على جيوش الدولتين ، وهذا من عجائب الدنيا .

استراتيجية الحرب والمعارك

لا شك كان الأسلوب الذي اختطه المسلمون في المعارك والغزوات والحروب أسلوباً انسانياً بارعاً ، فقد كان قوامه وسداه ولحمته « مفهوم الاسلام » نفسه في السلم والحرب ، هذا المفهوم الذي يستهدف نشر الاسلام والدعوة إليه بالاقناع والحكمة والموعظة الحسنة ، فلا يلجأ المسلمون إلى القتال إلا لدفع العدوان أو إزالة أصحاب النفوذ الذين يحولون دون انتشار الاسلام وامتداد دعوته .

ومن هنا كانت معاركهم في الأغلب : « معارك دفاع » وهم لم يبدأوها إلا بعد أن استنفدوا كل وسائل التبليغ ومحاولات السلام ، فإذا اضطروا عزموا ، فكانوا قوة عجيبة في كسب المعارك : إيماناً بالله وثقة بالعقيدة التي يعتنقونها ، وإخلاصاً يفتق العقول والقلوب لأساليب التغلب على العدو ، وما زالت معارك المسلمين وحروبهم ومواقعهم تدرس في الجامعات العسكرية في العالم كله ، كأرقى مثال لنظم الحرب ، البريئة من الغدر والانتقام والابادة . وقد كشفت هذه المواقع عن أعلام أبطال هم : قادة المعارك الذين حملوا رايات الاسلام إلى الصين وإلى الأندلس . وكان للعرب : الأمة التي أنزل عليها القرآن واختيرت لحمل لواء الاسلام ـ المكان الأول في هذه المراحل متمثلة في القوى البدوية الشابة ، الصامدة ، المتدفقة من قلب الجزيرة العربية ، تدفع معها كل مسلم من كل جنس ولون إلى مواقعها ومعاركها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه القوة ولهذه المعارك والحروب صلة بانتشار الاسلام أو دعوته ، فقد كان هدفها تخليص الأقطار والبلاد من حكامها الذين وقفوا أمام الاسلام ، يردونه ويقاومونه . أما البلاد التي قبل قادتها وحكامها « الاسلام » فلم تقع بها حروب أو غزوات ، وفي كلا الحالين لم يفرض الاسلام نفسه « ديناً »

على غير الذين ارتضوه واعتنقوه عن اقتناع ، وإنما سمح لكل الأديان والطوائف أن تباشر عبادتها في حرية . وقد شهد بهذه الحقيقة المؤكدة كثير من المنصفين . فهذا روبرتسن في كتابه (تاريخ شارلمان) يقول : إن المسلمين وحدهم هم الجنس الذين جمعوا بين التسامح وغيرة التبشير ، فلما حملوا السلاح لنشر مذهب نبيهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم .

ويقول ميشود في كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية » منع (محمد) قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة . ولما استولى (عمر) على بيت المقدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذا المدينة (يعني القدس) ذبحوا المسلمين بلا رحمة ولا هوادة ، ويقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) : لم تكن القوة عاملاً في انتشار الاسلام قطعاً ، فقد ترك المغلوبون أحراراً في المحافظة على دينهم . وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب دين غالبهم ، فذلك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلاً نحوها مما كان عليه سادتها السابقون . ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة البالغة بما لم تعرفه الشعوب حتى ذلك الحين ، ولم يفرض القرآن بالقوة . بل بالاقتناع . والاقناع وحده هو الذي كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول .

وقد كان اتجاه التوسع الاسلامي واضحاً في الطريق إلى الشمال ، هذا الطريق الذي كان مصدر الخطر على فوهة الجزيرة العربية ، وكان يهدف إلى توسيع عالم الاسلام بازالة سلطان الامبراطورية الرومانية عن الشام ، وقد بدأت اعمال التوسع في العراق والشام في وقت معا ، على نحو عد من مبتكرات الاستراتيجية الاسلامية ، وكان مصدر النصر . بعد أن أوقع الهزيمة في قلوب قادة الامبراطوريتين ، وقد رجح الخليفة أبو بكر أمر الشام فأرسل خالد بن الوليد أن يترك موقعه في العراق إلى الشام : « امض مخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق حتى تأتي الشام وتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة » . فلم يلبث خالد أن استجاب ، فترك القيادة للمثنى بن حارثة ومعه نصف الجيش ، وسار بالنصف الآخر إلى الشام . وهنا تبرز عبقرية خالد ، وألمعيته ، فقد اختار طريقاً قصيراً شاقاً ليصل في أقصر وقت ، وليتفادى القلاع الرومية في طريق وادي

سرحان ، فسار من دومة الجندل (الحوف) إلى قراقر ، واقتحم بوابة سوريا في صحراء مجدبة خمسة أيام ، وأمامه دليله رافع بن عمير ، ولم يلبث أن وصل إلى أطراف دمشق في ثمانية عشر يوماً .

* * *

وقد تحقق مفهوم الاسلام في الحرب على هذا النحو :

(١) في مختلف المواقع العسكرية الكبرى التي وقعت بين المسلمين من ناحية ، والروم أو الفرس من ناحية أخرى ، كانت القوة الاسلامية أقل بكثير من القوة المضادة في اليرموك . كان جيش الروم **١٤٠** ألفاً وجيش المسلمين **٤٠** ألفاً .

(٢) في موقعة فتح دمشق كانت براعة المسلمين تتمثل في اليقظة ، وترقب الأحداث ، فقد سهر خالد يرقب تحركات العدو ، وحتى شاهد غفلة من الحراس الذين غادروا أماكنهم لحضور فرح مولود جديد فانتهز الفرصة ، وتسلق السور بواسطة سلالم من الحبال ، ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي فقتلوا الحراس ، ونصبوا سلالم أخرى من الحبال رقى بواسطتها أركانه إلى السور ، ثم انحدروا إلى الداخل حتى فاجأوا حراس الأبواب فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب ، وراحوا يكبرون ، واقتحم المسلمون الأبواب .

(٣) عندما تولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولاها أبا عبيدة ، هنا تبدو صورة من أروع صور مفهوم الاسلام في إنكار الذات ، جاء البريد بعزل خالد ومعركة اليرموك على أشدها ، فاحتفظ أبو عبيدة بالرسالة ، فلم يعلنها لخالد ، تاركاً إياه على قيادة الجيش ، وهو جندي معه حتى علم خالد بالأمر من غيره . وخالد لا يضيق بالعزل . بل يتقبله ويمضي بعد جندياً في الجيش تحت إمرة أبي عبيدة ، فيحقق انتصارات جديدة .

(٤) اشتركت النساء في القتال وتضميد الجراح ، وتقديم الماء .

(٥) سلمت مدينة القدس صلحاً بعد حصار شديد ، اشترط أهلها أن يسلموها إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، وقدم عمر بن الخطاب من المدينة إلى الجابية ، وذهب إلى بيت المقدس ، ولم يصطحب معه غير خادم ، ولم يأخذ معه من الزاد غير قربة ماء وجراب شعير وتمر ، فلما دعاه البطريرك ليصلي رفض أن يصلي في الكنيسة ، وخشي أن يتخذ المسلمون من صلاته حجة لانتزاع الكنيسة من أصحابها .

(٦) ظهر طاعون عمواس فأباد عشرين ألفاً من الجنود ، فأرسل الخليفة عمر إلى أبي عبيدة قائد المسلمين يستدعيه في حيلة بارعة لينقذه من الوباء . غير أن أبا عبيدة رفض عرض الخليفة . قال : إنك يا أمير المؤمنين تريد أن تستبقي ما ليس باقياً .

(٧) لم تكن القيادة العسكرية يوماً وقفاً على العرب وحدهم . بل عقدت ألوية الجيوش إلى قادة من غير المسلمين : أحباشاً وفرساً وعجماً وبربراً .

(٨) استقبل الأهالي المسلمين في كل مكان بلا مقاومة .

(٩) احترم المسلمون شروط الهدنة والصلح .

(١٠) الجماعة الاسلامية الأولى التي كونها محمد في المدينة ومكة هي التي حملت لواء نشر الاسلام وعلى يديها تحقق التوسع ، وهي التي واجهت سيوف الروم وفارس .



(البـاب الثالث)

مرحلة الانصهار والبلورة .



(٨)

« مرحلة الانصهار »

تعد مرحلة الانصهار والبلورة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الاسلام . لقد بدأت هذه المرحلة في نفس اللحظات التي تمت فيها مرحلة التوسع الأولى في عهد الخليفة الثاني (عمر) عندما سيطرت القيادة السياسية للاسلام في المدينة على فارس والعراق والشام ومصر ، وأزالت امبراطورية الفرس وضمت ما كان تحت نفوذ الدولة الرومانية من أرض الشام ومصر ، ثم إفريقيا من بعد ، في هذه اللحظات بدأت « مرحلة الانصهار والتبلور » لهذه العناصر المختلفة التي ضمها الاسلام تحت قيادته السياسية ، وقبل أن يجمعها تحت لوائه كفكر وعقيدة . وكانت الدولة الفارسية المنهارة هي أدق وأخطر هذه العناصر ، وأقواها أثراً ، بحكم أنها أكثر حضارة ، وأكثر اعتزازاً بقوميتها ، وبحكم أنها كانت ترى العرب ـ قادة الحركة الجديدة ـ من قبل أقل من الفرس درجات في مجال الحضارة والسلطان السياسي والعسكري ـ ثم اتسعت مرحلة الانصهار والبلورة من بعد ، عندما توقفت حركة التوسع في أواخر حكم عثمان ، وبدأ أثرها الواضح في حركة الشد والجذب حول نظام الحكم إذ ذاك ، واستمرت سنوات من حكم « عثمان » وخلال حكم « علي » حتى انتهت إلى مرحلة جديدة ، هي مرحلة الملك العضوض بولاية معاوية لشؤون القيادة السياسية .

غير أن هذا الانتقال من الخلافة إلى الملك العضوض لم يكن هو النهاية . فإن عملية الانصهار والتبلور كان لا بد أن تكون طويلة المدى ، ولقد زادها

النظام الجديد حركة حيوية خلال فترة حكم الدولة الأمـوية (**٤٠ - ١٣٢ هـ**) كله .

لقد تكونت منذ أواخر عهد عثمان معارضة قوية تمثلت في فرق مختلفة ، لا نريد أن نلتزم في عرضها مناهج المؤرخين السابقين . بل نرى أنها تتمثل في دعاة المثل الأعلى ، ودعاة العاطفة ، وفئة المؤامرة على الاسلام ، وقد تداخلت العناصر الثلاثة تداخلا عجيباً ، حتى لم يكن في قدرة الكثير من الباحثين الفصل بينها . بل إن أحدها قد حاول أن ينتفع بقوة الآخر ، في سبيل تحقيق هدفه ، ثم ظهر من بعد دعاة العدل والمساواة .

وقد استطاعت المعارضة أن تنتفع بالتحول الخطير الذي شمـل المجتمـع الاسلامي كله ، نتيجة لتموجه بالعناصر المختلفة ، واتجاهـه إلى تغيير أسلـوب الحكم ، ومكانه ، وتداخل الثقافات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية ، وامتزاج القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة في هذا المجتمع الواسع المتضخم ، هنالك كانت تلك الأزمة الخطيرة التي ظهرت في ظل حكم الخليفة الثالث (عثمان) وكان لها مقدماتها في حكم (عمر) .

كان أبو ذر من دعاة العدل الاجتماعي ، والخوارج من دعاة المثل الأعلى ، وأنصار آل البيت من دعاة العاطفـة ، وعبـد اللـه بن سبـأ من قادة المؤامـرة ، يتحركون جميعاً . وربما تلاقوا ، وربما اتخذ قادة المؤامرة من منهج قادة العاطفة ستاراً ، وربمـا حاول دعـاة العـدل الاجتماعـي أن يحسنـوا الظـن بالمتآمـرين ، فاضطربـت الحياة السياسية اضطرابـاً أوقـع ذلك الصراع بـين أهـل الأمصـار والخليفة الثالث ، وأوقع الخلاف بين المسلمين والخليفة الرابع ، وانتهى ذلك كله على النحو الذي حقق قيام الملك العضوض ، بديلا للخلافة في دمشق ، بقيادة معاوية . هنالك بدأت مرحلـة جديدة من هذا الصراع استمـرت خلال حكم الدولة الأموية .

كانت الدولة الأموية بقيادة معاوية ، هي الحل الذي ارتضاه الـواقعيون لضمان « وحدة المسلمين » واستمرار سلامة المجتمع الاسلامـي ، فقـد نقلـت النظام السياسي من الخلافة إلى الملك ، ومن قلب الصحراء الى قلب المدينـة ، ولكن هل حققت مطالب دعاة المثل الأعلى ، وطلاب العدل ، ودعاة العاطفة ، لقد ظل هؤلاء جميعاً في صف خصومها ، في صف المعارضة ، واستمـرت فئـة

المؤامرة على الاسـلام ممـن زحـزح الاسـلام نفوذهـم الشـخصي ، وسلطانهـم السياسي ، لقد استمرت هذه الفئة الموتورة حرباً عليه ، غير أن غالبية المسلمين كانوا قد والوا النظام السياسي القائم في دمشق ، واعتصموا به . هؤلاء هم (دعاة الواقع) الذين كانت لهم حجبهم في قبول هذا النظام ودعمه ، حرصاً على بقاء الاسلام نفسه ودفعاً له الى الأمام .

غير أن المعارضة كانت تأخذ على حكم الأمويين مغالاته في تأكيد السيادة العربية الخالصة وتمييزها عن المسلمين من غير العرب ، مما خلق مشكلة طلاب العدل (الموالي) . وما استتبع استمرار هذا النظام من محاولات متوالية لانتقاض دعاة العاصفة (الشيعة) الذين آمنوا بحق آل البيت في تولي الحكم ، وبتمثل أبرز خصوم الأمويين من دعاة المثل الأعلى (الخوارج) الذين كانوا يرون أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم . وقد استغلـت المؤامـرة على الاسـلام كل هذه الفرق الساخطة ، وكل قوى المعارضة . غير أن الدولة الأموية بوصفها القيادة السياسية للاسلام ، قد حققت كثيراً ، اذ وسعت نطاق عالم الاسلام ، وأضافت إليه ، وعمقت آفاق الحضـارة فيه ، وإن كانـت الدولـة الأمـوية لـم تلبـث أن سارعت لضرب دعاة العاطفة ، وبلغ ذلك قمته بمقتـل (الحسـين) ، هنـالك تجمعت مختلف القوى على النظام الأموي فاستطاعت أن تسقطه .

والحق أن سقوط النظام الأموي كان تطوراً طبيعياً للمجتمع الاسلامي . فقد حقق كسر القيود التي كانت تحول دون اشتراك العناصر المختلفة في المجتمع الاسلامي على قدم المساواة بلا تفرقة وفق مفهوم الاسلام ودون سيطرة العرب على سائر المسلمين أو استعلائهم . وإذا كان النظـام العبـاسي قد كسر هذا القيد ، وأرضى دعاة المساواة فإنه لم يحقق آمال دعاة المثل الأعلى (الخوارج) ولا طلاب العدل الاجتماعي ، ولا طلاب العاطفة .

وفي هذه الفترة كانت هذه الفـرق المتعارضـة تتصـارع حول سلطـان الدولة ، فقد واصل دعاة المثل الأعلى حربهم . وكذلك واصل طلاب العـدل الاجتماعي دعوتهم ، كما واصل دعاة العاطفة حملتهم ، وافسحت عوامل الصراع الطريق لدعاة المؤامرة على الاسلام والشعوبيين جميعاً . في هذه المرحلة ظهرت حركات حملت لواء العدل الاجتماعي كالزنج والقرامطة ، وحركات حملت لواء العاطفة حاولت ان تنتصر لآل البيت الذين خاصمهم العباسيون الحكام بنـو

عمومتهم بأقسى مما خاصمهم به الأمويون . وفي هذه المرحلة نهض الفكر الاسلامي وتعمق ووسع آفاقه في مواجهة « المؤامرة على الاسلام » وظهر دعاة للدفاع عنه تحت أسماء كثيرة ، تحت أسماء المعتزلة ، والأشعرية والفقهاء ، والمحدثين ، وأهل السنة ، وفي هذه المراحل مضت حركات ثلاث في خط واحد هي :

(١) نمو الحضارة .

(٢) انصهار المجتمع .

(٣) بلورة الفكر .

وقطعت في ذلك الطريق خطوات واسعة ، في عالم الاسلام كله ، في المشرق والمغرب والأندلس ، وساعد على ذلك ودفعه إلى الأمام دفعات - بروز السلطات الاستقلالية في كل قطر ووطن ، وظهور القوى القومية الخالصة في مواطنها يحمل لواء الحكم فيها « بناة الدول » الذين كانوا في الأغلب قادة مبرزين يجمعون - في الأغلب - بين الفقه والحكم ، فقربوا العلماء ، وشجعوا الشعراء ، ووطدوا الحضارة ، وأقاموا العمارة . وفي خلال ذلك اتسع نطاق التجارة ، وبلغ الثراء مبلغه بعالم الاسلام وامتد بين الأندلس والصين في طريق ممهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصده شيء .

ولقد استطاع المجتمع الاسلامي أن يترابط ويتبلور وتنصهر فيه كل القوى وأن تجمعها روابط مفهوم الاسلام وتعلو على روابط الجنس والدم والقوميات الاقليمية . غير أن هذا الانقسام السياسي تحت خلافات ثلاث ، وفي ظل دول استقلالية ، وغلبة عناصر الخلاف بين هذه القيادات السياسية الرئيسية ، ثم غلبة الترف ، وضعف القوى العسكرية ، وتراخيها . كل هذا أغرى القوى المتراصة خارج عالم الاسلام به ، فأخذت تتأهب للانقضاض عليه وغزوه . هذا الغزو الذي بدأ أول أمره هيناً في جبهتين : جبهة الحدود البيزنطية ، وجبهة حدود الأندلس في محاولة الغرب الصامدة لرد قوة الاسلام عن أوربا ، والادالة منها وتحرير شبه جزيرة إيبريا من الاسلام أيضاً ، وحصر الاسلام في إفريقيا وآسيا ، تلك كانت خطة الغرب قامت عليها الدولة الرومانية الشرقية في شرق أوروبا ودولة الفرنجة في غرب أوربا . فقد ظلتا تترقبان فرص الضعف للانقضاض على حدود عالم الاسلام من ناحيته ، حتى اتيح لهما من بعد أن يصلا إلى هدفهما

بالحروب الصليبية التي غزت عالم المشرق ، بينا كانت الحروب الصليبية في المغرب والأندلس لا تتوقف .

والحق . إن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت - بعد توقف حركة التوسع وحتى أوائل الغزو الخارجي - أن تصل إلى مداها في (**١١٤ - ٤٨٩ هـ**) في مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر ، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والفرق المختلفة ، ما كان فيها داعياً الى تحرير السلطة والسياسة العليا من عوامل النقص والاضطراب ، وما كان منها متآمراً على الاسلام نفسه ، راغباً في القضاء على دولته أو تشويه مقومات فكره .

هذه نظرة مجملة لهذه المرحلة نفسها فيا بعد :

كان لا بد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة منذ بدأت حركات التوسع الاسلامي وخلالها وبعدها .

فقد دخلت في سنوات قليلة في عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس ، متعددة . دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها . لم يفرض عليها الاسلام . وإنما ترك لها حرية الاعتقاد ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه دعاة الاسلام يعرفون به . هنالك بدأت حركة ذات موجات عدة .

(**١**) تحول من هذه الأديان القديمة إلى الاسلام .

(**٢**) مقاومة ممن سقط نفوذهم السياسي أو الاجتماعي من الفرس وغيرهم .

(**٣**) تآمر من اليهود الذين انتزع سلطانهم ونفوذهم ، ومن سدنة الأديان المختلفة الذين أحسوا بخطر الاسلام على نفوذ معابدهم ونفوذهم الشخصي .

ومن هنا كان لا بد أن تتواتر الدعوات والحركات ، وتتصارع وتتعارك في عنف . وقد استغلت هذه الحركات خلافات المسلمين حول الحكم ، واتخذ بعضها من جانب (آل البيت) ستاراً لهم لبث دعوتهم ، وإبراز شعار براق خادع هو موالاة آل علي وأولاده ، وإدعاء التشييع .

(٩)

« حركة البلورة »

تتمثل في هذه المرحلة عدة ظواهر : قوامها :

(١) محاولة « التبلور » في فكر اسلامي عربي موحد

(٢) محاولة الانصهار في مجتمع اسلامي متكامل .

وابرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والترك بوصفها العناصر التي جمعها لواء الاسلام وحدة فكرية ، وعالم الاسلام جغرافيا في وحدة سياسية ، وقد برزت في هذه الفترة أربع ظواهر :

(أولاً) : قيام عدد منوع من الدول المستقلة في مختلف أقطار « عالم الاسلام » عبد الرحمن الداخل والدولة الأموية في الأندلس (١٣٩) الأغالبة في تونس : ابراهيم بن الأغلب (١٤٢) إدريس بن عبد الله : الأدراسة في مراكش (١٧٣) طاهر بن الحسين في خراسان (٢٠٤) أحمد بن طولون في مصر (٢٥٥) يعقوب بن الليث في فارس (٢٥٨) الدولة الفاطمية : عبد الله بن المهدي (٢٩٨) سيف الدولة في حلب (٣٣٣) السلاجقة (٣٤٥) البويهيون (٣٣٤) بنو عباد (أشبيلية) (٤١٤) طغرلبك (خراسان) (٤٢٩) دولة المرابطين (٤٥٤) (مراكش) .

ولقد تمثلت في هذه الدول حركات نشاط سياسي واجتماعي ، لا حد لها في تحريك الأمم ، وبناء الحضارة ، فاستطاعت أن تجدد شباب عالم الاسلام ، وقد قامت هذه الدول في مواجهة تحديات الحضارة والسياسة .

(ثانياً) : حركة التدوين والتقنين والترجمة والتأليف . وهي حركة

مترابطة . وقد كانت هذه الحركة في مجموعها تمثل : الدفاع عن الاسلام . ومقاومة خصومه ، ومواجهة تحديات الأديان والعقائد والمذاهب القديمة ، والوارد من ثقافات الفرس والروم والهند والفراعنة والاغريق والرومان . وقد كان موقف الاسلام من هذه الثقافات متمثلا في أصالته وسماحته وانفتاحه على الحضارات والثقافات ، فقد استصفى الفكر الاسلامي عصارات من هذه الثقافات وفق مفهومه ، وعلى قاعدته ، وداخل اطاره القائم على مفهوم التوحيد والنبوة ، وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله ، ورد ما سوى ذلك أو معارضته ونقده .

(ثالثاً) : مقاومة حركات الانقضاض من الداخل : وأبرز هذه الحركات : حركة البرامكة (**١٨٨**) حركة بابك (**٢٢٣**) حركة القرامطة (**٢٧٧**) .

(رابعاً) : مقاومة حركات الانقضاض من الخارج . وأبرزها مقاومة المسلمين للبيزنطيين (**٣٣٣**) وسقوط طليطلة في الأندلس كأول محاولة للفرنجة للقضاء على الاسلام (**٤٧٨**) والحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (**٤٨٩**) .

كبريات الأحداث في مرحلة الانصهار والبلورة من ١١٤ ـ ٤٨٩

في اواخرالقرن الأول الهجري (**٩٣** هـ) بلغ التوسع الاسلامي غاية مداه في أرض السند شرقا ، والأندلس غرباً . هنالك كان قد آن الوقت لمرحلة جديدة في تاريخ الاسلام : يمكن أن يطلق عليها مرحلة « الانصهار والبلورة » أو مرحلة بقاء الفكر والحضارة .

هذه المرحلة تستمر من خلال السنوات الثلاثين الأخيرة تقريباً للدولة الأموية التي كانت تمثل سلطان الدولة الاسلامية الموحدة ، ومن خلال الدولة العباسية التي لم تلبث أن شاركتها دول كثيرة في حكم (عالم الاسلام) .

ولعل هذا هو أكبر تطور في تاريخ الاسلام السياسي ، وهو تطور طبيعي بعد مرحلتي المدينة والكوفة ، ومرحلة دمشق ، فقد انتهى « طابع » من ولاية أمور المسلمين تمثل في (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) وبدأ نظام جديد في دمشق

امتد (٤٠ - ١٣٢ هـ) أكثر من تسعين عاماً ، كان له طابعه الواضح ، طابع الملك العضوض بوراثة السلطة ، وعهد ولاة العهود . وقد تمثل في هذه المرحلة طابع الحكم العربي الخالص ، وفي خلالها توسع عالم الاسلام إلى أقصى مداه الذي بلغه ووقف عنده ، حدود الصين مشرقاً ، والاندلس من غرب أوربا . ولما كان هذا الحكم عربياً خالصاً فقد استهدف لكثير من النقد والتآمر ، وكان من الطبيعي أن يتطور من ناحيتين : « الأولى » أن تشارك فيه كل الأجناس وأبناء الأوطان التي انضوت تحت راية الاسلام كالفرس والترك والمصريين والبربر « الثاني » أن يضعف نفوذ السلطة الجامعة في « بغداد » ويبرز من كل قطر قادة يستقلون بالأمر ، ويتابعون الخلافة بالولاء أو ينفصلون عنها ، وقد أعطت هذه المرحلة تطبيق هذين الأمرين كأوسع ما يكون التطبيق ، وأضاف ذلك لعالم الاسلام مزيداً من التقدم الحضاري ، وإن أصابه بكثير من التمزق والضعف . غيرأن الذي يلفت النظرحقاً هو ذلك التفجرالحي للطاقات الخلاقة في كل أجزاء عالم الاسلام بحيث لم تتوقف موجات النهضة ، أو التجدد ، وقد أبرزت هذه المرحلة وما تلاها من مراحل عديداً من بناة الدول النوابغ الذين جمعوا بين الثقافة الاسلامية والقوة الحربية ، او بين القدرة على الحكم ، والبراعة السياسية ، واستطاعت كل القوى التي ترى أنها خليقة بأن تسود سياسياً والتي تحمل فلسفة ما . أو مذهباً ما . من مذاهب السياسة او الاجتماع أن تحرز انتصاراً بأن تلي الحكم في منطقة ما . فالفرس ، والترك ، والمصريون ، والتونسيون ، والمغاربة ، والبربر ، والفاطميون ، والشيعة ، والمعتزلة جميعاً استطاعوا أن ينفذوا الى مجال الحكم والسياسة . ولم تعد سلطة الولاية العامة قاصرة على العرب وحدهم ، ما عدا الخلافة التي ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وكانت الصورة على هذا النحو :

كبرى الأحداث (١١٤ ـ ٤٨٩ هـ)

٣٨٨ هـ محمود الغزنوي (السند) : ٩٩٨ م ـ ٤١٤ بنو عباد (أشبيلية) : ١٠٢٣ م
٤٢٠ طغرلبك (خراسان) : ١٠٣٧ ـ ٤٥٤ دولة المرابطين (مراكش) : ١٠٦٢
٤٥٦ نظام الملك : ١٠٦٣ ـ ٤٧٨ سقوط طليطلة : ١٠٨٥
٤٥٤ دولة المرابطين (مراكش) : ١٠٦٢ ـ ٤٦٤ معركة ملاذكرد: ١٠٧١
٤٧٩ يوسف بن تاشفين يهزم الفرنجة في الزلاقة : ١٠٨٦
٤٨٩ الحملة الصليبية الأولى : ١٠٩٦ ـ ١١٤ بلاط الشهداء : ٧٤١ م
١٣٣ ـ الدولة العباسية : ٧٥٠ م .
١٣٩ ـ عبد الرحمن الداخل : الدولة الأموية في الأندلس : ٧٧٥ م
١٤٢ الأغالبة في تونس (ابراهيم بن الأغلب) : ـ ١٧٠ هارون الرشيد (بغداد)
١٧٣ ادريس بن عبد الله (مراكش) ـ ١٩٨ المأمون : ٨١٣
٢٠٤ طاهر بن الحسين (خراسان) ٨١٩ ـ ٢٣٣ المتوكل والسنة : ٧٤٧
٢٥٥ أحمد بن طولون (مصر) ٨٦٨ ـ ٢٥٨ يعقوب بن الليث (فارس) : ٧٨١
٢٩٨ الدولة الفاطمية (عبد الله بن المهدي) : ٩١٠
٣٠٠ عبد الرحمن الناصر (الأندلس) : ٩١٢
٣٣٣ سيف الدولة وحروبه ضد البيزنطيين : ٩٤٤
٣٤٥ هـ السلاجقة : ٩٥٦ ـ ٣٣٤ البويهيون في بغداد : ٩٤٥ م

* * *

وقد جمعت هذه المرحلة بين ظاهرتين مترابطتين : حركات بناء الدول ، وقيام الحكومات المستقلة في كل أجزاء عالم الاسلام ، وظهور قادة الفكر في مختلف جوانب السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم . ولقد كانت دعوات المفكرين أحيانا بمثابة رد على تحديات السياسة ، أو تجديداً لجوانب أصابها الجمود ، أو تصحيحاً لقضايا اضطربت مفاهيمها أو تجافت مع مفهوم الاسلام .

ومما يلفت النظر أن هذه الدول التي قامت خلال تلك الفترة ، لم تستطع البقاء والصمود فترات طويلة . فكانت تقوم برجل او رجلين أو ثلاثة لتهوي ، لتقوم مكانها دولة أخرى برجال آخرين ، ولكن الظاهرة الواضحة أن « بناة الدول » كانوا قادرين دائما في عهد ازدهار دولهم على البناء والنهضة ، والعمل ، وكانوا حفيين بالعلماء والأدباء والفقهاء ، وكان طابع الاسلام وإطاره واضحاً متمثلاً .

مرحلة بناء الفكر والحضارة

لم تكن هذه المرحلة هي مرحلة تراخ وترف فحسب ، إذ انتهى المسلمون من اعمال الفتح والتوسع ، ومن هنا بدأ عهد الكلام والصراع الفكري ، كما يقول بعض كتاب الغرب ، ولكن الحقيقة ان الاسلام الذي توسع في الآفاق على هذا النحو في مرحلة (الابعاد) كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية في طريق نموه هي مرحلة (الأعماق) ، وهي مرحلة طبيعية لا شك فيها . فقد التقى الاسلام الذي أقام « دولة » بتراث ضخم ، وقضايا ، ومعضلات في مجال الفكر والقانون والاجتماع ، كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه . ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته ، وهي الأصالة المتجددة القادرة على إيجاد حلول لقضايا جديدة ليس لها سابقة في القرآن والحديث ، والانفتاح بالقدرة على تقبل الثقافات والحضارات ، وامتصاص التراث العقلي السابق على وجوده وتمثله وإذابته في كيانه كقوة جديدة دافعة الى الحياة ، وقد واجهته في هذين المجالين أعظم تجربة . فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويمتصوا في تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحو من القدرة والعمق والحرية . فأخذوا ما زادهم قوة ، ورفضوا ما لا حاجة لهم به ، أو ما يختلف مع جوهر فكرهم : ثم صاغوا هذا التراث مرة اخرى صياغة جديدة في إطار قيم « الاسلام ومقوماته » واتخذوا منه سلاحاً ماضيا في مقاومة خصوم الاسلام .

(١٠)
ازمة الحضارة

إن مقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل بخنجر أبي لؤلؤة ، كان علامة على ذلك التحول الخطير ، والأزمة العنيفة التي انفجرت بعد أكثر من عشرة أعوام من حكم عثمان . هذا الموقف الذي اتصل بعثمان وأدى إلى مقتله ، واتصل بعلي وأدى الى مقتله ، وأقام هذه الرحلة الدقيقة العجيبة منذ أواخر حكم عثمان ، وطوال حكم علي ، إلى أن ولي معاوية سلطة الحكم الاسلامي العامة ، لا شك أن هذه الأزمة بالغة الدقة ، فهي ذات أطراف عديدة ، أطرافها بين عثمان وأهل الأمصار ، وبين عثمان وأهله ، وبين علي والصحابة ، وبين علي وأنصاره ، وبين علي ومعاوية .

وهي تتخلص في ثورة أهل الأمصار على عثمان ، ثم قتله ، ثم ولاية علي وخلافه مع الصحابة ، والاصطدام بهم ، ثم خلافه مع الذين خرجوا عليه ، ثم موقفه مع معاوية ، وانحسام الموقف بخروج ثلاثة لقتل علي ومعاوية وعمرو ، وقتل علي ونجاة معاوية وعمرو . وقد حدثت هذه الأزمة كلها في خلال خمس سنوات أو تزيد قليلا ، ولكن مقتل عمر بن الخطاب بخنجر أبي لؤلؤة قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، يكاد يكون علامة على الموقف الجديد الخطير الذي بدأت تواجهه سلطة الحكم الاسلامي العامة في المدينة بعد اتساع نطاق الدولة الاسلامية وإسقاطها امبراطوريتي فارس والروم ، فقد اتسع عالم الاسلام

بدخول عناصر جديدة مختلفة إليه ، كانت ذات حضارات وأديان . وقد تجرد كثير من قادتها من النفوذ والسلطان . وفي مقدمة ذلك المجوس واليهود الذين عقدوا العزم على التآمر بالاسلام ، ومحاولة القضاء عليه . وقد أدى التحقيق في مقتا عمر بن الخطاب بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي إلى أنه جاء نتيجة خطة دبرها (الهرمزان) الذي كان يقيم في المدينة بعد أن سقط نفوذه في فارس ، فتجمع ومن تآمر معه على الانتقام من شخص عمر بن الخطاب الذي ساند التوسع الاسلامي ودعمه ، واستطاعت الدولة الاسلامية في ظل حكمه أن تقوم .

ويعطينا حادث مقتل عمر بن الخطاب على ما عرف به من رفعة العدل ، علامة على ذلك التحول الذي بدأ يفرض أوضاعا جديدة ، هي أوضاع الحضارة ، وصراع الثقافات والمدنيات ، وتلاقي الأديان والمذاهب ، ومحاولات خصوم الاسلام كدين ، وخصومه كدولة ، في العمل عن طريق الدس والتآمر بعد أن سقطت أسلحة الحرب والقتال .

وقد امتد هذا التحول في عهد عثمان ، ووجد طريقاً أشد فسحة واندفاعاً ، إزاء خليفة ليس له سطوة عمر ولا قوته الشابة ، فقد كان عمر قويا على نفسه وعلى أهله ، عادلا شديد العدل ، يقظا متنبها إلى تطورات الأمور ، حتى لا تبغته . وقد عاش عمر أيام التوسع ، وعاش عثمان أواخرها . إذ امتد التوسع في عهده وبلغ غايته في المغرب والمشرق . غير أن السنوات الطويلة في خلافة الرجال الثلاثة التي مضت (هي أكثر من ربع قرن) قد أحدثت تطوراً في الفكر والحياة ، وأضافت معضلات جديدة ، وفتحت أبواب قضايا متعددة في السياسة والفكر والمجتمع نفسه وقل التوازن بين مقر الحكم في قلب الجزيرة العربية وبين حواضر الدولة الواسعة التي انصرف إليها الصحابة ، فأقاموا بها وملكوا ، وبدأت عملية تطور ضخمة تريد أن تذيب المجتمع الاسلامي كله في بوتقة واحدة . هذا المجتمع الذي بدأ في الجزيرة والصحراء صغيرا ، ثم اتسع نطاقه وشمل العرب والروم والفرس والترك والبربر والفراعنة والهنود . كانت فترة حكم عثمان هي أدق مراحل النمو والتحول من مجتمع بسيط صحراوي إلى مجتمع دقيق مركب ، وكان هذا التطور قويا عاصفا من العسير مقاومته ، أو الوقوف في وجهه أو ضبطه على النحو الذي كان يضبط به حكم الجماعة الاسلامية

في المدينة ، ولما يتجاوز الاسلام الجزيرة العربية . ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذي لا حد له ، وكانت تلك المواقف المفاجئة المتوالية التي عجز القادة عن مواجهتها ، وايجاد حلول سريعة لها مما دفعها إلى التفاقم والتضخم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا التطور لم يكن طبيعيا يجري في تيار واضح محدد إلى غايته المرسومة ، وأن هناك قوى معينة كانت تفرض عليه اتجاها معينا . وأن هذه القوى من المجوس واليهود قد رسمت مخططا دقيقا لتمزيق جهة الاسلام ، وإيجاد صدام ضخم ، وأن هذا المخطط قد حمل لواءه « عبد الله بن سبأ » وسار به سيرا دقيقاً ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة ، رمى بها إلى ضرب الوحدة الاسلامية ، وتمزيق الجماعة الاسلامية . إذا ذكرنا هذا كله عرفنا الى أي حد كانت هذه الأزمة الداخلية الكبرى .

وكان عمر يمسك الصحابة في المدينة ، ولا يسمح لهم بمبارحتها إلى الأمصار ، حتى ضاقوا بذلك أشد الضيق ، وتمنوا نهايته ، فإذا سمح لهم عثمان من بعد تحول موضع الثقل الذي كانت تمثله « المدينة » بصفوة أهل الرأي فيها ، كما ظهر جيل جديد غير جيل النبوة الذي أخذ ينقرض . ومن هنا بدأ التحول واسعاً في نظام الحكم وعناصر المجتمع ، واستتبع مواجهة شاملة بما يتلاءم مع التغير الشامل والعناصر الجديدة ، وإفساح نطاق البحث واشتراك الأجناس المختلفة في الحكم والسياسة ومختلف شؤون الاجتماع والاقتصاد بما يوائم مرحلة التحول والتطور والانتقال بما يبرز فيها من مشكلات وقضايا ومعضلات .

ومن هنا كان لا بد للتيار الجديد أن يمضي في الطريق الذي رسمه له المتآمرون على الاسلام ، ما لم يكن هناك ما يحول دون رده ، أو تعديله ، ومن هنا وقعت تلك الأحداث المتوالية المتصلة التي لم تتوقف إلا بأمرين خطيرين ، هما :"امتداد للتحول ونتيجة له . (١) نقل مقر السلطة الحاكمة الرئيسية من الجزيرة العربية إلى (دمشق) حيث الحضارة والمدنية (٢) تحول الخلافة إلى الملك العضوض بمراسيمه ومناهجه وأساليبه ممثلة في (معاوية) الذي نهج نهجا عصريا حديثا يتمثل فيه أسلوب الحاكم الناجح القادر على تركيز سلطته في وجه أنصاره وخصومه على السواء . ولكن هذا المنهج الذي كان يرسم نظاما ناجحا للحكم متخلصا من قيود كثيرة ، والذي نجح نجاحا مؤقتا ، لم يكن هو

الأسلوب الذي يتمثل مفهوم الاسلام كاملاً ، وإن تحرك في إطاره . فلم تلبث بعد ذلك أن ظهرت معضلة المعضلات في تاريخ الاسلام كله . تلك هي قضية العرب وغير العرب من المسلمين » مما يطلقون عليها قضية الموالي ، أو قضية الصراع بين الفرس (الموالي) والعرب ، وما أثير حول ذلك من نتائج لسياسة الأمويين في مواجهة « بني هاشم » وأهل البيت والعرب من غير قريش وغير العرب من الأجناس الأخرى ، وما بلغ من التفرقة بين العرب وغير العرب . مما كان عاملاً في تمزق الوحدة الاسلامية .

ويمكن إطلاق اسم معركة الحضارة على الموقف الذي بنت منذ تولي عثمان الحكم ، ثم تولاه « علي » حتى معاوية ، وإن اي محاولة لتصوير عثمان بارتفاع السن أو موالاة بني أمية ، أو بالتماس مؤامرة عبد الله بن سبأ ، إنما هي عوامل اضافية للخطر الأكبر : خطر التحول من البداوة الى الحضارة . إن الأمر كله أوسع من ذلك ، وبنظرة فوقية واسعة يمكن ان نرى المجتمع الاسلامي وقد اتسعت آفاقه ، فبلغ مدىً بعيداً ، ودخلته عناصر متعددة من امم وديانات وأجناس وشعوب ، ونرى كيف يحاول المجتمع أن ينصهر في بوتقة واحدة إطارها الاسلام ، وقوامها حكومة ودولة ، ونظام جديد ، مغاير تمام المغايرة للنظم القديمة ولسلطات الحكم الفارسية والرومانية ، وبمفاهيم جديدة ، حيث تتجمع القوى القديمة الفاقدة لسلطانها في مؤامرات للانتقاض ، وفي محاولة للقضاء على القوة الجديدة ، وفيما تذهب « أيديولوجيا الاسلام » في توطيد دعائمها ، والدولة الاسلامية في بناء قواعدها ، والمجتمع الجديد في محاولة الامتزاج والتداخل ، كان هذا الصراع لا بد أن يطفو على السطح في صورة هزة ضخمة طويلة المدى ، تريد أن تحقق تغيرا شاملاً قوامه :

(**١**) الانتقال من الخلافة الى الملك (**٢**) الانتقال من الصحراء الى المدينة (**٣**) بناء نظام سياسي واجتماعي جديد ، إطاره مفهوم الاسلام ، وتتمثل في كيانه مفاهيم عديدة من حضارات الروم والفرس والفراعنة والبربر ، تحاول أن تنصهر كلها في حضارة جديدة « عربية اسلامية » ووفق لغة جديدة هي « اللغة العربية » وفي نطاق دولة مدنية ، فكأنما التاريخ كان يجري ويتحرك بقوة إلى دولة أموية عاصمتها في « دمشق » كمرحلة أولى لبناء يستمر (من عام **٤٠** إلى عام **١٣٢**) أكثر من تسعين عاماً .

كان عهد أبي بكر وعمر هو عهد بناء الدولة الكبرى ، وفتح الطريق أمام الاسلام في انطلاقته الجبارة ، وقد تحقق في ظل عمر أكبر قدر من هذا النمو والتوسع الجريء القوي ، وفي ظل عثمان ، ثم توسع في طرق الجناحين (الهند) و(المغرب) .

« عصر عثمان »

انتهى عصر عمر بعد « عشر سنوات » من حكم عادل دقيق يمثل ذلك العصر العجيب . وتلك المرحلة الدقيقة في تاريخ الاسلام كله ، المرحلة التي تم فيها قيام « دولة الاسلام الكبرى » على أنقاض الامبراطوريتين الفارسية والرومانية في فارس والعراق والشام ومصر . وبدأ ذلك التطور الخطير في بناء الأمة الاسلامية : اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا . وجاء عصر عثمان خلال خمسة عشر عاما مختلفاً كل الاختلاف مع عصر عمر وشخصيته ، فهو امتداد له ، ولكنه امتداد مغاير بحكم الزمن نفسه ، وبحكم شخصية الخليفة وتصرفاته ، زادت رقعة عالم الاسلام خلالها ، وامتدت وبدأت عوامل التعقد والتغير بصورة اوضح ، فقد التقت عناصر المجتمع الجديد في أقطار متعددة ، تحت سلطان دولة « المدينة » في قلب الصحراء على بساطتها ، وحيث خرج الصحابة الى الأمصار فأقاموا فيها ، وحيث ازداد الثراء وتدفق المال ، وبدأت معضلات جديدة تبعاً لذلك التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري ، ولم تكن آثار التعير بسيطة ، بل كانت متعددة ومعقدة ، وكانت في حاجة الى مواجهة من الخارج ، مواجهة تقدير شامل للموقف ، كان التطور أكبر من طاقة القيادة السياسية في المدينة ، وفي خلال هذه المرحلة برزت ظاهرتان خطيرتان (١) ظاهرة سمحة كريمة ، يتمثل فيها أول صوت لدعاة العدل الاجتماعي ، تتمثل في « أبي ذر » . (٢) وفي نفس الوقت ظهرت دعوة معارضة عنيفة دقيقة ماكرة ، هي دعوة « عبد الله بن سبأ » تتكيء على اسم آل البيت وحق علي وآل البيت في الحكم والخلافة . وكان دهاء ابن سبأ عميقاً . فقد حاول أن يفيد من دعوة أبي ذرّ . فإذا لاحظنا أن خطرين كانا يحيطان بالموقف كله ، هما خطر اليهود ، وخطر أصحاب السلطان المنترع من الفرس ، عرفنا إلى أي مدى أمكن للموقف أن يضطرب ، وكيف أمكن لهذه القوى التي تريد أن تديل من دولة الاسلام ومن الاسلام نفسه أن تتحرك ، وأن تفيد من هذه الخصومة العنيفة التي تمثلت من قبل في مقتل عمر ، حين أخذت المؤامرة طريقها هادفة إلى مصارعة القيادة السياسية الحاكمة في

المدينة . في ضوء هذا كله يمكن النظر إلى حركة عبد الله بن سبأ ، فمهما قصد خصوم الاسلام ومن تابعهم من دعاة الشعوبية والتغريب إلى التقليل من شأن ابن سبأ ودوره وإنكار وجوده ، فإن الاجماع منعقد على أن حركة التآمر على الاسلام ممثلة في أصحاب النفوذ من الفرس ، أو المتآمرين مع اليهود ، قد وجدت فرصتها في ظل حركة التحول الكبرى ، والتوسع الحضاري التي برزت في عهد عثمان بعد توسع آفاق الجماعة الاسلامية ، وانبساط نفوذها .

ولا شك كان اليهود والمجوس : أشد خصوم الاسلام حملة عليه : فقد أطفأ الاسلام نار المجوسية بعد ألفي عام إلى الأبد ، ودخلت فارس في عالم الاسلام ، وقام المسجد الأقصى على انقاض الهيكل . فكانت الحملة على أبي بكر وعمر ، وعثمان وابي عبيدة ، وخالد وسعد ، ولما كان خصوم هؤلاء لا يستطيعون أن يحاربوا في جبهة مكشوفة ، فلا بد من أن يدّعوا اعتناق الاسلام ، وأن يوزعوا أنفسهم بين صفوف المسلمين يثيرون الشبهات والأحقاد ، وكان شعارهم الذي وجدوه وسيلة مغرية لاقتحام قلوب المسلمين هو « آل البيت » .
كان عبد الله بن سبأ على رأس هذه المؤامرة « يهوديا » ادعى الاسلام ووالى عليا ، ونقل الى الاسلام مفاهيم اليهودية والمجوسية حين قال بتأليه على ، وقد أنكره « على » ونفاه وأبعده ، ولكنه مضى يبث دعوته في تدرج ودهاء ، واستجاب له بعض الناس ، وتكونت له حركة ودعاة ، وفهم أعوانه أغراضه ، فساروا في الأقطار يحملون مفاهيمه ، وقد أتاحت له فرصة الخلاف إعداد نفر من الدعاة . انبثوا في الفسطاط ، والكوفة ، والبصرة ، عملوا على التأثير في أبناء الزعماء وقادة القبائل . فاستجاب لهم الضعفاء والكارهون . من هذه النقطة بدأ ذلك الخط الذي اتسع من بعد ، وحمل لواء المؤامرة على الاسلام ، واستغل مختلف الأحداث ، وكان مؤثراً في المواقف المختلفة ، وكان لهذه الحركة أثرها في موقف الثورة على عثمان . وفي تأليب الناس عليه ، وفي ترويز قصة الخطاب التي أبلغ الخلاف بين وفود الأمصار وعثمان غايته ، هذا الخطاب الذي كتبه باسم عثمان وأعطاه لأحد رجاله ، ثم رصد له من صادره منه ، فأججج الموقف وأدلع نار الثورة .وقد ثبت أن الخطابات التي نسبت الى عثمان واستند اليها خصومه في أمر قتله كانت مزورة .

دعا ابن سبأ إلى الطعن في تصرفات الحكام ، فالتفت حوله العامة ، وقد

اسطاع أن يعمل في البصرة وفي الكوفة وفي الشام وفي مصر ، وكانت كلمته هي الطعن في عثمان وولاته ، والدعوة لخلافة علي بوصفه وصي الرسول . ولقد استطاع ابن سبأ ان ينفذ إلى الشيخ الزاهد (أبي ذرّ) وأن يستغل دعوته البريئة ، وينشر آراءه في مجالسه ويغريه بالحكومة ويحرضه على الأغنياء ، وكان يعلن في كل مصر وقطر : « هذا علي وصي الله فانهضوا في هذا الأمر وحركوه ، وأبدأوا بالطعن على أمرائكم » وقد وجد في مصر مرتعا خصيباً . وكان ابن سبأ من يهود اليمن ادعى الاسلام ، وقرأ كثيرا من التوراة ، وخلط تعاليمها بالقرآن ، وأدخل إلى مذهبه مفاهيم الفرس القديمة المتمثلة في خطط المجوسية ، فلما اشتد ساعد دعاته في هذه الأقطار ، ونما ذلك التيار بالخصومة على عثمان ، وجه الثوار الى المدينة من كل قطر ، وذهب هو من خلفهم يدبر لهم الخطط . ومن ثم استطاعت حركة ابن سبأ أن تزعزع السلطة السياسية الاسلامية .

ولا شك أنه كان هناك ارتباط واتصال بين موقف الهرمزان وأبي لؤلؤة ومن ورائهما أسماء كثيرة ارتفعت أعلامها : عبد الله بن يسار ، وأبو بكر الكروسي ، ورشيد الهجري ، ومحمد بن أبي زينب ، وصنيفان الطاق ، وجهم بن صفوان ، وهشام بن الحكم ، وأبو حالم الجواليقي ، والأحوص بن إسحاق القمي ، وكثيرون . هؤلاء كانوا من أولياء المجوسية الحاقدين على الاسلام ، كانوا يأخذون على الاسلام أنه أخضع الدولة الفارسية للاسلام ، وأطفأ نار المجوسية ، وأقام المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل ، وكان الهدف هو التخلص من زعماء الاسلام وأئمته ، فانخرطوا بدعوة اعتناق الاسلام لتنفيذ المؤامرة . ولم يجدوا فكرة يتسترون بها ، ويحاربون في ظلها ، إلا فكرة آل البيت التي تجد من جماهير الناس عطفا ، وتهز مشاعرهم وأحاسيسهم ، وقاد الحركة جميعها « عبد الله بن سبأ » الذي كان يقول في يهوديته : إن يوشع بن نون هو وصي موسى . فلما أسلم قال : إن علي ابن أبي طالب هو وصي محمد ، وهناك إجماع على أنه أول من أشهر القول بإمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، ولقد عارض الامام علي كرم الله وجهه قولة ابن سبأ ولعنه ، وطارده ونفاه ، وأنكر دعوته في مختلف خطبه على منبر الكوفة ، وفي قوله « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر وعمر » وقد روي ذلك عنه من ثمانين وجها ورواه البخاري .

وقد بلغ من دهاء ابن سبأ أو ابن السوداء . أن كان يبث دعوته في كل مكان

على وجه مختلف زيادة في التآمر على صحابة رسول الله ، فكان يبث في جماعة الفسطاط الدعوة لعلي ، وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة ، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير ، وهو الذي زور الكتاب على عثمان إلى حامله بمصر ، بدليل أن حامله كان يتراءى لهم متعمداً ، ثم يتظاهر بأنه يكتم عنهم ليثير ريبتهم . وفي اعتقادي أن هذا هو مصدر الأزمة العنيفة التي واجهها النظام الاسلامي في هذه الفترة ، هذه الأزمة التي أودت بعثمان ثم بعلي ، والتي قسمت المسلمين ، وأوقعت بهم ذلك الصراع الرهيب حتى استشهد الامام علي .

أما ما نسب إلى عثمان من أمور تتعلق بإسرافه في تقريب أهله ، أو اعطائهم وإعطاء سائليه . فتلك أمور لا تؤدي إلى مثل هذه المؤامرة الضخمة ولا تدفعها على هذا النحو الخطير البالغ الاحكام من حيث التآمر والتنفيذ ، ولا شك قد مهدت لذلك العوامل التي واجهها المجتمع الاسلامي في مجال التبلور والانصهار .

فقد كان عصر عثمان عصرا جديدا تفتحت فيه آفاق الثراء ، وتدفقت فيه الأموال ، وإن ما حدث من تحول هو تحول طبيعي بدأت بوادره في أواخر عهد عمر . وإذا كان لكل عصر من عصور الخلفاء الراشدين طابع ولون يستمد من العصر ، ومن مقومات شخصية الخليفة نفسه ، فإن عمر كان مظهر الزهد . بينما كان عثمان مظهر الثراء والعطاء . ولقد أعطى عثمان من ماله وأنفق . ولم يعط أهله فقط بل أعطى الجميع . وقد كشف عن مفهوم الاسلام وسماحته بالنسبة للحضارة والتخلص من البداوة .

وقد استطاع ابن سبأ أن يذيع نظرية دخيلة على مفهوم الاسلام هي نظرية الحق الالهي والوصاية حين قال : (إن لكل نبي وصيًا ، وإن عليًا خاتم الأوصياء . كما أن محمداً خاتم الأنبياء) وهي نظرية فارسية أصلاً ، ومعناها أن عليًا هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وقد تصدى « علي » للجموع الزاحفة على المدينة ، وكشف لهم عن خطأ ما ذهبوا إليه ومخالفته لجوهر الاسلام ، وما يؤدي إليه من إضعاف لوحدة المسلمين ، وواجه عثمان الثائرين بما أقنعهم بسلامة موقفه ، حتى أنهم قفلوا راجعين ، وأحسّ ابن سبأ أنه أوشك على الهزيمة ، وأن الهدف الذي يعمل له سنوات قد فشل ، هنالك اهتدى إلى الحيلة ، فاختلق قصة الخطاب ، وروى أن الثائرين رأوا رجلاً يمشي على بعد منهم ، وأنه يحاول أن يختفي عنهم ، أو يخفي شيئا في ثيابه ، فشكوا في أمره ، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه ، فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان . وفي الخطاب أمر الى والي مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ، هنا جاشت الفتنة مرة أخرى وعاد الثوار الى المدينة . وقد أقسم عثمان أنه لم يكتب هذا الكتاب ، وثبت من بعد أن هذا الخطاب زوّره عبد الله بن سبأ ، ولكن عثمان قتل وهرعت الجماهير إلى « علي » تبايعه بالخلافة : وقال « علي » : إن هذا الأمر ليس لكم ولكنه لأهل بدر .

وبدأت سنوات علي الخمسة في الحكم عصيبة مضطربة . كان « علي » امتداداً لحكم أبي بكر وعمر . بيد أنه كان بينه وبين ذلك خمسة عشر عاما وأحداثا وتطورات ، ولم تكن مفاهيمه المثالية وفلسفته الأصيلة قادرة على أن تمضي في الطريق . . إذ كانت مفاهيم المجتمع الاسلامي قد تطورت وتبلورت في صورة أخرى خف فيها طابع الايمان الخالص . فبدا « علي » وكأنه غريب عن مجتمعه وكان « معاوية » أكثر قدرة على العمل منه ، ومر « علي » بذلك المضطرب في معارك ثلاث : مع الصحابة ، وعائشة ، ومع شيعته والخارجين عليه ، ومع معاوية . كان ينتصر في كل موقف بالحق ، ولكن التحول النفسي والاجتماعي كان يكشف عن أنه غريب عن أساليب السياسة ، كان يعمل في ظل « المثل العليا

للاسلام » وكان التطور يفرض غير ما يريد . فلم تكن نهايته الا تمثلاً لانطواء منهج قد بعد عنه عصره ، وأسلوب مضى زمنه . وكان معاوية إعلانـا لتطـور جديد في الخلافة والحكم والملك .

كانت قضية مفهوم السلطة السياسية العليا في الاسلام هي أولى المعضلات التي واجهت المجتمع الاسلامي ، فكانت مصدراً لظهور « حـركة المعارضـة » التي تمثلت في أكثر من فرقة أو حزب : أبرزها دعاة المثـل الأعلى (الخـوارج) ودعاة العاطفة (آل البيت) . ان الاسلام لم يرسم في مجال الحكم والقيادة نظاماً محدداً ، تقديراً لتطور الأمم وتحول العصور ، ولكنه وضع « مقومات أساسية » هي : الشورى ، وحق اختيار الشعوب لحكامها ، دون أن يكون هذا الحاكم من جنس معين ، أو دم معين ، وأن ينصب هذا الحاكم ما ارتضاه الفارسي ، ولو كان عبداً جيشا . ذلك لم ينص الرسول نصّا صريحاً على من يخلفه ، وكان اختيار أبي بكر طبيعيا قريباً إلى منطق الأمور وتطور الأحداث ، فهو صاحب رسول الله ، وأول المؤمنين به ، وأكبر الصحابة خبرة وذكاءً . وقد كانت مواقفه في خلال عامي ولايته غاية في الحسم والقوة . فقد واجه « الردة » بمفهوم تابع به النبي وحفظ به مقومات الاسلام ووحدة المجتمع الاسلامي ، كما دافع المؤامرة على الاسلام ، ووسع نطاق عالم الاسلام ، وكان اختياره لعمر من بعده مرضيا عنه من جُلّة الصحابة والمسلمين وكان امتداداً طبيعيا .

وجرى اختيار عثمان وفقاً لخطة دقيقة ، ثم اختار المسلمون عليّا . وحين عقد أبو بكر لعمر لم يكن مستبدًّا برأيه ، بل استشار الصحابة فيه ، فأثنوا عليه وأقروا رأيه في استخلافه ، وهو لم يرغم جماعة المسلمين على قبوله ، وبذلك كان اختيار الخلفـاء الراشـدين الأربعـة انتخابـاً حرّا شوريّا . غير أن توسـع « المجتمـع الاسلامـي » في ظل عمـر ، وانفتـاح الجـزيرة العـربية على عالمي الامبراطورية الرومانية والفارسية الخاضعين للعالم الاسلامي ، قد خلق معضلة سياسية واجتماعية واقتصادية ضخمة ، امتدت أواخر حكم عثمان ، وخلال حكم علي ، وانتهت بتحول في نظام الحكم وفي مكان سلطة الحكم جميعـا وأصبـح « معاوية » رأس التنظيم السياسي في الدولة الاسلامية ، بعد خلافة الراشـدين يمثل مرحلة جديدة من النظام والحكم أقرب الى نظام الملك العضوض منها الى نظام

الخلافة الجمهوري . ومن هنا بدأ « نظام حكم » مستقر في وضع وراثي ، يتمثل في ولاية العهد .

وقد التمس المؤرخون والباحثون في تاريخ الاسلام لمعاوية عذراً في هذا الاجراء ، ومنهم من عدّة تطوراً ، طبيعيا للأمور ، فقد كانت الأحداث المتوالية التي قضت بمقتل الخلفاء الثلاثة « عمر وعثمان وعلى » تتطلب إجراءات جديدة حاسمة ليس لها طابع بساطة نظام الحكم في المدينة . مع تعقد الأمور ، واتساع الدولة ، وتعدد العناصر ، فهو في نظرهم اتجاه ضروري فرضته الظروف والأحداث التي واجهها المجتمع الاسلامي إذ ذاك .

ولا شك كان أبرز تحول في منهج السياسة الاسلامية العليا هو : إقرار الحكم في أسرة بالتوارث ، ولا شك في رأينا كان لهذه الظاهرة دوافعها وضروراتها ، وكان لها أخطارها ومضارها وآثارها العكسية . لقد بدأ الاسلام جمهوريا شوريًا ، يتيح الفرصة لاختيار الخليفة وانتخابه ، ثم تحول إلى نظام ولاية العهد ، ووراثة الملك تحت ضغط ظروف معينة كانت تواجه (معاوية) أول من سَنّ هذه السُنّة ، فقد جاء معاوية عقب صراع عنيف ، تشققت فيه فرق وخلافات ، وتعرضت فيه الدولة الاسلامية للخطر الشديد ، فضلا عن أن نظام الدولة كان قد تحول تحولا واسعاً من الخلافة ، إلى الملك العضوص،هنالك رأى معاوية ورأى من معه أن يأخذ بنظام ولاية العهد إبقاءً على فترة استقرار أطول ، ثم توالى هذا النظام من بعد ، ولم يعد هنك مجال لتغيره . وقد حقق هذا النظام باستقراره نتائج كثيرة في مجال النمو الحضاري والاجتماعي والاقتصادي .

غير أن هنك عاملاً هاما ظهر فيا بعد ، هو قيام الأنظمة الاستقلالية ، والحكومات التي يستقل أمراؤها بقطر أو بآخر ، حين يبرز فيها واحد من « بناة الدول » فيسيطر على الحكم ، ويعلن الولاء للخليفة ، بل إن (بغداد) نفسها عاصمة قد تعرضت من بعد لذلك ، حين ظهر نظام السلطنة ، وحيث قام بالحكم « سلطان » نيابة عن الخليفة نفسه . وقد كان لهذا النظام الاستقلالي نتائجه الهامة والضخمة في نمو الحضارة وبناء الدول ، فقد كان كل حاكم من هؤلاء الحكام حريصا على أن يعمل ما وسعه العمل في سبيل إنهاض الأمة التي

وليها ، وتقريب العلماء وتشجيع المفكرين ، وإن لم يطل عمر هذه الدول أو تستمر كثيراً ، فقد كانت تنطوي صفحتها أحيانا بانتهاء بانيها فهي ما تكاد تدخل في نظام وراثة الملك حتى تدخل في مرحلة الضعف ، ثم تتلاشى لتقوم غيرها مكانها ، وأحيانا كان الذين يلون الحاكم الأول ، أكثر منه قوة ونهضة ، وربما زادوا عما قدمه سابقهم ، ولكن هذه الدول كلها ظلت تبرز وتتألق وتختفي ، وتحل محلها دول أخرى ، وفي مختلف انحاء العالم الاسلامي منذ توقفت حركة التوسع ، وفي ظل الدولة العباسية وما بعدها في العصر العثماني .

***

ومن الحق أن ظهور الدول الاستقلالية كان أمر طبيعيا لا بد منه ، لاتساع نطاق الدولة ، وتباعد الأقطار عن مقر السلطة ، وأنه كانت له آثاره من بعد تمزق الوحدة الاسلامية ، غير أنه لم يكن ممكنا أن تظل الوحدة المتمثلة في إطار الدولة قائمة طوال القرون الاعلى أساس يقظ من مفهوم الاسلام ، لا تبرز فيه مشكلات الصراع بين عناصر المسلمين ، ولا تستفحل . لقد حقق قيام الدول المستقلة المتعددة الى نتائج إيجابية في شأن الحضارة ، وفي منهج العناصر الاسلامية المختلفة الحق في الحكم ، ولكنه أضعف مركزية الدولة والوحدة الاسلامية الشاملة ، وبذلك مهد للغزو الخارجي ، وضرب مركز القيادة فيه . زحف الصليبيون على الشام والتتار على العراق ، والفرنجة على الأندلس والمغرب .

ويرى بعض الباحثين أن نظام الحكم الذي بدأه معاوية (نظام الملك) كان تطوراً طبيعيا من النظام القبلي ، وأنه لم يكن من اليسير قيام نظام جمهوري انتخابي لهذه المساحات الواسعة من دولة الاسلام ، وأن نظام الشيعة إنما كان يتمثل في الملكية ، في آل البيت . وأن كل الدعوات كانت تحمل لواء حصر الحكم في بيت وسلالة (ما عدا الخوارج بالطبع) .

حركة المعارضة

يمكن أن يطلق على الفرق والدعوات التي وقفت في وجه الدولة الاسلامية التي كانت تمثل القيادة السياسية للعالم الاسلامي (الخلافة الراشدة ، الدولة الأموية ، الدولة العباسية ، وما رافقها من دولة الأمويين في الأندلس ، والدولة الفاطمية في مصر وغيرها) هذه الدعوات والحركات ـ فيما عدا حركة المؤامرة على الاسلام ، ومؤامرات طلاب الحكم ـ كانت تتصل بمفهوم من مفاهيم الاسلام ، العدل الاجتماعي ممثلا في حركة أبي ذر ، المساواة ممثلة في حركة الموالي ، المثل الأعلى لنظام الحكم ممثلا في حركة الخوارج . غير أن هذه الحركات كلها لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها ، حين حاولت فرض مفهومها بالقوة عن طريق حركة الانقلاب أو الانتقاض على الدولة ، أو الانضواء تحت لواء خصوم الاسلام ، والمتآمرين عليه ، لقد أسرف هؤلاء جميعاً في مقاومة الدولة القائمة ، ونسوا أنها تمثل الكيان السياسي الأكبر للاسلام ، وأن الانتقاض عليها من شأنه أن يغري بالاسلام خصومه من خارج نطاق عالم الاسلام وهو ما وقع بالفعل بعد أن اتصلت هذه الحركات ، وانصهر بعضها في حركة المؤامرة الضخمة على الاسلام التي تمثلت في القرامطة ، والاسماعيلية ، والباطنية وغيرها .

وكان أخطر ما بلغته هذه الحركات هو اصطناع مبدأ الاغتيال ، واستحلال قتل مخالفيهم من المسلمين ، ويجب أن نفرق هنا بين حركات المعارضة للحكم ، وبين حركات المؤامرة على الاسلام ، وبين فرق الشيعة والمعتزلة والخوارج ، وهي فرق مجتهدة بما تراه حقاً ، وبين فرق المؤامرة على الاسلام التي التمست لها شعارا من الشيعة الغالية . ويمكن أن يقال إن صراعاً قد برز بين الحضارة (الحكم ، والسياسة ، والمجتمع) . وبين المثل الأعلى للاسلام ، وأن هذا الصراع تمثل في طلاب العدل والمساواة (أبو ذر والخوارج) وأن هناك صراعاً بين طلاب الحكم بحق الروابط التي تتصل بآل البيت ، وبين من يرون لأنفسهم حق الولاية ، وهناك فريق دعاة النقد الاجتماعي ، وكشف عيوب الحكام والمجتمع (حسن البصري) .

(دعاة المساواة)

هناك قول يكاد يصل إلى الاجماع هو : أن حركة دعاة المساواة (الموالي) كانت رد فعل لغلو الدولة الأموية في تمثل السيادة العربية ، مما أدى إلى قيام صراع بينها وبين المسلمين من غير العرب ممن أطلق عليهم الموالي . هؤلاء الذين كان مفهوم الاسلام وفن أصوله ـ يعطيهم حق المساواة مع غيرهم .

ويرجع المؤرخون ذلك إلى أن طابع الدولة الأموية كان عربياً غالياً في العروبة ، حتى أنهم فرقوا بين العرب ، ومن دخل الاسلام من العناصر الأخرى ، وكان أغلب هؤلاء الموالي فرساً . وقد كان لطلاب الملك من الفرس قضية ارتبطت بمقتل عمر بن الخطاب ، مصدرها حق الطبقة التي كان بيدها النفوذ والسلطان فضلاً عن طابع النظرة الفارسية القديمة إلى العرب بوصفهم أصحاب حضارة ، والعرب أصحاب بداوة ، وقد توالت الأزمة التي عاشت أيام عثمان وعلي ، وكان موقف بعض الفرس فيها يحمل طابع الحقد على العرب لأنهم سيطروا على دولتهم ، وفي رأي الفرس أن الاسلام هو الذي أعطى العرب هذا الامتياز ، ومن هنا بدأت حملتهم على الاسلام نفسه . وقد صاحب هذا الاتجاه موقف الأمويين من الموالي ، فارتبط به على نحو من الأنحاء .

والحق أن موقف الاسلام من الموالي كان واضحاً صريحاً ، وأن مخالفة هذا المفهوم كان مصدر « الأزمة » التي وقعت بين العرب والموالي ، والذي أودى بالدولة الأموية . فقد كان للموالي دورهم في زعزعة بنائها في سبيل قيام نظام يحقق لهم المساواة ، ولقد كان مفهوم الاسلام أن يحكم المسلمون عرباً وغير عرب ، وأن لا يقتصر السلطان على العرب وحدهم . وهذا ما حققه تطور الأمور في العصر العباسي .

والموالي هم خليط من المسلمين الذين كانوا موالي لمن أعتقوهم ، أو أهل الأمصار الذين أسلموا وانضموا إلى العرب وتحالفوا معهم ، فأصبحوا موالي بالحلف ، وقد كانوا يمثلون الأيدي العاملة في الدولة ، ومما يذكر لهم أنهم كانوا أداة الجيوش ومادتها ، وأنهم قاموا بدور ضخم في توسيع عالم الاسلام ، وأنهم صدقوا الله إسلامهم ، وقدموا أرواحهم خالصة في حركة الجهاد المقدس ، وفي المعارك المتوالية التي استمرت ردها طويلاً خلال حكم الدولة الأموية ، كما أتيح

لهم أن يسيطروا على الحياة الاقتصادية ، غير أن الأوضاع التي فرضها الاستعلاء بالسيادة العربية تركت في أنفسهم كثيراً من الجروح والندوب ، فأحسوا بفوارق مختلفة لا يقرها مفهوم الاسلام نفسه . هذا المفهوم الذي سوى بين العرب وغير العرب تحت لواء الاسلام الذي فرض للقيادة السياسية الحاكمة أن تحقق هذه المساواة ، وفي حكم عمر بن الخطاب بدأ هذا المفهوم واضحاً ، وهو يوضع موضع التحقيق .

وقد كان من نتائج هذا ، قيام ثورات مختلفة متعددة للموالي على الحكم الأموي ، وقد أدى ذلك إلى انضمام طائفة من المجتمع الاسلامي إلى خصومه وإلى حركات التآمر على الاسلام ، كما انضموا إلى الخوارج ، والشيعة وإلى كل منتقض على الدولة ، حتى تجمعت الشيعة والخوارج والموالي على هدم الدولة الأموية ، ولا شك كان سقوط الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي انتصاراً للموالي . فقد حقق لهم العمل على قدم المساواة مع العناصر الاسلامية الأخرى . ولقد عد المؤرخون موقف الأمويين من الموالي واستعلاءهم بالسيادة العربية من أكبر الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم ، غير أن أخطر النتائج التي أدت إليها حركة الموالي التي تتمثل في ذلك التحدي الذي فرض اتصال الموالي بالفرس الناقمين على العرب ، إنما كان ظهور موجة الشعوبية العاصفة المنحرفة التي بدأت أول أمرها تنادي بمساواة العرب والموالي ، ثم تطورت في العصر العباسي ، فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب . ومن الحق أن يقال أن شعور الاضطهاد الذي أحسّ به الموالي كان عاملاً هاماً من العوامل التي دفعتهم إلى المشاركة في حركات التآمر على الاسلام نفسه رغبة منهم في إسقاط الدولة الأموية .

دعاة المثل الاعلى (الخوارج)

وكان « دعاة المثل الأعلى » أبرز من حملوا لواء المعارضة للسلطة السياسية ، كان الخوارج يمثلون مفهوم الخلافة الحق ، الخلافة الديمقراطية التي لا تتقيد بقريش ، ولا بآل البيت ، وقد صاغوا من المثل الأعلى الاسلامي « نظرية » دافعوا عنها ، وبلغوا في حماسة الدفاع عنها حد العنف وسفك

الدماء ، وهم في نظرتهم لا يقبلون مفهوم الواقع المتطور ، ولا الواقع الجاري ، ولا النظرة العميقة لمفهوم الأحداث وتطور الأمم ، ولو لم ترتبط فلسفة الخوارج بالانتقاض على الدولة ، والمقاومة الدموية ، لظلت تمثل جانب المثالية في الاسلام في مواجهة الدولة التي كانت في الأغلب نظاماً سياسياً يدور في إطار الاسلام ، ولا يطابق مفهومه تمام المطابقة .

كانت أيديولوجية دعاة المثل الأعلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، لا يقبلون مبدأ الوراثة ، ولا حق قريش في الخلافة . وقد حدد الخوارج موقفهم في قضية الخلافة فقالوا : إن الامامة قد تكون في غير قريش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الامام إلا لتوافر الكفاية ، والعدل ، واجتناب الجور ، فكل من أنس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الامامة ، ومن خرج عليها وجب اعتباره عاصياً ، وأن غيرّ الامام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله ، أو قتله ، كما أنه يجوز أن يكون الامام عبداً أو حراً ، قرشياً أو غيره .

وقد ظل الخوارج أشد الفرق الاسلامية الثورية معارضة لقيام الأسر والحكم الموروث ، وأشدها مقاومة للملك الجائر ، ولم يقف أمرهم عند وضع النظريات . بل ذهبوا في تطبيقها أبعد مدى وعرف لهم أبطال وأدب ومواقف متعددة ، وتاريخ طويل امتد خلال حكم الأمويين والعباسيين . فقد شهروا الحرب على الدولتين ، ولبثوا يقاومونها زهاء قرنين ، وكانوا مثلا عالياً في الجرأة والمخاطرة . غير أن أبرز ما يؤخذ عليهم إسرافهم في سفك الدماء ، ومغالاتهم في قتل الأطفال والشيوخ والنساء .

دعاة العاطفة (لآل البيت)

يمثل مفهوم آل البيت : « العلويون ـ الشيعة » الاتجاه المرتبط بالرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت وهي دعوة العاطفة العميقة التي ملأت نفوس المسلمين بحب رسول الله وآل بيته في ظل مفهوم القرآن « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » وكان حقاً لهذه الدعوة أن تتسع في مجال رد الفعل لما واجهت من تحد . هذا التحدي الذي تمثل في امتناع النبيّ صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبي بكر وعمر عن إعطاء سلطات سياسية ، أو قيادات حربية لأحد من

آل البيت (آل علي وآل العباس) ويتصل بهذا ما أورده المسعودي من حوار دار بين عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس جاء فيه قول عمر . إني رأيت رسول الله استعمل الناس وترككم ، فقال عبد الله : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه ، قال عمر : « والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه » . ومما يروى في هذا أن علياً والعباس قد التقيا في مرض النبيّ ، قال العباس لعلي : أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في مرضه هذا ، وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه ، وإن كان في غيرنا أمره ، فأوصى بنا ، فقال علي : « لئن سألناها رسول الله فمنعنا إياها لايعطيناهاالناس أبداً » ويتصل بهذا ما كان من أمر اجتماع السقيفة حيث دار الحوار بين الأنصار والمهاجرين حول أمر الاستخلاف بعد النبي ، واتفق على أن يكون المهاجرون هم الأمراء ، والأنصار هم الوزراء ، وبايع عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة لأبي بكر . ثم ما كان من أمر عليّ وتردده في البيعة ما يقرب من ستة شهور ، وما وقع للسيدة فاطمة بنت النبي حين قصدت خليفة رسول الله أبا بكر تسأله في أرض لرسول الله في فدك ، وما أجابها به أبو بكر حين قال : أن معاشر الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقة .

من هذه الصورة يتمثل الاتجاه الذي كون موقف دعاة العاطفة الذين أحسوا بآل البيت ، وهم مبعدون بعد رسول الله عن مكان الحكم ، وإن لم يبعدوا عن مكان الصدارة ، فقد كان علي بن أبي طالب وعبد الله ابن عباس هم أبرز قادة الفكر الاسلامي في هذه الفترة . وفقهاء المسلمين : حتى كان يقال « قضية ولا أبا حسن لها » .

وقد امتدت هذه الصورة ، واتسع نطاقها حين اختير عثمان بعد أبي بكر وعمر ، وكان عليّ في مقدمة المرشحين ، وما روي في شأن ذلك من آراء وروايات لاحدّ لها ، من أبرزها ما قيل من أن الصحابة كانوا قد ضاقوا بنظام حكم عمر ، وخشوا عليا أن يكون استمراراً لهذا الحكم ، وتطلعوا في عثمان طابعاً أقل شدة واكثر انطلاقاً نظراً لارتفاع سِنِّه واختلاف طبيعته ومفاهيمه عن « عمر » الشديد الحازم .

فلما جاء دوره بعـد عثمان ، كان المجتمـع الاسلامـي قد بلـغ غاية من الاضطراب ، وقد علت فيه صيحات ، وتدافعت قضايا ، وتفرق الصحابة في الأمصار ، ووقع الخلاف بـين جماعـة المسلمـين ، ثم وقـع الخـلاف بـين عَلِيّ وشيعته ، ثم وقع الخـلاف بـين علي ومعـاوية ، ثم كانـت نهايتـه تلك الآسية الأليمة . وما كان من تنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافـة ، ثم كان خروج الحسين ومقتله بيد ولاة الأمويين الذين كانوا قد جعلوا السلطة الاسلامية العليا توارثاً في بيتهم ، هنالك وفي خلال هذه الظروف تكونت جماعة « دعاة العاطفة لآل البيت » قوية عنيفة تناهض نظـام الدولـة القائـم ، وتحـاول أن تديل منـه بالثورات والانتفاضات ، حتى بلغـت من بعـد مبلغهـا « حـركة ذات فلسفـة ومفاهيم » تطبعها بطابعها .

وقد حاول خصوم المسلمين والمتآمـرين عليه أن يندسـوا في رحـاب هذه الدعوة ، وأن يحملوا لواءها حتى دق الفارق ـ في فترة من الفترات ـ بين دعـاة العاطفة المحبين لآل البيت ، وبين المتآمرين على الاسلام ، هؤلاء الذين كانوا دائماً يحملون لواء آل البيت ، ويدعون باسم آل علي أو أبناء فاطمة . وقد واجه دعاة العاطفة خصومة الأمويين ، حتى إذا شاركوا في محاولة القضـاء عليهـم ، كان أبناء عمهم (العباسيون) الذين ولوا الحـكم أشـد عنتـا في معاملتهـم ، وخصومة معهم . ولكنهـم استطاعـوا من بعـد أن يقيمـوا الـدول : في فارس (اليوبهية) وفي المغرب (الدولة الفاطمية) التي امتـدت من تونس إلى الشـام والحجاز واستمرت **٢٦٠** عاماً .

ولقد قام آل البيت « الشيعة » : أتباع علي وبنوه ، مذهبهم على أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويختار القائم بها ، بل هي متصلة في آل البيت وأبناء علي ، وقد اعتمـدوا في فكرهـم ، ومفاهيمهـم على أحاديث للرسول صحت عندهم تعطي فلسفتهم جذورها الأساسية . وقد ظلت فكرة آل البيت هدفاً يلتمسه كل من يطلـب الانتقـاض على الرئاسـة السياسية القائمة يلتمسها وسيلة لاستهواء الناقمين ، والبسطاء والساخطين .

دعاة النقد الاجتماعي

انتقلت القيادة الاسلامية من المدينة إلى دمشق ، من البادية إلى الحاضرة ،

كان الاتجاه إلى الشمال وإلى مواطن الحضارات تطوراً طبيعياً لمقر القيادة الاسلامية ، كما كان التحول من جمهورية الراشدين إلى الشام إلى نظام الملك تطوراً طبيعياً لنظام الحكم ، وكان قيام دولة عربية خالصة السيادة والسلطان تطوراً طبيعياً بعد أزمة الخلافة . كان هذا كله انتقالا طبيعياً في مجتمع متعدد الأجناس والعناصر في مرحلة تفاعلها وتبلورها وانصهارها ، في محاولة صياغة فكرها من جديد في إطار الاسلام ، لم يكن من الطبيعي أو المعقول أن يتحقق المثل الأعلى الاسلامي في هذه المرحلة الباكرة . ولذلك فقد كان النظام السياسي محاولة لتمثيل مفهوم الاسلام ، وإن لم تبلغها أو تحققها . لقد كان الاسلام أيديولوجية انسانية شاملة للناس كافة في كل عصر ومصر ، وصلاحيتها مستمرة ، وقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأمم والأجناس والأقطار مفتوحة طيبة ، ولقد كان من شأن النظام السياسي الاسلامي أن يحاول مجتهداً أن يقترب من هذه الأيديولوجية ، وأن يتطاول إلى تطبيقها ، غير أنه لم يستطع ذلك على نحو يرضي الفقهاء والمفكرين والأئمة ، فقد طفق دعاة النقد الاجتماعي وطلاب المثل الأعلى لا يكفون عن التوجيه والنصح .

كان طابع الملك يحمل في طياته الاحتجاب عن الشعب ، بالاضافة إلى نمو الحضارة وظهور نظم القصور وطوابع الترف والثراء . مع وجود الطبقات الكادحة الفقيرة . مما حمل الفقهاء دعاة النقد الاجتماعي على مواجهة الخلفاء والأمراء ، ويمكن أن يقال إن « أباذر » من دعاة النقد الاجتماعي ، غير أن أبرز مثل لذلك هو الحسن البصري ، ولم تكن دعوة الحسن معارضة للقيادة السياسية ، ولكنها كانت نقداً اجتماعياً يتصل بمحاولة تصحيح مفاهيم المجتمع نفسه في ظل موجة الترف والنفاق والانحلال التي أخذت تجتاحه في أواسط العصر الأموي ، وكانت علامة على نزعة الزهد التي كانت رد فعل للترف ، ومحاولة من بعض المثاليين لاعتزال المجتمع .

وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الاسلامي قادرين على ردّ المسلمين إلى المفهوم الصحيح للاسلام ، ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي ، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين عارضوا دائماً الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرفها الترف أو النفاق أو الانحراف . وقد كانوا

عاملاً أساسياً في بناء الاسلام ، والحفاظ على أيديولوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها ، أو يحول طابعها . فقد بذلوا جهداً ضخماً في المحافظة على خصائص الأمة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية .

ولقد ظل تيار الاصلاح الاجتماعي قادراً على مواجهة خطر المادية الجارفة والانحطاط الخلقي والروحي ، وإذا كان قد عرف الحسن البصري ومدرسته : سعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والشعبي . فقد حفل تاريخ الاسلام بهؤلاء الدعاة في كل عصر ومكان في عالم الاسلام . وكان منهم كثيرون يؤمنون بالعمل الخالص البريء من الدعاية والشهرة .

والظاهرة الواضحة أن هؤلاء جميعاً كانوا من دعاة المساواة (الموالي) وقد عملوا وفق منهج واضح قوامه : الحث على الايمان ، والعمل الصالح ، والتحذير من غرور النفس ومهاجمة الترف ، وكان الحسن البصري وصفوة من هؤلاء الدعاة يصدعون بالحق في شجاعة أمام رجال الحكم ، لا يخشون في الله لومة لائم . وقد اتسق مفهوم هؤلاء القادة السياسيين مع نقاد المجتمع فأولوهم تقديراً ، وسارع كثيرون منهم إلى هؤلاء الناقدين يطلبون نصحهم ، وكان محمد بن سيرين والحسن البصري والشعبي في نهاية القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني في مقدمة العاملين ، ومما يروى في ذلك أن عمر بن هبيرة الفزاري ولي العراق ، في أيام يزيد بن عبد الملك . فدعا الحسن البصري وصاحبيه ، قال الحسن : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، ويزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك يا ابن هبيرة : إن الله قد جعل هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تتركن دين الله وعباده لسلطان الله ، « فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

***

وفي هذه الفترة واجه تاريخ الاسلام حدثاً من أبلغ أحداثه . ذلك هو تولي « عمر بن عبد العزيز » الخلافة خلال عامين ونصف بين سنوات حكم الأمويين ، كانت غريبة غاية الغرابة ، أراد عمر خلالها أن يعود بالناس إلى

« منهج عمر بن الخطاب » وكان ذلك عسيراً عليه كل العسر ، وكان سبباً في القضاء عليه ، حقاً ، لقد استطاع أن ينشىء للمجتمع قيماً جديدة تقترب من « المثل الأعلى » ولكن المجتمع الذي استجاب للتحول السريع العميق ، لم يكن قادراً على حماية الخليفة الذي جمع بين صفة القائد السياسي ، والداعية الاسلامي . كان مخطط عمر بن عبد العزيز مغايراً للمخطط الذي قطعته الحضارة ، كان محاولة لتقريب النظام السياسي من مفهوم الاسلام ومقوماته . غير أن ذلك لم يكن يسيراً بالقدر الكافي في فترة حكمه القصيرة ، وربما استطاع أن يصل إلى شيء من التحول لو طال به العمر ـ ذلك أن الحضارة موج دافع لا يتوقف ، ولحركة التطور مراحل لا تتراجع ، ولم يكن من اليسير تغيير خطها بعد اندفاعه خلال جيلين أو ثلاثة إلا بجهد زمني واسع لم يتح له ، غير أن عمر بن عبد العزيز ترك صفحة مضيئة مشرقة ما زالت حتى الآن تهز المؤرخين والباحثين ، وترك آثاراً هامة . فقد حمل لواء الدعوة الاسلامية على نحو رائع أدخل أعداداً ضخمة من أهل عالم الاسلام في الاسلام نفسه ، فقد رفع الضرائب عن الداخلين في الاسلام ، وأعلن أن الله لم يبعث محمداً جابياً . بل بعثه داعياً ، كما أرسل الولاة الممتازين إلى المغرب والأندلس على النحو الذي حقق تعميق الاسلام واتساع نطاقه ، وأجرى الحوار المفتوح مع طلاب العدل والمساواة حتى أوقفهم وأنهى صراعهم مع الاسلام ، وعمقه ، وكان دوره ليس في توسيع الاسلام . بل في تعميقه ، وليس في بناء الدولة بقدر ما كان في بناء الفكرة والعقيدة . وقد عمه فعلا بالمثل والقدوة ، فقد كان هو نموذجاً عالياً ومثلا رائعاً ، صحح كل مواقف الخطأ في تصرفات الخلفاء ، وحفظ مال المسلمين عن الانفاق في الترف وأعطيات الشعراء ، وجمع إليه العلماء والخلصاء ، ونقل الناس من وضع إلى وضع . فالناس على دين ملوكهم ، وخفض أبهة الملك . وألغى المظاهر الفخمة ، والمواكب . وقد اقترب من أيديولوجيا الاسلام تطبيقاً للشريعة الاسلامية ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام ، فلما بلغتهم سيرته ومذهبه أسلموا وتسموا بأسماء العرب ، كما كتب إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم ، ولما أقر البربر إلى واليه إسماعيل بن أبي المهاجر غلب الاسلام على المغرب . ولعل فهم النقد الاجتماعي كان ثمرة الحكم لعمر بن عبد العزيز القصير . وكان في مقدمة تلاميذه الحسن البصري . وقد انتقد الحسن البصري

النفاق في الطبقات الممتازة من الأمة ، وانتقد أدواء المجتمع ، ووصف العلاج ، وحقق نتائج هامة ، واجتمع حوله نفر كثيرون ، حيث جمع بين التوجيه والتربية العملية ، والنقد والبناء . وقد توارث علمه خلفاء بعد وفاته ١١٠ هـ ، ومضى هذا الخط لم يتوقف ، هادفاً إلى المحافظة على مفهوم الاسلام وروح هذه الأمة وصلتها بالله والمحافظة على منابع الحياة الاسلامية الأساسية (القرآن والحديث) ومن خلال هذا الاتجاه ظهر تيار الزهد واعتزال المجتمع كردّ فعل على تيار الترف والنفاق والامعان في اللذات الحسية . وقد ظهر من بعد في العصر العباسي : الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، وصالح بن عبد الجليل ، وابن السماك . وكان لهؤلاء مواقف وكلمات غاية في القوة ، بل إن بعض العلماء من أصحاب المثل الأعلى قد أعرضوا عن فرض آرائهم ومذاهبهم بسلطان الحكم ، كما فعل مالك حين اعتذر للمنصور عن نشر موطئه في العالمين ، دون كتب الحديث والفقه . وقد كانت لمالك مواقفه في معارضة النفوذ السياسي .

الواقعيون

يتمثل الواقعيون المسلمون في تلك الجموع العامة التي أولت القيادة السياسية للاسلام ثقتها ، ورأت في الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة ، والتجمع حول القيادة أهمية كبرى في بناء الاسلام نفسه ونموه واستمراره ، وقبلوا بالولاء لنظام الدولة بوصفه قوة قائدة دافعة إلى العمل والحركة والتوسع . ولقد كان هؤلاء الواقعيون هم الأغلبية الغالبة أو الساحقة للمسلمين ، هؤلاء الذين تمثلوا التطور ونتائجه ، والتقدم وآثاره ، وهم الذين شهدوا تلك الأزمة الضخمة التي أودت بمستقبل الخلفاء الثلاثة . وما أسباب المجتمع الاسلامي خلال عشرين عاماً كاملة بعد وفاة عمر إلى عام الجماعة ، عام البيعة لمعاوية ، واستقرار الاسلام تحت قيادته السياسية : دولة أموية عربية مقرها « دمشق » .

هؤلاء الواقعيون هم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، يرون أن القيادة العربية ضرورة في هذه المرحلة لبقاء الاسلام واستمراره ونموه ، ولنشر اللغة العربية وسيطرتها على اللغات ، وحلولها محل اللغات القديمة . لقد قبلوا بالولاء لحاكم من صحابة الرسول ، وبيت من بيوت الاسلام ، واستطاعت الدولة

الأموية أن تبني بناءً ضخماً في كل مجال ، بنت في مجال التوسع الاسلامي ، وسارت في سنة الجهاد المقدس مدفوعة إلى إضافة أرض جديدة إلى رقعة عالم الاسلام ، وبنت الأسطول الاسلامي ، وواجهت بيزنطة ودفعت قواتها إلى محاصرة القسطنطينية مرات .

وواصلت توسعات الاسلام إلى حدود الصين ، وفي عهدها أضيف السند والهند وما وراء النهر إلى رقعة الاسلام ، واستكمل ولاء المغرب للاسلام ، وعَبَرَ المسلمون بحر الزقاق إلى شبه جزيرة سبريا وأوغلوا في أوربا . وقدمت الدولة الأموية للاسلام طائفة من بناة الدول من أمثال : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك . وقدمت قادة في مجال الحرب من أبرزهم : موسى بن نصير ، وعبد الرحمن الداخل ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وبنى الأمويون الحضارة ، ووسعوا مجال التجارة ، ونشروا الاسلام بعد أن أخضعوا هذه الأرض الواسعة . وبعد فليس من شك أن الدولة الأموية كانت تواجه تحديات خطيرة ، جعلتها حريصة في نظر الواقعيين جميعاً ـ وهم جماهير المسلمين ـ على حياة استقرار ، فضلا عن ضرورة سيطرة العنصر العربي في هذه الفترة الأولى من حياة الاسلام ، فقد كان العرب هم حملة لواء الرسالة ، نزل فيهم القرآن ، وظهر منهم وبينهم رسول الله ، واصطفوا لحمل أمانة الاسلام وإذاعتها في العالم كله ، وهم الذين اعتنقوا عقيدة الدعوة إلى الاسلام ونشره ، ومقاومة كل قوة تقف في طريقه ، ولذلك فقد كان طابع الدولة الأولى التي تكونت بعد جمهورية الاسلام الراشدة ، دولة عربية ، التمست من مفهوم الاسلام في الأمم التي دخلت تحت لوائه . وقدكان لها دور إيجابي ضخم غير قدرتها على السير برسالة الاسلام ، وتوسيع آفاقه ، وتثبيت دعائمه ، ونشر الاسلام في الأمم التيدخلت تحت لوائه . وقد كان لها دور إيجابي ضخم غير منكور في دعم هذا اللواء ، هذا فضلاً عن أن مرونة معاوية وبراعته السياسية ، وقدرته على فهم ما حوله من حضارات الأمم ونظمها والاستجابة لها ومسايرتها ـ بحيث تبدو الدولة في موضع الهيبة ـ كان ضرورياً إذ ذاك ، وكان بعيد الأثر في عملية الانصهار والبلورة ، هذا بالاضافة إلى انتقال حاضرة الدولة الأموية إلى دمشق حيث الخصب والنماء ، وقريباً من مواقع الدفاع عن حدود الدولة

الاسلامية ، وعلى شواطىء البحر المتوسط حيث الأسطول البحري والحركة السريعة في أفق عالم الاسلام الممتد ، كل هذا كان من دوافع القوة والتثبيت لعالم الاسلام .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تعليل سقوط الأمويين بأنهم كانوا أشد تعصباً للعرب ، واعتماداً عليهم دون سواهم ، وصبغ الدولة الأموية بالصبغة العربية ، حتى أطلق عليها اسم الدولة الأموية ، وأنها عربت الأقطار المختلفة ، بربر أفريقيا ، وأقباط مصر ، وأهل فارس ، والعراق . كما استطاعت أن تحقق صهر مدنيات الأمم الداخلة تحت لواء عالم الاسلام في بوتقة العروبة . وليس في هذا كله ما يعيب إلا أن يبلغ الأمر مبلغه من التعصب بما ينقص حق العناصر الأخرى من المسلمين ، وخاصة الموالي . وقد ذهب خصوم الأمويين إلى اتهامهم بالعصبية القبلية ، وهي العصبية لبني أمية ، فوق عصبيتهم للعرب على غيرهم من المسلمين ، وقد تجدد في ظلهم الخلاف القديم بين الأمويين والعباسيين ، وبلغوا في ذلك إلى الفخر على القبائل العربية بوصفهم أهل قريش ، فضلاً عن أنهم ناصروا القيسيين حيناً ، واليمنيين حيناً آخر .

ولا شك أن التعصب القبلي يناهض مفهوم الاسلام نفسه ، الذي دعا إلى وأد نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولست أتصور قيام دولة في ظل مفهوم الاسلام إلا على النحو الذي قامت عليه الدولة الأموية بعد مرحلة التمهيد التي تمثلت في امتداد العصر النبوي ، وقيام جمهورية الراشدين التي كانت تحتاج إلى جهود ضخمة لتتسع لنظام يصهر جميع العناصر الاسلامية فيه ، والذي قصرت عنه بيئة المدينة ، وتدافع التوسع ، وإتمام السيطرة على أغلب أراضي الامبراطورية الفارسية والرومانية وانضوائها لسيطرة حكومة المدينة ، على هذا النحو السريع قبل أن تتشرب نفوس المنضوين مفهوم الاسلام أوترتضيه معتقداً لها . ومن هنا كانت الأزمة التي حولت جمهورية الراشدين في خلال عشرين عاماً إلى نظام عربي الطابع والصيغة قائم على نفوذ إحدى قوتي قريش الكبيرتين ، وهي بالقصد ليست القوة التي تحمل إسم النبي صاحب الرسالة ، وإنما هي القوة المناهضة لها ، والتي أبطأت في اعتناق الاسلام ، ولكنها القوة التي قدمت عديداً من القادة

والولاة والنوابغ في خلال أيام النبي وحكومات الخلفاء الراشدين الأربعة مما أهلها للصدارة وبلور طابع القيادة السياسية على هذا النحو .

ولا شك كان انتصار الأمويين انتصاراً للطابع العربي ، الذي امتد إلى النزعة القبلية ، والذي بلغ درجة السيادة العربية ، مباعداً عن مفهوم الاسلام في إسقاط أفضلية عنصر على عنصر ، وكان لهذا ضرورته من ناحية في ظل التحدي الذي واجهه من خلال مؤامرة القضاء عليه ممثلة في عناصر الفرس والموالي والمجوس ، ومن هنا كان ردّ الفعل في حماية القيادة السياسية من غير العرب عملا مرحلياً حماية للدولة من الاضطراب ، غير أن تراخي الزمن ، وانتشار الترف ، وعدم تحقق المثل الأعلى الاسلامي في المجال الاجتماعي كاملاً ، قد أضعف هذا النظام وأبعده عن فاعليته الايجابية ، وفتح الطريق لنظام سياسي آخر يتطور من داخله يتغير موضع القيادة فيه ، فيسلمها إلى البيت الآخر من قريش ، ويحل بعض الأزمات ، وإن بقي نظام الحكم ممتداً في أسرة واحدة ، ونظام واحد هو نظام ولاية العهد ، وهو الطابع الذي استمر النظام السياسي في الاسلام على أساسه فيما بعد طويلاً .

* * *

لقد كان هناك قوتان للمجتمع الاسلامي : قوة المثل الأعلى ، وقوة التطبيق .

كانت قوة المثل الأعلى والمعايير الخلقية تتطلع إلى أن يقترب النظام السياسي أكثر وأكثر من مفهوم الاسلام ، وكانت قوة التطبيق تحاول أن تدور في إطار الاسلام على قدر ما تمكنها ظروف الوراثيات القبلية والعنصرية ، وتطور المجتمع والحضارة ، وقد ظلت « أيديولوجيا الاسلام » ولا تزال منهجاً سمحاً مرناً ، قابلاً للأخذ منه وقادراً على مواجهة تغيرات البيئات وتطورات الأزمنة ، وقد ظل يتمثل في صورة عليا لما تصل إليها قوة التطبيق بعد ، وإن دارت في فلكها مجتهدة ، ومن هنا كان دور المجتهدين من الفقهاء والأئمة والعلماء الذين كانوا يوائمون دائماً بين الواقع وبين ايديولوجيا الاسلام ، بين المثل الأعلى وبين التطبيق ، وكان من رأي الواقعيين دائماً الحرص على مبدأ وحدة الجماعة وسلامتها بقبول التوفيقات والتسويات التي تسمح بالتوازن بين القوانين .

ومن هنا كان دور الفقهاء والمجددين دافعاً المجتمع الاسلامي إلى الاقتراب أكثر من مفهوم الاسلام وتمثله تدرجاً نحو الكمال ، ومن هنا ظلت مقومات الاسلام هدفاً متمثلا للحكام والعلماء والمجتمع على السواء ، سعياً وراء العدل والمساواة . ولقد كانت كل مواقف التاريخ الاسلامي تتسم بالنصر والنجاح والقوة كلما اقتربت من مفاهيم الاسلام ومقوماته ، وتتسم بالضعف والهزيمة كلما بعدت عن هذه المفاهيم ، وكل معضلات تاريخ الاسلام وأزماته إنما صدرت عن تخلف من تلك المقومات البسيطة اليسيرة التي رسمتها أيديولوجيا الاسلام وحاول الرسول أن يطبقها في المجتمع الاسلامي القائد الرائد ، ولطالما استطاعت التجربة التاريخية أن تحقق بالتحول والتطور « مفهوم الاسلام » جرياً على سنن الكون في التعبير والاتجاه نحو الكمال .

ولقد تفاعلت مفاهيم الاسلام وأيديولوجيته مع المجتمع الاسلامي في درجاته المختلفة ومراحله المختلفة ، وقواه المتعددة ، ومع اختلاف الناس والبيئات والعناصر ، واستطاع بآفاقه الواسعة أن يحقق نتائج مرنة على توالي القرون ، لم يصطدم بالحضارة ولا بالتطور ، ولم تتوقف ، ولم تجمد . وقد مضت كلها ضمن إطار الاسلام الواسع .

فقد كانت أيديولوجيا الاسلام ومضامينه الأساسية ، نظاماً شاملاً للحياة كلها على أسس التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة والاخاء ، وهو منطوق فسيح سمح ، متقبل لعادات الأمم وأذواقها وتقاليدها وفلسفاتها ما دامت تصاغ في إطاره ، وتتحرك وفق هذه الأسس ، ولم يكن الاسلام ديناً الا من ناحية إعطاء دفعة الضمير والخلق . أما في مجال الثقافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة . فقد كان تنظيماً بشرياً انسانياً كاملا للمجتمع ، متقبلا للتطور ، متمثلا للعصور والأمم المختلفة قادراً على الحركة والحياة ، مهيئاً لتقبل أبعد تطوراتها ، وأكثر معضلاتها خطراً ، وأكثر مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تطرفاً . قادراً على صهرها في بوتقته وتشكيلها في إطاره : توحيداً وعدالة اجتماعية ومساواة وبناء ضمير وخُلُق .

ومن هنا تبدو جميع دعوات العدل الاجتماعي ، والعقل والمساواة والمثل الأعلى والعاطفة والواقعية كلها تراثاً إسلامياً مستمداً من صميم الاسلام

ومفاهيمه ما دامت لها جذور من القرآن والسنة ، وليس هذا الخلاف بين دعاة هذه الدعوات ، إلا خلافاً بين وجهات نظر تتعدد حول الفرعيات والقضايا ، وتتفق أساساً حول القيم العليا للاسلام وتدور كلها حول النظام السياسي أو الاجتماعي للمجتمع ، ولا عيب في أن تتعدد وجهات النظر وتختلف ، ما دامت في نطاق الفروع ، وما دام ذلك كله يجري في إطار الاسلام نفسه ، وليس خارجاً عنه ، وهو علامة صحة وليس علامة مرض ، إذ تستهدف هذه الحركات جميعاً أن تصل إلى الحق والعدل ، وأن تصهر أفكارها وتبلور مفاهيمها ، وهو عمل ضروري أساساً لمجتمع تكون من عناصر مختلفة ، وثقافات وفلسفات وتقاليد ومقومات متعددة ، ومن هنا فإن كل هذه الدعوات ، إنما تمثل مراحل للفكر والحضارة الاسلامية يتسع لها أفق المؤرخ والباحث ، والحياة الانسانية . ولا شك تتطور وتتحرك في موجات متعددة من القوة والضعف والانحراف والاعتدال ، والتجزؤ والتكامل .

ولقد كان تاريخ الاسلام يتمثل هذه الحركات والموجات ، وكانت تبرز فيه دوماً القوى القادرة على تصحيح الطريق ، ورد الدعوات إذا خرجت عن مفهوم التكامل والشمول والوسطية ، ولقد كانت كل حركات الفكر الاسلامي ، وكل موجات المجتمع الاسلامي ، علامات قوة ، وقد مضت حركات التغيير ، وظهور بناة الدول وقادة الفكر مستمرة دائماً لا تتوقف . كل حركة منها تحقق خطوة إيجابية نحو التقدم والبناء ، وهي في ذاتها دفاع عن حق مضيع ، أو تصحيح لحقيقة توشك أن تفقد مفهومها في طريقها إلى تحقيق حتمية الاسلام ، بوصفه رسالة عالمية وإنسانية .

إن كل هذه الحركات والدعوات تلتمس من الاسلام بسبب ، وتتصل به بنسب ، وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها ، ومعاداة بعضها الآخر ، لكننا نراها اليوم عصارة فكر حي متجدد ، وحين ننفي عنها ما ارتبطت به من عوامل السياسة ، ودوافع الصراع ، ونستصفيها تكشف عن مدى حرية الاسلام ، وسعة أفقه التي كانت قادرة على أن تعطي انطلاقة الفكر والرأي ، غير أن هذه القطاعات تمثل قطاعات الاسلام الجزئية ، وحين تلتقي تمثل شمول الاسلام وتكامله .

(١١)
النظام السياسي

يستمر النظام السياسي الاسلامي الذي تمثله (الدولة الأموية) مرحلة بلغت **٩٢** عاماً تقريبا بين عام **٤٠** ـ وعام **١٣٢** هـ . عندما سقطت لتقوم مقامها (الدولة العباسية) وكان مقر السلطة السياسية العليا (الخلافة) دمشق . وهي سلطة شاملة ضمت تحت لوائها أقطار الدولة متمثلة في بلاد ما وراء النهر والسند والهند حتى حدود الصين ، والشام بأجزائه ، والجزيرة العربية ومصر والمغرب كله (شمال أفريقيا) والأندلس في جزيرة ايبريا .

كان هذا النظام المتمثل في حكم عربي خالص ، قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة : نشوء ، ونمو ، ونضوج ، واكتهال . استطاعت أن تحقق فيه رسوخ دولة الاسلام ، وامتداد نفوذه ، وتحول غالب المستظلين بظله إلى الاسلام ، واستقرار اللغة العربية ، وقيامها محل اللغات الاقليمية ، وانتشار كلمة الاسلام الى أبعد مدى مستطاع ، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر ، وعمارة ، وتجارة ، واقتصاد ، وبرز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناة الدول .

وإذا كان « العرب » هم الذين حملوا لواء الاسلام ، وشقوا به الطريق إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين في آسيا الى حدود إيطاليا وفرنسا في أوربا

عبر شمال إفريقيا ، فقد تعددت العناصر القوية التي شاركت العرب في حمل لواء التوسع ، وفي بناء الحضارة ، وفي الثقافة والفكر ، وفي مختلف جوانب الفكر ، هذه العناصر التي كانت تتأهب بدخولها الاسلام لتحمل لواء القيادة والسيادة في أفكارها وأمصارها : وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاً هم : الفرس ، والترك ، والبربر .

لقد كان الفرس هم أقرب هؤلاء العناصر إلى العرب ، وأكثرهم تأثراً بالفتح ، وتأثيراً في هذه المرحلة ، وكان لهم دور ضخم في الأحداث التي بدأت بها مرحلة التبلور والانصهار . وكان لاصرارهم وتصميمهم على المحافظة على كيانهم الخاص داخل نطاق الاسلام وإحساسهم بماضيهم الفاخر وحضارتهم ، وسبقهم للعرب في مجال المدنية ، ثم سيطرة العرب عليهم بنفوذ الاسلام ونفوذ الحكم أثره في الصراع والمقاومة ، وبروز روح التآمر على الاسلام بالاشتراك مع العناصر الأخرى كالفرس واليهود وقدامى المجوس ، وبقايا المذاهب الهدامة في بروز تيار قوي هو تيار « الشعوبية » . أما الترك فإن دورهم لم يكن بدأ بعد ، وهو دور ضخم بعيد المدى ينتظم تاريخ الاسلام كله من بعد ، هذا في الشرق ، والشرق الأقصى ، أما في المغرب فقد كان البربر أقوى القوى التي قاومت الاسلام ، وصارعت حكوماته العربية الخالصة ، ثم كان لهم ـ كما كان للترك والمماليك أبعد الأثر في نصرة الاسلام ، وحمل لوائه والدفاع عنه في مرحلة الغزو الخارجي . هذه المرحلة التي تلي مرحلة التبلور والانصهار . وكان تقوض الدولة الأموية بعد تسعين عاماً من حكمها اتجاها طبيعيا ، وبحكم أنها لم تتح لنفسها فرصة البقاء بتوسيع قاعدة عملها السياسي على النحو الذي فعلته الدولة العباسية في أمرين هامين :

الاول : أنها لم تصبغ نفسها بصبغة عربية لها طابع السيادة والعصبية . بل سمحت للعناصر المختلفة أن تجري في الفلك السياسي وأتاحت لها حق المساواة والحرية .

الثاني : ظاهرة ظهور الدول الاستقلالية الذي جاء نتيجة لهذا في عصر الدولة العباسية مما يمكن القول معه أن الدولة العباسية ليست إلا إحدى نظم المرحلة التي تلت الدولة الأموية في خلال المرحلة من **١٣٢** هـ إلى عام **٦٩٩**

بظهور الدولة العثمانية كإحدى الدول الكبرى الموحدة لأغلب أجزاء عالم الاسلام .

وعندنا أن انغلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة ، ولكنه بلغ في بعض مراحله درجة عالية من التعصب ، وما كان من طبائع الأمور ونواميس الحياة أن يستمر ويبقى نظام مغلق ، ومن هنا فقد استطاعت القوى الاسلامية غير العربية أن تتجمع للانتقاض من هذا النظام السياسي ، والقضاء عليه جريا على سنة الحياة في ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية واتجاها مع مفهوم الاسلام الذي يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ، ولو كان هذا العنصر هو العنصر العربي الذي نزل فيه الاسلام ، وكان له دوره الخالد في بناء دولة الاسلام وتوسيع آفاقه ، وفي كل دولة في تاريخ الاسلام عناصر بقائها ، وعوامل انهيارها ، فهي كلما اقتربت من مفهوم الاسلام ، وحاولت تحقيق ايديولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة استطاعت إطالة بقائها .

وعندنا أن أبرز عوامل انتهاء الحكم الأموي ، هو بلوغه أبعد قدر مستطاع من تحقيق الهدف الذي قام من أجله ، فقد ثبتت قواعد النظام الاسلامي ، ولم يعد هناك ما يخشى منه ، لم تعد المؤامرات الداخلية قادرة على انتزاع الاسلام أو القضاء على دولته ، لقد تمكنت جذوره في الأرض ، وقامت حضارته ، وأصبح أيديولوجية اجتماعية عقلية روحية لهذه الجماعة التي ارتضته واعتنقته ، ومضى وقت طويل بلغ أكثر من قرن وربع قرن ، على بزوغه ، وتوالت الأجيال بعد الأجيال التي ولدت في أفقه وعصره ، ومن هنا حققت الدولة الأموية أبرز أهدافها ، وهي حماية الاسلام من الأزمة الضخمة التي واجهها في منتصف حكم عثمان ، والتي تآمرت فيها قوى مختلفة من اليهود والفرس والمجوس وغيرهم على اجتثاث الاسلام من جذوره ، والعودة الى الديانات القديمة ، ونفوذ أسر الأباطرة ، كذلك أمنت المداخل الشمالية في مواجهة دولة بيزنطية التي انتزع الاسلام ما كانت تسيطر عليه في الشام ، وشمال إفريقيا ، بعد أن أحسّت هيبة الدولة الاسلامية وقاعدتها الضخمة وبعد أن استقر حكم الاسلام في جزء من أوربا ، وقامت دولته متصلة بالمغرب الاسلامي كان هذا الهدف قد تحقق ، هذا الهدف الذي بلغ القائمون عليه أبعد مدى في تأكيده وتركيزه بالجور على العناصر

الاسلامية غير العربية . ومن أبرزها العناصر الجماهيرية التي تشكل القاعدة الكبرى وهي طائفة الموالي ، هؤلاء الذين دخلوا الاسلام إيمانا بقيمه ومفاهيمه وأيديولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة . ثم عجزوا أن يجدوا ذلك في الدولة الاسلامية تطبيقا كاملاً ، ومع ذلك فإن هذا لم يردهم عن الاسلام . بل دعاهم الى ملاقاة خصوم الدولة القائمة لاسقاطها ، رغبة في قيام نظام جديد يفسح لمختلف العناصر حرية المشاركة على قدم المساواة في العمل الاجتماعي والسياسي . وإذا ذكرت هذه القطاعات الضخمة من المجتمع الاسلامي ذكر أفضل عناصره ، وأقواها ، واعمقها إيمانا ، وأبعدها أثراً في هذا البناء الذي قام وتضخم ، فقد كانوا هم القوة العسكرية الضاربة التي شاركت وجاهدت واستشهدت في سبيل الاسلام ، من مختلف العناصر من الفرس والبربر والترك وغيرهم من العناصر الذين كانوا هم القوة الحقيقية للمجتمع الاسلامي ، فبالاضافة الى دورهم الضخم ، وتكون الجيوش الاسلامية في غالبيتها منهم . فقد كانوا عماد الحركة الاقتصادية والعمالية والاجتماعية في مختلف أجزاء عالم الاسلام ، وبهم رجحت كفة القوة المناوئة للنظام الأموي ، وهي التي أضافت إلى طلاب الحكم والمتآمرين على الحكومة الأموية قوة شعبية ضخمة في الأطراف البعيدة ، حيث كانت تجري حركة الانتقاض التي شاركت فيها عناصر آل البيت (العلوية والعباسية معاً) وعناصر الخوارج ، وعناصر الموالي ، وعناصر الناقمين ، من خصوم الاسلام يهودا وفرساً ومجوساً الخ .

وقد كان أبرز ما حملته بيانات الحركة العباسية التي أطلقت على نفسها (الرضا من آل محمد) إلى جوار استقطاب العناصر الشعبية المختلفة حول إسم آل البيت . كان أبرز ما حملته دعوتها هو : إتاحة الفرصة للعناصر الاسلامية المختلفة للمشاركة في النظام السياسي الحاكم ، وإسقاط هذه العزلة القاسية التي فرضتها (السيادة العربية) المتمثلة في الحكم الأموي بأقسى صورها . لم تغير الدولة العباسية العمود الفقري للنظام الاسلامي الحاكم . بل أبقته على ما كان عليه ، حكم قائم في أسرة ونظام توارث للعرش . هذا بقي على ما هو عليه . ولكن الذي تغير أن طابع الحكم لم يعد عربيا ، بل أصبح فارسياً سمح للعناصر الشعبية وأبرزها الموالي أن تشارك فيه ، وأن تجد حريتها وانطلاقها ، وهنا تحول الموقف تحولاً عكسيًّا بالنسبة للعرب . فقد أخذوا يذوبون في الكيان الاسلامي ،

وظهر في هذه المرحلة أدب له طابع إسلامي أكثر انفتاحاً على الأدب الفارسي القديم .

غير أن هذا الاتجاه الذي غلب فيه طابع الفرس على الطابع العربي باسم إعطاء الموالي فرص الحرية والمساواة ، قد تحول قليلاً قليلاً الى أن أصبح حملة ضارية على العرب . ومن هنا برزت الحركة الشعوبية التي استطاعت تنمية هذا الاتجاه وتوسيع أفقه كجزء من مخطط المؤامرة على الاسلام نفسه .

وقد كان طبيعيا أن يتحول الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي . فإن ذلك في ذاته امتداد للنفوذ السياسي السائد من خلال الصراع بين أمية وهاشم ، ولقد كانت صيحة المقاومة للأمويين تركز دائماً على المطالبة بعودة الحكم الى بيت الرسول . وهنا كان العلويون والعباسيون هم خصوم الدولة الأموية ، وهم المتصدرون للحكم في الدولة الجديدة ، فأيهم يحرز قصب السبق .

ومرة أخرى تتغلب إرادة التطور ، بما تحمل في طياتها من واقعية ومرونة ، وانفتاح على الآفاق الجديدة ، وفي مقدمتها الأفق الفارسي ، وأفق العناصر المختلفة التي تجد في العباسيين الواجهة الأصلح . كانت دعوة العلويين تحمل كلمة آل البيت ، وهي بالغة الأثر في جمع الناس حولها . غير أن دعاة العباسيين استطاعوا أن يتقدموا خطوة أبعد مدى دلت على ذكاء وسعة أفق ، وهي أنهم وضعوا برنامجاً سياسيًا واجتماعيا أبرزوا فيه اهتمامهم بالاصلاح الاجتماعي والسياسي للطوائف المضطهدة في ظل الأمويين ، ولا شك قد كان لسنة التحول أثرها الواضح في سيطرة النفوذ الفارسي ، ونفوذ الموالي والعناصر المختلفة ، اجتماعيا وثقافيا ، وكان لا بد أن يتم ذلك بالسيطرة السياسية .

ولا شك كان أبرز عوامل القضاء على الحكم الأموي ، هو بلوغه مرحلة الضعف التي لا بدّ أن تصيب أي بناء سياسي بعد مرور جيلين أو ثلاثة ، أو عدة عقود من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن قيام الدولة العباسية كان تطوراً طبيعياً وفق نواميس الحياة نفسها . ومن خلال إطار الاسلام نفسه ، وخطوة واسعة في مجال النظام الاسلامي ، انتقلت من مفهوم غلبة عنصر ـ لو كان هذا العنصر الرئيسي في بناء الدولة الاسلامية ـ على العناصر الأخرى ، وبذلك وضع مفهوم الاسلام في أنه (لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود) موضع التنفيذ .

ولا شك كان لكسر هذا القيد ، ولفتح الطريق أمام المساواة أثره البعيد في نمو الحضارة ، وتوسيع آفاق البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي . فقد كان للمسلمين من غير العرب دور ضخم لا حدّ لضخامته في مجال الثقافة والفكر والحضارة ، قام هذا الدور ليس باسم أجناس لها تركيب بيولوجي ، أو عقلي خاص . بل بوصفها عناصر انصهرت بثقافتها في إطار الاسلام ، وجرى نموها العقلي والثقافي من خلال أيديولوجية الاسلام الفكرية ، وبيئة الدولة العباسية

الدولة العباسية

تعد الدولة العباسية تطوراً طبيعيا ، ومرحلة متصلة بالمرحلة السابقة إليها في النظام السياسي الاسلامي ، وغير صحيح ما ذهب إليه البعض من أنها نظام مستقل ، فالمجتمع الاسلامي ما زال مستمرا مطرد التطور والحركة ، لم يغير منه سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية إلا (١) - انتقال مقر الدولة من الشـام إلى العـراق (٢) - تحـول القيادة السياسية العليا من الأمـويين إلى العباسيين ، وإن استتبع ذلك تغيراً في بعض مناهج الحكم ، أو في تحقيق العدل لبعض قطاعات المجتمع ، غير أن نظام الحكم نفسه ظل نظاماً ملكيا وراثيا ، قائما على ولاية العهد . في أسرة من الأسر ، ولم يتحقق بها أي تعديل في نظام الشورى مما يقرب المسلمين من أيديولوجية الاسلام في الشورى . وقد كان خصوم الدولة الأموية ، وأنصار إسقاطها هم : الشيعة والخوارج والموالي . أما الشيعة فإن التغيير لم يحقق لها شيئا . وقد ظل العلويون في ظل حكم أبناء عمومتهم يقاسون نفس الاضطهاد والابعاد عن مراكز القيادة كما كانوا في عهد الأمويين . بل وأشد . أما الخوارج فإن المثل الأعلى الذي تطلعوا عليه لم يتحقق .

غير أن التغيير الأكبر الذي تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية ، وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب ، فقد قامت بنفوذ الفرس . ومن هنا فقد انصهرت القطاعات العربية في الحكم ، ولم يعد لها صفة قيادية . وكل ما تحقق هو أن العناصر الاسلامية قد سيطرت ، وأن السيادة العربية في المجتمع الاسلامي قد تراجعت . وكما أن الدولة الأموية لم تحقق للمسلمين المثل الأعلى الذي كانوا يتطلعون إليه ، هذا المثل الأعلى المتمثل في العدل الاجتماعي والمساواة . فإن الدولة العباسية أيضاً لم تحقق هذا المثل ومن ثم فقد واجهت انتقاضات متعددة عليها .

***

توقف في خلال حكم العباسيين التوسع الاسلامي ، واستقرت الدولة الاسلامية في حدودها التي بلغتها في أواخر الدولة الأموية ، وكان أبرز معالم هذه

المرحلة الرخاء والترف ، وبلوغ الحضارة الاسلامية قمة عالية ، وتوسع نطاق الفكر الاسلامي نماء وترجمة وانصهاراً ووضوحاً لايديولوجيته في مجال الفقه والفلسفة والعلوم .

ويمكن القول بأن مرحلة الحكم الأموي كانت مرحلة التوسع الاسلامي (الابعاد) وأن مرحلة حكم العباسيين كانت مرحلة البناء الحضاري الثقافي (الاعماق) غير أنه لا انفصال بين مرحلتين من الحكم في مجتمع ضخم واسع يضطرم بأسباب القوة والحياة في مجالات الحضارة والثقافة والاقتصاد ، وإنما يمكن أن يقال انه تطور طبيعي ، غير المجتمع خلاله غلافه وجلده . وان كل البذور التي ألقيت في التربة خلال فترة حكم الأمويين قد نمت وآتت ثمارها في العصر العباسي حتى كان الرشيد يقول لِلسَّحَابة المارة : « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » . وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهده (٧٠ مليون و١٥٠ ألف دينار) (مقدمة ابن خلدون) وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك كثيراً .

غير أنه لم يكن هناك فارق كبير في أبهة الحكم أو الترف أو الأرستقراطية التي كان يعيشها الحكام ، فإن انتقال الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي لم تغير من مظاهرها ، ولم يقترب بها نحو مفهوم الاسلام ، بل على العكس من ذلك ربما ازدادت عمقا واتساعاً .

كما أن المجتمع نفسه لم يتحول عن طريقه الذي كان قد حفره وسار فيه من حيث الامعان في الحياة الحضرية بكل ما فيها من انحلال وفساد وزندقة ومجون وإلحاد وانحرافات في الأخلاق والعادات ، وقد رسم الجاحظ للترف في العصر العباسي صورة دقيقة في كتابه (الحيوان : جـ **٢** ص **٩١** . جـ **٥** ص **١١٥**) وقصة عرس المأمون العباسي على بوران بنت الحسن بن سهل بالغة الحد في الترف (وفيات الأعيان جـ **١** ص **٢٥٩**) .

لم يكن هذا الترف متفقاً ولا مقبولاً في مفهوم الاسلام ، ولا أيديولوجيته ، بينما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعاني الاذلال والفقر والمسغبة . ومن هنا برزت في ظل حكم العباسيين كامتداد لحكم الأمويين حركات مناهضة تحمل لواء العدل الاجتماعي ، وربما كانت تسير وراءه ، مدفوعة بخصومة التآمر على

الاسلام ، ولكنها وجدت فعلاً من مناقص المجتمع وعيوبه ما يدفعها الى اتخاذه سلاحاً تشهره في وجه الحكومة العباسية .

ولم يكن المجتمع العباسي يجري كله في مجاري الترف والانحلال ، ولكن كان كالمجتمع الأموي جماع عناصر القوة والضعف معا ، يضم بيئات الزندقة والترف والانحلال ، ويضم فئات العلم والزهادة وحلقات العلماء والفقهاء والمساجد والجامعات والمعاهد ، غير أن هذا الاغراق في الترف قد خلق رد فعل يتمثل في تيار جديد توسع من بُعد وعمق ، هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع النابذة له . هذا الى جوار تيار النقد الاجتماعي الذي اتسع نطاقه في خلال الحكم العباسي ، وبرز كثير من أعلامه الذين واجهوا الخلفاء ، وعارضوا الانحراف ، فقد كان لهؤلاء العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الخلفاء في مواجهة موجة الترف العارمة تحمل طابع النصيحة البارة المخلصة ، البعيدة عن عصر التآمر ، وظهرت في نفس الوقت قوى جديدة تقاوم الحكم العباسي ، وتنتقض عليه ، عاد الخوارج مرة اخرى الى موقف المعارضة المسلحة ، وكذلك ذهب دعاة العاطفة من آل البيت الى موقفهم في مقاومة الحكم العباسي .

* * *

ازدهرت الحياة السياسية والاجتماعية في المرحلة الأولى للدولة العباسية ، حيث ظهر أعلام من بناة الدول في مقدمتهم المنصور باني بغداد ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم . يقول الثعالبي إن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة ، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون ، والخاتمة المعتضد ، والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام **١٣٢** إلى أول حملة صليبية على العالم الاسلامي عام**٤٩٨هـ** تمثل مرحلة متكاملة هي مرحلة قيام البناء الحضاري والفكري الأساسي في مجال الانصهار والتبلور ، وهي مرحلة تتمثل في ثلاث قطاعات متشاكبة : (**١**) الانصهار في مجال المجتمع (**٢**) التبلور في مجال الفكر (**٣**) نمو المؤامرة على الاسلام وانتقالها الى مرحلة التنفيذ .

في هذه المرحلة انفتح الطريق أمام الفرس الذين كانوا يحملون على الدولة الأموية لأنها تسيطر بنفوذ عربي وتستأثر بسيادة عربية خالصة ، فقد كان الفرس هم القوة الأولى والأساسية التي أعانت على قيام الدولة العباسية التي يمكن ان توصف بأنها « واجهة عربية وبناء من الفرس والموالى » كان لهذا أثره الايجابي

وأثره السلبي ، الأثر الايجابي هو سهولة الانصهار في المجتمع والبلورة ، وامتزاج العقليات والثقافات وتبلورها في إطار الاسلام ، وأثرها السلبي في : (١) - معركة هدم الأمة العربية وبوصفها سياج الاسلام ومادته ، وماجرى من معارك عنيفة ذهب فيها الفرس إلى تجريد العرب من كل مقومات الأمم ، وكذلك ذهب العرب إلى الدفاع عن كيانهم ومقاومة الفرس بنفس السلاح . (٢) معركة مفهوم الاسلام نفسه وهي تتمثل في الحملة على مفاهيمه بإدخال مفاهيم وثنية وفارسية ومجوسية كمحاولة على القيم العليا للاسلام ، والقضاء عليها كوسيلة للقضاء على السلطة السياسية الاسلامية .

هاتان المعركتان يمكن أن يطلق عليها اسم « الشعوبية » وقد استتبع ذلك على الصعيد السياسي ، تلك المحاولات التي جرت لنقل النفوذ السياسي من القيادة العباسية العربية إلى القيادة الفارسية ، وظهر ذلك في حركتين كبيرتين بعد حركة « أبي مسلم الخراساني » : هما حركة : البرامكة في أيام الرشيد ، وحركة الفرس في الصراع بين الأمويين والمأمون .

فقد اتجه الفرس بعد سقوط نفوذ أبي مسلم الخراساني وشيعته بوصفه مؤسس دولة العباسيين إلى أساليب أكثر مرونة ودقة ، حتى أحصي على « جعفر بن برمك » قوله : إننا سنحول الدولة إلى الفرس بأسلوب غير أسلوب الخراساني . وقد وصل البرامكة في ذلك غاية الدهاء . وقد عملوا لهذا المنهج سنوات طويلة ، غير ان القوى العربية اليقظة استطاعت استثارة الرشيد حتى قضى على نفوذهم بضربة واحدة ، غير أن هذا الصراع تجدد مرة أخرى على نحو أشد عمقا بعد وفاة الرشيد من خلال الصراع بين الأمين (وأمه عربية) والمأمون (وأمه فارسية) وانتصار المأمون ، واتجاهه الى خراسان ، ومحاولة تولية عهده (علي الرضا) إمام الشيعة الموالين للفرس ، هذا الخلاف والحرب بين الأمين والمأمون ، هما صورة أخرى من صور المؤامرة على الاسلام ، والخلاف بين عنصري العرب والفرس .

غير أن هذا الصراع لم يتوقف عند المجال السياسي ، بل امتد الى المجال الفكري والثقافي ، فقد برز الصراع بين مفاهيم الاسلام ، بين مفاهيم الفرق المختلفة ، وكان لظهور الدعوات الفلسفية والباطنية والمفاهيم المستترة الخفية التي

تحاول أن تتخذها واجهة من الدعوة لآل البيت . وكانت ترسم مخططاًواسعاً لصراع فكري واجتماعي وسياسي ضخم تمثل بعد في حركات سياسية ضخمه ، وهي ثورة الزنج ، وثورة القرامطة ، وثورة الباطنية وهي ثورات اتشحت بأثواب العدل الاجتماعي ، والدعوة لآل البيت ، وحاولت ان تقضي على السلطة السياسية العليا الممثلة في الدولة العباسية .

وكان هذا الصراع كله مقدمة لضعف عام ، كشف القيادة الاسلامية أمام خصومها في منطقة الخطر الحساسة (الحدود البيزنطية الاسلامية) حيث يكمن الخطر المتحضر دائماً للانقضاض على عالم الاسلام باسم اوربا والغرب والدولة الرومانية التي لم تنس أن الاسلام قص جناحيها ، وأزال نفوذها في الشام وشمال أفريقيا .

الدولة الاستقلالية

لعل من أبرز ما تتسم به المرحلة التي تلت نهاية الدولة الأموية ، وخلال البناء السياسي العباسي ظهور دول كثيرة ، ونظم سياسية ذات طابع قيادي باسم الخلافة في مصر والأندلس .

ظهرت ثلاث دول كبرى : السلجوقية في فارس والعراق - الأموية في قرطبة - والفاطمية في مصر والمغرب . كما ظهر نفوذ آخر غير الخليفة في مقر السلطة السياسية العليا . هو : نظام السلطة ، وأمير الأمراء ظهرت دول استقلالية في فارس الزيدية والصفارية السامانية والبويهية . . وفي مصر : الطولونية ، الأخشيدية ، الفاطمية ، الأموية . وفي أفريقيا : الأغالبة ، الادريسية ، الفاطمية ، المرابطون ، الموحدون الخ - وفي الأندلس : الدولة الأموية - ملوك الطوائف ، دولة المرابطين ، ودولة الموحدين .

وقد استقلت بعض هذه الدول عن الرئاسة السياسية في بغداد ، وظل بعضها الآخر على علاقة ولاء للخلافة مع الاستقلال الذاتي لها ، كان لهذا التطورأثره ، فإن أفريقيا الشمالية وكانت تمثل الجناح الأيسرمن عالم الاسلام ، قد برزت في هذه المرحلة ذات كيان سياسي واضح ، وهي التي تحملت أكبر مسؤولية في مواجهة أوربا والغرب باعتبارها القوة الخلفية وراء دولة الأندلس التي

كانت شوكة في جنب أوربا طوال فترة بقائها ، وظلت عمليات التآمر عليها لاسقاطها خلال القرون الثمانية التي عاشتها في شبه جزيرة إيبريا . ولعل هذا التطور الذي حدث في خلال الفترة التي تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول إن هذه المرحلة هي مرحلة الدول الاستقلالية ، هذه الدول التي كان لها أبعد الأثر في توسيع نطاق الحضارة والثقافة .

(١٢)

المؤامرة على الاسلام

لم تكن المؤامرة على الاسلام أمراً مستغرباً . بل على العكس من ذلك كان أمراً طبيعيا ، فإن أيّ قوة جديدة من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتفرض كيانها . فإنما تقيم هذا بالفعل على أرض الواقع ، مؤثرة في الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالازالة أو بالتحويل ، ولم يكن في الامكان أن يقوم هذا الفعل في فراغ ، ولذلك فقد كان لا بد له من رد فعل .

ومن هنا كان للاسلام رد فعل بعيد المدى في البيئات المختلفة ، التي سيطر عليها ، والأديان التي واجهها ، والقوى الحاكمة التي أزالها ، لقد قاوم الوثنية والمجوسية ، وأزال امبراطورية الفرس ، وأجلى الامبراطورية الرومانية عن مناطق استعمارها في الشام ومصر وأفريقيا ، ومن هنا كانت مقاومة الاسلام بالحرب هي العمل الأول الذي واجهه بحركة التوسع البارعة ، التي أقامت عالم الاسلام في أقل من نصف قرن ، غير أن الخطر بعد توقف أعمال التوسع كان يتمثل في مقاومة ذات واجهتين .

(١) مقاومة خارجية تتمثل في أوربا والغرب ، وتتمثل في دائرتين :

(أ) مقاومة الفرنجة في الأندلس وما حولها

(ب) مقاومة البيزنطيين في حدود عالم الاسلام من الشمال ، وهي مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشر وإلى اليوم .

(٢) مقاومة داخلية ، وتتمثل في القوى التي سقط نفوذها السياسي والديني من الفرس والمجوس واليهود . وقد بدأت هذه القوى عملها منذ قيام الدولة الاسلامية في عهد (عمر) وتمثلت أولى صور هذه المؤامرة في مقتل الخليفة الثاني بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي ، وفي الأزمة العنيفة التي تحركت في أواخر حكم عثمان ، وامتدت خلال خلافة علي ، وهي أزمة ذات طابع دقيق ، حتى ليمكن القول بأنها قد أحدثت في الاسلام منذ ذلك الوقت صراعاً لم يلتئم فقد تحركت القوى المختلفة تناضل من أجل مفهوم النظام السياسي للدولة الاسلامية .

ولم تتوقف منذ ذلك الوقت حركة الانتقاض : على الدولة الاسلامية ، أو التآمر على الاسلام ، وقد تداخلت هذه الحركات ، بين طلاب الحكم وطلاب العدل ، وبين حركات استهدفت فعلاً القضاء على الاسلام نفسه .

الفرس والعرب

ويمكن القول بأن المعركة بين نفوذ العرب ، ونفوذ الفرس كانت أبرز معالم هذا الصراع ، وكانت مشاعر الأقوام الفارسية شديدة الحساسية ، بالنسبة لسيطرة العرب ، وخضوع بلادهم للسيادة العربية . وقد قام هذا الاحساس على اساس الخلافات القديمة بينهما ، وفي ظل الشعور الذي كان يغمر الفرس بأنهم أصحاب حضارة وسلطان ولغة وتقاليد . ومن هنا كان ذلك الصراع الذي امتد طويلاً ، خلال حكم الدولة الأموية . ومن هنا كان عملهم الدائب لنصرة العباسيين ، وتأييد دعوتهم للقضاء على الأمويين .

ولا شك كان مفهوم الاسلام لا يسمح بقيام اي نوع من أنواع الاستعلاء بين العناصر التي جمعها الاسلام تحت لوائه ، ولذلك فقد كان قيام الدولة العباسية تطوراً طبيعيا ازاء موقف الدولة الأموية المجافي لمفهوم الاسلام في المساواة بين العرب والفرس . غير أن قيام الدولة العباسية لم يحقق أثره في نفوس طلاب الحكم الطامحين والمغامرين من الفرس الراغبين في إعادة السيادة الفارسية ، ومن هنا كانت المحاولات المتوالية للقضاء على الرئاسة العربية العباسية للدولة بمؤامرات متوالية أبرزها : مؤامرة البرامكة ، ومؤامرة ولاية عهد المأمون .

كما تمثل هذا الصراع في الحملة العنيفة التي شنهـا الفـرس على العـرب واتهامهم بكل نقيصة ، والانتقال في مجال الحملة من العرب الى الاسلام نفسه كمحاولة للقضاء على الاسلام « فكرة ودولة » . ومن هنا كانت مؤامرات : الزنج والقرامطة والباطنية ، وهي مؤامرات تسترت باسم آل البيت كذباً ، وكان طابعها فارسيا . والواقع أنه لا يجوز إطلاق القول في نسبة هذه الحركات إلى الشيعة ، ولا الى الفرس ، بدليل أن المدافعين عن الاسلام من الفـرس كانـوا بحيث لا يحصيهم العدّ ، مدافعـين عن الاسـلام واللغـة العـربية ، وتـاريخ العـرب ومقومات الفكر الاسلامي .

كذلك لا يمكن أن تنسب هذه الفرق ـ التي تحمل شعار آل البيت ، والتي انحرفت في مفهومها ـ إلى الشيعة . فقد كان الفرس قوة من قوى الاسلام ، وما تزال بعيدة الأثر فيه ، لا تختلف مع السنة في أي أصل من أصول الاسلام ، وإن اختلفت في بعض الفروع والمسائل ، وقضـايا الحـكم والشريعـة ، فلا بد من التحرز في نسبة مثل هذه الحركات الى الشيعة أو الفرس بعامة .

وقـد كانـت أغلـب هذه الحـركات تحمـل طابـع الدعـوة إلى « العــدل الاجتماعي » كالزنج والقرامطة ، ولكنها كانـت في الأغلـب دعـوات متآمـرة في أهدافها مهما حملت من شعارات . فقد قادها خصوم الاسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس ، ولكنها كانت تستتبع جوانب من النقص كانت في حقيقتها مجافية لمفهوم الاسلام ، ولو طبق مفهـوم الاسـلام في العـدل الاجتماعي ، والمساواة بين العرب وغـير العـرب لضـعف اتجـاه الخارجـين على الاسلام ، ولما وجدت مثل هذه الشعارات مكانا أو تقبلاً ، ولو خلت القيادات السياسية من طابع التعصب والانحراف والاستئثـار بالنفـوذ والثـراء لأوليائهـا وكانت أكثر قدرة على الاستجابة لصيحات التحرر ، وطلاب العدل الاجتماعي ، لما استطاعت مثل هذه الحركات ان تجد من يستمع إليها أو ينضوي تحت لوائها .

غير أن أغلب هذه الحركات كانت تستهدف أساساً إسقاط الاسلام بإسقاط دولته ، وكانت تعلن العودة إلى الوثنية والمجوسية والثنوية والزرادشية والمانوية ، وعبادة النار . ومن هذه حركة بابك والأفشين ، وكان بابك الخرمي قد أرسل الى ملك بيزنطة وأغراه بغزو بلاد الاسلام ، فسار هذا الملك ، وأوقع بالمسلمين ،

وقد نقلت عن الأفشين أمور تكيد للاسلام ، وتجهد في هدم الدولة ، فقد كتب الى مازيار أشروسنة يقول : إن هذا الدين يعني الاسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم (يقصد المجوسية) . وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة ، وأنفق في عام واحد - عام **١٢٢** - ألف ألف دينار .

* * *

والخرمية حركة فارسية حاولت أن تعتصم ببرامج اقتصادية لتخفي هدفها الأساسي وهو التخلص من حكم العباسيين ومن الاسلام ، وإرجاع مجد فارس ، والدين المجوسي بشكل ما ، وجاءت ثورة الزنج **٢٥٦** هـ واستمرت حتى **٢٧٠** هـ ثم اندلعت ثورة القرامطة **٢٧٧** هـ التي كانت مرحلة تالية لثورة الزنج ، فقد انتشرت الدعوتان في محيط الفلاحين ، هذه القوى التي كانت تعيش في جنوب العراق وبادية الشام ، وتمثلت هاتان الثورتان مقاومة النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم في ظل الدولة العباسية ، كما كشفت عن قسوة الحياة التي كانت تحياها هذه الطبقات من العاملين في أراضي الاقطاعيين .

غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهاج إسلامي أساسي يتيح لهما سنة البقاء . وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير . إذ قام الداعون اليهما بفظائع لا حدّ لها . فقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب الى الشيعة ، واستهدفوا القضاء على الدولة . وقد دمرت ثورة الزنج كثيرا من المدن الهامة كالبصرة والأبلة . غير أن هاتين الحركتين لا تخليان القيادة السياسية للدولة الاسلامية من مسؤوليتها إزاء استخدام هذا العدد الضخم من العبيد في مزارع الاقطاعيين بأجور تافهة . وقد جلبوا من شرق أفريقيا ، وحشد الألوف منهم في أوضاع سيئة ، بما يخالف مبادىء الاسلام .

* * *

• أما القرامطة فقد بعدت حركتهم عن مفاهيم الاسلام بعداً شديداً ، بل حاولت أن تتهم الاسلام بأنه مصدر استعباد الجماهير ، ولم يكن ذلك في الواقع هو مفهوم الاسلام ، ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم . بل على العكس من ذلك . كان التخلف عن أيديولوجيا الاسلام التي قامت على العدل الاجتماعي

والمساواة ، هو مصدر قيام مثل هذه الثورات . وقد صاغ القرامطة دعوتهم في مفاهيم المجوسة والثنوية والوثنية ، فادعوا أن الجنة هي الدنيا ونعيمها ، واعتمد حمدان قرمط في دعوته على مفاهيم حركة مزدك المجوسية التي قامت في العصر الساساني . كما استغل القرامطة تكتل أهل الحرف ، ووجهوه لهدم الدولة العباسية والقضاء عليها ، فأوقدوا نار التذمر ، وحملت « الحركة الباطنية » نفس مفاهيم الحركة البابكية الحزمية ، مستهدفة القضاء على حكم العباسيين وعلى الاسلام وارجاع مجد فارس القديم والمجوسية ، ووجدت ارضاً خصبة في الطبقات العاملة والفقيرة في سواد العراق من الأنباط والفرس والسريان . ولذلك وجهت خصومتها إلى « الدين » واعتبرته مصدر الشقاء . ومن هنا حاربت مفهوم الدين أصلاً ، واحتلت بدلا منه مفهوم الفلسفة ، ولما كان أهل المناطق التي وجهوا إليها دعوتهم تؤمن بالاسلام ، ومن الصعب حملها على خلعه ، فقد اتجهوا الى طريقة التأويل أو علم الباطن ، وكان الباطنية « قادرين » على تعديل وسائلهم بما يناسب الوسط مع الاحتفاظ بالأساس والهدف الذي يرمون إليه ، وهو القضاء على الاسلام ، ودولة الاسلام معاً ، وكانت الحركة القرمطية إحدى حركاتهم . وقد اتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها ، وذلك بدعوى أن من يمت في سبيل غايتها ينتقل إلى الجنة ، فكانوا يخدرون الشباب بالحشيشة ، ثم ينقلوهم إلى حدائقهم الجميلة ، فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم في ذلك الفردوس المصنوع ، وقد خدعوا كثيراً من الشباب بهذه الوسيلة ، وازداد نفوذ الحشاشين قوة وخاصة في فارس والعراق ، ومن أكبر معاقلهم في « قلعة الموت » قرب بحر الخزر ، وقد أنهى المغول سلطانهم الذي ظل يهدد الدولة العباسية أكثر من قرن ونصف قرن . وهكذا مرت حركة التآمر على الاسلام باسم الاسماعيلية والباطنية والحشاشية بصور وأشكال متعددة ، وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدعوة إلى حق العلويين « الشرعي » في الحكم ، بينما كانت تهدف أساسا إلى القضاء على الاسلام نفسه ، وذلك بمزج مبادىء الاديان والفلسفة ، واستغلالها لخلق روح التذمر الاجتماعي مستغلة في ذلك الطوائف والعناصر غير العربية .

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية ، ووضع مبادئها الى عبد الله بن ميمون القداح . وقد اتبع أتباعه وأولاده أثره في توسيع نطاق

الحركة ، ويؤكد مؤرخوالغرب أمثال : دي ساسي وديموج بوجه خاص وجوددافع سياسي لدى عبد الله بن ميمون القداح هورغبته في القضاء عليسلطان العرب وعلى الاسلام ، الذى جلب إليهم تلك السلطة ، وإرجاع مجد فارس القديم مرة أخرى . ويؤكدالدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه : العصورالعباسية المتأخرة . القول بأن القداح أراد أن يقوض الاسلام ، فاشعل الشعور الشيعي عند الجماهير ، وكون المذهب القرمطي المؤدي إلى الالحاد ، واستغل اسم إسماعيل بن جعفر الصادق في إثارة حركة شعبية قوية تنقل الملك إلى أحد أحفاده باسم « المهدي » .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة (في العراق والبحرين خلال القرن الرابع) والحشاشين والباطنية في (سوريةوإيران خلالالقرن الخامسوالسادس) كات لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان . (الشهر ستاني) وأهم مبادئهم مبدأ(الباطن) الذي كان من أبرع الأساليب وأدهاها وأقدرها على التأثير بين جماعات مختلف المذاهبوالأديان ، فهم يقولون بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، وأن الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . وقد تأولوا آيات القرآن ، وسنن النبي ، وقالوا إن من ارتقى إلى علم الباطن انحطعنه التكليف ، وان جميع ما استبعد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها ، وعليها العمل وفي النجاة (ابن الجوزي) ويرى الباحثون والمؤرخون أن غايتهم الأساسية سياسية عامة ، وأن تطبيق التأويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جميع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة (الدكتور الدوري) والأثر الفارسي القديم . ظاهر في تضاعيف هذه الدعوة ومفاهيم الثنوية والمجوسية واضحة في جوهرها ، مما يؤكد ان هدفها كان ضد الاسلام أساساً ، وأنها كانت حلقة من المؤامرة على كيان الاسلام ودعوته .

وقد أكد البغدادي : أن الذين وضعوا أساس الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم . وقال : « لا تجد على ظهر الأرض مجوسياً إلا وهو مواد لهم » (أي للباطنية) منتظر لظهورهم على الديار ، وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة ضخمة ، وواجهت مفاهيمها ، وردت عليها ، ونقضت شبهاتها . وأكد المؤرخون أنها حركة معادية للاسلام ، ناشئة من دين

أجنبي بحسبانها حركة فارسية ، إيرانية ضد العرب ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية ، الراوندية والخرمية والبابكية وامتداد لها . وقال الدكتور الدوري : إنها تمثل نمو مبادىء المزدكية التي تطورت بظهور الاسلام ، واكتسبت ثوبا إسلاميا . وقال ابن الجوزي (أحد كبار المؤرخين المسلمين) : إن المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية « حركة واحدة » . والمعروف أن فكرة التأويل مانوية ، وفكرة الحلول والرجعة والتناسخ من آراء الغلاة ، والثنوية من تعاليم مزدك ، الداعي إلى استباحة الأموال والأعراض . وتعد حركة إخوان الصفا على نفس الخط ، وهي محاولة للتآمر على القيادة السياسية والاسلامية عن طريق نشر مفاهيم فلسفية تجمع بين مفاهيم المزدكية والبابكية ، ويرى مؤرخو السنة ان الباطنية كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان ، وخاصة عن الاسلام ليتركوا لهم الخيار في اتباع أي مذهب ، وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية ، وترك مراسيم العبادة الاسلامية (أي رفض الظاهر) .

ويقول الدكتور الدوري : إن الدعوة الباطنية (الاسماعيلية) كانت تهدف قبل كل شيء إلى احداث ثورة اجتماعية . ولما كان الاسلام هو أساس النظام القائم ، فقد حاولت هذه الدعوة بطريقة التأويل والتنشوء توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون لتقويض المجتمع ، وإقامة اخر .

وقدهاجم الامام الغزالي «الدعوة الباطنية» وماجرى على يديها من ترويع وإرهاب وسفك دماء ، وبينما كان السلاجقة يكافحون الباطنية بوصفها خطرا سياسيا ـ كان الغزالي يكافحها من حيث إنها انحراف عن مفهوم الاسلام ومقوماته . فكشف في كتابه « فضائح الباطنية » عن بدعهم وضلالاتهم ، وفنون فكرهم ، ووجوه استدراجهم الناس . وقد اعتبر الغزالي : الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية ، والاسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية كلها فرقا خارجة عن مفهوم الاسلام ، وعلل سبب تلقينهم بالباطنية بأنهم يدعون أن للقرآن « باطناً » وقال إن هدفهم الأكبر هو إبطال الشرائع ، وهم المنسوبون الى حمدان قرمط ، وبابك الخرمي .

وقد استطاع خط الدفاع عن الاسلام ، الكشف عن نوايا هذه الدعوة في

مواجهة تواطوء المجوس والمزدكية والثنوية الملحدة ، وملاحدة الفلاسفة على هدم عقائد الاسلام في نفوس معتنقيه ، على أن يتخذوا هذه الدعوة في إطار من السرية مستغلين في ذلك الركون الى طائفة يثق بها المسلمون ، وهم آل البيت ، ولما لم يكن من الممكن إعلان هذه الدعوة الا بوسيلة خادعة لجماهير الناس ، اتخذ الباطنية منهجاً سرياً مكوناً من تسع درجات . وقد تجمع في نطاق هذه الدعوات . الموتورون الذين ملأ الحقد نفوسهم من أبناء الأكاسرة والدهاقين ، والروافض والملاحدة والثنوية ، ومن استولت عليهم الشهوات ، دفعتهم ـ هذه المطامع المتباينة إلى التجمع تحت لواء الحركة الباطنية التي قامت على تأويل معاني الشريعة .

(١٣)

« حركة الدفاع عن الاسلام »

أبرز ما تتسم به مرحلة « البلورة والانصهار » أنها كانت المرحلة التي جاءت بعد « بناء عالم الاسلام وتوسعاته » فعندما توقفت حركات التوسع بدأت مرحلة الترسيب ، وحضانة القيم الجديدة ، ذلك أن الاسلام قد أزال القوى الحاكمة التي وقفت في طريق دعوته ، وأتاح للشعوب التي انضوت تحت لوائه نظاماً جديدا قوامه : « التوحيد العدل ـ المساواة » جاءت بديلاً من الأوضاع الظالمة القاسية المضطربة ، التي كانت تعيش فيها الأقطار والأمصار ، غير أن الاسلام لم يفرض نفسه على هذه الشعوب كعقيدة . بل ترك لها حرية تقبله عن اقتناع ،أو البقاء على عقائدهم ، ومن ثم نشأت بعد توقف حركات التوسع محاورات ضخمة ، ومجادلات واسعة في كل أقطار الاسلام ، فقد أتاح الاسلام لأهل الأديان الأخرى من مجوسية ومسيحية ويهودية الدفاع عن معتقداتهم ، وكان المسلمون يردون على هذه المناظرات ، ويدخلون في مساجلات مع أصحابها على أساس فلسفي جدلي . ومن هنا كانت الفلسفات سلاحاً أخذ به أصحاب الأديان الأخرى ، ولم يكن ثمة سبيل إلى تجاهل هذا السلاح للدفاع به عن الاسلام إذ كان لا بد للمسلمين أن يكونوا على مستوى السجال والجدل . ومن هنا ظهرت طائفة « المعتزلة » .

وكان لا بد للمسلمين من علماء وفقهاء ـ بعد أن هدأت « حركة التوسع » للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ـ فكانت القوى التي تستمع إليهم

تتعرض إلى ذكر الحجج والبراهين التي تعرفها عن الأديان الأخرى (المجوسية واليهودية والمسيحية) .

وكان كل من هذه الأديان قد تسلحت من قبل بالمنطق السرياني ، والفلسفة اليونانية تستخدمها في الجدل . وإذا كان عصر الأمويين هو العصر الذي تكاملت فيه حركات التوسع حتى وصلت السند وبخارى وسمرقند الى كاشغر على حدود الصين ، ووصلت إلى الأندلس إلى حدود فرنسا ، فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذي ترسبت فيه قيم الاسلام ومفاهيمه في هذه الجماعة الضخمة التي تنوعت أديانها ، وتنوعت لغاتها ، وتنوعت أجناسها . فبدأت تنصهر في بوتقة واحدة ، هي : « بوتقة الاسلام ، حيث أخذت ثقافتها وفلسفاتها وعاداتها وقوانينها ، ونظم مجتمعاتها تتبلور في « إطار الاسلام » وتخضع لمفاهيمه وقيمه الأساسية ، وكان الاسلام بسماحته وسعة أفقه ومرونته ، قادراً على تقبل خير ما في هذه الثقافات والفلسفات ، والقوانين ، وعادات المجتمع ، ونظمه وصهرها في مفاهيمه وفق الخطوط العامة الأيديولوجية، ورد كل ما يتعارض مع هذه المقومات ، وقد كان للنظام السياسي للدولة العباسية ، والصيغة الهاشمية المتصلة بآل النبي أثرهما في تحقيق قدر كبير من النجاح في سبيل اعتناق أغلبيات ساحقة من عناصر المجتمع الاسلامي للاسلام عن اقتناع . فقد وجد كثير من الناس في الاسلام وبساطته وسماحته ما دفعهم الى اعتناقه تحرراً من العقائد التي أصابتها الوثنية والفلسفة اليونانية بالتعقيد وما احتواها من اضطراب .

وسعى في هذاالسبيل المحدثون بمناهجهم السمحة القريبة الى القلوب ، والمعتزلة « المتمكلمون » بأساليبهم الذهنية المقنعة للعقول ، فوجد للاسلام طريقان متصلان بالقلوب والعقول ، هذان الطريقان ـ معاً ـ يمثلان مفهوم الاسلام الذي يقوم على التكامل والشمول والوسطية ، ويخاطب العقول والقلوب جميعاً . وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوي ، والمغازي ، يعرضون تاريخاً مليئا بالعزة والسماحة والبطولة والايمان والعدل والمساواة ، واستعان المعتزلة بالجدل ، والمناظرة ، والمنطق ، ونظروا في كتب الديانات الأخرى من مجوس ويهود ونصارى ، والمذاهب من مجبرة ورافضة ومانوية . وقد نجحت هذه الحركة نجاحاً منقطع النظير ، فقد تحول كثرون من أديانهم الى

الاسلام . وأسلم على أيدي المعتزلة كثيرون ، حتى قيل إنه أسلم على يد أبي الهزيل العلاف وحده ، وهو رأس المعتزلة أكثر من ثلاثة آلاف رجل . كما أسلم على أيدي المحدثين كثيرون ممن بهرتهم القدوة والخلق والمثل الأعلى . وقد أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من النصارى والمجوس واليهود ، كما كان لدعاة الوعظ والتصوف أثرهم البعيد المدى ، أمثال أبي قاسم الجنيد ، وأبي الفرج بن الجوزي .

وكان للخفاء العباسيين في هذا المجال دور واضح ، فقد نشط كثير منهم للدعوة إلى الاسلام ، وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في دعوة من لم يكن على الاسلام من أهل (ما وراء النهر) يستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأنعم عليهم بالأعطيات والأرزاق ، وسار المعتصم بالله على نفس الخطة ، فغلب الاسلام على أهل ما وراء النهر من السِّند والأشروسنة ، وأهل الشاس . بل لقد كان المأمون يدعو إليه من يرتد ممن أسلموا فيناقشهم ويحاورهم ، حتى يقنعهم ، ولم يكره أحد من خلفاء العباسيين أحداً ، ولم تكن الجزية تؤخذ الا من القادرين ، وكانت مرفوعة عن المسكين ، والأعمى ، ومن لا حرفة له ، ومرفوعة كذلك عن الرهبان في الاديرة ، والشيخ الكبير ، ولم تكن تزيد عن **٤٨** درهما للغني و**٢٤** للوسط و**١٢** درهما للعمال والصناع في العام (الخراج لأبي يوسف) ومن هنا لم تكن هذه الجزية اليسيرة بدافعة أصحابها إلى ترك أديانهم إلا عن إيمان واقتناع وتفضيل .

(٢)

المعتزلة والدفاع عن الاسلام

أتصور حركة التآمر على الاسلام ، وقد أتيحت لها الفرصة ، لأن تبرز في خلال حكم العباسيين من خلال قضية الموالي والصراع بين العرب والفرس . لقد برز ذلك التيار في صور متعددة من خلال مراحل متوالية ، لقد كان للترجمة وانتشار الفلاسفة ، وتعدد النظريات الفارسية والمجوسية واليونانية القديمة بما تحمل من وثنية وثنائية ، داعيا إلى ظهور المعتزلة كمدافعين عن الاسلام بنفس الأسلحة . فقد برز من الذين دخلوا الاسلام مستهدفين بث أفكارهم وفلسفاتهم ، كوسيلة لهدمْ الاسلام ، كان أخطر هؤلاء ممن أدال الاسلام نفوذهم : الفرس واليهود ، ولم تلبث أن ظهرت شعارات وكلمات منحرفة عن مفهوم الاسلام ، كانت هذه المعاني قد عرفت في محيط الاسلام منذ حمل عبد الله بن سبأ لواء الدعوة إلى بث مضامين المجوسية في الاسلام عن طريق الوصاية والرجعة وغيرها .

وقد انتشرت هذه المفاهيم ، وثارت الفتن ، حين زعم « ابن السوداء » أن عَلِيًّا إلّه ، وأن الجزء الالهي يحل في الأئمة ، وقد جاهده الامام علي ونفاه إلى ساباط المدائن ، وحرق بعض أتباعه ، ومن أتباع ابن سبأ ظهرت فرق الغلاة « السبئية » وبدأ ذلك الخط الدقيق من المؤامرة على الاسلام . هذا الخط الذي اتسع من بعد ، حين توسع في استخدام أفكار الفلسفات والأديان القديمة . ولم يلبث مثقفو المسلمين أن اصطنعوا نفس السلاح ، وظهر « المعتزلة » كأقوى قوة

فكرية في هذا المجال . فكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية ، وفي مقدمتهم واصل بن عطـاء ، والنظـام ، وأبـو الهـذيل العـلاف ، والجاحـظ ، والحياني .

وقد كان عمل المعتزلة في هذه الفترة من صميم الدفـاع عن الاسـلام ، بإعطاء العقل مكانة في مفهوم الاسلام ، غير أن المعتزلة تطورت من بعد وغالت في مكانة العقـل وبعـدت بذلك من مفهـوم الشمـول والتكامـل والوسـطية في الاسلام ، هذا المفهوم الذي يمزج بين العقل والقلب ، فانحرفـت عن مفهـوم الاسلام الشامل الجامع ، وبلغ ذلك غاية الاضطـراب حـين تدخلـت الدولـة ففرضت مفاهيم المعتزلة على الناس . غير أن خط الدفاع عن الاسلام لم يلبث ن تطور حين ظهر رجلان من أبرز رجاله هما : الأشعري والماتريدي .

أمـا الجاحـظ فقـد كان عليما بأسـاليب الـكلام وطـرق الجـدل مع الالمام بالديانات والمذاهب الكلامية والمنطق ، فقد رد الجاحظ على المشبهة والنصارى واليهود ، ودحض شبهاتهم . هذا فضلاً عن دوره في مواجهة الشعوبية والرد على دعاتها . وقد قاوم المعتزلـة البـدع والخرافـات التي بدأت تدخـل في مفـاهيم الاسلام ، وتسيطر على عقول العامة ، واستأصلوها ، إيماناً منهـم بخطرهـا في الزحف على أصول الاسلام ومقوماته الأساسية ، وفي مجـال العقائـد الفلسـفية المثـارة ، استطـاع المعتزلـة أن يواجهـوا جدل أهـل الأديان الأخـرى ، وأهـل الفلسفات بنفس أسلحتهم ، وكان لهذه الحركة أثرها في إحاطة الاسلام بدرع قوي في مواجهة خصومه .

وكان المعتزلة أول من أدخلوا الفلسفة في الاسلام محاولـين التـوفيق بـين الدين والفلسفة ، وأطلق على مناهجهم التـي استعملوهـا « علـم الـكلام » أو فلسفة الدين ، أو علم التوحيد ، وقد ظل أهل السنة بعيدين عن هذا المجال ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري الذي كان من أنصار المعتزلة ، ولم يلبث أن خرج عليهم حين انحرفوا عن الهدف الأول وقاومهم بنفس الأسلحة ، ونصر مذهب السنة ، واصطنع أساليب « علم التوحيد » في مناصرة أهل الحديث في البحث والمناظرة والاستدلال .

ولقد كان لهذا الخطر الذي امتد من المعتزلة كمدافعين عن الاسلام بأسلحة

الفلسفة في وجه خصومه ، ثم تطورها على يد الأشعري والماتريدي إلى الدفاع عن السنة والحديث ، كان لهذا العمل أثره الذي لا حدّ له في ازدهار الاسلام وعلومه ، كما مهد لظهور المذاهب الفقهية . وكان أبو الهذيل العلاف أول متكلم إسلامي تأثر بالفلسفة ، وهو من أوائل من ناقشوا أصحاب الملل الأخرى من المجوس واليهود والمسيحيين ، وكانت البصرة موطن أبي الهذيل في هذه الفترة تموج بتيارات مختلفة تحاول ان ترد الاسلام وكتابه عن المكانة التي بلغها ، وتدافع عن دياناتها ومذاهبها وفلسفاتها ، وتواجه هذا الدين الجديد بسلاح الجدل . وكان الاسلام من قبل بسيطا سمحاً ، وكانت الديانات القديمة قد تفلسفت وتأثرت بالفلسفة اليونانية بالذات التي انتشرت في الشرق منذ فتح الاسكندر . وكان الفرس ـ هم القطاع الثاني من الاسلام بعد العرب في هذه الفترة ـ قد عرفوا الفلسفة اليونانية ، وكان اليهود والنصارى والمجوس قد تأثروا بها جميعاً واتخذوها سلاحاً للمحافظة على دياناتهم . ومن هنا كان اتجاه المسلمين إلى الأخذ بسلاح الفلسفة اتجاه ضرورة لا معدى عنه . وقد أدار « أبو الهذيل العلاف » مجالس المناظرة التي كان يعقدها المأمون مع أهل الديانات الأخرى ، وعرف بقوة جدله وفصاحته ، فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات ، وتبحر في الأدب العربي ، وحفظ كثيراً من الشعر العربي ، وكان أبو الهذيل مقتدراً على توجيه الجدل ، والرد على كل الشبهات ، والانتصار في النهاية ، وذلك لمحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للاسلام ، وعلمه بالشبه التي تثار حول القرآن والاسلام وإفحام مثيريها .

وكان ذلك الجدل الحرّ المنطلق هو : أروع ما عرف في سماحة دين ، يسمح في مجال حكمه ، وفي ظل دولته بالجدل ، ويتيح لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ، ومن قبل أظلهم بظله دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسراً . بل سمح لهم بأن يقيموا شعائرهم في حرية ، ومن هنا وفي ظل الحرية المتاحة ، بقي كثير من أصحاب الأديان الأخرى على عقائدهم القديمة مخلصين لها .

ثم كان لهم من بعد أن يطمعوا في تحويل المسلمين إليها ، وكان من المسموح به أن يتحدث حبر عن يهوديته وقسيس عن مسيحيته . وكان أبو الهذيل يناقش هؤلاء ويجادلهم ، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألّف « يحيى الدمشقي »

كتابا يعلم فيه المسيحي الدفاع عن دينه وعمله عن طريق السؤال والجواب ، فيقول : إذ قال لك المسلم كذا ، فقل له كذا ، وكانت هذه الفترة - بعد توقف عمال التوسع - مرحلة انصهار واسعة ، وبلورة ضخمة للفكر والمجتمع الواسع الضخم . وكان لترجمة الفلسفة اليونانية وانتشارها أثرها في خلق هذا الجو الجديد ، وكثيراً ما كانت هناك محاولات لاتخاذ هذه الفلسفات والمواقف وسيلة للتآمر على الاسلام . ولقد كانت المعتزلة في مرحلة من مراحل حياتهم الفكرية « دعاة الدفاع عن الاسلام » وحمله لواء الذود عنه . غير أنهم مع ثقافتهم الواسعة وبراعتهم ، لم يتعمقوا الاسلام « ووقفوا منه عند حدود الجانب العقلي ، وأسرفوا في تقديره . وكانت تلك نقطة الضعف ، الاسراف في تمجيد العقل والايمان الذي لا حد له باقتداره » فقد رأوا أن العقل البشري قد منح من اليقظة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى .

هنا برزت ظاهرة التجزئة في مواجهة قانون التكامل في مفهوم الاسلام . هذا القانون الذي يقف في وجه كل فكرة متقدمة إذا بلغت درجة الانحراف ، لقد بلغ المعتزلة درجة الانحراف ، حين أغفلوا تماماً جانب القلب ، والاسلام بوصفه أيديولوجيا يقوم على الشمول والتكامل والوسطية ، وعلى القلب والعقل معاً ، فإن الايمان بالعقل وحده وإعلاءه ، إنما يمثل انحرافاً بالاسلام عن مفهومه الذي لا يجعل الاعلاء لشيء سوى الله وحده . ولقد أخذ على المعتزلة كثير من المؤرخين والباحثين أنهم حاولوا إخضاع العقائد الاسلامية للعقل وحده . وكان هذا اتجاها خطراً على مفهوم الاسلام المتكامل ، وأنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، وأن سيرهم وراء السلطان العقلي ، قد جعلهم ينقلون الاسلام إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، ويحولونه إلى نهج فلسفي ، وليس الدين (أقصد الاسلام) كالمسائل الرياضية ، ولا النظريات الهندسية وإنما يجمع - دوماً - بين العقل والقلب ، والعلم والروح .

وجملة القول إن نظام المعتزلة نظام جيد التفكير ، ضعيف الروح ، غالى في تقدير العقل ، وقصر في قيمة العاطفة (ضحى الاسلام : أحمد أمين) . ولا شك كان الاعتزال هو الجناح الثاني للتصوف والزهد ، وكان كلاهما يستمد من مقومات الاسلام . ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الاسلام دون الآخر . ولقد بلغ أمر الاعتزال غايته في الاسراف والانحراف ،

حين فرض نفوذاً سياسيا في عهد المأمون وضع الناس موضع الامتحان بخلق القرآن ، وأثار أزمة سياسية وفكرية ، بعيدة المدى تصدى للوقوف على رأس معارضتها . الامام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه . إذ قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله لا نقول عنه إنه مخلوق أو غير مخلوق .

غير أن السياسة لم تلبث أن غيرت موقفها . وجاء على رأس القيادة السياسية رجل أبعد المعتزلة ، وقرب أهل السنة ، وكان ذلك كله مقدمة لتحول خطير في صفوف المعتزلة ومفاهيمها ، وهو ظهور « الأشعري » وكانت موجة الاعتزال قد سيطرت واستخدمت في إثارة الشبهات في وجه السنة ، والعقائد ، وبدأ بعض دعاتها يعبثون بتفسير القرآن ، واستعلى اتجاه تقديس العقل وتحكيمه في كل شيء ، وبدا أن (الايمان) يتعرض لصراع مع العقليات ، هنالك برزت « شخصية الأشعري » كقوة دافعة جديدة ، لتصحيح مفاهيم الاسلام ، والقضاء على الانحرافات التي انتجها تحول المعتزلة .

وكان الأشعري من المعتزلة أصلاً ، ولكنه آمن بالسنة ، وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود . بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف ، هنالك كانت صيحة الأشعري يقظة جديدة تمزج الاعتزال في السنة بوصفها رمزاً لمفهوم الاسلام الذي يتسم « بالشمول والتكامل والوسطية » فقد أعاد صياغة الفكر الاسلامي على النحو الذي يعطي السنة أسلحة الاعتزال لتجددها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشيء للفكر الاسلامي أفقاً مجدداً يقضي على الجمود والانحراف معاً .

* * *

(٣)

بلورة الفكر

أما وقد اتسع المجتمع الاسلامي ، وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه : عرب وترك وفرس وبربر ، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تتبلور فيه . فقد كان من الضروري أن يبرز تحد خطير في مواجهة مفهوم الاسلام . ذلك هو موقف الفكر الاسلامي من القانون الروماني ، والفلسفة اليونانية ، ومن الحكمة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والمجوسية والمانوية . فمن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجال الأجناس والأفكار وعملية التوليد : الاجتماعي والعقلي ، فكان ضروريا في خلال هذا البحر الخضم الذي يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان ، أن يبرز الفكر الاسلامي واضح الحدود والمعالم ، كاشفا عن خصوصياته العامة ، ومقوماته الأساسية ، لتكون الاطار الذي تلتقي فيه هذه الثقافات جميعها ، وتنصهر . وقد زاد هذا التحدي قوة توسع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية ، هذا التحدي هو الذي فرض تدوين السنة والفقه ، وتحقيق الحديث ، وتقنين الفقه ، وتنسيق مصادر التشريع الاسلامي .

وهناك حقيقة هامة هي أن « أيديولوجيا الاسلام » قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن مقومات الفكر العربي الاسلامي قد تمت قبل الترجمة من اليونانية والفارسية . وقد أثمرت هذه الحركة الضخمة عملين كبيرين :

(١) تحقيق الحديث والسنة على النحو الذي قام به البخاري ومسلم ومالك والترمذي وأبو داود السجتاني ، والنسائي وابن ماجه .

(٢) تقنين الفقه على النحو الذي قام به مالك والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل . ومن هنا تكونت صورة واضحة لمفهوم الاسلام ومقوماته ، محققة دقيقة ، استوعبت ميراث الفكر الاسلامي منذ بدأ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دعوته ، وما تابعها من أحكام وأحاديث وقضايا واجهها الخلفاء الراشدون وصحابة الرسول ، وما اتصل بذلك كله من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الاسلامي في مجالات المعاملات بين المسلمين وبعضهم ، وبين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى . وقد كان خلق هذا الاطار وتكوينه ضرورة خطيرة بعيدة الأثر في هذه المرحلة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من فلسفات اليونان والهند والفرس ، ومن مفاهيم الديانات والمذاهب المختلفة .

وكان هذا العمل الفكري الذي يطلق عليه حركة « التدوين في الاسلام » عاملا هاماً في مواجهة ذلك السيل المتدفق من ثقافات الشعوب والأديان التي انطوت تحت لواء المجتمع الاسلامي . فقد حدد موقفه منها ، ورسم لها المقومات الأساسية ، والقيم العليا للاسلام متمثلة « التوحيد ، العدل الاجتماعي ، المساواة » . كما أبان عن أبرز مضامين الاسلام ومقوماته ، وهي : « الشمول والتكامل والوسطية » . بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كما كشف عن طابع الاسلام الأساسي : ديناً ومدنية ، وأبرز مرونة الاسلام وقدرته على الحركة وتفتحه على الثقافات والحضارات ، ودعائمه الأساسية في التجدد والاجتهاد والتطور على النحو الذي يجعله قادراً على الحياة والاستمرار مع تطور الأزمان والحضارات في مختلف البيئات والأقطار . فقد جعل الاسلام « الاجتهاد والاستنباط » في مقدمة أسسه العامة حرصا منه على مواجهة التطور ، ولم يمنع - في حدود هذه المفاهيم والأسس - من الاقتباس من مختلف النظم الرومية والفارسية ، والثقافات اليونانية والهندية ، ما دامت لا تمس هذه القيم ولا تخرج عن هذا الاطار . وهكذا كشف الاسلام في مرحلة التبلور والانصهار عن قدرته الفائقة في تذويب الثقافات المختلفة ، وصهر الفلسفات والمذاهب ، وبلورة المفاهيم بحكم أنها أساساً مفاهيم إنسانية عامة تستهدف خير البشرية . وبذلك أبان عن طابعه العالمي الانساني الشامل بوصفه « الحتمية التاريخية » التي تتطلع

الانسانية الى بلوغها مهما وقفت العقبات في طريقها على مسار البشرية الطويل . ومن هنا كشف الاسلام عن دوره الايجابي في لقاء التاريخ . ومن هنا كانت الأسس التي استطاعت أن تلقي الضوء الكاشف على محاولات تحويل الاسلام عن مجراه ، أو تجزئة مفهومة ، أو إعاقته عن طريقه - أو انتقاص شموله وتكامله على النحو الذي بدأ في حركات التآمر على الاسلام التي توالت في هذه المرحلة .

وقد كشف الفقهاء والعلماء والمحدثون في هذه المرحلة عن قدرتهم الفائقة ، على إنماء الفكر الاسلامي وتوسيع آفاقه بما جعله قادراً على الاستجابة للحضارة والتطور ، وذلك باستنباط المسائل ، وحل القضايا ، ووضع الاجابات السمحة للمعضلات ، واستخراج النتائج والفتاوى في كل ما يتعلق بتنظيم التجارة وشؤون المجتمع ، وقد أحصي لأبي جنيفة أنه أجاب عن ٦٠ ألف مسألة منها ٤٥ ألفا في المعالات (مناقب أبي حنيفة للمكي) وأورد مالك في المدونة (٣٦ ألف مسألة) وجمعت مسائل أحمد بن حنبل في أربعين مجلداً (الجامع لعلوم الامام أحمد : أبو بكر الخلال) وقد سارت هذه المدارس كلها في طريق واحد ، تتوالى على نحو متكامل ، وتقوم على أربعة قضايا هامة .

(١) الاجتهاد بإعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته .

(٢) تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق ، أو خرج عن مفهوم التكامل والوسطية .

(٣) الدفاع عن الاسلام ، والرد على الشبهات الموجهة إليه .

(٤) النقد الاجتماعي للمجتمع ، ومناصحة الولاء .

ولقد ظل عمل مفكري الاسلام طوال هذه العصور . هو : « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » وفق روح العصر ، وتشكيله على النحو الذي يكشف عن قدرته الفائقة في الاستمرار متفاعلاً مع التطور في البيئات المختلفة ، وعلى توالي العصور ، متقدماً نحو تحقيق الحرية والعدالة والاخوة والمساواة بين بني البشر في ضوء التوحيد . ولقد كان لذلك العمل بعده الهام بالنسبة لحركة الترجمة التي أعطاها الفكر الاسلامي تقديره وثقته ، حتى اشترط الخلفاء على البيزنطيين في عقود المهادنة والصلح ، تقديم المخطوطات اليونانية . وقد نقلت هذه الترجمات فلسفات ونظريات لم يقبلها الفكر الاسلامي على علاتها . بل قبل منها

ورد منها في نطاق مفهومه ، وفي إطار مقوماته الأساسية ، واستطاع أن ينتفع بالمنطق كسلاح للدفاع عن الاسلام في مواجهة استعمال أصحاب الأديان الأخرى له .

وقد تبلور هذا العمل عن صياغة كاملة لأيديولوجيا الاسلام : السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد قامت هذه الايديولوجيا على القرآن ، والحديث . أما القرآن - الوثيقة الخالدة التي خلت من التحريف على مرّ العصور - فهي المصدر الأول ، أما الحديث فقد حوى ذخيرة ضخمة بالأحكام والمواقف والأقضية ، التي واجهت المسلمين كمجتمع خلال ثلاثة وعشرين عاماً في حياة الرسول - هذا الحديث كان في حاجة إلى مراجعة وتنقيح ونفي المكذوب منه . وقد حمل لواء هذه المهمة أعلام أبرار ، عاشوا حياتهم كلها له ، وقد اعتمدت أساسا على الصحف التي كتبت في حياة الرسول ، وحفظت لدى أوائل المسلمين . وقد كانت هذه الجوامع والمسانيد والسنن الأساس للتجميع ، وقد قطع المحدثون وفي مقدمتهم « البخاري » أعمارهم في السفر من أقصى العالم الاسلامي إلى قصاه طلبا لتحقيق الحديث من أقصى المغرب إلى خراسان .

* * *

غير أن إطار الاسلام للثقافة الجديدة قد ظل واضح الأثر في حركات النقل والترجمة والاقتباس ، فإن المسلمين مع كونهم ترجموا الفلسفة والعلوم والثقافات ، فإنهم لم يترجموا أي تشريع أو قانون أو نظام . وفي مجال الفلسفة فإن الفلاسفة المسلمين أخضعوا ما نقلوا إلى مفهوم الاسلام في التوحيد والنبوة .

وقد ظل دعاة الاسلام وعلماؤه وفقهاؤه ، قادرين دائما على المحافظة على مفهوم الاسلام وأيديولوجيته ، ويجب هنا التفريق بين مبادىء الاسلام وتعاليمه ، وبين التطبيق الذي وسعه التاريخ للقيادات السياسية الاسلامية المختلفة ، فقد ظل الفكر الاسلامي قائما حيا يدافع عن كيانه ضد عوامل الانحراف والتجزئة والاضطراب ، ويدافع عن التطبيق ، وظلت الجماعة الاسلامية قوية حية سليمة ، فإن المسلمين لم يعودوا سيرتهم الأولى قبل الاسلام ، ولم يتراجعوا عن الاسلام بعد إذ أسلموا ، وظلت طبقات العلماء والزهاد والمجاهدين ، والدعاة والطبقات الشعبية تمثل مفهوم الاسلام ، لم

تنحرف الا بعض الطبقات الحاكمة والمترفة ، ومع ذلك فقد ظلت الشريعة الاسلامية نظاماً مطبقاً في مختلف العصور حتى اوقفها الاحتلال العربي ، غير ان نظام الاسلام في بعض المراحل قد أسيء تطبيقه ، ولكن هذا لا يعني أنه قد أبعد نهائياً عن مجال التطبيق . وقد مرت مرحلة الصراع بين المذاهب والأديان والأنظمة والفلسفات ، وتبلورت في صورة « فكر إسلامي عربي » له مقوماته المستمدة من الاسلام ، وله قدرته على التطور والحركة ، وقد عولجت على أساساسه مشكلات الجماعة الأساسية ، وقد استطاع الاسلام أن يصبغ المقتبسات من الثقافات الهيلينية والفارسية ، وأن يصهرها في بوتقته بحيث أصبحت فكراً عربياً خالصاً . واستطاع الفكر الاسلامي أن يحقق نتائج هامة .

(١) القدرة على استمرار أيديولوجيا الاسلام ، وفكره وفقهه في مختلف الأزمنة والبيئات ، مع استطاعته المرنة على معايشة الحضارات والثقافات . وذلك لحيوته وقدرته على الحركة ، وإيجابيته وتقدميته .

(٢) مواجهة الصراع الفكري ، والرد على المؤامرات الموجهة للاسلام .

(٣) استمرار انتشار الاسلام وتوسعه وتمدده ، وتحول العناصر المختلفة في المجتمع الى الاسلام ، وفتح الاسلام لآفاق جديدة .

(ق٤) نقد المجتمع الاسلامي ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحة ومناصحة الحكام والولاة .

(٥) تصحيح المفاهيم ، ومقاومة الانحرافات الفكرية التي تحاول تجزئة الاسلام وإقصائه عن مفهوم التكامل والوسطية .

(٦) إعادة صياغة الاسلام بالتجديد ، وردّ الانحراف بكشف القيم الأساسية ، ودفع الاسلام في مجراه إلى الأمام مع العمل على إزالة ما يحول بينه وبين الحركة ، كالتجميد أو التوقيف أو التجزئة .

(٤)

انصهار المجتمع الاسلامي

في هذه المرحلة تمت عملية انصهار المجتمع الاسلامي ، وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة ، فقد كانت الجماعات المختلفة في العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، تحمل عناصر مختلفة ، وديانات مختلفة ، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيات متعددة .

ولم يكن العرب حين قاموا بحركة التوسع ، قد عزلوا أنفسهم عن أهل هذه الأقطار ، بل انهم انصهروا فيها بالتزاوج والتوليد . وكانت أبرز القضايا الاجتماعية هي : الرقيق أو الأسرى ، أو الموالي ، كما تعددت أسماؤها ، وكان بروز هذه القضية طبيعيا نتيجة لحركة التوسع ، وما يتصل بها من رق وولاء ، غير أن هذه الجماعات قد أخذت تنصهر بسرعة . بعد أن دخلت بيوت العرب عناصر فارسية ورومانية ، ومصرية وبربرية ، نتيجة للزواج أو التسري . فلما جاء الجيل الثاني لعصر التوسع حمل معه دماء مختلطة ، وقد أتاح الاسلام لعملية الانصهار آفاقاً من السعة والسماحة حققت الاختلاط والامتزاج والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية . فلم يكن العرب بوصفهم أصحاب حركة التوسع مستعمرين انعزلوا عن هذه الشعوب . بل إنهم قد اندمجوا في الأقطار منذ اليوم الأول ، مما عجل بعمله « الامتزاج » فضلا عن أن الاسلام لم يكن يفرق بين العناصر المختلفة . كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية

بالعادات العربية ، وانتظمت كل عمليات البلورة والانصهار مختلف مرافق الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولم تمض إلا فترة قليلة خلال نظام الأمويين الذي قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى ، وفي حكم العباسيين الذي أصبح طابعه إسلاميا شاملاً تعمق الانصهار ، وأتيحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولاً وحكومات . غير أن هذا الانصهار الاجتماعي قد حفظ أمرين أساسين له : اللغة العربية والاسلام ، فقد انسحبت هذه العناصر من أديانها أولاً بأول ، كما انسحبت من لغاتها ، إذ أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسية . ولقد كان طابع الاسلام واضح البروز في هذا المجتمع الجديد الذي امتزجت فيه العناصر المختلفة . فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعي ، ومناصحة الولاء والزهد كردّ فعل على الانحرافات التي اضطرب بها المجتمع ، وفي مواجهة حركة اللهو والانحراف . وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وفي مقدمتها حركتا خالد الدربوس وسهل بن سلامة الأنصاري وهما من دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والعمل بكتاب الله . يقول الطبري إنه تبعهما خلق كثير ، وقال ابن خلدون : إن الذي دعا إلى هذه الحركة هو توافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم . ثم كانت حركة الزهد التي قادها : عبد الله بن المبارك ، شعبان بن عتيبة ، سفيان الثوري ، الفضل بن عباد . هي رد الفعل على انحراف المجمع ، وقد رفض هؤلاء عطاء الأمراء .

وعندما ظهرت حركة الزندقة (الشك والالحاد) قاومها العلماء ، والخلفاء . يقول المسعودي ان المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين ، كما قاوموا ما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقبون ، وماترجم من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس في تأييد المذاهب المانوية والديصانية . كما أمر المهدي رجال الكلام والمعتزلة بالبحث والكتابة في الرد على الملحدين . وقد قاموا في ذلك بحركة واسعة دحضوا فيها شبه الملحدين .

وقد اقتفى الخليفة الهادي (**١٦٩ هـ**) نفس الطريق الذي سلكه المهدي ، فقام أصحاب ماني التي وصفت بأنها « فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور . والآخر الظلمة » كما تعقب الرشيد الزنادقة (**١٧١ هـ**) . كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم

الاسلام ، من أمثال عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي وضع أربعة آلاف حديث مكذوب . وحماد الراوية ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، وابن المقفع .

وقد كان دعاة الزهد ونقد المجتمع ، يواجهون هذه الحركات ويصححون المفاهيم ، ويدحضون دعاوى المضللين . ويجدون تقديراً بالغاً لما اتسموا به من ورع وتقوى ، وعزوف عن أصحاب الجاه والسلطان ، وكان سفيان الثوري مع صلاحه وورعه يعيش من تجارته ، ويرفض عطاء الولاة ، وكان المعتزلة في مقدمة من تصدوا للردّ على الزنادقة ، وفي مقدمتهم واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وبشر بن المعتمد ، وإبراهيم بن النظام . وهكذا واجه الاسلام كل ما جرى حوله من مؤامرات لتحريفه أو تأويله ، وبقي قادراً على نقاء روحه وطابعه وسلامة شخصيته ومعالمه ، كما قاوم البدع والأفكار الأعجمية والوثنية . كما امتحن بالمادية والترف والالحاد والزندقة والفلسفات ، حتى شك الناس في قدرة الاسلام على مقاومة هذه الهجمات ، ولكن الاسلام لم يستسلم ولم ينهزم ، وقام خلال مختلف مراحله رجال أعلام ، ودعاة أبرار فضحوا المتآمرين ، ورفعوا التحريف عن الاسلام ، وكشفوا عن جوهره الأصيل ، وقاوموا البدع والخرافات ، ودافعوا عن السنة دفاعاً حاراً . وحاربوا الوثنية والترف ، وجهروا بالحق في وجه الولاة والأمراء ، وبذلك انتصر الاسلام في هذه المعركة الضخمة خلال مرحلة التبلور الفكري والانصهار الاجتماعي ، وصهر التراث الانساني كله في بوتقته ، دون أن يخرج عن أصوله ومفاهيمه وأسسه ، ومضت قوى الدفاع عن الاسلام وتحريره من الزيوف ، وتنقيته من التقاليد والبدع ، والتحريف ، وإعادة عرضه في صورته الصادقة ، بما يوائم تطور المجتمعات ، وتحول العصور ، وظل تاريخ الاصلاح والتجديد متصلاً لم يتوقف ولم ينقطع ، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد ، يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الاسلام الحق ، ويفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الاسلام بالحياة ، وقدرته على الأخذ والعطاء وما من مجدد او عالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة مهما كانت صغيرة . فقد كانت ضرورة في عصرها وجديدة . وبذلك بنى المصلحون لبنات في هذا البناء الضخم كشفاً لجوهر خصائص الاسلام ، وتحديداً لاتصاله بالحياة وفتحا لطريق الاسلام الى غايته في حتمية التاريخ : نظاماً للانسانية كلها .

(١٤)
دور الاسلام في العلم

منذ كشف الإسلام عن مفهومه في تقدير العلم والعقل ، انفتح الطريق أمام المسلمين إلى آفاق البحث . فقد كشف القرآن عن منهج جديد هو « منهج البحث العلمي » والجدل العلمي ، والمطالبة بالبرهان والدعوة إلى إمعان النظر والفكر ، وحمل على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ، وأكبر الإسلام العقل إكباراً ، ودعا إلى النظر في الكون ، وجعل العقل أساساً للتحكيم والتفكير في الطبيعة ، ولفت النظر إلى السماء والأرض ، والجبال ، وخلق الإنسان والنبات ، ودعا القرآن إلى إيقاظ العقل ، ورفع من شأن العلم والعلماء . (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وكانت نظرة الرسول إلى العقل نظرة تعظيم ، وهو عنده أصل الإسلام وأساسه ، وأن لا دين لمن لا عقل له ، فالعقل أصل دينه ، وبه يتفاضل الناس . وقال : العقل نور القلب ، يفرق بين الحق والباطل ، وفضل الإسلام العالم على العابد ، خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وفي نطاق هذه المفاهيم : كانت انطلاقة المسلمين والعرب إلى مجال الفكر والحضارة ، فأصبح للعلم مقامه الأسمى في الفكر العربي الإسلامي ، وقام منهج هذا الفكر على سلطان العقل ، محاكمة ومحاجة ، وتقريراً . فإذا تعارض دليل النقل ودليل العقل ، عملوا بدليل العقل ، وأخضعوا الأدب والتشريع للبرهان ، وعالجوا القضايا على أساس المنطق ، والدليل ، دون أن يخل ذلك

بمفهوم التكامل والشمول في الإسلام ، « مادة وروح » معاً . وقد فتح لهم هذا « الايمان بالعقل » الذي أمدهم به الإسلام أبواب البحث العلمي حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى . ومن ثم أبرز الإسلام تفوقاً ملحوظاً في مجال الحضارة ، وساهم بدور فعال في مختلف عناصر العلوم والفنون : الطب والصيدلة ، الكيمياء والزراعة ، الرياضيات والفلك والجغرافيا ، التجارة والصناعة ، العمارة والبحرية ، الإدارة والموسيقى ، الفروسية . واستمد المسلمون قاعدة البحث العلمي من مفهوم القرآن أساساً . وقد بدأ اتجاه العقل الإسلامي إلى هذا المجال مبكراً قبل عصر الترجمة ، وتجلى ذلك أولاً في مجال الفقه والتشريع والقانون . ثم امتد إلى مجال العلوم ، وكان يزيد بن معاوية في مقدمة من تناولوا هذه العلوم . ثم كان للترجمات التي تمت في خلال خلافة المنصور والرشيد والمأمون ثمرتها في بروز العقلية الإسلامية في مجال العلوم حيث استطاع مجموعة من العباقرة المسلمين ، الانتفاع بما وصل إليه اليونان في المجال ، والإضافة إليه والتوسع فيه على نحو حقق نتائج بعيدة المدى .

وقد امتد هذا القطاع منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر ، لم يتوقف ، ولم تحل دونه الأحداث التي اضطرب لها عالم الإسلام : في مرحلة « الغزو الخارجي » . وقد انتظم البحث العلمي : عالم الإسلام كله ولم تقتصر ، وحدة من وحداته على العمل وحدها . فمن حران والقاهرة ودمشق وبوزجان وخوارزم وطوس وبغداد والري وقرطبة وبخارى والبصرة . ظهر ذلك العدد الكبير من العلماء الذين عملوا في مجال الجبر ، والتفاضل والتكامل . والفلك والطب ، والرياضيات والبصريات والجراحة ، ومنهم من جمع بين الطب والفلسفة (الرازي) ومن جمع بين الفلسفة والنجوم والفلك والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى (الكندي) ومنهم واضع علم الجبر (الخوارزمي) ومن يساوي مكانه في الكيمياء مكان أرسطو في المنطق (جابر بن حيان) . في هذه المرحلة برز جابر بن حيان ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، والكندي ، وثابت بن قرة ، والتباني ، وأبو بكر الرازي ، والفارابي ، والبوزجاني ، وابن يونس ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وأبو القاسم الزهراوي . وقد حقق هؤلاء العلماء في مجال العلم بأنواعه إضافات جديدة ، تسلمها من جاء بعدهم ، وكانت بيئة المشرق في أول هذه المرحلة ذات أثر

واضح ، ثم أصبحت بيئة الأندلس من بعد أكثر قوة واهتماماً . ومنها تحولت نهضة العلوم إلى الغرب . فإن كل جزء من أجزاء الأندلس كان يسقط في أيدي الفرنجة . إنما كان يصبح بدراساته وتجاربه التي حققتها الحضارة الإسلامية خلال القرون المتوالية جزءاً من أوروبا . لقد تسلم المسلمون والعرب من الفكر اليوناني والهندي مبادىء هذه العلوم ، ثم تعمقوها وقدموا عليها تصحيحات هادفة وإضافات مهمة ، وليس صحيحا ما ردده خصوم الإسلام من أن العرب لم يكونوا إلا نقلة . تقول دكتورة : سجريد هونكه : « حين أخذ العرب هذه الأشياء ، فإنهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، الا فإن الإغريق هم وسطاء أيضا . إن لكل عبقرية طابعها الخاص ، وطريقها الخاص ، وإن مآثر العرب الخالدة لتقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية المورثة عن الإغريق . وان العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الطبيعيون « للاستقصاء العلمي » فقد كانوا أول من جعل من المواقع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام ، أو الطريقة الاستقرائية : اثقل عليه طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكي يطير ، إلا بعد ما استمسك بالمنجزات العربية في الميادين التقنينية والصحية والادارية . بعد ما تبنى هذه المنجزات على المستوى الحضاري .

وشهدت أبحاث المسلمين في مجال العلم أنهم كانوا لا يضعون قاعدة إلا بعد تجربة وإسعة تبلغ عشرات المشاهدات . وقد قدم المسلمون في مجال العلوم كشوفاً جلى :

(١) في مجال الفلك وحركات النجوم ، شيدو « مراقب » في مختلف العواصم ، وبلغوا الغاية في استقصاء السماء وتوصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها في تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم ، بصورة متزايدة الدقة .

(٢) وفي مجال الرياضيات بلغوا الغاية في حل المسائل بواسطة الحساب ، أول من استخدموا الفاصلة للإشارة إلى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني ، وقسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، ووضعوا الحساب التفاضلي الذي أسسه ابن سينا . وقد قادت الفارابي إلى نظرياته في الفنون

الموسيقية قريباً من اللوغاريتم ، ونظريته في المقادير المتناهية في الصفر مع نظرية ابن سينا ، ألهمت العلماء الأوروبيين .

* ابن سينا : اكتشفْ الطبيعة المعدية لمرض السل ، وصف مرض الالتهاب في الغشاء الصدري ، وكثيراً من أمراض الأعصاب . أول من كشف مرض الإنكلستوما وعلامات الإصابة والقابلية لمرض السل .

* الرازي : كشف عن مرض الجدري والحصبة . عرف التطعيم ، واكتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ، ونادى بأن الكيمياء يجب أن تستغل في خدمة الطب ، وعرف كثير من الأطباء المسلمين فائدة الكي ، وأعراض السرطان الذي يصيب المعدة ، ووضعوا الجرعات في حالات التسمم ، وهو أول من وصف استخراج الماء من العين .

* ابن الهيثم : أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام إلى العين التي تراها بواسطة جسمها الشفاف . بل العكس ، ووضع نظرية الظل ، وكان سباقا إلى استخدام الغرفة المظلمة في تجاربه .

* جابر بن حيان : مؤسس علم الكيمياء .

الخوارزمي : ما زال اسمه يطلق على الأعداد وهو علم الجبر .

* البيروني : حدد الكثافة النوعية لكثير من المعادن والأحجار الكريمة .

* الزهراوي : أعظم الجراحين وفي كتابه : « التصريف لمن عجز عن التأليف » وصف دقيق للعمليات الجراحية ، أول من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق المهبل ، ونجح في شق القصبة الهوائية ، كما جرى عملية تفتيت الحصاة في المثانة .

وفي مجال الطب اكتشف علماء المسلمين : التطعيم ضد الجدري (الرازي وابن سينا) . وابن النفيس الذي اكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفي بأربعمائه عام ، وقد اشتغل بالطب عدد كبير من علماء المسلمين بلغ في عصر واحد في عاصمة واحدة . « بغداد » : في عهد الخليفة المقتدر بالله ما يقرب من تسعمائة طبيب ، والجرجاني كشف عن تضخم الغدة الدرقية ، وبهاء الدولة عرف السعال الديكي ، ومهر المسلمون في الجراحة ، وخاصة في أمراض

العيون ، وكانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية ، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة ، وكان الأطباء المسلمون أول من استخدم المرقد (المخدر) في إجراء العمليات الجراحية ، ووضعوا علاج البرقان والهواء الاصفر ، وأول من كتبوا في الجذام والعدوى ، ووسائل انتقال المرض ، وكان لهم دورهم في الصيدلة . يقول جورج سارطون : إن التشريح كان في أوروبا ممنوعا البتة ، فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا في المغرب ، وأعظم تقدم علمي حققه المسلمون كان في علم البصريات ، وفي مقدمتها أبحاث الكندي وابن الهيثم والخازن . فقد عارض الكندي كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشيء المرئي ، فقرر أن شكل الجسم المرئي هو الذي ينفذ إلى العين مراراً من خلال العين ماراً خلال الفتحة الشفافة (العدسة) وفي دراسات انكسار الأشعة وانعكاساتها وانقلاب الصورة المعكوسة .

(٣) وفي الكيمياء لمع نجم العلماء المسلمين ، وما تزال كثير من الصطلحات الكيمائية الأوربية تحمل الاسم العربي كالقلويات والأنبيق ، والقصدير ، والتنور ، والزرنيخ ، والدانق ، والخميرة ، والزئبق .

(٤) وفي الطبيعيات درس المسلمون علم مركز الأثقال ، وخواص السوائل . (عبد القادر الطبري) والخازن له بحث في الضغط الجوي ، وللمسلمين أبحاث في الجاذبية سبقوا بها نيوتن .

(٥) وفي الرياضيات كانت أوروبا تجهل استعمال الأرقام .

(٦) وفي الجغرافيا : ياقوت والمقدسي وابن الفقيه وابن حوقل والمسعودي والبيروني وابن بطوطة وابن جبير وابن خرداذبة والأدريسي . ومن الخرائط التي رسمها العلماء المسلمون كون « كولومبس » فكرته عن الكرة الأرضية . وكان اعتقاد الاوروبيين أن الأرض مسطحة ، فغير الجغرافيون المسلمون هذا الاعتقاد ، وأكدوا كروية الأرض . وقد زخرت البحار والمحيطات بأساطيل المسلمين ، وما تزال مصطلحات الفلك عربية : [القلفطة ، أمير البحار ، دار الصناعة ، الطرف ، كرسي الجوزاء ، الكف ، الأرنب ، العرقوب ، سعد السعود] والغزاري هو أول من اصطنع الاصطرلاب .

وهـم أول من اخترعـوا الكتابـة البـارزة للمكفوفـين : (زين العابـدين الآمدي) . والحوالة المالية عرفها العالم الإسلامي قبل أوروبا . وكذلك الورق والطباعة ، والقطن أهداه المسلمون الى أوربا .

(٧) والمسلمون لهم دورهم في الموسيقى . وقد عرفت أوربا آلات الموسيقى التي جلبها المسلمون : العود ، والصفارة والرباب والصنوج والنفير .

ويقول الدكتور فرانتز روز نيتال : إن أعظم نشاط فكري قام به العرب والمسلمون يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجـريبية ضمـن دائـرة ملاحظاتهـم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدو نشاطـاً واجتهـاداً عجيبـين ، حـين يلاحظـون ويمحصون ، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربـة ، أو أخـذوه من الرواية والتقليد . فإن اسلوبهم في البحث اكبر ما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف .

ويقول فرانتز روزنيتال : أن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع في أي بحث . أما البحث الذي لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدي به ، ولا النتائج التي تسفر عنه فيحرم في الإسلام ، وحاجـة هذا العلـم أن يعـرف الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأعتقد أن العقيدة بالقضـاء والقدر ، لم تؤثر التأثير السيء في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة . لقد كان المؤرخون المسلمون . كما كان العلماء يعتمدون على الوثائق المدونة .

ولم يكن للمعارف التي تعتمد الذاكرة شأن في تأليفهم . ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر « الجذاذات » التـي كانـوا يدونـون عليهـا الملاحظـات ، أو ينسخوا منها المقتبسات . وقد عني علماء الحديث والفقه ، وعرفوا في الدرجـة الأولى بالأمانة والدقة في ذكر المصادر المأخوذ عنها . لأن الأسانيد في نظرهم جزء من مادة البحث . وكل عمل آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحـديث والفقه » تأثر إلى حدّ بعيد بالأسلـوب المتبـع في دروسـهما ومعـالجتهما . ومـن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم ، ويحترمون الثقات منهم أيما احترام . وقد ألف العلماء المسلمون كتباً لدحض آراء معينة ، وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك ، عندما يجابهون المشاكل حكماً في إثبات الحقائق ، وأن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا .

وأوصى رشيد الدين عم ابن أبي أصيبعة ، المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو بغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس ، وأن يتفحصوه .

وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين أن يقرب الإنسان من الكمال ما مكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سن مبكرة جدًا . فإن ابن سينا يباهي بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال . ويقول الأزدي في كتابه « تاريخ الممالك الإسلامية » إن الزمن لا يقف ، بل إن صفته الدائمة التغير . ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمد من جيل إلى آخر فكرة غريبة كليًا عن التفكير الإسلامي ، وكان الرازي يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة . وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياءولم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة على العلماء المسلمين وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل الى جيل .

(١٥)

« انتشار الاسلام »

كانت عدالة النظام الإسلامي في مختلف وحدات عالم الإسلام ، بعد أن تمت حركة التوسع ، عاملاً هاماً في انتشار الإسلام نفسه ، وانتقال الناس إليه ، فإن تخليص الإسلام للجماعات المختلفة من الجور والظلم كخطوة أولى . ثم ما حققه من حرية لجماعاتها ودياناتها كتطبيق عملي للإسلام نفسه ، في حدود ما أذاعته تعاليمه وما رسمه عمر بن الخطاب وغيره من الولاة في العقود التي عقدوها كعقد بين المقدس وغيره . كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى الإسلام بعد أمد قصير ، وزاد في ذلك ما عرف عن بساطة الإسلام وبعده عن التعقيد . وصدق توماس أرنولد حين قال : إن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام ، وقد تولت جماعات من العلماء والفقهاء في مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادىء الإسلام وشرطها ، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر من يفقه الناس في دينهم ، ويحفظهم القرآن ، وكانت « الجزية » التي يدفعها غير المسلمين ـ وهي بمثابة ضريبة الدفاع التي تفرض على غير المسلمين في مقابل الدفاع عنهم مع إحلالهم من الاشتراك في القتال ـ هذه الجزية كانت ترفع فور إسلام صاحبها . وقد ردّ المسلمون « الجزية » لأهل حمص عندما تحولوا عنها ، ولم يستطيعوا أن يمنعوا أهلها . وقد كانت مغريات « الأخوة » بين المسلمين كافة عاملاً هاماً في اندفاع الناس إلى الاسلام . وقد شهد لحرية الارادة في إسلام المجموعات المختلفة كثير من الباحثين المنصفين . يقول توماس أرنول : لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ،

أو عن أي اضطهاد منظم قصد به استئصال الدين المسيحي ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الاسلام من أسبانيا ، او التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه معتنقوه في فرنسا ، وان مجرد بقاء الكنائس الشرقية في آسيا حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم . والمعروف أن المسيحيين في بداية دخول العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام في جموع هائلة .

واتسمت الفترة التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة (**٩٩ - ١٠١**) بتعميق ضخم لدعوة الاسلام وتحول واسع النطاق إلى الاسلام ، ونقل مجال الدعوة الاسلامية من التوسع الجغرافي إلى التعمق العقائدي ، فقد أرسل عشرات الرسائل يدعو الرؤساء والأمراء في مختلف وحدات عالم الاسلام إليه ، وكانت شخصيّته عاملاً هاماً في هذه الحركة ، فإن الصورة التي رسمتها حياة عمر بن عبد العزيز في سماحته وتفقهه واستعلائه على مظالم الحكام ، وعدالته المقطوعة النظير ، وكانت هي أساساً مصدر ما تحقق من نجاح بعيد المدى في هذا السبيل حتى دخلت ألوف مؤلفة من الناس إلى الاسلام عن طريق الولاة النادرين الذين اختارهم ، وكانوا من تلاميذه فكراً ، وعلى نهجه عملا . كما أنه ألغى القرار الذي كان قد وضع قبلاً ، فأعفى من يدخل في الاسلام من دفع ضريبة الرأس ، ودفع ضريبة الأراضي واستبدلها بضريبة أخف هي ضريبة العشر ، وكانت هذه الأساليب كما يقول أرنولد : « وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحاً تاماً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه صاحب العقلية التي شربت الورع والتدين ، فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمره المسلمين »

يضاف إلى هذا ما قام به ولاة المسلمين من عمل متصل في الرد على الشبهات التي يثيرها أصحاب الأديان الأخرى ، وخصوم الاسلام . والمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)مثل بارز في هذا المجال . فقد كان شديد الحماسة للجهود التي تبذل في نشر الاسلام . وقد أرسل إلى كثير من الأمراء ممن كانوا يقيمون في أقصى أجزاء عالم الاسلام كبلاد ما وراء النهر ، وفرغانة يدعوهم إلى الاسلام (البلاذري) .

***

منذ أن توقف التوسع الإسلامي إلى أن بدء الغزو الخارجي لعالـم الإسـلام بالحملات الصليبية ، كانت عمليات البلورة والانصهـار الفكري والاجتماعـي تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد وعقلية متقاربة ، وكانت الأجناس العربية والفارسية والتركية والبربرية تتلاقى وتنصهر في بوتقة عالـم الإسـلام بحـدوده الجغرافية لتكون « أمة واحدة ذات عقلية واحدة » وكانـت الفلسفـة والمذاهـب والنظريات والعلوم والآداب والفنون الهنـدية والفـارسية والرومـانية واليونـانية والمسيحية واليهـودية تحـاول ان تنصهـر في بوتقـة الفـكر الإسلامـي بمقوماتـه الأساسية ، فكر أمة واحدة . غير أن ذلك العمـل كان على ضرورتـه خطيراً ودقيقاً ، وكان مليئاً بالتحديات ، ومؤامرات خصوم الإسلام . ومن هنا بدأ ذلك الصراع الضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية ، في معركة كبرى ذات نحل وفرق مختلفة متعارضة ، كان قوامها سياسياً في الأغلب . غير أنها لم تلبث بعد أجيال متعددة أن تبلورت عن قيام « أسس كاملة » للفـكر الإسلامـي دعامتهـا القرآن نفسه ، وقوامها « جوهر الإسلام » كما دعا إليه محمد رسول الله ، أساسه « التوحيد والنبوة والقرآن » على قواعد الإسلام الأصلية ، ولم يبق الخلاف قائماً إلا في الفرعيات والقضايا والمسائل التي لا بدّ من الخلاف فيها نتيجة اختـلاف الأجناس والأوطان والظروف .

وكانت أكبـر قضية خلافية هي قضية العقـل والـروح : هذه التـي أقامـت معسكري السنة والشيعة من ناحية ، وطبعت الفكر الإسلامي بطابـع فلسفـي معتزلي من ناحية ، وطابع صوفي روحي من ناحية أخرى . والواقع أن الإسلام في جوهره ليس إلا امتزاجاً دقيقاً وواعيا بين العقليات والروحانيات ، فلا يمكن الفصل بينهما ، ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، وكل ادعاء بأن جانبا بمفرده مثل مفهوم الإسلام هو ادعاء مردود .

وقـد كان رجحـان العقليين في مرحلـة من مراحـل تاريخ الاسـلام مدعـاة للاضطراب . كما كان رجحان الروحيين في مرحلة اخرى . ومن هنـا كانـت حتمية الاستمرار في الاسلام قادرة على تصحيح المفاهيم ، ورد كل انحراف ينشأ بين حين وحين ، بقيام داعية مصلح يعيد صياغة مفهوم الاسـلام على اسـاس جوهره القائم على التكامل والشمول والوسطية .

* * *

وفي خلال « مرحلة التبلور » والانصهار ظهرت دعوات المعتزلة والفقهاء والفلاسفة ، ثم برزت الصوفية التي تحمل طابع الزهد اول الأمر ، وكانت رد فعل للترف والانحراف الذي اصيب به المجتمع الإسلامي في تطوره . ثم تطورت الدعوة الصوفية في القرن الثالث من زهادة ملتزمة لقواعد الإسلام متمسكة بالفقر ، ومحاربة النفس والتوكل على الله . إلى فلسفة نظرية قوامها دعوة إلى وحدة الوجود والحلول والاتحاد . وبذلك انحرفت عن مضمونها الإسلامي الأصيل ، حين تأثرت بالفلسفات القديمة ، وبالنظريات الباطنية والمنحرفة التي كانت بعض دعوة خصوم الاسلام في سبيل إخراجه عن مفاهيمه الأصلية . وقد اتصلت بأصحاب الدعوة إلى الصوفية الفلسفية ، شبهات التآمر على الإسلام فإن كلا من الحلاج والسهروردي قد اتهم بموالاة حركة من حركات الانتفاض على الإسلام .

وقد قدم التصوف الإسلامي في تياره الأول « الزهد » روحاً جديدة إلى الفكر الإسلامي تخفف من جفاف الطابع العقلي الذي سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه ، غيرأنه لم يلبث أن دخل في متاهات فلسفية أذهبت عنه أصالته وسماحته وبساطته المستمدة من « جوهر الإسلام » حين أخذ يبحث في قضايا المعرفة والأحوال ، والمواجد والأذواق . غير أن الإمام الغزالي في نهاية هذه المرحلة ، قد استطاع أن يقضي على هذا التمزق الذي أصاب الفكر الإسلامي بانقسامه إلى فقه وتصوف ، فأعاد صياغة الفكر الاسلامي من جديد ، فامتزج التصوف والفقه وعادت الى الاسلام وحدته . وكان هذا مقدمة للوحدة الاسلامية التي استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبي . غيرأن التصوف كان قد تحول إلى مرحلة جديدة ، قوامها تكوين الفرق الصوفية . هذه الفرق التي توسعت في مرحلة الغزو الخارجي من بعد .

والحق أنه إذا كان « التصوف » الذي بدأ باسم الزهد ، إنما جاء بمثابة رد فعل على الإسراف في الترف الذي وقع فيه الامراء والولاة والحكام . فإنه قد انحرف حين تحول الى دعوة واسعة ، عن مفهوم الإسلام في التحرر من الفقر ، هذا التحرر الذي يتم بتحويل الطبقات الشعبية إلى اليسر بإحقاق العدل الاجتماعي والزكاة ، وليس بإقرار الفقر وفلسفة الرضا به ، والدعوة إليه ، فقد ظهر في ظل الدعوة الصوفية مفهوم التواكل والاستسلام وقبول الذل والفقر مما يخالف مفهوم

الإسلام نفسه ، وإن كان قد قام في خلال تلك الفترات من دعا إلى الإصلاح ومناصحة الولاة وتحرير مفهوم الإسلام من انحراف التصوف كدعوة جزئية تتسم بطابع الروحية ، ولا تمثل شمول الاسلام وتكامله ووسطيته التي تجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والعمل للدنيا والآخرة معاً . وقد خرجت الصوفية بذلك عن بساطة الاسلام وفطرته وعباداته البسيطة ومظهره السمح حين تحولت إلى رموز ومعميات وانفصمت به عروة فلسفة الاسلام التي تجمع بين حصول المعرفة عن طريق القلب والعقل معاً .

***

أبرز ما يتمثل في هذه المرحلة بعد أن بلغت « موجة » التوسع والامتداد الإسلامي غايتها هو : أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها أو تصدها . وبدا أن الموجة قد بلغت غاية امتدادها الزمني خلال أكثر من مائة عام من ناحية ، وغاية امتدادها الجغرافي إلى قلب أوربا ، من ناحية أخرى ، في خلال هذا التوسع كانت معركة أخرى على وشك أن تدور ، معركة من طرفين :

أحدهما في الداخل ، والآخر في الخارج ، وكلاهما مجمع على دحر الإسلام وتقليص ظله ، والقضاء عليه ، وقد تنبه المسلمون لهذين الخطرين . أما أحد الخطرين فكان قريباً ملاصقاً يتحرك في قلب عالم الإسلام ويتمثل في عملين :

(١) عمل حركي ، يحمل طابع التآمر السياسي على نظام الدولة ، ويتمثل ذلك في حركات البابكية والقرامطة ، والباطنية وغيرها .

(٢) عمل فكري ، يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الإسلام ومفاهيمه ، وقد كانت أغلب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشكيك الفكري . ويستهدف ذلك القضاء على الإسلام بالقضاء على دولته والقضاء على مفاهيمه . ولقد امتدت هذه المعركة طوال تاريخ الإسلام ، وامتدت المقاومة ، ورد الفعل لهذا التحدي ، في ظل جبهة من العلماء والمفكرين ، والدعاة يمكن أن يطلق عليهم اسم « المصلحون المجددون » تحمل لواء العمل لمواجهة هذه الحملات التي هي أشد عنفاً من الحملات العسكرية والحربية . وقد استمرت هذه الجبهة قوية ممتدة على طول التاريخ كله لم تتوقف ، تواجه هذه الانحرافات والشبهات ، وتكشف محاولات الخصوم في القضاء على المفهوم الأساسي ، والقيم

الأصلية الإسلام ، وقد استطاعت هذه الجبهة أن تحقق كثيرا من النصر ، وأن تقضي على عوامل تجزئة مفهوم الإسلام أو تحريفه أو تشويهه . وقد برز هذا العمل واضحاً خلال هذه المرحلة في مجال ترجمة التراث : اليوناني والفارسي والهندي ، وتداخل المفاهيم الوثنية والإسرائيليات والشبهات إلى مضمون الإسلام .

ولقد كانت هذه المعركة خلال تلك المرحلة من أبرز المعالم التاريخية لهذه الفترة التي تتمثل فيها قوى :

(١) قطاع الترجمة والنقل من الفكر اليوناني والفارسي والهندي .

(٢) قطاع الزهد والنقد الاجتماعي وشجب المجتمع .

(٣) قطاع العلماء العاملين في مجال تقييم الفقه والسنة .

(٤) قطاع المدافعين عن الإسلام في مجال العقيدة .

الباب الرابع

مرحلة الغزو الخارجي

(١٦)
مرحلة الغزو الخارجي

مر تاريخ الاسلام في مراحل متداخلة . فإن الجماعة الاسلامية التي انصهرت في الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاما لم تلبث أن حققت اندفاعة ضخمة باهرة أقامت عالم الاسلام من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا في أقل من مائة عام ، هنالك ازدهرت مرحلة الانصهار والبلورة التي كانت قد بدأت فعلا بعد قيام « التوسع » باتصال العرب بالفرس والترك والتتر وتضام الوحدات الاسلامية .

غير أن الصراع الداخلي في عالم الاسلام ، والانحراف عن مقومات الاسلام بالتفكك والصراع والتخلف في مجال القوة والوحدة والعدل الاجتماعي قد هيأ الفرصة لضربات متوالية من الغزو الخارجي ، جاءت من الغرب أولا « الحروب الصليبية » ثم جاءت من الشرق « غزوات التتار » واستمرت قرنين كاملين ، لم يستطع المسلمون خلالها مواصلة التوسع لأنهم تخلفوا عن مقومات الاسلام . كانت الغنائم مصدراً من مصادر الهزيمة ، ولم يستطع المسلمون مواصلة التبلور والانصهار في مجتمع واحد ، وفكر موحد . كان الخلاف والخصومة والصراع بين الأمراء والملوك . وكانت فكرة الغزو الغربي لعالم الاسلام كامنة حية ، متحركة لا تتوقف ، تمثلت في تلك الجولات المستمرة بين بيزنطة من ناحية ، وأطراف الاسلام عالم (الموصل وحلب والشام) وفي الصراع بين الأندلس ، ودولة قشتالة والفرنجة من ورائها . ثم لم تلبث ان وجدت أمامها

فترة ضعف في ظل موجة السلام التي تخافتت ، فكانت تلك الحملات الصليبية المتواصلة خلال قرنين كاملين في غارات لا تتوقف على جميع سواحل عالم الاسلام في الشام ومصر والمغرب جميعاً، ثم لم تتوقف هذه القوة من بعد وإن ضعفت وخضعت . وقد استطاعت أن تجلي الاسلام والعرب عن الأندلس من بعد ، وأن تنتصر في هذا القطاع في مواجهة هزيمتها إزاء الضربة القاسية التي أوقعتها القوة الاسلامية الشابة « العثمانية » بها بالاستيلاء على القسطنطينية بعد محاولات متصلة لم تتوقف من جانب عالم الاسلام . وهكذا يمكن أن يطلق على هذه المرحلة التي تعد من أدق مراحل تاريخ الاسلام : « مرحلة الأزمة الكبرى » فقد كان توقيتها طبيعيا بالنسبة لرسالة عمت الدنيا في فترة قليلة من الوقت . فكان لا بد أن تمتحن حتى تكشف عما إذا كانت جديرة بالبقاء والخلود ، شأنها في هذا الامتحان شأن كثير من الدعوات والرسالات التي سبقتها وعاصرتها . وقد كشفت هذه الأزمة عن جوانب القوة ، وجوانب الضعف في المجتمع الاسلامي ، وأتاحت الفرصة للمسلمين لمواجهة انفسهم وتجميع قواهم ، ولم يكن هناك من مصدر للضعف إلا ذلك التناقض بين قيم الاسلام ، وبين أعمال المسلمين ، أو بين الايديولوجيا والتطبيق ، فإن عوامل الانقضاض لم تقع من كل جانب من خصوم الاسلام الا بتقدير محسوب يضعف عالم الاسلام أو اضطرابه أو جموده أو قصوره عن حماية نفسه أساساً .

وإذا كانت « أزمة الاسلام » أساسا هي الغزو الخارجي والانقضاض عليه ، وكان أبرزها في هذه الفترة : غارات الصليبيين والتتار . فإن المصدر الحقيقي لذلك هو ضعف الجبهة الداخلية وتفككها ، وتاريخ الصراع بين الاسلام وخصومه يكشف عن حقيقة واقعة ما زالت مستمرة وقائمة ، قوام هذه الحقيقة : أمران : « الوحدة » وهي عمل معنوي و« القوة » وهي عمل مادي ، فطالما كانت الوحدة والقوة استطاع عالم الاسلام أن يواجه خصومه ، وأن يرهب المتربصين به .

والحق أنه كان لا بد أن يمر الاسلام في أزمة ضخمة تستمر فترة طويلة يمكن أن توصف بأنها نصف قرن من الزمان ، امتدت فيها المعارك من الأطراف الثلاثة : من حدود عالم الاسلام في المشرق الأقصى عن طريق التتار . ومن

حدوده الشمالية من حدود دولة البيزنطيين عن طريق الصليبيين ، ومن حدوده الغربية عن طريق فرنسا وأسبانيا في عمليات الانتقاض واسترداد الأندلس . لقد بدأت عمليات غزو عالم الاسلام في اواخر القرن الخامس . غير أن هذه العمليات لم يبدأها خصوم الاسلام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الجبهة الداخلية ، وانقسام الوحدة ، وتراخي القوة ، وهي مرحلة بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

* * *

ويمكن القول إن حملة القوى الخارجية على عالم الاسلام ، إنما جاءت كردّ فعل لفترة المد الطويل خلال خمسة قرون . وكانت الأطراف التي امتد إليها الاسلام هي مصدر الانقضاض من طرفين :

الأول : آسيا الصغرى (الدولة البيزنطية)
الثاني : غرب أوربا (فرنسا وأسبانيا)

ومنذ بدأت أعمال التوسع الاسلامي حول القسطنطينية من ناحية ، وحول الأندلس من ناحية أخرى لم يتوقف الاشتباك ، فهل يمكن القول بأن اقتحام الاسلام أوربا خارجا من آسيا وأفريقيا . كان هو المصدر الأساسي لهذه المعركة التي يمكن أن يقال إنها امتدت منذ عام **١١٤** هـ حتى الآن ، ولم تتوقف خلال ألف وثلاثمائة عام . غير أنه لو لم يقتحم الاسلام أوربا . هل كانت أوربا تتوقف عن مهاجمته في أفريقيا ؟ إن نظرة إلى تحركات الدولة البيزنطية مترقبة فترات الضعف لتنقض على حدود عالم الاسلام ، كذلك موقف الفرنجة من المسلمين على حدود الأندلس تكشف عن أن الموقف بين المسلمين وأوربا كان سجالاً منذ هذه الفترة الباكرة في تاريخ الاسلام . فقد ظلت أوربا تحمل في أعماق أعماقها عصراً بعد عصر « طابع الادالة من الاسلام وإخراجه من أوربا » .

ولذلك فإنه لم يكد التوسع الاسلامي يصل إلى مداه . حتى كانت القوة الخارجية تعمل على الانقضاض عليه والانتقاص منه . وتلك سنة طبيعية لا محيد عنها في تاريخ البشرية ، وفي نواميس الكون . ومن هنا كانت دعوة الاسلام لأنصاره في إعداد القوة دائما ، وحماية الثغور والرباط بها ، واليقظة دوماً (وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وطالما نفذ المسلمون هذا القانون الطبيعي من قوانين البقاء كانوا في مأمن من عدوهم ، وما تراخوا عنه حتى واجهوا حملات الانقضاض والعدوان على أرضهم . ولقد شهدت مناطق الشام وحلب تاريخاً طويلاً في المقاومة والغزو ، وكان لها دور بارز من أدوار البطولة حمل لواءه سيف الدولة الحمداني في فترة من أدق فترات المقاومة . ولالقاء أضواء واسعة على هذه المرحلة نقول :

نما عالم الاسلام واستكمل توسعه عام ٩٣ هـ تقريباً حين بلغ السند وما وراء النهر شرقاً . وبلغ الأندلس غرباً ، تم هذا التوسع خلال ثمانين عاماً (١٢ - ٩٣ هـ) ثم توقف في الجبهة الشرقية واستمر في الجبهة الغربية على شواطيء أوربا في حملات متصلة مستمرة حمل لواءها الأغالبة في تونس وجروا بها شوطاً طويلاً (١٤٢ - ١٨٤ هـ) . ولم يلبث عالم الاسلام أن دخل مرحلة التبلور والانصهار ، وهي مرحلة دقيقة غاية الدقة ، كانت مصدر صراع فكري لا حدّ له . غير أن أبرز ما تتسم به هذه المرحلة التي نمت فيها الحضارة هي « روح الترف » التي انحرفت بالمجتمع الاسلامي عن مفاهيم الاسلام في وسطيته وتكامله ، والتي تخلت عن طابع الوحدة والقوة واليقظة . كانت الحلقة الأولى في مرحلة التبلور والانصهار في المشرق والمغرب تسير في خط واحد تقريبا : العباسيون في المشرق ، والأمويون في الأندلس . وقد حققت هذه الفترة نتائج ضخمة في مجال انصهار الفكر العربي ، وبرز فيها عدد كبير من بناة الدول والحضارة ، ثم تراخى طابع القوة بتغلب روح الترف . ثم بدأت روح الضعف تسري في عالم الاسلام كله .

ومع ذلك فإن « الدفاع عن أرض الاسلام » لم يتوقف . كانت دولة الأغالبة خلال أربعين عاماً تواجه الفرنجة وتديل منهم ، وتسيطر على شواطيء البحر الأبيض ، وتصل إلى سواحل إيطاليا ، وإلى قريب من العاصمة « روما » . وقد تمكن المسلمون من السيطرة على جزيرة صقلية (٢١٢ هـ) وفي جبهة الدولة البيزنطية كانت مقاومة سيف الدولة مثلا عاليا من أمثلة الكفاح ضد الغزو الخارجي (٣٣٣ هـ) . أما في الأندلس فقد توالت حملات المقاومة التي قادها عبد الرحمن الناصر (٣١٦ هـ) خلال خمسين عاما . ثم توالت حملات ابي

عامر المنصور (**٣٦٦** هـ) الذي غزا خمسين غزوة انتصر فيها جميعا . وفي الشرق استطاع محمود الغزنوي أن يوسع عالم الاسلام ، وأن يحقق انتصارات رائعة (**٣٨٨** هـ) غير أن تمزق الدولة العباسية في بغداد . وسقوط الدولة الأموية في قرطبة . قد أدى إلى تنمر الغرب إلى مدافعة عالم الاسلام والانقضاض عليه . هنالك انبعثت قوتان جديدتان من أعماق الصحراء بدويتين خشنتين عنيفتين تتمثلان في الأتراك السلاجقة في الشرق ، والبربر في المغرب . ثم تلتهما قوة المماليك في مصر والشام .

* * *

هاتان هما القوتان الجديدتان اللتان سيطرتا على عالم الاسلام ، بعد أن ضعفت القوى المنحصرة التي تخلفت عن مفهوم الاسلام ، كانت قوة السلاجقة في المشرق (**٤٢٩** هـ) وقوة المرابطين في المغرب (**٤٥٤** م) بمثابة دم جديد ، وعلامة قوة . فقد كانت القوى المتربصة بالاسلام من جدود الدولة البيزنطية (آسيا) ودولة الفرنج (أوربا) قد تحفزت من جديد لتنقض . فكانت قوة السلاجقة قادرة على الردع على النحو الذي ظهر من بعد في موقعة ملاذكرد بقيادة عماد الدين زنكي (**٤٦٤** هـ) ومعركة الزلاقة التي قادها يوسف بن تاشفين في الأندلس (**٧٤٩**) بعد أن سقطت طليلة في أيديهم (**٤٧٨** هـ) وقد أخرت هذه القوى انقضاض الغرب على عالم الاسلام ، ففي سنوات متقاربة هاجم الفرنجة المهدية (المغرب) بأسطول مؤلف من **٣٠٠** مركب (**٣٠** ألف مقاتل) عام **٤٧٦** هـ . ثم نزعت الحملة الصليبية الأولى عام **٤٨٩** هـ فاستولت على بيت المقدس **٤٩٣** هـ . غير أن الصورة الشاملة لمقدمات الغزو الخارجي لا تتم الا باستعراض شامل للصراع بين الروم والمسلمين على حدود الدولة البيزنطية .

(١٧)

« ازمة الاسلام »

عاش الاسلام بعد مرحلة التوسع والامتداد مرحلة الانصهار والتبلور .

كان المرحلة الأولى : موجة من موجات التوسع بلغت في قرن من الزمان حدود الصين من الشرق وحدود فرنسا من الغرب . ثم كانت مرحلة جديدة انبثقت من أعماق هذه المرحلة ، هي تبلور هذه الجماعة وانصهارها ، فكريا واجتماعيا وسياسيا من خلال العناصر التي تكون منها عالم الاسلام : « العرب والفرس والترك والبربر » غير أن مرحلة الانصهار كانت تضطرم بالصراع السياسي والفكري . يتمثل هذا الصراع في قيام الدول وسقوطها ، وبروز القادة من بناة الدول ، وظهور عديد من الدول المستقلة المرتبطة بالخلافة ، أو المنفصلة عنها ، فضلاً عن ظهور خلافات وحكومات منفصلة ، في ظل هذا الانصهار والتبلور في إطار الاسلام ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، برزت مؤامرات داخلية متعددة من خصوم الاسلام تهدف إلى القضاء على كيان الدولة ، أو مفهوم الاسلام نفسه . حدث هذا التخلخل والاضطراب والانقسام وصراع الحكام والقادة في نفس الوقت الذي كان الفكر الاسلامي يجري نحو الانصهار والتبلور والتوحد .

كان هذا مقدمة لتحد خطير هو الغزو الخارجي لعالم الاسلام في مواجهة الاستجابة لقيمة أساسية من مقومات الاسلام وهي « الوحدة » وعامل خطير هو

« القوة » فإذا تمزقت الوحدة بين أطراف عالم الاسلام ، ووقع الصراع بين الأجزاء ، ثم ضعفت القوة الرادعة ، ورباط الخيل الذي يرهب العدو . إذا ما تراخى هذا كله ، كان ذلك مقدمة لتجمع خصوم الاسلام للانقضاض عليه ، كانت صورة عالم الاسلام تتمثل في أزمة واضحة شاملة ، فقد تراخت نظم الدولة الاسلامية ، وتمزقت الوحدة ، وغلب الترف ، وضعفت الحماية على الثغور ، وبان الخلاف بين الدول المتعددة ، وحكم نظام يعيش في إطار الاسلام ، ولكنه لا يلتزم مقوماته ومفاهيمه ، هنالك كان لا بد ان يواجه عالم الاسلام أزمة كبرى ، ومحنة عاصفة ، تقتطع من حياته مرحلة لا تقل عن (**٤٩٣ ـ ٨٩٨** هـ) أربعة قرون وهي مرحلة عصبية عنيفة تداخلت فيها الأحداث على نحو عاصف ، وانتهت باسترداد الغرب للأندلس ، وسيطرة عالم الاسلام على القسطنطينية .

وقد اشتبك فيها المسلمون من خلال معارك طويلة بالصليبيين في حملات متعددة على مختلف الجهات ، من حدود الدوّلة البيزنطية الى فرنسا ، وعبر سوريا وبيت المقدس ومصر وتونس والمغرب والأندلس . كما اشتبك المسلمون في حملات متعددة بالتتار الذين تآمروا مع الصليبيين لاقتلاع عالم الاسلام ومحوه . وكانت الأحداث متوالية دراكاً .

والحق أن الصراع بين عالم الاسلام والغرب لم يبدأ يوم جاءت (الحملة الصليبية الأولى ـ **٤٩٣** هـ) وإنما كان قد بدأ قبل ذلك بأربعمائة عام ، يوم اندفعت توسعات الاسلام لتنفذ إلى أوربا من القسطنطينية مرة . ومن الأندلس مرة أخرى ، وكانت أعوام **٩٢ ـ ٩٨** هـ حاسمة في هذا الموقف . فقد كانت « اندفاعة الاسلام » قد انطلقت من الشام إلى هضاب آسيا الصغرى ، حتى بلغت مياه البوسفور ، وحاصرت القسطنطينية كنقطة انطلاق الاسلام (**٣٢** هـ) إلى أوربا . ثم عادت مرة أخرى الى ذلك عام **٤٤** هـ . ثم عادت مرة ثالثة عام **٩٦** هـ ورابعة عام **٩٨** هـ . وفي هذه المراحل الأخيرة جاز المسلمون أسبانيا . واقتحموا غرب أوربا ـ إذ استعصت عليهم القسطنطينية ـ حتى بلغوا قلب فرنسا ونهر اللوار ، وكان لاقتحام الاسلام أوربا من غربها ، ووقوفه على حدود الدولة الرومانية الشرقية في سبيل اقتحامها من المشرق ، عاملاً من عوامل الصراع بينه

وبين الغرب لم يتوقف منذ ذلك اليوم وإلى اليوم .

كانت غاية التوسع الأولى والكبرى هي تبليغ أوربا دعوة الاسلام ، وكان الخليفة الثالث عثمان قد تصور ما يمكن أن يصل إليه الاسلام ، حين يتصل بين أسبانيا والقسطنطينة مخترقا قلب أوربا . وكان موسى بن نصير يتطلع إلى أن يصل دمشق عن طريق القسطنطينة .

غير أن أوربا قد استطاعت أن تواجه هذا التيار الجديد ، وأن تصمد في سبيل صده ودفعه ، وأن تقاوم في ذلك غاية المقاومة - كان الصراع يجري في ميدانين في وقت واحد : ميدان الدولة الرومانية (بيزنطة) حيث كانت عمليات الغزو والادالة بين شمال الشام وحدود بيزنطة لا تتوقف خلال أربعة قرون ونصف القرن . كان عالم الاسلام يقظا لا يتردد في رد عدوان بيزنطة الذي كان يترقب أي لحظة ضعف ليهجم ويحاول أن يستقطع من أطراف عالم الاسلام ، وكان الميدان الثاني هو ميدان الأندلس ، فإن دولة الاسلام التي قامت فيه لم تتمكن من أن تلتقط أنفاسها دون صراع أو مؤامرة ، أو حركة انقضاض على أطرافها . وقد امتد ذلك طويلاً منتهزاً فترات الضعف ليحاول الادالة منها .

وقد امتدت حركة المقاومة لاطراف عالم الاسلام من القسطنطينة والأندلس ، حتى بلغت مرحلة دقيقة عندما بدأت قوة جديدة من قوى الاسلام تبرز هي قوة « السلاجقة » في المشرق ، ثم تلتها قوة « الموحدين » في المغرب والأندلس . وهنا بدأت أوربا تصارع القوتين . وكانت الحروب الصليبية بحملاتها التسع قد بدأت نتيجة لتوسعات السلاجقة .

أما في الميدان الشرقي ، ميدان الدولة البيزنطية فقد كانت عين المسلمين على ذلك الخط الفاصل بينهم وبين الروم . وقد حرص المسلمون على حماية هذه الثغور ، وكانت البحرية الاسلامية التي بناها معاوية في خلال خلافة عثمان وما بعدها قوة ردع ومهابة ، وقد وقع الصدام في هذا الجانب طويلاً ، وحاصر المسلمون القسطنطينة مرات خلال أكثر من ستين عاما ، حيث اضطرت حملات الشواتي والصوائف لاتني ولا تتوقف .

ثم كان ذلك التربص من أطراف عالم الغرب ممتدًا لا يفتر ، ومستمراً لا يتوقف ، يترقب فترات الضعف ومراحل الغفلة لينتقض ثم لا يلبث أن يدافع المسلمون عن هذه الحدود مرات في مواقع حاسمة ، ويتوغل هارون الرشيد في أرض الروم ، وينهض المعتصم لرد العدوان ، ثم يظل هذا الصراع قائما حتى نرى سيف الدولة الحمداني في ثلاثينات القرن الثالث الهجري بمواقفه المشهورة في الرد على عدوان الروم . غير أن هذه المناطق ظلت بعد ذلك عرضة لهجمات الدولة البيزنطية طويلاً .

فقد كانت أوربا ترى في هذه الجبهة قوة مدافعة عنها تحول بينهـا وبـين سيطرة عالم الاسلام أو توسعه في أوربا حتى لحقت الشيخوخة بالدولة البيزنطية ونالها الضعف إزاء موجات الاسلام المتلاحقة ، التي لا تفتر عن موالاة الدفاع عن الثغور ، وكانت موجة السلاجقة قوة جديدة من قوى الدفاع قد اجتاحت بيزنطة وأدالت منها ، وكشفت عن ضعفها وعجزها عن حماية أوربا ، هنـالك كانت فكرة الحملات الصليبية بمثابة بديل عن قوة بيزنطة المنهارة .

هذا في الشرق . أما في الطرف الثاني من عالم الغرب . فالاسلام كان قد عبر « بحر الزقاق » وسيطر على أسبانيا . ومنها نفذ الى فرنسـا حتـى بلـغ نهـر اللوار ، حيث تجمعت أوربا لتقف أمام زحفه في موقعة « بلاط الشهداء » . هذه المعركة التي انسحب منها الاسلام مستنقذاً قواه ليعاود الكرة في اقتحام أوربا من ثغور إيطاليا .

***

وقد يقف المؤرخون طويلاً عند معركة بلاط الشهداء (**١١٤ هـ ٧٤١م**) ويقولون إنها نهاية التوسع الاسلامي في أوربا . بينما تشهد وقائع التـاريخ بأن حوادث التوسع لم تتوقف في غرب أوربا عند هذا الموقف . بل امتدت حتى عام **٢٩٨ هـ** . وأن الأغالبة في تونس قامت في ذلك المجال بدور ضخـم ، إلى أن شغل المسلمون عن أعمال المقاومة والتوسع ، وتراخت قبضتهم خلال قيام الدولة الفاطمية واتجاهها نحو الشرق . هنالك أخذت حركة الاسترداد الغربية تتأهب لجولة حاسمة في مواجهة « التوسع الاسلامي » فيما أطلق عليه من بعد « الحروب الصليبية » هذه الحركة التي بدأت من دولة الفرنج أولا عبر الأندلس والمغـرب

العربي . ثم كانت صيحة البابا أوربان الثاني للاتجاه إلى الشرق مرحلة تالية لها ، وقد امتدت الحركتان معاً للادالة من عالم الاسلام عن طريق الأندلس وعن طريق الحملات الصليبية على الشام ومصر . أما معركة بلاط الشهداء فقد هلل لها المؤرخون الغربيون بوصفها عملاً حاسماً في سبيل إنقاذ أوربا من التوسع الاسلامي ، وكانت تلك وجهة نظر ضيقة محدودة في تقدير موجة المدنية الزاحفة في ركب الاسلام . ذلك أن عمل كارل مارتل إنما كان حقيقته فيها تعويقا للحضارة الانسانية نفسها وأنه أخر تقدمها في قلب أوربا ثمانية قرون . وقد شهد بذلك كثير من المؤرخين في مقدمتهم العلامة كلود فارير الذي دعا أوربا إلى تصحيح تاريخها الرسمي : فقال ليس ما أكتبه فصلا من التاريخ الرسمي . بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء نفسه ، مما يختاره من بحار أو نقطة من فياف وآفاق .

فإذا أضفنا[1] إلى هذا شهادة هنري دي شامبيون . عرفنا إلى أي مدى صور بالخطأ والتعصب موقف الاسلام . أما المسلمون ففي الحق أنهم لم يتوقفوا عند موقعة بلاط الشهداء عن أن يصلوا إلى قلب أوربا حتى بلغوا روما . وقد ظلت مقاومة الغرب لعالم الاسلام من القسطنطينية ومن الأندلس ممتدة لا تتوقف ، ومستمرة لا تنقطع ، واستطاع السلاجقة أن يردوا عدوان بيزنطة في موقعة حاسمة هي : موقعة ملاذكرد (**٤٦٣** هـ) التي كشفت عن الضعف الذي بلغته الدولة الرومانية الشرقية ، مما حمل الغرب على التفكير في

(**١**) قال كلود فارير : في هذا اليوم (**٨** شعبان **١١٤** - اكتوبر **٧٢٢**) تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس ، أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواطف السحر والخيال (أشبيلية - غرناطة - قرطبة - طليطلة) ليشاهد الألم الغريب آخذاً منه ، ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح - لأن الإسلام في مجموعه كل هذا - فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها . وكان من ذلك نتج خراب غاليا القديمة التي استعبدها أولا لصوص استرانا ، حدث هذا في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام تحت أقدام أربع دول (الأموية - العباسية - السلجوقية - العثمانية) .

عمل آخر يقاوم به توسع عالم الاسلام ، بعد أن ظلت هذه الدولة تقاوم عالم الاسلام خمسة قرون ، وقد تمثل العمل الجديد في تلك الحملات التي تحركت خلال قرنين كاملين على القدس والشام ومصر - أما الأندلس فقد ظلت تواجه حملات انقضاض متصلة من داخلها ومن خارجها . حيث ظل الفرنجة من خارج الأندلس والقوط من داخلها في محاولات مستمرة للانقضاض عليها ، ومحاصرتها لايقاف التوسع الاسلامي وإجلاء العرب والمسلمين إلى أفريقيا وتحرير أوربا من الاسلام في هدف موحد محدد هو « وقد زاد هذا الضغط بعد موجات استنقاذ الأندلس التي قام بها المرابطون ، ثم الموحدون « **٤٤٥** هـ - **٦٧٤ هـ**» (**١٠٥٣ - ١٢٧٥** م) وفيما كانت الحملات الصليبية تتوالى على المشرق وتقيم المملكة اللاتينية في القدس لم يتوقف عالم الاسلام عن المقاومة في جهة الشام ومصر لهذه الحملات ، وفي جبهة الأندلس والمغرب ، لحملات الغزو والانقضاض المتوالية . وقد أبرز عالم الاسلام أبطالا حملوا لواء الدفاع والمقاومة : من أمثال : نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس في المشرق ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن ابن علي في المغرب .

مواقف الدفاع

غير أن خطراً ثالثاً لم يلبث أن واجه عالم الاسلام بقوة في خلال معركته مع الصليبيين في القدس ومع الفرنجة في الأندلس . ذلك هو الاعصار « التتري[1] المغولي » ممثلا في غزو جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك على التوالي خلال فترة (**١٩١** عاما) (من **٦١٦ - ٨٠٧** هـ) ولا يمكن أن ينظر هذا الغزو ، منفصلاً بغير ارتباط وتدبير واتفاق بالغزو الأوربي ، ومن ثم أصبح عالم الاسلام . بل الاسلام نفسه في امتحان خطير ، وكان لمصر دورها الحاسم في مواجهة الصليبيين والتتار في هذه المرحلة . وكان لدولة المماليك الدور الحاسم في القضاء على القوتين بعد معارك صلاح الدين التي تقدمتها .

---

(١) بدأ الغزو المغولي للعالم الإسلامي عام **٦١٦** بقيادة جنكيزخان ، وهاجم هولاكو بغداد **٦٥٦** . وتوفي تيمورلنك عام **٨٠٨** بعد حملة سوريا عام **٨٠٤** هـ .

لقد توقفت الحروب الصليبية في جبهة المشرق ، وانتهت بفشل هذه المحاولات ، ولكنها لم تنته بالنسبة لجبهة المغرب والأندلس ، فقد اتجهت تاسعة هذه الحملات إلى تونس ، لتشارك في الادالة من الدولة العربية الاسلامية القائمة على أرض أوربا ، والتي دخلت مرحلة دقيقة من مراحل المقاومة حتى صفيت ، ولكنها لم تصف إلا بعد أن قامت موجة جديدة من موجات القوة الاسلامية ممثلة في الأتراك العثمانيين .

هذه القوة التي استطاعت أن تسيطر على القسطنطينية في نفس الوقت الذي زالت فيه الأندلس ، وبدأ عالم الغرب يواجه توسعاً جديداً داخل أوروبا من فوق الأرض التي قاومت الاسلام (أرض الدولة البيزنطية) خلال ثمانية قرون . وفي هذه الفترة استطاع الاسلام أن يكسب قوة جديدة ، فقد تحول التتار والمغول إلى الاسلام فأعادوا بناء هذه المنطقة التي كانوا قد أزالوا منها معالم الحضارة في نهضة جديدة ، بل إنه وفي نفس الوقت الذي كان التتار يلحون على بغداد بالغزو لتسقط في أيديهم كإحدى منارات عالم الاسلام ، كان الاسلام يشق طريقاً جديداً إلى جنوب شرق آسيا دون معارك أو قتال ، ليفتح فتحا جديداً من فتوحه وتوسعاته الذاتية في عالم جاوة وسومطرة .

(١٨)
« الروم وعالم الاسلام »

ظلت الروم (الدولة الرومانية الشرقية) أو دولة بيزنطة المتاخمة لحدود عالم الاسلام من الشمال ، هي الثغرة الخطرة ذات الأهمية الكبرى على حدود عالم الغرب . فقد كان الغرب منذ ظهور الاسلام وامتداده إلى الشام وأفريقيا يهدد باستعادة ماكان تحت يد الرومان . لذلك وقف المسلمون إزاء هذا الخطر في أهبة دائمة ، ومواجهة مستمرة ، وقاموا بمحاولات ضخمة لتطويق بيزنطة ، وغزو القسطنطينة والاستيلاء عليها . جرى ذلك إبان حكم الخليفة الثالث : « عثمان » ثم استأنفه معاوية بنظام الشواتي والصوائف .

ثم كانت محاولته الكبرى في الاستيلاء على القسطنطينة بعد بناء الأسطول الاسلامي الأول الذي بلغ (**١٧٠٠** سفينة) مزودة بالسلاح ، واستطاع أن يسيطر على جزيرة رودس (**٥٣** هـ) وأقريطس (كريت) (**٥٤** هـ) . ثم غزا صقلية وأرواد ، وفتح قبرص ، ومضى من بعد لمعركة حصار القسطنطينة التي استعصت وقاومت خلال سبع سنوات كاملة (**٥٤ - ٦١**) فلما توقفت هذه الحملات ، أخذ الروم في مهاجمة ثغور عالم الاسلام . فاستولوا على بعضها واقتحموا ساحل سوريا ، ثم تمكن (عبد الله بن مروان) من استعادة ثغور الاسلام ، وأخضع أرمينية ، ونظم سلسلة من الشواتي والصوائف ، ودعم الحصون بالحراسة والذخائر . ولم يلبث عام **٨٤** هـ أن غزا الروم ، وفتح حصن المصيصة ، ثم اتجه الوليد بن عبد الملك من بعده الى ميدان آسيا الصغرى ،

واستولى على حصون مرعش وعمورية وأنطاكية . وأجرى سليمان بن عبد الملك من بعده محاولة حربية أخرى للاستيلاء على القسطنطينية التي قاومت الحصار الثاني - الذي ظل مضروباً عليها - حتى رفعه (عمر بن عبد العزيز) وقد برز في مجال هذه المعارك أبطال مجاهدون ، في مقدمتهم جنادة بن أبي أمين قائد الأسطول الاسلامي الأول ، ويزيد بن معاوية ، وأبو أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عبد الملك .

كانت هذه المحاولة مقدمة لمعارك متصلة استمرت خمسة قرون حتى استطاع السلطان محمد الفاتح أن يستولي على القسطنطينية (**١٤٥٣** م - **٨٥٧** هـ) وفي خلال هذه الفترة ظلت الدولة الرومانية تواصل انتقاضها على أرض الاسلام منتهزة فترات الضعف والخلاف الداخلي . وقد واصل المسلمون مقاومتها وردعها والادالة منها في مواقف متوالية ، شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم ، وكان أبرز أدوار المقاومة ، الدور الذي قام به سيف الدولة الحمداني ، ثم الدولة الحمدانية .

وقد استطاع هارون الرشيد أن يرغم الروم (**١٨١** هـ) على دفع جزية بلغت **٣٠٠** ألف دينار سنويا وذلك بعد انتصاره في حركات غزو الروم المستمرة لأراضي عالم الاسلام . وقد استمر دفع هذه الجزية سنوات متوالية . ثم كان غزو المعتصم لعمورية (**٢٢٣** هـ) حيث حقق النصر على الروم بجيش قوامه خمسة عشر ألف فارس في مواجهة جيش الروم البالغ (مائتي ألف) : (النجوم الزاهرة) ثم استطاع السلاجقة توجيه ضربة ضخمة لبيزنطة في موقعة « ملاذكرد » كانت مقدمة لنقل مجال المعركة بين عالم الاسلام والغرب من الدولة الرومانية - المستضعفة التي حمت أوربا خلال خمسمائة سنة من توسع الاسلام - إلى اندفاعة الحملات الصليبية من قلب أوربا إلى عالم الاسلام خلال مائتي عام .

ولقد لفت هذا الصراع أنظار الباحثين حتى قال « سيد أمير علي » لعله لا يوجد على وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة كهذه التي نشبت في الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ، فقد ظلت تعزيزات الجيوش على الحدود قائمة ومستمرة ، وكانت حاميات حمص وطرسوس وأدنة والمصيصة

أهم هذه الحاميات . غير أنه بالرغم من توالي الصدام بين الروم والمسلمين . فإن ذلك لم يمنع من قيام معاملات تجارية ، وفترات سلام تبادل فيها المسلمون والروم العلاقات الثقافية والاقتصادية ، وكان التبادل الثقافي من أهم المبادلات في هذه الفترة . فقد جعل الخلفاء المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بديلا للمبالغ المفروضة . وفي أوقات السلم كانت بيزنطة ـ تستقبل السفراء العرب من بغداد والقاهرة . كما كانت بغداد تستقبل سفراء الروم . كان الخليفة يستقبلهم رسميا في أبهة شرقية بالغة . ومن خلال عروض عسكرية .

وكانت مقاومة سيف الدولة الحمداني ودولته (**٢٩٣ ـ ٣٨٠**) للروم بالغة الأثر في تاريخ الاسلام . فقد قامت الدولة الحمدانية بالجزيرة على حدود الروم . إذ أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة والمرابطة في سبيل حماية الثغور . فكانت ثغور ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأدنة وخرسوس معاقل صامدة للمقاومة . إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها موقف دفاع إزاء هجمات الروم المتوالية ، يقول ماركفارت : إن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية ، فالروم في ذلك الوقت كانوا يغيرون على أرض المسلمين . وكان سيف الدولة يقف من غزواتهم موقف الدفاع في حالات كثيرة . غير أن المرحلة التي تلت الدولة الحمدانية لم تكن بنفس القدرة على المقاومة مما جرأ الدولة البيزنطية على مزيد من التوسع والاعتداء على حدود عالم الاسلام ، ولم يواجه هذا العدوان من المسلمين الا مقاومة ضعيفة ، فاستطاعت أن ترفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب ، وأن تسيطر على أرمينية ، وأن تفرض الجزية على الأمراء المسلمين في شمال الجزيرة ، وشمالي الشام . وقد كان هذا كله مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الاسلامي ، بالاشتراك مع الدولة البيزنطية لم يؤخره إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هي « قوة السلاجقة » . هذه القوة التي جددت شباب الاسلام ، وحلت محل القوة العباسية المنهارة . وقد استطاعت القوة السلجوقية الشابة أن تواجه الغزوات البيزنطية في صمود وأصالة وسار قادتها (طغرلبك ـ ألب أرسلان . ملك شاه) لرد عدوان الأراضي البيزنطية ، وحققوا انتصارات هامة ، كان أكبرها في موقعة (ملاذكرد) التي أسر فيها الامبراطور رومانوس . الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالية والفرنج ، وفي أعظم قوة جردتها الدولة

الرومانية الشرقية على قوى الاسلام ، واتجه إلى « ملاذكرد » وهي بلدة حصينة على فرع نهر مرادسو . فضرب حولها الحصار . وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة (ألب أرسلان) في عدد لا يتجاوز ربع قوة عددهم ، وتقول الرواية إن قائد المسلمين اختار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة ، فصلى بجنده ظهراً . ولبس البياض ، وتحنط استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم ، فإن ساحة الحرب تغدو قبره ، وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس ما لحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ، ليتأهب للقتال في اليوم التالي . غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك ، فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون ، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاما قاتلة ، ثم انقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه ، واسر رومانوس وتمت هزيمة الروم (**٤٦٣ هـ**) ونقل العنصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الذي عاتبه على رفضه طلب الهدنة الذي تقدم به المسلمون .

وسأل ألب أرسلان الامبراطور : ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر .

وقال رومانوس : إنه كان يقتل السلطان ويمثل به .

قال أرسلان : ولكني عزمت على العفو عنك والفداء .

فافتدى الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وقد أطلقه السلطان ، وأطلق معه البطارقة وشيعه فرسخاً وأرسل معه جندا يحفظونه ، ومعه راية مكتوب عليها (لا إله إلا الله) . « البداية والنهاية » . وقد علق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد بنوهول . فقال : لقد كان الغزو الاسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه أكثر من ثلاثة قرون . وقد مني الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الامبراطور البيزنطي أسيراً . ومن ثم كانت واقعة (ملاذكرد) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب . إذ كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فكانت عاملاً حاسماً في اندلاع الحروب الصليبية ، ولو أن ألب أرسلان

سار في طريقه - بعد هذه المعركة - إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ، ولقوض أركان « الامبراطورية البيزنطية » .

ومنذ معركة (ملاذكرد) استوطن السلاجقة ، هضاب آسيا الصغرى ، وأصبحت في حوزة المسلمين ثم استولوا على (نيقة) **٤٧٧** هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد أكثر من قرنين حتى قضى عليه المغول **٦٥٥** هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد ، وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة « ملاذكرد » بعامين وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوق السلاجقة آسيا الصغرى من الجنوب وبسطوا سلطانهم عليها .

وكان لملاذكرد أعمق وقع في أوربا . فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الاسلامي ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية ، والاندفاع الى أوربا ، هنالك تعالت الصيحات وجرى إعداد مخطط الغزوات الصليبية التي امتدت بجناحها إلى المشرق وإلى المغرب ، غير أنه لم يمض على (ملاذكرد) أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استطاعت القوى الاسلامية في المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة الغازية في « موقعة الزلاقة » **٤٧٩** هـ .

***

هكذا كان هذا الموقف الخطير فيما بين المشرق والمغرب ، وفي طرفي عالم الاسلام بمحاذاة الدولة الرومانية الشرقية الضعيفة المنهارة . وبمحاذاة فرنسا على حدود الأندلس ، دافعاً لمخطط الحروب الصليبية التي اندلعت في أواخر القرن الخامس ، واستمرت خلال القرنين : السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة في المشرق ، وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الاسلام في الغرب .

غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة في عالم الاسلام ، هي موجة الوحدة الاسلامية العثمانية ، التي استطاعت أن تتوغل في أوربا ، وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة ، كرد فعل للحروب الصليبية والتي استولت على « القسطنطينية » وأقامت في آسيا الصغرى إمبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون (**١٣٠٠ - ١٩١٧** م) (**٦٩٩ - ١٣٣٦** هـ) .

وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية ، قلنا إن الاسلام كان بعيد الأثر في النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية ، والتأثير في مفاهيم الغرب الفكرية ، مما كان له أثره في حملة رجال الكنيسة على الصور والأيقونات المقدسة .

كما كانت هذه المرحلة بعيدة الأثر في الأدب العربي الاسلامي حين رسمت صورة البطولة الاسلامية في المرابطة والدفاع عن الثغور ، وبرز اسم المحارب العربي المسلم « عبد الله البطال » الذي نسجت حول حياته قصص أسطورية حاولت أن ترسمه ، وقد وهب قوة خارقة فوق مستوى البشر ، وكان قد استشهد في معركة كرونيون في آسيا الصغرى . كما كان لهذه المعارك آثارها في انتقال كلمات كثيرة من العربية إلى اليونانية وبالعكس .

(١٩)

« الحروب الصليبية في المشرق »

« والحروب الصليبية » : كانت هي انطلاقة أوربا الدينية والاقتصادية في مواجهة عالم الاسلام وتوسعاته ، وقد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ الاسلام أطراف أوربا ، ثم ازدادت عمقا واتساعا مع توالي الزمن ، فلم يكد يصاب تماسك الدولة الاسلامية بالضعف ، وينالها التجزؤ والانقسام حتى توالت هذه الحملات من طرفي عالم الاسلام اندفاعا ، فلم تلبث أسبانيا والمغرب وآسيا الصغرى وشمال إفريقيا والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحرين المتوسط والأحمر أن أصبحت جميعها ميادين معركة ضارية قوامها الحملة على الاسلام والعمل على سحقه والادالة منه .

إن الظاهرة الواضحة الدالة لهذا المعنى هو : أن الغزو من قبل أوربا والغرب كان عنيفا مليئا بروح التعصب والانتقام . بينما كان التوسع الاسلامي في عالم الغرب أو الدفاع عن عدوان الغرب ، ومقاومة غزوه كان رحيما عادلاً . وقد أجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية لم تبدأ يوم بدأت ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م . بل إنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة ، وتعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الاسلام ، وترتبط بالصراع الذي دار بين المسلمين ، والفرنجة في أسبانيا وحدود فرنسا ، وانها لم تنته يوم انتهت لسقوط عكا ٦٩٠ هـ - ١٩٢١ . ولكنها امتدت بعد ذلك حتى استعادت الأندلس ، وأخرجت المسلمين من أوربا ، وشملت - ليس منطقة الساحل الشامي وحده من القسطنطينية إلى

القدس ومصر - بل ساحل البحر الأبيض المتوسط جميعاً .

الحروب الصليبية

٤٩٢ (**١٠٩٩**) الحملة الأولى : بيت المقدس **٥٤٢** (**١١٤٧**) الحملة الثانية : ساحل الشام
٥٨٤ (**١١٨٨**) الحملة الثالثة : ساحل الشام **٥٩٩** (**١٢٠٣**) الحملة الرابعة : القسطنطينية
٥١٩ (**١٢٠٣**) (عصابات ناهبة : **٦١٣** (**١٢١٧**) الحملة الخامسة عكا .
٦١٥ (**١٢١٨**) الحملة السادسة : دمياط (مصر) **٦١٦** (**١٢١٩**) استيلاء الصليبيين على دمياط .
٦١٨ (**١٢٢١**) انسحاب الصليبيين من مصر **٦٢٥** (**١٢٢٨**) الحملة السادسة : استعادة بيت المقدس (فردريك الثاني)
٦٣٩ (**١٢٤٤**) الملك الصالح العرب : يسترجع بيت القدس **٦٤٧** (**١٢٤٩**) الحملة الصليبية السابعة (دمياط)
٦٤٨ (**١٢٥٠**) هزيمة الحملة الصليبية السابعة (المنصورة) **٦٤٨** (**١٢٥٠**) مقتل توران شاه وتولي المماليك حكم مصر
٦٨٨ (**١٢٨٩**) الحملة الصليبية الثامنة : تونس **٦٩٠** (**١٢٩١**) سقطت عكا في أيدي المسلمين (الأشرف خليل)

* الحملات الأولى والثانية والثالثة والخامسة : اتجهت الى الشام .
* السادسة والسابعة : اتجهت إلى مصر - والثامنة اتجهت إلى شمال أفريقيا (تونس)
* أهم الحملات : الأولى والرابعة والخامسة .
* كانت الحملات الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة تحت زعامة ملوك أوربا .
* منذ بدأت الحملة الصليبية الأولى إلى الشام **١٠٩٨** لم يتوقف ورود جموع صليبية جديدة ، متصلة على هيئة حجاج إلى بيت المقدس . وقد بلغت

هذه الجموع في مجموعها أضعاف الأرقام التي عرفت عن الحملات الصليبية .

* اتصل مجرى هذه الحملات خلال قرنين كاملين ، ومر بثلاث مراحل .

(أولها) : دور ظفر الافرنج (**٤٩٢**هـ - **١٠٩٨** م - **٥٣٩** هـ - **١١٤٤** م) .

(ثانيا) : بدأ رد الفعل الاسلامي بحركات مقاومة وصلت الى استعادة الرها (**٥٣٩**) بقيادة نور الدين ، ثم بلغت قمتها بانتصارات صلاح الدين في « حطين » واستعادته بيت المقدس .

(ثالثاً) : محاولات لمقاومة التمزق والنهاية في مواجهة حملات المماليك (الظاهر بيبرس ، وقلاوون ، والناصر ، انتهت **٦٨٩** هـ - **١٢٩١** عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بلاد الاسلام .

* كانت جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانيين وإيطاليين وبريطانيين وفرنسيين وألمانيين ونرويجيين وسويسريين . ولم تكن لهذه الحملات الصليبية قيمة توسعية هامة أكثر مما حققته .

* الحملة الصليبية الأولى (**١٥** يوليو **١٠٩٩**) **٤٩٢** هـ استولت على بيت المقدس . أما باقي الحملات فقد كانت موالاة للبقاء ومحاولات للاستمرار .

* استطاع الفرنجة باحتلال بيت المقدس إقامة عدة ممالك هي :

(**١**) إمارة الرها (**٩٤٢** - **٥٣٩** هـ) .
(**٢**) إمارة طرابلس (**٤٩٦** - **٦٨٨**) .
(**٣**) إمارة أنطاكية حتى **٦٦٧** هـ .
(**٤**) إمارة بيت المقدس .

أما إمارة الرها فقد استمرت من **٤٩٢** - **٥٣٩** حتى أزالها عماد الدين زنكي .

وأما مملكة بيت المقدس فقد أزالها صلاح الدين .

والمعروف أن حركة المقاومة الاسلامية بدأت منذ اللحظة الأولى تغير على قواعد العدو ، ثم تطورت إلى قوة هجوم حمل لواءها : عماد الدين زنكي الذي

استطاع أن يستعيد (الرها) كبرى معاقل المملكة اللاتينية (**٥٣٩ هـ ١١٤٤** م) .

وقد اهتز الغرب لسقوط الرها اهتزازاً ضخماً ، فكان دافعاً للحملة الصليبية الثانية **٥٤٢ هـ ١١٤٧** م .

* لم تتوقف حركة اتحاد أجزاء العالم الاسلامي المتاخم لمجال الغزو الغربي . أما منطقة الشام وفلسطين ومصر . فقد اتحدت في ظل نور الدين محمود الذي هزم جيش أنطاكية ، واستولى على تل باسر آخربقايا إمارة الرها . كان لانتصارات نور الدين محمود أثرها في تحرك الحملة الصليبية الثالثة التي فشلت أمام دمشق .

* توسعت خطوات المقاومة وبلغت قمتها في أعمال صلاح الدين حتى استطاعت في معركة حطين أن تسترد بيت المقدس (**٥٨٣ - ١١٨٧**) هنالك أخذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى الذي يقود حركة المقاومة حيث اتجهت الحملات الصليبية الخامسة إلى دمياط (**١٢١٨**) والسابعة (**١٢٤٩**) إلى شاطىء مصر في محاولة لويس للاستيلاء على دمياط . ثم هزيمته في المنصورة وفارسكور (**١٢٥٠**) .

* كانت الحملة السادسة قد استطاعت بعد وفاة صلاح الدين أن تستعيد بيت المقدس (**٦٢٥ هـ ١٢٢٨** م) غير أنه ولما تمض على هزيمة لويس في المنصورة إلا سنوات قليلة حتى استولى المغول على بغداد ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي (**٦٥٦ هـ ١٢٥٨** م) ثم اجتاحوا حلب ، واستولوا على دمشق . أتيح لمصر كرة أخرى أن ترد المغول عين جالوت (**٦٥٩** هـ **١٢٦٠** م) وكانت قوة المماليك قد سيطرت منذ سنوات قليلة على السلطة في مصر . وبذلك استطاعت مصر أن ترد الحملة الصلبية (**٦٤٨ هـ ١٢٥٠** م) والحملة المغولية (**٦٥٩ هـ ١٢٦٠** م) في خلال عشر سنوات ، هنالك بدأت هذه القوة الجديدة (المماليك) تسيطر على مقدرات عالم الاسلام ، وتحمل لواء المقاومة خلفاً لنور الدين وصلاح الدين ، ممثلة في قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر . وفي هذه المرحلة حقق المماليك ثلاثة أمور هامة .

(١) تصفية الممالك اللاتينية الصليبية ، وانهاء مملكة بيت المقدس .
(٢) تصفية قلاع الباطنية في الشام والقضاء عليها .
(٣) الحفاظ على الشام ومصر من غزو المغول .

وقد امتد هذا النفوذ واستمر حتى برزت موجة جديدة من موجات المقاومة الاسلامية البدوية هي قوة العثمانيين التي سيطرت بعد ستة قرون كاملة .

وصلت الحملة الصليبية الأولى القدس **٤٨٩** هـ وسقطت آخر معاقل المملكة اللاتينية في القدس **٦٩٠** هـ وتوالت خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية (منها أربع حملات على المقدس وحملتان على مصر وحملة على تونس) .

ومن خلال الحروب الصليبية كانت حملات التتار التي انتهت بسقوط الخلافة في (بغداد ـ **٦٥٦** هـ) وقد بدأت مقاومة عالم الاسلام للغزو منذ وطئت قوى الفرنجة القدس ، ولم تتوقف خلال قرنين كاملين ، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين ، واستشهد عدد لا حدّ له من المحاربين . وواجه المسلمون والعرب هذا التحدي برد فعل متصل .

برز « نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، والملك الصالح نجم الدين ، والظاهر بيبرس ، وقلاوون وخليل » على فترات في الشام ومصر ، خلال هذه الفترة ، حتى صفيت هذه المواقع ، وقضي على هذه الحملات ، وانتهت بالفشل ، وكتب المسلمون والعرب المقاومون صفحات غاية في الاشراق والقوة والحيوية ، كشفت عن البطولة في المقاومة ، ومواجهة أساليب الصليبيين البالغة العنف في العدوان بأساليب كريمة . فقد اندفع الفرنجة في حملتهم يسفكون الدماء على نحو غاية في البشاعة ، فلما استمسك المسلمون بالأمر لم يردوا هذا الفعل بمثله ، ولم يوغلوا في الانتقام . وقد ضرب « نور الدين محمود » مثلاً عالياً في تطبيق خلق الاسلام وطابعه ، وكان صلاح الدين الأيوبي نموذجاً رائعاً في البطولة والسماحة معاً . وكانا معاً في إطار الجهاد والمقاومة : أشبه بالشيخين أول الاسلام ، وتتمثل في الظاهر بيبرس وقلاوون ، وخليل وجميعهم من المماليك موجة أخرى من موجات القوى الخارجة من أحشاء الاسلام ، تضاف إلى موجات السلاجقة والبربر ، ولهم جميعاً دورهم في هذه المرحلة في مقاومة الغزو الخارجي . وقد كان لأبطال المماليك بعد دور بطلي السلاجقة (نور

الدين وصلاح الدين) أثر ضخم في إنهاء المملكة الصليبية اللاتينية ، والقضاء على التتار .

وكانت حطين معركة فاصلة في سبيل استرجاع بيت المقدس . وكان هزيمة لويس في المنصورة حاسمة في فشل الحملات وعودتها خاسرة . غير أن ذلك لم يكن هو النهاية بالنسبة لموقف أوربا من مقاومة توسع الاسلام ، والعمل على دفع موجة نفوذه ، فإن فشل هذه الحملات قد أغرى الفرنجة بالضغط على أسبانيا ، وتكتيل القوى الأوربية في سبيل تصفية الاسلام والعرب من شبه جزيرة إيبريا وفقاً لخطة مؤداها : « تحرير أوربا من شرقيها وغربيها من دفعة الاسلام » ومن ثم فقد تعمقت في هذه المرحلة خطط اقتلاع الاسلام من أسبانيا والقضاء على الدولة العربية بها .

ويمكن القول إن أبرز عوامل الحملات الصليبية هي العمل على استعادة الأرض التي في يد العرب ، وإعادة السيطرة على عالم الاسلام ، أو على الأقل إيقاف توسع الاسلام والحيلولة بينه وبين السيطرة على أوربا ، وقد كان ذلك مفهوماً عاش واستمر وتطور في أعماق النفس الأوربية قروناً متصلة ، منذ وصل المسلمون إلى أسوار القسطنطينة ، وسيطروا على الأندلس . بلغوا نهر اللوار وما بعده حتى باتوا قريباً من روما ، ومن هنا فقد كانت الدولة البيزنطية هي حامية أوربا دون توسع الاسلام . فلما عجزت عن القيام بدورها التاريخي ، كان على الغرب أن يترقب فرصة وقوع جزر إسلامي جديد لتحقيق هذا الهدف باسم استرداد بيت المقدس .

وكانت محاولة الاسترداد ممتدة على طول البحر الأبيض المتوسط من القسطنطينية إلى الأندلس ، وعلى الشام ومصر والمغرب بالذات .

ولا شك كان العامل الديني ممتزجاً بالعاملين الاجتماعي والاقتصادي ، دون تفرقة أو تغليب لأحد منها على الآخر ، فهي حركة أوربية مناهضة لسيطرة الاسلام ، تحمل الطابع الديني في أشد مراحل عنفه وتعصبه لمقاومة نفوذ العرب المسلمين الذي تزايد في هذه المرحلة ، ثم هي حملة من مجتمع أقل حضارة ومدنية وثقافة على مجتمع حضارة وثروة ، وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم ، فأفادوا منها ، بينما ترك الأوربيون آثاراً بعيدة المدى لصور الجشع

والتعصب والحرب والتدمير ، ما زالت تتمثل حتى اليوم بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفاً في حملته الثانية (الاستعمار الحديث) التي فصلتها عن الأول ثمانية قرون هي : عمر القوة العثمانية .

ولا شك أن حركة إعادة نفوذ الغرب في المناطق التي تحتلها الدولة الرومانية في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط ، والتي لم تكن في الحقيقة جزءاً من عالم الغرب نفسه ، وإن فرضت عليها السيطرة الاستعمارية ، وهي التي أصبحت بعد جزءاً من عالم الاسلام . هذه الحركة قد تقدمت خلال مائة عام ونيف قبل الحملة الصليبية الأولى نتيجة لموجة الضعف التي كانت تمر بالمسلمين ، إذ ذاك بعد مرحلة تضخم وترف ، فكانت بعيدة الأثر في إضعاف الوحدة السياسية ، والقوة العسكرية ، مما أدى إلى القصور عن الحماية واليقظة ، في الثغور والمناطق المكشوفة للغزو . ومن أهم المواقع في هذه الفترة : استرداد الغرب لصقلية الاسلامية وإزالة الفرنجة لكثير من أجزاء الدولة الاسلامية في الأندلس بتفريق الأمراء المسلمين ، والايقاع بينهم ، وتمزيق إماراتهم ، وتضام أمراء الفرنجة ، ودمج ممالكهم في سبيل مواجهة البقاء الاسلامي في شبه جزيرة إيبيريا .

وقد كانت الحركة الصليبية في المشرق ذات مخطط واضح . فهي قد اندفعت في خط ممتد من القسطنطينية إلى غزة ، ووجهت حملاتها إلى شواطىء : الشام ومصر ، وأقامت دولة ذات أربع إمارات على الساحل الشامي خلال مائتي عام ، ثم وسعت نفوذها بالسيطرة على العقبة . وبذلك أقامت فاصلاً يحول دون التقاء عالم الاسلام في أفريقيا وآسيا . واستطاعت فعلا أن تستنزف ـ خلال مائتي عام ـ جميع القوى البشرية والمادية في هذه المنطقة حيث كانت الشام ومصر هي المسؤولة عن مواجهة هذه القوة المعتدية ، وقد توقفت خلال هذه الفترة أعمال البناء والحضارة . كما اتسم « الفكر العربي » بطابع المقاومة والتحدي ورد الفعل . وقد برز ذلك في اتجاه فكر الغزالي وابن تيمية وأصحاب الموسوعات . فمن الناحية الاقتصادية تناقصت الثروة ، وضعفت الأيدي العاملة نتيجة لأعمال الحرب التي استنفدت الموارد الاقتصادية والقوى البشرية . غير أن هذه الحملات كانت معبراً للحضارة والثقافة إلى أوربا . إذ كانت بعيدة المدى في خلق جسر واسع عريض خلال قرنين كاملين لنقل الحضارة الاسلامية العربية إلى أوربا . فقد نشأت على الأثر حركة واسعة في ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية .

وكان أبرز مركزي هذه الترجمة : جزيرة صقلية والأندلس .

كما استطاعت « أيديولوجيا الاسلام » أن تتمثل في كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التي عرفتها أوربا بعد ذلك ، فالأوربيون وإن لم يأخذوا الاسلام ، وقاوموا عالمه بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا « منهجه التجريبي » في العلم ومقوماته في الفكر والاجتماع والفروسية ، فقد كان الاسلام وفكره وثقافته ومفاهيمه بعيد المدى في حركات الاصلاح الديني ، قوي الأثر في الحركة العقلية ، وعلى الحضارة ، وعلى كل جوانب النهضة التي بدأها الغرب بعد . وبذا يمكن القول بأن الاسلام أعطى وتعامل مع كل القوى التي اصطدمت به . أو حاولت غزوه ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للتتار . ومن هنا يمكن القول أيضاً بان الغزو الخارجي لعالم الاسلام كان هو العامل الأكبر في دخوله « مرحلة الضعف » . هذا الضعف الذي تمثل في تخلف المسلمين متخلفين عن أيديولوجية الاسلام عن الحركة والعمل ، بينما كانت تتوالى موجات القوى البشرية القادرة على الدخول فيه وحمل لوائه .

هذه القوى التي تتمثل في السلاجقة والتتار والبربر والعثمانيين ، وهي قوى بشرية هائلة ، دخلت الاسلام وآمنت به وسيطرت على عالمه عسكرياً وسياسياً . ولكنها ظلت دون القدرة الكاملة على تطبيق أيديولوجيته على نحو يكفل لها الاستمرار ، أو إقامة مجتمع العدل والحرية لجماهير المسلمين .

* * *

لعل أبز ما يلفت النظر هو : الاستجابة السريعة بالتحدي ورد الفعل على الحملات الصليبية إلى المشرق « فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش في العراق لمنازلة الغزاة المعتدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرح جيوش الشام للذود عنها ، ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية ، وطاقتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق ، ولا يكاد أرناط حاكم الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز ، حتى تشيد السفن في مصر وتحمل على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين ، ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ الاجراءات السريعة

لدفع هذه الطارة[1] وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاماً بين أجزاء الوطن العربي .

كانت الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وكانت رداً على توسع الاسلام بعد سيطرة الغرب لأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التي قام فيها الاسلام ، والتي كانت قد أضيفت إلى الغرب بعد حركة الاسكندر الذي استطاع أن يسيطر على هذه المنطقة ، وأن يوحدها تحت سلطة الغرب ونفوذه . ولكن هذه الحملات كشفت عن مفهوم جديد ، هو أن هذه المنطقة بعد ظهور الاسلام ، لم يعد من السهولة ضمها إلى عالم الغرب وفكره .

لقد جاءت الحروب الصليبية بعد خمسة قرون من ظهور الاسلام في محاولة لاستعادة هذه المناطق التي لم يعد من السهل إعادتها إلى الغرب . لأن مفهوماً فكرياً جديداً قد سيطر في هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع أن تواجه عالم الغرب ، فقد برزت حضارة وعقلية جديدتين ، وظهر أسلوب حياة مباين بحيث يمكن القول إن الحروب الصليبية هي صراع بين حضارتين وعقليتين وأسلوبين في الحياة ، وأنه بعد مائتي عام اتضح للغرب عجزه عن تكرار محاولة الاسكندر الأكبر . ذلك أن الاسلام قد أقام أيديولوجيا جديدة عميقة الجذور . وأن الغرب نفسه قد جاء في أفواج همجية مشردة ، ليواجه عالماً من الحضارة والمدنية يستطيع أن يعطي في مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية .

وبعد : فإن عالم الاسلام لم يواجه هذه القوى ـ بعد أن سيطر عليها وأحاطها بنفوذه ثم أجلاها . لم يواجه هذه القوى بمثل ما واجهته عند ما غزت أرضه ، فأسرفت في القتل والعدوان . بل كان بها عادلاً ورحيماً . وقد بدأ تمثل صلاح الدين الأيوبي ، وهو في موقف القوي المنتصر قائماً في ضوء مفهوم الاسلام وأيديولوجيته ، كريماً رحيماً عادلاً ، يتمثل مفهوم الاسلام : (العفو عند المقدرة) مما كان له أثره في تحول مفهوم أهل الغرب عن الاسلام وأهله بالنسبة لما كانوا يعتقدونه بالظن فيه . لقد كانت المقارنة قادرة على الكشف عن مفهومين وعقليتين لا يمكن أن يلتقيا ، ولكن يمكن أن يقتبس كل منهما من الآخر .

---

(١) الدكتور عاشور : الحركة الصليبية .

(٣)

معاملة المسلمين ومعاملة الفرنجة

حاول مؤرخو الغرب وتابعهم بعض المؤرخين العرب أن يبرروا الحملات الصليبية على « عالم الاسلام » بأنها إنما كانت مجرد حملات لاسترداد بيت المقدس ، وأنها إنما تحركت لتحرير الطريق إلى قبر السيد المسيح ، وحمايته من مظالم السلاجقة الذين اضطهدوا الحجاج المسيحيين ، وأن بطرس الناسك قد زار القدس ، وعاد يهيج الخواطر ، ويثيرها على سوء المعاملة .

والحق ، أن هذه إحدى افتراءات التاريخ الكبرى التي عاشت طويلاً دون أن تجد ما يحققها أو يدفعها ، فليس هناك أي دليل ، أو أي وثيقة تثبت مثل هذه الاتهامات ، وكل ما عرف في هذا المجال هو أمر الضريبة المقررة على الحجاج والتي زعموا أنها فاحشة ، أما الاعتداء على حجاج القبر المقدس فلم تتأكد بدليل واحد ، أو شاهد منصف ، وإذا وجدت حوادث فردية فهي مما لا تخلو منه مملكة .

ومن المؤرخين المنصفين الذين عاشوا تلك الفترة وزاروا الشام « بردناري فيس » الذي كتب في مذكراته أنه يقول : « إن السلام ساد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أني لو كنت مسافراً ونفق بعيري أو حماري الذي ينقل أمتعتي ، وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، وسرت إلى أقرب مدينة لأجلب لي بعيراً أو حماراً آخر لوجدت عند عودتي أنها باقية على ما هي عليه » .

وقال العلامة منزو: « كانت تلك الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير من الأفاوية « التوابل » لتوافق روح ذلك العصر الذي كان أشد توحشاً من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص تلك الفظائع على علاتها » .

وتجمع المصادر على أن المسلمين لم يعاملوا الفرنجة بالمثل ، بالرغم من مظاهر العنف البالغة ، والانتقاض والنكث بالعهود ، والتآمر الذي نفذها الأوربيون وكرروها في أكثر من موقف .

كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام وأيديولوجيته رفقاً وعدلاً في دار الحرب والسلم ، ويسجل المؤرخون أن الصليبيين في الحملة الأولى سفكوا دماء المسلمين حتى في المسجد الأقصى بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين الذين قتلوا (كتاب التاريخ العام للافيس ورامبو) فإذا نظرنا إلى أعمال الصليبيين ، تركنا للعلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية أن يصور أعمالهم قال : « إنهم قتلوا في معرة النعمان وحدها جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختفين في السراديب ، وأهلكوا صبراً (دون قتال) ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وقال ميشو : لقد تعصب الصليبيون في المقدس التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين وقد دام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخي الشرق والغرب سبعين ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس . وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر العربي ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس واستعادتها منهم عام **٥٨٣** هـ . وكان بها مائة ألف من الفرنجة والصليبيين (منهم **٦٠** ألف راجل وفارس) غير النساء والأطفال ، لوجدنا تصرفاً يختلف كل الاختلاف ، لقد حفظ صلاح الدين حياة هؤلاء جميعاً واستوصى بهم ، وسمح لهم أن يخرجوا بكل ما يملكون من ذهب وفضة ، واكتفى بأن فرض على كل منهم عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ،

وعلى كل طفل دينارين . وتحمل عمن عجز منهم ، فأعفى كثيرين من هذه الفدية . وأدى الملك العادل أخو صلاح الدين الفدية عن ألف منهم ، وعومل النساء معاملة غاية في السماحة واللطف ، وأغضى عن كل ما حملوا معهم من غنائم ، وأباح للبطريرك الأكبر أن يخرج آمناً بأموال البيع ، وذخائر الجوامع التي غنمها الصليبيون في هجومهم الأول . ورفض صلاح الدين ما ذهب إليه مستشاروه من أن البطريرك سيتقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية . وقال : « لا أغدر به » كما خالف ما أشار به بعض الفقهاء الذين قالوا بمعاملة الفرنجة بمثل ما عامل به أجدادهم جمهور المسلمين يوم فتحهم للقدس ، بل لقد ذهب صلاح الدين إلى أبعد من ذلك فإنه لما عقد الصلح بينه وبين الفرنجة، دخل خلق كثير من الافرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة . لقد التزم صلاح الدين منهج الاسلام ومفاهيمه ، وحاول أن يكون مثلا واقعياً للقيم الاسلامية . وكان لهذا أبعد الأثر في تصحيح مفاهيم الغربيين إزاء ما ألقي إليهم من شبهة عن قسوة المسلمين وظلمهم . حتى عاد كثيرون منهم بعد انتهاء الحروب الصليبية يتحدثون عن الاسلام وعن صلاح الدين .

وقد تحدث بعض المؤرخين عن خلق صلاح الدين فقال « أيوركا المؤرخ »: «لقد ظهر من الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من الفرنجة شفقة مؤثرة ، ولا سيما على الأطفال والنساء ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين . حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الايطالية ليعيدوا هؤلاء البائسين من الصليبيين ، وقال منزو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم وسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين آثار دهشتهم وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح ، مشهوراً بتأدبه . ولكن هل كان في ذلك عبرة أو ردّ بالجميل . الواقع أن العكس هو الذي كان . فإن الصليبيين لم يلبثوا أن أظهروا الغدر بعد قدوم الحملة الصليبية الثالثة . إذ سارع ريتشارد قلب الأسد مستبطئاً وعداً لصلاح الدين بإرسال بعض الأمانات ، ولم يلبث أن .خذ ملك الانجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا بمرأى من جند صلاح الدين ، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ، ورغبة في الانتفاع بمرائرهم ليتخذوها دواء

يستشفون به (تاريخ الأمير حيدر) وسجل المؤرخون الغربيون كيف أسر المسلمون كثيراً من الفرنجة الذين ظلوا أمداً طويلاً في أسرهم ، فكانوا يعاملونهم معاملة طيبة ، ويمنحونهم وافراً من الحرية : (تاريخ الحروب الصليبية لمنزو) وقد أشار هذا المؤرخ إلى أن الفرنجة قد اكتشفوا حقيقة هامة وخطيرة هي أن « اتهام المسلمين بالجبن قد زال من أذهان الصليبيين لما التحموا معهم في القتال » .

(أولا) : وحدت الحروب الصليبية جبهة المسلمين ، وأزالت خلافاتهم فأضحوا عرباً وتركمان وأكراداً على مقاومة الغزو الغربي ، كما تلاقت الدول : الفاطمية والأتابكية ، والأيوبية للماليك .

(ثانياً) : عني المسلمون بفنون الحرب ، وبرعوا في ابتكار أنواع جديدة منها . وكانت مواقفهم واختراعاتهم الجريئة موضع إعجاب الفرنجة حين قاتلوا بالأبراج والمنجنيقات والدبابات والكباشي واللوالب والطب والسرايات وطم الخنادق ، ونصب السلالم والزحوف في الليل والنهار .

(ثالثاً) : كانوا يتعاودون المعارك والمواقف ساعات من الليل والنهار ، فيعملون في سبيل أرزاقهم أوقاتاً ، ويخصصون للجهاد ساعات وأياماً .

(رابعاً) : أبرزت الحروب الصليبية أعلاماً في مجال السياسة والحرب : نور الدين وصلاح الدين والكامل والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من الزعماء والقواد .

(خامساً) : اختلف أسلوب مقاومة الحملات اصليبية في الشرق وتطور و كان منهج نور الدين مختلفاً عن منهج صلاح الدين ، وكان منهجاهما معاً يختلف عن منهج الظاهر بيبرس وقلاوون . وقد ظلت مقاومة نور الدين قائمة ومستمرة في الغارات على حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يفض أكثرها . ففتح أكثر من خمسين حصناً ، وكسر الصليبيين في حارم وكانت عدتهم ٣٠ ألفاً

من الروم والأرمن والفرنج .

أما صلاح الدين فقد أوقع بهم في معارك فاصلة . وقد أعطى صلاح الدين للغربيين صورة باهرة للتطبيق الاسلامي للحرب والقتال والصلح . أما الظاهر بيبرس فقد اضطر إلى اصطناع أسلوب أكثر عنفاً من صلاح الدين . وكان لمؤامرات الصليبيين أبعد الأثر في هذا الاتجاه .

(سادساً) : ظل الشعب صامداً ومتحملا آلام الضيق الاقتصادي نتيجة استنزاف الموارد في معارك المقاومة ، ولكنه ظل يقظاً لأي موقف مهادن . فقد استنكر المسلمون صنع الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين عند ما وقع مع الامبراطور فردريك معاهدة بإزالة الصفة العسكرية عن القدس والتنازل عنها للصليبيين .

(سابعاً) : قاوم المسلمون كل محاولة لتثبيط الهمم . فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على أبيها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله لما أيقنت أنه استدعى الافرنج ليسلم إليهم الملك . ولما وقع أحد ملوك الصليبيين أسيراً في قبضة نور الدين باعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد ، وافتدى أحد ملوكهم نفسه بمبلغ كبير . فأخذه وبنى به مستشفى عظيماً .

(ثامناً) حاول (أرناط صاحب الكرك) من ملوك الصليبيين فتح الحجاز ، فأنشأ لذلك أسطولا في بحر الروم (الأحمر) وسار في البحر فحاصر حصن « أيلة » واتجه نحو عيذاب لاضطهاد المسلمين في تلك الأرجاء ، وأهان اسم النبي بكلمات رويت عنه ، فحلف صلاح الدين أن يقبله بيده . إذا ظفر به ، وقد حقق صلاح الدين وعده بعد موقعة حطين .

(تاسعاً) : في خلال الحروب الصليبية وفي معمعتها . برز « الخطر المغولي » : كانت الحروب الصليبية تشغل الشام ومصر . أما الخطر المغولي فقد اجتاح عالم الاسلام من حدوده الشرقية حتى وصل بغداد ، وحلب ودمشق . كانت (حملة هولاكو) (**٦٥٦ هـ ١٢٥٨** م) بعد الحملة الصليبية السابعة (حملة لويس على مصر) (**٦٤٦ هـ ١٢٤٨** م) بعشر سنوات . وقد اجتاحت عاصمة الخلافة (بغداد) فأسقطتها ، واستطاع المماليك الذين كانوا قد حكموا مصر قبل

ذلك بسنوات قليلة (٦٥٢ هـ) أن يردوا عدوان التتار على حدود مصر في موقعة فاصلة هي : « عين جالوت » انهزم فيها التتار بعد جولة ضخمة من النصر اكتسحوا خلالها عالم الاسلام .

(عاشراً) : أثبت انهيار مملكة بيت المقدس في موقعة (حطين) ٤ يوليو ١١٨٧ م أن الصليبيين بعد تسعين عاماً لم يتمكنوا من توطيد أقدامهم في البيئة العربية الاسلامية . وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة أن الأيديولوجية الغربية لا تستطيع أن تسيطر على عالم الاسلام أو تذويه أو تقضي على مقوماته المستمدة من الاسلام ، ولم تكن الفترة التي امتد خلالها كيان مملكة الفرنجة في الساحل الشامي بالرغم من الامدادات المتوالية والحملات المستمرة إلا فترة مضطربة عقيمة ، انتهت بالقضاء على هذا الكيان وهزيمته هزيمة منكرة ، وتمزيقه تمزيقاً .
لقد توقفت الحملات الصليبية على الساحل الشامي بعد الحملة الثالثة ، واتجهت الرابعة إلى مهاجمة الامبراطورية الشرقية ، والحملة الخامسة والسابعة اتجهت إلى مصر .

(٢٠)

« عزو الفرنجة للمغرب »

في مقابل الحروب الصليبية على المشرق كانت هناك الحروب الصليبية المغربية على المغرب الاسلامي ، وبينهما أوثق الروابط حيث كانت أوربا تمد جناح الغزو إلى القسطنطينية والمشرق ، من ناحية . وتمد جناحه الآخر إلى الأندلس والمغرب .

بلغ التوسع الاسلامي أفريقيا . ثم عبر الأندلس سنة **٩٢** هـ على يد القائدين طارق بن زياد ، وموسى ابن نصير . فلم تلبث أسبانيا أن أصبحت ولاية إسلامية ، ودخلت عالم الاسلام . ثم شق التوسع طريقه إلى ما وراء جبال البرنيه ، فأوغل المسلمون في ولايات فرنسا الجنوبية ، وسيطروا على سهول الزون وتقدموا في قلب فرنسا خلال عشرين عاماً حتى توقفوا ثمة في معركة تولوك (تولوشة) **١٠٢** هـ **٧٢٢** م واستشهد قائدهم السمح ابن مالك فارتدوا إلى أسبانيا . ثم كانت موجة جديدة قادها (عبد الرحمن الغافقي) **١١٣** هـ فمضى إلى الشمال مخترقاً أراجون ونافار حتى بلغ نهر الرون ، فهزم الفرنسيين وطاردهم حتى بوردو . ثم استولى على ليون ، وبلغ قريباً من باريس نحو مائة ميل ، واتجه الى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ، فسيطر على نصف فرنسا الجنوبي . وقد امتد خط التوسع كما يقول إدوار جيبون - مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا

وربا أيقوسيا ، فليس الرين بأمنع من النيل والفرات . فلو حدث كانت أحكام القرآن تدرس الآن في جامعة اكسفورد . وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة .

ثم كان اللقاء بين المسلمين والفرنجة في معركة بلاط الشهداء (وبواتييه) **١١٤** هـ هذا اللقاء الذي يقف عنده المؤرخون الأجانب على أنه حاسم ، وأنه قضى على التوسع الاسلامي في أوربا بينما ظل المسلمون يتوسعون في أوربا من بعد ذلك إلى تاريخ بعيد .

لم يتوقف التوسع الاسلامي في أوربا بعد معركة بلاط الشهداء . وإن كان قد انتظر ثمة ، ثم عاود من بعد حركته ، وكانت دولة بني الأغلب في تونس هذه المرة ، هي التي حملت لواء التوسع بعد توقف دولة المغرب ، فلم يلبث عبد الله بن الحيات والي أفريقيا أن بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري عام **١٢٣** هـ - أي بعد معركة بلاط الشهداء بتسع سنوات - الى حدود إيطاليا . . .

ثم جهز زياد الله الأكبر أسطولاً عام **٢٠٧** بإمارة محمد بن عبيد الله التميمي لمنازلة سردانية . ثم أعاد عليها الكرة **٢١٢** هـ بقيادة أسد بن الفرات ، ثم توالت محاولات التوسع في إيطاليا **٢٢٤** هـ . وتمت السيطرة على صقلية ، وتقدم التوسع في شطوط إيطاليا من **٢٣٣** إلى **٢٤٠** هـ . ثم سيطر المسلمون على جزيرةأقريطشبعد موقعة هائلة مع أسطول بيزنطة (**٢٤٠** - **٢٥٠**)واقتحم القائد خفاجة جنوة عام **٢٥١** هـ . وتقدم إلى جبال الألب ، وسيرت بيزنطة أسطولا ضخماً لمحاربة المسلمين في شطوط أوربا الجنوبية ومنعهم من التقدم في فرنسا ، فواقعهم خفاجة على شواطىء جنوة وسركوسة ، وألحق بهم خسارة عظمى ، واستولى الأسطول الأغلبي على جزيرة مالطة .

وتقدم الحسن بن رباح إلى مرسيليا وفتح البروفنس ، فاستنجدت فرنسا بالدولة البيزنطية ، فسيرت لها أسطولا مؤلفاً من **١٤٠** مركباً فلقيه الأسطوال الاسلامي في عرض بحر الروم ودارت معركة ضخمة ، وتوغلت القوات الاسلامية في فرنسا بقيادة خفاجة بن سفيان ، واستمرت من **٢٦٦** إلى **٢٧٢** هـ فملكت بعض شواطىء الرون واحتلت كولونيا ، كما جهزت أفريقيا أسطولا

عظيماً عام ٢٧٥ هـ لتعقب أسطول البزنـطيين ، فشـل حركتهـم عن التقـدم ، وتمكنت سيادة المسلمين في إيطاليا وجانباً من فرنسا .

يقول العلامة عبد العزيز الثعالبي الذي نقلنا عنـه هذا العـرض : لقـد استمر نجم الاسلام صاعداً في أوربـا بعـد هذه الواقعـة العظيمـة ، والأمـراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية .

مراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحيط كل مسعى في الانتكاس ، إلى أن قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) . هنالك توقف التوسع الاسلامي (أواخر القرن الثالث) . ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا من عام ١١٤ إلى ٢٩٨ هـ تقريباً وهم يوسعون عالم الاسلام في فرنسا وإيطاليا . وقد اقتحـم المسلمـون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية واشتبكوا في معارك بحرية في مياه أوستيا (ثغر رومـا) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهـم جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة . غير أن الموقف لم يلبث أن تحول بانتقال المعز لدين الله إلى المشرق ، وشعـر الغـرب بسريان الضـعف والانحـلال في القـوة الاسلامية . فأخذوا يتواثبون في كل مكان . وما زالوا يؤلبون عليهم حتى ٣٧٢ هـ حين قاد الملك روجار النورماندي جموعاً كثيفة لمناجزة المسلمين في فرنسـا ، ودارت معارك ردت الفرنجـة على الأعقـاب . وقـد استنفـر (روجـر) الأمـم الأوربية لمحاربة عالم الاسلام في أوربا وأفـريقيا . ثم نزل النورمانـديون من شمال فرنسا إلى جنوبها ، وشرعوا يتعقبون القوى الاسلامية ويناجزونها في إيطاليا حتى أزالوا المسلمين من جنوب أوربا ، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى مهاجمة أفريقيا ، ففي عام ٤٧٦ هـ هاجموا ثغر « المهدية » وهو دار المملكة الصنهـاجية بأسطـول مؤلف من ثلاثمائة مركب بها ٣٥ ألف مقاتل فحرقوا وخربوا . وعاود المسلمون الكرة عام ٥١٦ هـ فأغزى علي بن يوسف بن تاشفين صاحب العدوتين أسطوله شطوط أوربا الجنوبية بقيادة (أبي عبد الله بن ميمون) وأعاد النورمانديون الكرة على المهدية ٥١٧ هـ . فغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم . ثم عادوا عام ٥٤٣ فاحتلوا المهدية ، وجعلها الصليبيون قاعدة لحركاتهم البحرية في شمال أفريقيا إلى أن أجلاهم عبد المؤمن ابن علي سنة ٥٥٥ هـ .

وقد جاء هذا الصراع بين الاسلام والغرب ، على حدود إيطاليا وفرنسـا

وأسبانيا (مدخل أوربا الغربي) مكملا للصراع بين الاسلام والدولة البيزنطية (مدخل أوربا الجنوبي) فلم ينفصل هذا الصراع في شطريه ولم يتوقف ، وكان آناً يتسع ويعمق في أحد الجناحين ، ثم يتخفف ليواصل اشتداده في الجناح الآخر .

ولم يلبث الاسلام أن دعم وجوده في الأندلس ، ولكنه كان وجوداً محفوفاً بالخطر الذي كان يجتاحه من أطرافه ، فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت (**٢٧٥** عاماً) ثم اعتورها الضعف والترف والتمزق ، ولم تلبث أن تحولت إلى ممالك صغيرة استطاع نفوذ الفرنجة المتربص أن يجتاحها وينتقص منها ، ويغري بعض أمرائها بالبعض الآخر ، وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيباً به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال ، وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة ، وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت للغزو الصليبي الذي كان ينتقصها من أطرافها ، لولا موجتان متواليتان ، إحداهما للمرابطين ، والأخرى للموحدين . هاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن ابن علي . قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت . وكانت قوة البربر التي ظهرت على مسرح الأحداث في المغرب إحدى القوى الاسلامية الثلاث : البدوية الخشنة التي نصرت الاسلام في إبان أزمته ، وهي ثالثة : السلاجقة والمماليك .

ولقد ظل الغرب يقاوم بقاء المسلمين في أوربا ، ويعمل على إجلائهم من مواقعهم ، وكانت دولة الاسلام قد تراخت فلم تحقق تطلعها إلى بلوغ القسطنطينية من الأندلس ، وتحول الموقف سريعاً من مرحلة التوسع إلى مرحلة الدفاع والمقاومة ، وهي مرحلة طويلة مريرة واجه فيها المغرب والأندلس صراعاً من عام **٩٣** إلى **٨٩٨** هـ ـ وهو عام استرداد الغرب ـ للأندلس ولم يتوقف . وقد ترابط الغزو الصليبي على الأندلس من ناحية ، وعلى عالم الاسلام في المشرق من ناحية أخرى ، وازداد ضغطاً وقوة بعد فشل الحروب الصليبية في المشرق وارتدادها منهزمة ، وكانت أوربا تتقاسم المعركتين وتؤلب عليهما في كلا الميدانين : ميدان الشرق في الشام ومصر . وميدان الغرب في الأندلس والمغرب ، ولقد بلغت الأندلس مكاناً عالياً في مجال العلم والحضارة ، وازدهرت قرطبة

ونافست بغداد ودمشق والقاهرة . بينما كانت أوربا على مرمى حجر منها تعيش في ظلمات البداوة والتفرق .

* * *

تقبلت أسبانيا عبور المسلمين اليها تقبل المنقذ ، فقد التمست فيهم التخلص من الظلم والاستبداد كما تقبلت دولتا فارس والروم « الاسلام » محرراً لها . وقد توالت حركة التوسع في الأندلس ممثلة في فرقة طريق الاستطلاعية . ثم عبرت قوة طارق . ثم عبر بعده موسى بن نصير نفسه ، وكان للبربر الدور الأعظم في هذه المعارك . ثم عبر جبال البرانس من بعد « الحر بن عبد الرحمن الثقفي (**٧١٧** م **٩٩** هـ)فاستولى على ستمبانيا . ثم احتل أربوبة التي جعلها المسلمون من بعد حصناً منيعاً ومستودعاً للمؤن والذخائر . ثم كانت موقعة بلاط الشهداء عام **١١٤** هـ بعد عشرين عاماً من التوسع ، فانسحب المسلمون بعد هزيمة اليوم الأول ، واستشهاد عبد الرحمن الغافقي . وتوقف التوسع في هذا الجناح ليبدأ في جناح آخر . وبطابع آخر . فقد استأنفته قوى المسلمين في جناح تونس ، وإن لم يكن بنفس الدرجة ولا القوة .

ويمكن أن ينظر إلى هذه الموجة التي بدأت عام **٩٢** وتوقفت **١١٤** هـ على أنها موجة طبيعية قد بلغت مداها . كان قوامها البربر والعرب معاً . وقد استنفدت قوتها . بعد أن بعدت عن جبل طارق نقطة بدئها نحو ألف ميل ، فضلاً عن الخلاف الذي دّب بين البربر والعرب ، وفضلاً عن مأساة الغنائم .

فكان بلوغ الزحف موقع « بلاط الشهداء » في الحق ، هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة ، ومن هنا بدأت المرحلة التالية هي : مرحلة التبلور والانصهار ، وبناء الحضارة التي ازدهرت في ظل الدولة الأموية الأندلسية خلال (**١٣٩ - ٤١٤**) خلال قرنين ونصف ويزيد . غير أن الظاهرة الواضحة في الأندلس . أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين والفرنجة حتى في أزهر العصور . وأن بناة الدول أمثال : عبد الرحمن الداخل . وعبد الرحمن الناصر . والمنصور أبو عامر ، كانوا مجاهدين بالدرجة الأولى ، وكانوا يوالون تأمين حدودهم من غارات الفرنجة الذين كانوا يتربصون الدوائر بهذه المملكة العربية الاسلامية التي نجمت في قلب عالم أوربا الناقم المتعصب ، المبيت النية للقضاء عليها .

ومع ذلك فقد تمت في مرحلة التبلور والحضارة ، وأينعت ثمارها ، وكتبت صفحة باهرة ، فقد فاقت حضارتها حضارة المشرق . وحملت لواء العلم والفلسفة واضطرت أوربا أن تتصل بها . وأن تأخذ عنها . ثم أن تمتص هذه الحضارة وتحيلها إلى كيانها ، وتبدأ بها النهضة الحديثة . فقد كان « المنهج التجريبي » هو أعظم ما قدمت الأندلس المسلمة العربية إلى الحضارة الأوربية الوليدة . وكانت مؤامرة سحق الأندلس ، وإخراج المسلمين والعرب من أسبانيا ، والقضاء على الاسلام ، واللغة العربية في أوربا والتخلص من آخر عربي ومسلم في أوربا بالاخراج أو القتل أو التنصير هو ردّ الفعل أو ردّ الجميل .

ومن عجب أن تكون قرطبة عاصمة الأندلس هي زهرة أوربا كلها ، وفيها يقيم نصف مليون من السكان . وكان بها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من الحمامات العمومية ، وبها شقت شوارع طولها أميال كانت دائماً مضاءة بقناديل حيث لا يوجد في ذلك الوقت قنديل واحد عمومي في لندن إلا بعد سبعمائة سنة . أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك ، لا يأمن من يتخطى داره في يوم ماطر من الخوض في لجة من الوحل .

الغزو المغولي التتري

يمثل الغزو المغولي (التتار) موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام ، واستمرت تجتاحه بعنف على دفعات متوالية خلال أكثر من قرنين ونصف قرن .

* جنكيزخان : امبراطورية المغول (٦٠٠ هـ)
* هوكولاكو في بغداد (**٦٥٦** هـ)

* تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر **٧٧١** - فتوحاته **٧٨٣** في بغداد (**٧٩٥** هـ) . حملة تيمورلنك على سوريا **٨٠٤** - وحملة تيمورلنك على الدولة العثمانية .

وقد اقترنت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي كماشة قوامها الصليبيون والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوروبية التي تدعم الحملات الصليبية ، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام . وكان للمغول والتتار في كلا الموقفين من غزو بغداد لإسقاط الخلافة ، ودحر القيادة السياسية الإسلامية **٦٥٦** هـ بقيادة هولاكو و **٧٩٥** هـ بقيادة تيمورلنك . ثم غزو آسيا الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام شأنه

دائماً مع كل القوى المواجهة له . كان دائما قادرا على التأثير فيها . فقد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول التتار إلى الإسلام . فلم يكد ينقضي على ظهور التتار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور (تاجدار اوغلي) الذي تولى السلطة عام (**٦٨١** هـ **١٢٨٢** م) اعتناق الإسلام ، وأطلق على نفسه السلطان أحمد ، ووزع منشوراً بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته (عربستان . عجمستان . هندستان . تركستان) وكان نص منشوره الذي بعث به الى والي بغداد يقول : « لقد جلست على عرش أجدادي ، فخذوا علماً أننا معشر المغول مسلمون ، وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة . وقد أمرت أن ترد الى الشعب العراقي جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكا لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي ، وبلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي لأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشرنا بالقرآن الكريم . إن الدين الإسلامي هدانا لهذا والسلام سيظل قائما وسائداً إلى يوم القيامة . ولنأمل الاعتقاد بذلك ، فالحمد لله الواحد الأبدي : (امضاء) الخان الأعظم ملك ملوك آسيا (تاجدار أوغلي) .

وسار (غازان) ابنه في نفس الطريق ، فما إن تولى الملك حتى هاجم بلاد مغول الصين التي كانت تتمسك بالشامانية والبوذية والكنفوشوسية ، وحملهم على اعتناق الإسلام ، فأصبح المغول بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بالإسلام . وقد كان هذا التطور سببا رئيسيا في إقبال الأهالي على اعتناق الاسلام . ومن هنا تمركز الإسلام في بلاد المغول ، ثم أمر « السلطان جاردوان » بهدم المعابد الوثنية وإقامة المساجد الإسلامية مكانها .

وما زال حادث سيطرة الإسلام على هؤلاء الفاتحين القساة الذين كانوا كالإعصار الماحق للحضارة الإسلامية ، ومازال يعد من أحداث تحولات التاريخ الخطيرة التي تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث . فقد كان حادث إسقاط الخلافة العباسية في بغداد من الحوادث الفاصلة المعدودة في تاريخ الإسلام كله ، والتي هزت عالم الإسلام هزة عنيفة حتى قال ابن الأثير في تاريخه سنة **٦١٧** هـ :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحالة استعظاماً لأمرها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى . فمن ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك . فيا ليت أمي لم تلدني » .

وقد صور توماس أرنولد قوة الإسلام في التحدي ورد الفعل حين استطاع بعد ربع قرن من إسقاط التتار لبغداد منار الخلافة الإسلامية أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام : « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولاً من غزوات المغول . فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قلل الجبال واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية ، وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة . . ولكن لم يكن بدّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده الخالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ، ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك الى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق في هذا المضمار .

وقد واجه المغول صراعاً حامياً بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كانت الشعوب التي اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث . وقد تنافس دعاة الديانات في كسب الفاتحين الى أديانهم . ولما فتح جنكيزخان البلاد التي تسكنها قبيلة الكرائيب المسيحية تزوج كما تزوج ابنه كوبلاي منها . أما ابنه الثاني إخياي فإنه لم يعتنق المسيحية . وكان لهذه المصاهرة أثرها في تطلع قوى الإفرنج الى مساعدة المغول في حروبها ضد المسلمين . فقد تمكن هيتون ملك أرمينيا المسيحي من إقناع مانجوخان (٦٤٦ - ٦٥٥) وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ - ٦٦٣) غير أن الخطة التي كانت تقوم بها حملات التبشير وقوى الفرنجة لكسب المغول إلى المسيحية لم تحقق نجاحاً مضطرداً . ولم تلبث ان توقفت نتيجة لظهور الخلاف بين هذه القوى وامتدادها إلى مجتمعات المغول . فكان للصراع بينها اثراً سيئاً في نفوس التتر . ومن ثم استطاعت البوذية واستطاع الاسلام إن يحتلا مراكز متقدمة في بلاد المغول ، وظل الصراع قائماً حتى حسمه « بركه خان » رئيس القبيلة الذهبية

٦٥٤ - ١٢٥٦ م . وكان أول من اسلم من المغول ، وكان بركه خان قد اعتنق الاسلام منذ طفولته ، وكان جيشه مسلماً . وقد دخل بركه خان من بعد في حلف مع الظاهر بيبرس ، وكان من نتيجة ذلك ان وفد كثير من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر ، حيث اتخذوا الاسلام ديناً لهم (المقريزي) .

وكان من أبرز آثار انتشار الاسلام بين المغول بعد ان ردهم الظاهر بيبرس من سوريا أن عمدوا إلى توطيد أقدامهم في فارس والعراق . وانصرفوا إلى التعمير وإقامة الحضارة ، واصلاح المناطق التي كانوا قد خربوها . والحق أن المغول بعد هذه الحملات العاصفة على عالم الاسلام والتصاقهم بالمجتمع الاسلامي قد وجدوا انفسهم خاضعين للاسلام ويمكن القول أن أثر الغزو المغولي في ضراوته لا يقل عن أثر الحروب الصليبية . بل إنه كان من الوجهة النفسية أسوأ أثراً حيث أسقط مركز القيادة السياسية الاسلامية التي كانت دوما موضع الاكبار والاجلال ، وكان الغزو المغولي قد بلغ من العنف مبلغاً لا حدّ له ، وامتدت دفعته امتداداً شمل آسيا كلها ، وبلغ أطراف أوربا . غير أن المغول لم يلبثوا بعد أن انصهروا في عالم الاسلام واعتنقوا ديانته ، أن أقاموا دولة كبرى امتدت من الصين الى بغداد . بينما أقام الصليبيون في الشريط الساحلي للبحر الابيض تجاه الشام .

وقد نقلت غزوات التتار مقر الحضارة الإسلامية الى مصر التي لم يمسها هذا الغزو ، وانكسر لأول مرة على حدودها ، والذي استطاع إبراز قوة حربية فتية ظلت تحمي عالم الإسلام أكثر من قرنين هي قوة المماليك ، الذين انضووا تحت لواء الإسلام ، وحملوا راياته ، ودافعوا عنه ، وكانوا إحدى القوى الثلاث التي ابتعثها الإسلام من أعماقه للدفاع عنه : « السلاجقة الأتراك والبربر اللميتونيين والمماليك البحرية » .

التتار وسقوط بغداد

زحف هولاكو على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية فدمرها وقتل الخليفة المعتصم وجلّة العلماء والفقهاء . ووضع السيف في بغداد أربعين يوماً حتى زاد

عدد القتلى عن ٨٠٠ ألف (عدا الأطفال ومن هلكوا في السراديب والقنى والآبار) وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد بها خزانة كبيرة نقلها الى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة .

وقد أشار ابن تيمية في مؤلفاته الى أن من قتلهم هولاكو في هذه المعارك من المسلمين : بضعة عشر ألف إنسان . وقال إن الإسلام لم ير ملحمة مثل هذه الملحمة . وقد عجزت السلطة الحاكمة في بغداد من الوقوف في وجه الغزو المغولي الأول عام ٦٥٦ نتيجة لعوامل كثيرة توالى بها الضعف عاما بعد عام ، أبرزها التفكك الذي أصاب دولة الخلافة وسيطرة القوى المحتلة الغازية عليها . ومن بغداد اتجه المغول نحو الشام في غزو مندفع كالإعصار . بدأ غزو التتار للشام بعد إسقاط بغداد ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) فتدفقت قواتهم على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ثم اتجهت القوات صوب حلب فاستولت عليها عنوة . ثم استولى هولاكو على دمشق ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) ووصلوا الى غزة ، ثم جاء دور مصر واستطاع قطز وبيبرس التصدي للخطر وإيقافه لأول مرة منذ زحف المغول من أواسط آسيا . فقد هزموا هذه القوة التي لم تستطع قوة في الشرق الاوسط والأدنى الصمود لها ، وانتصر المصريون على التتار في موقعة (عين جالوت) وقتل « كتبغا » قائدهم الخطيرَ ، وأظهر المماليك شجاعة كبيرة ، فقد اهتز السلطان قطز عندما اضطربت صفوف المسلمين ورمى خوذته من فوق رأسه الى الارض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » حمل بنفسه على العدو ، وقضى على العدو قضاءً تاماً . وتعد معركة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة في التاريخ لما ترتب عليها من نتائج خطيرة ، فلو انتصر التتار في هذه الموقعة لفعلوا بمصر ، وأهلها ما فعلوا بالعراق ، ولا قاموا واستقروا في الشام . ومن هنا لم ينقذ انتصار المماليك مصر وحدها . بل أنقذ الشام أيضاً (سعد الدين عاشور : المماليك) .

ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين في سبيل القضاء على قوة الإسلام : فقد كانت زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » مسيحية نسطورية ، وكانت ذات نفوذ مسموعة الكلمة ، وقد كان للقوى الصليبية في مملكة هولاكو نفوذ بارز . ومن هنا استطاعت هذه القوى -

وفق خطة مرسومة مع القوى الأوروبية ـ أن تحرض التتار وتستغل قوتهم في القضاء على عالم الإسلام . وقد تحالف الأرمن (مملكة أرمينية الصغرى) مع التتار ، واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام ، واستطاعت اوربا أن تقيم صلات مع تتار فارس بلغت درجة عالية ، فاستطاعت أن تحقق بهذا الغزو التتري لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى نتائج هامة . إذ هي المناطق التي تتاخم المملكة اللاتينية على الساحل الشامي . فالقضاء عليها وضربها لا شك يؤدي إلى إضعافها وإعجازها عن مقاومة نفوذ الصليبيين . وقد كشف التاريخ عن ان ضربات التتار كانت تزداد عنفا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية ، مثل حلب ودمشق . فقد كانوا « يسرفون[1] في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم بقدر ما أسرفوا في تأمين المسيحية واحترام كنائسها ودورها » .

والمعروف ان زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين ، على المذهب النسطوري . الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحية بقدر ما قسا على المسلمين . وقد وجدت قيادة القوى الصليبية في الشرق الأدنى ، وفي الغرب فرصة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستشاروهم ضد المسلمين ، وفي المراجع الصليبية المعاصرة ما يثبت أن ملك أرمينيا الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام ، وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمه المسيحيون . أما المعركة الأخرى : التي آزر فيها التتار النفوذ الغربي الأوربي الصليبي . فهي الحملة التي شنها تيمورلنك على الدولة العثمانية الناشئة .

وكانت هزيمة التتار في « عين جالوت » هي ردّ الفعل الحاسم بعد عامين على تدمير بغداد . بعد سنوات طويلة من الاندفاع المغولي ، والإنتصار التتري دون أن تقف في وجههم قوة يحسب حسابها ، وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك قد تركزت في وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبي . غير أن غزو المغول وحملاتهم المتوالية لم تتوقف بعد ذلك على الشام ، فلم يلبثوا أن عادوا إليها في حملة أخرى (٦٧٠ هـ) فانتصر عليهم الظاهر بيبرس . ثم عاودوا الهجوم على

---

(١) سعد الدين عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٣٠ .

الشام بقيادة غازان . وكانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فأدال منهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ودارت المعركة في حمص وحماة . وكانت قوة التتار تمثل خمسة أمثال القوة الاسلامية ، ثم تجددت المعارك مرة أخرى (٧٠٢) وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة التتار بالشام ، ودارت المعركة عند برج الصفر بالقرب من حمص وانتصرت القوة الاسلامية العربية . ثم تجدد خطر التتار مرة اخرى بزعامة « تيمورلنك » الذي اجتاح وسط آسيا ، وزحف بجموع جرارة على بغداد وحاصر البصرة . وقد خرج السلطان برقوق على رأس جيش كبير الى الشام ٧٩٦ هـ وبلغ دمشق وقصد منها الى حلب وعبر الفرات ليلقى تيمورلنك على ضفته الشرقية . وقد استطاعت القوة الاسلامية أن تديل من جموع التتار وأن تغنم منهم ، كما أغار تيمورلنك مرة أخرى على حلب وحمص وبعلبك ودمشق وخرج السلطان المصري فرح لمحاربتهم فالتقى بهم عند دمشق .

وهكذا توالت حركات الغزو المغولي وحملت مصر لواء المقاومة واستطاعت في مختلف المعارك التي نشبت أن تديل من القوات الغازية وتردها .

* * *

تحول التتار « المغول » تحولا بطيئاً نحو الإسلام بعد حملات عاصفة ضارية لا حد لضراوتها في القتل والتحريض ، وكانت قوتهم قد ظهرت عام ٦٠٠ هـ بعد أن تداعت قوة الإسلام وضعفت ومزقت الحملات الصليبية كيانها وشغلت مناطق الشام ومصر بالمقاومة التي لا تتوقف . وقد امتدت مملكة جنكيزخان : من بحر الصين الى البحر الأسود ، فاستولى على ما وراء النهر ، وخوازم ، وخراسان ، وهراة ، وقندهار ، وملتان ، وأتى على حضارة الإسلام خلال ستة قرون في غزنة ونيسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وطوس وقزوين وأصفهان ومراغة . وانتهت هذه الموجة بالسيطرة على هذه المناطق حتى جاءت الموجة التالية بعد أكثر من نصف قرن بقيادة : « هولاكو » الذي وسع دائرة الغزو فمدها الى بغداد والشام ، وتوقف عند حدود مصر . غير أن هؤلاء الذين ضربوا الحضارة العربية الإسلامية في عنف لم يلبثوا أن خضعوا لنفوذ الإسلام ، واستسلموا للمدنية العرب ، وأخذتهم الدهشة من عجائبها الى حد أن ملكهم لم يلبث أن تحول الى حام لهذه المدينة (جوستاف لوبون) ولم يلبث المغول أن اعتنقوا الإسلام ، وقد استعان هولاكو بنصر الدين الطوسي في بناء المراصد ، وإنشاء المكاتب فابتنى مرصداً في مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحة الأرجاء ، وأخذ يجتمع بالعلماء

والفلاسفة ، وخطا كوبلاي خان خطوة أخرى ، فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقل إليها المؤلفات من بغداد والقاهرة . فانتشر الإسلام عاجلاً بين شعبها وأمرائها . فتعالت المآذن في تركستان وروسيا وتوسع ذلك وازداد في عهد « غازان » . أما تيمورلنك فقد كان مسلماً تغلب على امبراطورية المغول ، وقد ساق غزوة عاصفة على عالم الإسلام كله ، وبغداد والشام ، ولكنه كان أقل عنفاً . فقد نهى عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ، وفي عصر تيمورلنك برزت نهضة علمية ، وصدرت مؤلفات متعددة لعلماء عرباً وفرْساً . وفي مقدمة هؤلاء الفيروز بادي مؤلف القاموس المحيط ، وأشار سديو إلى أن بغداد كانت ما تزال منارة العالم الاسلامي (٧٥٠ هـ) .

***

وتمثل غارات التتار (المغول) « سنة » الكون « وحركة » التاريخ التي لا تتخلف ، فإذا انحدرت الحضارة ، وغلب الترف ووقع التفكك ، وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الثغور وضعفت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لا بد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة بدوية شابة ، ولا شك تقع مسؤولية انتصار قوى التتار الغازية على المسلمين الذين ضعفوا وتخلوا عن العوامل الثلاث للسيادة « القوة والوحدة والإيمان » غير أن التتار لم ينتصروا على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد مقاومة صلبة على حدود الشام ومصر ردّتهم عن هذه المنطقة طويلاً ، ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولاً كبرى تحت رايته . كان أبرزها الدولتان الخوازمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند . قال أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة ، وتهزم البوذية والنصرانية ، ويستأثر وحده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم ، والفضل لهؤلاء المخلصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم ، وأسلوب دعوتهم ، ورقة مواعظهم ، وتجردهم من الأنانية والكبرياء فقد أسلم سلطان كاشغر (تغلق تيمورخان) عام ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحملوا إليه : قال لهم تيمورخان : كيف دخلتم في حماي من غير إذن ! .

قالوا : نحن غرباء ، ولم نشعر أننا نمشي في أرض ممنوعة . قال : حتى الكلب أفضل منكم .

قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذل من الكلاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلمة الشيخ تشغل فكره ، فلما عاد من الصيد أمر بعرضهم ، وخلا بالشيخ ، وقال : فَسّرْ لي ما قلت ، وأخبرني ماذا تعني بالدين الحق . وفسر شيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رقّ له قلب السلطان ، وصور الكفر تصويرا فزع منه السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الاسلام لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ ان ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي الملك ، وجلس على أريكة الحكم زاره ، وكانت المملكة الجغتائية قد توزعت على إمارات متعددة ، واستطاع تغلق تيمورخان أن يجمعها ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين الى بلاده ومرض مرضاً شديداً ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » . وقال له : إن تغلق تيمورخان سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيما . فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه مني السلام ، وتذكره بما كان قد وعدني به من اعتناق الإسلام . فلما بويع تغلق تيمور بالملك . وجلس على الأريكة مكان أبيه . توجه الشيخ رشيد إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه . ولكنه لم يخلص الى الملك ، فاحتال ، وبدأ يوماً يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر ، فطار نوم السلطان ، وغضب ، وطلب رشيد الدين ، وحضر الشيخ وبلغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ما ذكر به فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام في رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد خبتاي بن جنكيزخان » أ . ه .

سقوط قلاع الباطنية

ظلت قلاع الباطنية في قلب عالم الاسلام أكثر من قرنين تثير الحرب على عالم الإسلام كواحدة من أبرز الحركات الهدامة ، التي كان لها أبعد الأثر في مقاومة الإسلام ، والقضاء على قوى المقاومة التي تكونت لمقاومة الحركة الصليبية .

وإذا كانت غارات المغول على العالم الإسلامي هي أقسى ما مر من حملات العنف في تاريخ الإسلام حتى قال ابن الاثير : إنه « لم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، هذا العدو الكافر (التتر) قد وطئوا بلادنا وراء النهر وملكوها وخربوها والعدو الآخر : (الفرنج) قد ظهر في بلادهم إلى أقصى الروم بين الغرب والشمال . وإذا كان المغول قد أوقفوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرن كامل في المناطق التي اجتاحوها إلا أنهم قد خلصوا عالم الإسلام من قوة ضارية ، هي قوة « الباطنية » فقد تمكنوا من القضاء على القلاع والمعاقل الباطنية ، ذلك أن التتار قد عادوا الى تعمير الأرض التي خربوها بعد ان صهرهم الإسلام في بوتقته ، فاعتنقه زعماء قبائلهم .

يقول المؤرخ منيورسكي : لقد كان الحشاشون (الباطنية) أعدى اعداء أهل السنة ، وكانوا كثيراً ما يبثون الألغام ، ويدبرون المكائد للقضاء على المذهب السني بشكل منظم ، ولقد هيأ المغول بالقضاء عليهم سبيلاً لوحدة الإسلام . وكان هذا من أهم العوامل الرئيسية في انتصار الإسلام وبقائه بالرغم مما أصابه على يد التتار من عسف وإرهاق . ولم يكن الحشاشون مهما أوتوا من بأس وقوة ليؤثروا في بقاء الإسلام في الأمصار الأخرى برغم أن دعايتهم كانت واسعة النطاق .

ذلك أن هولاكو قد دهم قلعة « الموت » الحصينة وقضى على دولتهم قبل أن يدخل بغداد بعامين ، وبدأ هولاكو بمهاجمة الباطنية (الاسماعيلية) واستولى على قلعتين من قلاعهم في قهستان وهماطون وخواف ، وكان قد اصطحب معه ألف بيت من صناع المنجنيقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب فاستطاع هدم قلاعهم الضخمة ، وفي مقدمتها قلعة « الموت » في الشمال الغربي من قزوين بوصفها قاعدة لخمسين قلعة أخرى في هذه المنطقة ، وقلعة الموت هذه القلعة الرهيبة ذات التاريخ المظلم في مقاومة الإسلام تقع على ستة فراسخ من قزوين . وقد استولى عليها الحسن الصباح عام **٤٤٦** هـ . وظلت خلال مائة وسبعين عاماً حصناً مخوفا يتحصن بها أتباع مذهبة حتى قضى عليها هولاكو **٦٥٣** هـ .

(٢١)

« القوى التي جددت شباب الاسلام »

(السلاجقة ـ البربر ـ المماليك)

كانت حركة الإسلام بين عاملين : (١) ـ عامل دعوة العناصر التي يضمها عالم الإسلام الى الإسلام نفسه وذلك بالحوار المفتوح بين الأديان والمذاهب المختلفة ، وقد بلغ الإسلام في ذلك غاية السماحة ، إذ أذن لكل صاحب دين أن يناضل عن دينه حتى يتبين الحق . (٢) ـ عامل الانتشار الذاتي التلقائي في المناطق التي لم تسيطر عليها دولة الإسلام . غير أن حركة الإسلام لم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة هي : مرحلة المقاومة والغزو الخارجي . ولم يصل هذا الغزو الخارجي الى ذروته إلا بعد أن تفككت القوى الداخلية ، وانسحب عالم الإسلام من مفهوم الاسلام نفسه في مجالين من أكبر مجالي أيديولوجيته : (١) الوحدة ، وقد ساد التمزق (٢) القوة ، وقد بدأ الضعف : هنالك تحركت القوى الغربية التي كانت قد نمت وتوحدت وتسلحت إلى غزو عالم الإسلام من ناحيتين : من طريق الدولة البيزنطية التي ظلت تواصل الانقضاض على عالم الإسلام خلال خمسة قرون ، ثم تحولت الى مجال لمرور الحملات الصليبية خلال قرنين آخرين . ومن ناحية الأندلس كانت قوات الفرنجة والأسبان تحاول أن تقضي على دولة الأندلس وتسيطر على أطراف المغرب . وهي معركة دارت طويلاً ، واستمرت طوال تاريخ الإسلام كله في القرون الثمانية التي قضاها في الأندلس ، والحق أنه لم تكن حركة الإسلام لتتوقف ، وهي تحاول أن تغزو

القسطنطينية من ناحية الشرق ، وأن تصل الى قلب أوربا عن طريق فرنسا ، ونهر اللوار ، وأن تصل إلى قريب من روما . لم تكن لتتوقف إلا لتتراجع ، فهي بين المد والانحسار ، وهي ظاهرة واضحة طوال تاريخ الإسلام . فمن حيث انطوى الإسلام في أوربا على الأطراف في بيزنطة وحدود فرنسا وحدود إيطاليا ، بدأت حركة الغزو المضادة لاجلائه عن أوربا كلها . بل إن هذا الاجلاء لم يتوقف من بعد .

ولم يكتف بإخراج الإسلام والعرب من أوربا . بل امتد في عملية انتقام واستعمار قامت به القوى التي كانت فى نطاق دولة الإسلام كالبرتغال والأسبان الذين نهضوا لتطويق عالم الإسلام ، وتقدموا لاكتشاف رأس الرجاء الصالح ، والذهاب إلى تمبكتو ، فقد واجه الفرنج تحدي الإسلام بتحد أشد منه في القرن الثامن الميلادي على حد تعبير « تويمبي » فقد استثار هجوماً مضاداً من جانبهم استمر عدة قرون ، ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الإسلام بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ، ولكنه تجاوز كذلك هدفه الأصيل حاملاً الأسبان والبرتغال عبر البحار إلى قارات العالم بأسرها .

وهكذا بدا واضحا أن أبرز معالم المد في تاريخ الإسلام : القوة والوحدة ، وافتقادها هو أبرز معالم الجزر والوهن والضعف . فكلما تفرق العالم الإسلامي وتجزأ ووقع الخلاف بين قادته وأوليائه تعرض للغزو الخارجي ، وكلما تماسك وحدة وقوة توقفت حملات خصومه عليه . فقد نشأ عالم الإسلام أساساً من خلال التوسع في أرض كانت تسيطر عليها الامبراطورية الرومانية ، ثم لم يلبث ان بلغ أطراف أوربا ، وأوغل فيها بحصار القسطيطينية وبالنفاذ إلى أسبانيا وأطراف فرنسا وإيطاليا . ومن هنا قامت بينه وبين الغرب معركة مستمرة الأوار لم تتوقف . وظلت محاولات الانتقاض على أطراف عالم الإسلام عن طريق دولة بيزنطة في آسيا الصغرى مستمرة لم تتوقف ، ثم أسلمت هذه الحركة الدائبة نفسها إلى القوات الصليبية التي تكونت بديلاً للقوة البيزنطية المغيرة .

(٢) - كانت قوة العرب المندفعة من الجزيرة العربية ، والتي حملت لواء الإسلام قوة بدوية تتميز بالخشونة والقوة والصلابة - وقد أمدتها روح الإسلام بمفهوم الجهاد في سبيل الله ، وإذاعة الإسلام - تتطلع إلى أحد أمرين : الشهادة

أو النصر .

فلما ضعفت القوة العربية البدوية ، وانصهرت في مجال الحضارة ، ودخلت في صراع المذاهب والفرق ، بعد أن توقف التوسع الإسلامي ، بدأت عوامل الضعف تجتاح المجتمع الإسلامي وتمزقه ، وتوقع بينه عوامل الصراع ، ثم تولدت من ذلك عوامل الضعف والانهيار نتيجة غلبة الترف والانحلال ، هنالك ضعفت جبهة المقاومة عن عالم الإسلام ، مما أغرى القوى المتربصة في أطراف عالم الإسلام : أسبانيا وبيزنطة بالإيغال والغزو ، ومحاولة السيطرة والتوسع ، وتجمعت أوربا الغربية لتضرب عالم الإسلام من كلا جناحيه ، اعتماداً على ضعف القوى العربية والفارسية المسيطرة . هنالك برزت قوى جديدة من أعماق عالم الاسلام أو أحشائه ، من البداوة . ظهرت قوة البدو ، وبرزت بعد أن ضعفت قوة الحضر الفارسية العربية ، وظهرت القوة البدوية في أجزاء العالم الاسلامي الثلاثة .

السلاجقة (وأتباعهم الأتابكة والكرد) في العراق وفارس وآسيا الصغرى ، و « البربر » في المغرب (الموحدون) والمماليك في مصر والشام . كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمة للإسلام ، ردتِ عن الإسلام عادية القوى الثلاث التي انقضت على عالم الإسلام : الصليبيون في الشام ، الفرنجة في المغرب والأندلس ، التتار القادمون من شرق سمرقند مجتاحة عالم الإسلام .

(٣) ـ كان موعد هذه القوى الثلاث التي برزت مطابقا للحاجة إليها ، ومطابقاً لنمو هذه القوى التي دخلت في الإسلام بعد ان اتسع نطاقه في ما وراء النهر . وفي المغرب الأقصى وقد ظلت هذه القوى تتفاعل وتتكون حتى أتيح لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الإسلامي منذ القرن الخامس الى القرن السابع بالقوى الشابة القادمة من خارج نطاق المدنية . القوى البدوية التي كانت أشبه ما تكون حماسة وفتوة وبطولة بالقوى العربية اليدوية التي خرجت من الجزيرة في القرن الأول ، وإن كانت أقل درجة من حيث عمق إيمانها بالاسلام وتمسكها بمقوماته ومناهجه في شؤون الحرب والقتال . بل إن التتار المغول الذين اكتسحوا عالم الإسلام من بعد في ثلاث حملات ضخمة : هولاكو ـ جنكيزخان ـ

،تيمورلنك . قد صهرهم الإسلام وأصبحوا من حماته .

برزت هذه القوى التي دانت بالإسلام وحملت لواء الدفاع عنه حين تراخت قوى المسلمين من العرب والفرس الذين أدى الصراع فيما بينهم إلى التمزق والضعف والذوبان في الترف والرخاوة . بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حماية الإسلام ، والرد على عدوان الغرب له . بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هي : توسيع دائرة عالم الإسلام بالدعوة والقدوة ، فقد حمل البربر الإسلام الى قلب أفريقيا ، وكان ذلك قد جرى بوسائل مختلفة منها القوى الصوفية التي تشكلت في أفريقيا .

وقد كان ذلك مقدمة لموجة أخرى من موجات انتعاش الإسلام هي « موجة الوحدة العثمانية » التي استطاعت أن تسيطر على أغلب عالم الإسلام ستة قرون كاملة . وأن تقيم دولتها في أرض امبراطورية بيزنطية التي كانت خطراً متلاحقا على الإسلام ستة قرون كاملة . وأن تسيطرعلى القسطنطينية ، وتضمها بعد أن حاصرها المسلمون وانفضوا عنها ، بل بلغوا الى أبعد من ذلك إذ اقتحموا أوربا وسيطروا عليها حتى بلغوا أسوار فينّا أكثر من ثلاثمائة عام .

(٢٢)
« موجة السلاجقة »

وصل الاسلام إلى أرض الأتراك بعد أن تخطى ما وراء النهر ، ودخلت الشعوب التركية فيه منذ بلغها عن طريق قتيبة بن مسلم ، ثم محمود الغزنوي من بعده ، في الاسلام ، ومن ثم اصبحوا على موعد مع التاريخ العالمي لكي يلعبوا دوراً هاما في تاريخ الاسلام وفي تاريخ العالم كله ، بدأ ذلك منذ استقدمهم المعتصم وبنى لهم مدينة (سامرّا) ثم كانت جولتهم الأولى في نصر الاسلام هي « موجة السلاجقة » وكان دورهم هذا بعيد الأثر في تغيير مجرى الاسلام ، وفي التأثير البالغ فيه ، حيث حملوا ، ومن بعدهم خلفاؤهم لواء السنة ، ولواء الدفاع عن الاسلام في مواجهة قوى الصليبيين . وكانوا بذلك مقدمة لدور اكثر قوة وضخامة ، هو دور الأتراك العثمانيين الذين دحروا الدولة الرومانية الشرقية ، وأقاموا مكانها امبراطورية عظيمة استطاعت ان تنتزع القسطنطينية ، وأن تعبر إلى أوربا ، فترفع أعلام الاسلام عليها ستة قرون . استمرت موجة السلاجقة بامتددها من الأتابكة والأكراد (زنكي وأيوب) (**٤٥٠ - ٦٤٨**) خلال قرنين كاملين . وكانت قوة من القوى الاسلامية الشابة المجددة التي حلت محل القوة السياسية الحاكمة في بغداد عندما دخلت الدولة العباسية في مرحلة الضعف . وقد أظهرت هذه القوة عدداً كبيراً من رجالها بناة الدول والمحاربين من أمثال : طغرلبك - ألب أرسلان - ملك شاه - والوزير نظام الملك . ثم أظهرت عماد الدين زنكي ، ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي . سيطرت موجة السلاجقة

على المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي ؛ فارس والعراق والشام وأحرزت تقدماً ضخماً في مجالي الحضارة والقوة العسكرية . وكانت قوة ناصرة ومؤيدة للمفهوم الاسلامي الجماعي (مفهوم السنة) وكان وجودها نهاية لعوامل الصراع العنيف التي استمرت طوال القرن الثاني والثالث بين الفرق والمذاهب والنحل في صراعها السياسي والديني الطويل الذي كان يتمثل صورة صراع بين الفرس والعرب ، ويهدف إلى القضاء على القوة السياسية المسيطرة في بغداد ، وإزالتها من مكان القيادة ، مع العمل على تمزيق مفهوم الاسلام نفسه ، والقوة العربية بوصفها حاملة لواء الاسلام إلى العالم كله .

وقد استطاعت موجة السلاجقة ان تحقق ازدهاراً ماديا وأدبيا ، وأن تنصر الاسلام في مفهومه الوسط والجماعي ، وأن تواجه الغزو الخارجي المتمثل في الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود عالم الاسلام ، والتي كانت توالي العدوان على هذه المناطق .

وقد جرى « بناة الدول » وقادة السلاجقة على سنن الخلفاء في مناصرة الآداب والفنون ، فاحتضنوا عدداً كبيراً من الأعلام أمثال : عمر الخيام ، والنظامي ، والسعدي ، وجلال الدين الرومي . وأحيا السلاجقة الروح الحربية الاسلامية ، بعد أن خمدت طويلاً . فمنذ عام **٤٢٩** إلى عام **٧٠٠** هـ تجددت مفاهيم الاسم في بناء القوة العسكرية وتوحيد عالم الاسلام مرة أخرى ، والتئامه في وحدة سلجوقية وعاود الاسلام قوته مرة أخرى ، وتجمع في بوتقة السنة . وطارد السلاجقة ومن بعدهم نور الدين ، وصلاح الدين خصوم الاسلام ، وأصحاب دعوات الشعوبية والزنادقة . وظلوا يعاملون اليهود والمسيحيين وأهل الذمة معاملة إسلامية مجددة بلغ من تسامحها أن طالبت جماعات مسيحية بيزنطية ، الحكام السلاجقة تخليصها من حكامها ، وأصبحت دمشق وحلب والموصل وبغداد وأصفهان والري وهراة ونيسابور ومرو حواضر زاهرة . فقد اظهر ألب أرسلان تقديراً للفن والثقافة ، وبرز عهد من النهضة العلمية ، والابتكار في مجال الأدب والفن والفلك والموسيقى والشعر والعمارة . وفي عهد ملك شاه (**٤٦٥ ـ ٤٨٥**) برز الوزير نظام الملك .

وقد جدد السلاجقة شباب دولة الاسلام وأمدوها بدم جديد ، وكانوا محاربين أشداء ، بدواً ذوي بأس في القتال ، أقوياء الأجسام ، بعد أن ضعف

العرب والفرس . وقد أعادوا للخلافة العباسية ، نفوذها الروحي ، وسلطتها السياسية ، وخلصوا العالم من الخلافات والمصارعات . ولا شك كان ظهور السلاجقة مؤذنا بقوة دفاعية جديدة تواجه محاولات الانتقاض على عالم الاسلام من خارجه ، واستطاع السلاجقة وخلفاؤهم قهر خصوم الاسلام طوال مرحلة طويلة في معاركها مع بيزنطة وانتصارها في موقعة حاسمة هي ملاذكرد . وفي مواقف عماد الدين زنكي ونور الدين محمود (**٥٤١**) وصلاح الدين (**٥٦٧**) في مواجهة الحملات الصليبية . وهم القوة الأولى في هذه المرحلة التي نصرت الاسلام ، وتبعتهم قوة المماليك . وهكذا استطاع السلاجقة إعلاء « كلمة الاسلام » داخل عالمه ، وهزموا خصوم الاسلام والمنقضين عليه وأوجدوا مرحلة من مراحل يقظة المثل العليا الاسلامية تمثلت بصورة رائعة في نور الدين وصلاح الدين . ولقد لعبت سلاجقة إيران والعراق دوراً هاماً على مسرح الأحداث ، وسيطرت فترة قرنين من الزمان ، ومهدت حملات السلاجقة في آسيا الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين فيما بعد للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية . وقد كان هدف السلاجقة توحيد الرقعة الكبيرة من عالم الاسلام الممتدة من بلاد ما وراء النهر شرق البحر الأبيض ، في ظل لواء السنة ، والالتقاء حول علم الجهاد المقدس لنشر راية الاسلام والدفاع عنه .

وقد كان دور السلاجقة في مواجهة الروم حاسماً وضخماً . فقد كان الموقف على حدود الدولة الرومانية البيزنطية ضعيفاً بعد موقعه عمورية **٢٢٣** هـ حيث لم تقم الخلافة العباسية طوال هذه الفترة بهجوم يذكر . مما جرأ الروم على الانقضاض على العالم الاسلامي ، فكانت موجة السلاجقة عاملاً هاماً في مواجهة القوة الرومانية من ورائها من قوى تترقب فترات الضعف . وقد اجتاز السلاجقة الثغور والعواصم وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها اسلامية وسيطرت قوى جديدة على المنطقة .

غير أن الخلاف بين السلاجقة لم يلبث أن أضعفهم ، فانتهزت أوربا الفرصة لتحل محل الدولة الرومانية البيزنطية التي قاومت عالم الاسلام خمسة قرون كاملة ، ولتتقدم باسم استعادة بيت المقدس في ادعاء بأن الحجاج المسيحيين قد وجدوا بعض الغبن أو الاضطهاد ، وفي غيبة من القوة العسكرية

والوحدة استطاع الفرنجة احتلال بيت المقدس **٤٩٢** هـ

وكان ذلك عاملاً من عوامل التحدي الضخمة التي واجهت عالم الاسلام ، والتي برزت بردّ فعل ضخم في النهضة التي حمل لواءها آل زنكي خلفاء السلاجقة ، وفي مقدمتهم عماد الدين زنكي الذي استطاع ان يوحد دولة قوية ضخمة ضمت دولة الجزيرة العربية وأعالي الفرات وحمص وحلب وبعلبك ومعرة النعمان ، ومضى يكيل الضربات للصليبيين ، وكان أكبرها استيلاؤه على إمارة الرها (**٥٣٩**) وإزالة نفوذ الصليبيين فيها مما هز القوى الغربية ، ودفعها الى إرسال حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا . وقد فشلت هذه الحملة التي هاجمت دمشق . ثم ارتدت منهزمة . ثم كان محاولة مملكة بيت المقدس الصليبية بالاستيلاء على مصر ، وبروز نور الدين محمود . حيث هزمت هذه الجولة وخلصت مصر لقوة نور الدين محمود الذي حمل لواء الدفاع عن العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الصليبي ، غير أن خلافه مع إخوته ، أتاح الفرصة لجلوسين أمير الرها استرجاعها . هنالك توجه نور الدين من حلب في عشرة آلاف فانتزعها منه (**٤٥١** هـ)

ومضى نور الدين يديل من إمارات الصليبيين ، ففتح عدداً من الحصون والمعاقل ، واستطاع التغلب على صاحب أنطاكية (ريموند) **٥٤٤** هـ كما تغلب على الحصون والقلاع التي كان يسيطر عليها جلوسين ، والواقعة شمالي حلب ، ولم يكن نور الدين الذي حمل لواء الوحدة في مواجهة الغزو ، واصطنع الأسلوب الاسلامي في المعاملة إلا مقدمة لحركة ضخمة ، استطاع أن يحمل لواءها « صلاح الدين » وأن يمضي بها معمقا خطة « نور الدين » ومتجاوزاً إياها إلى أبعد مدى . فقد استطاع صلاح الدين هزيمة الصليبيين في « حطين **٥٨٣** هـ » واسترجاع بيت المقدس (يوم الجمعة **٢٧** رجب) وقت صلاة الجمعة ، حيث أقيمت صلاة الجمعة ثامن يوم الفتح لأول مرة في بيت المقدس بعد واحد وتسعين عاماً .

* * *

إذا كانت مقاومة الحملات الصليبية تتمثل في أقوى صورها في موقف عماد الدين زنكي ، وأسامة بن منقذ ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس على الترتيب ، يحمل الراية منهم بطل بعد بطل ، فإن لهذه المقاومة تاريخ سابق

منذ وطيء العدو أرض الاسلام ، فما أن استقرت الحملة الصليبية في بيت المقدس حتى تحركت المنطقة المتاخمة لها في مناهضة سريعة ، اختفت فيها الخلافات الشخصية بين الأمراء فلم يلبث عدد من الأمراء المسلمين في شمال العراق أن التحموا وحملوا علم الجهاد ، ولعل سيطرة الرها إحدى إمارات الصليبيين ١٠٩٨ على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل هي التي حركت جيرانها للثورة عليها . فلم يلبث (مودود أتابك الموصل) ٥٠٤ هـ - ١١١٠ م أن أعلن الجهاد وخرج بجيش كبير وزحف على أطراف الرها وتقدم صوب طرابلس ، ولم تنجح هذه المحاولة ، ولكنها فتحت الطريق لمحاولات أخرى . ومعنى هذا أنه لم يمر غير عام واحد بعد احتلال الصليبيين للأرض الاسلامية حتى بدأت المقاومة ، وزاد ذلك انتفاضة القوى الاسلامية وتجمعها ، وأخذت روح الجهاد المقدس تملأ النفوس ، وتهز المشاعر ، وتحركت جماعة كبيرة من أعيان حلب وتجارها وفقهائها إلى بغداد يستنهضون الهمم ، وانتهزوا فرصة صلاة الجمعة للمناداة بالجهاد ، واستثارة المشاعر ، ولم تلبث أن تجمعت القوى الاسلامية بقيادة مودود (٥٠٥ -٨ ٨ ١١١١م) فاتجه الى الرها حيث حاصر المسلمون تل باشر ، ودبت اليقظة ، وبدأت تتمركز في أرض الشام ، وبدأت علامات الوحدة بين الأمراء المسلمين .

وظهر (إيلغاري) وحمل الراية بعد مودود وقاوم الصليبيين في حلب ٢١١٩ حين هاجموها ، واستولى على حصن قسطون غربي معرة النعمان ، واتسع نطاق حركة التجمع والمقاومة . وظهر بلك بن أرتق ١٥٦ - ١١٢١ وكانت وجهته الرها أيضاً . ثم ظهر البرسقي : أتابك الموصل ٥١٨ ونجح البرسقي ، وحاول أن يتخذ من حلب مقر تجمع يربط بها الموصل ، ثم سقط البرسقي ، كما سقطت الشخصيات الثلاث التي سبقته بغدر الجماعات الباطنية التي كانت تقاوم الوحدة الاسلامية .

***

غير أن شخصية كبيرة لم تلبث أن ظهرت هي شخصية (عماد الدين زنكي) الذي تولى أتابكية الموصل ٥٢١ هـ ١١٢٧ م . وكان من أبرع القادة العسكريين فلم يلبث أن أمن حدود ولايته ، واتجه إلى حلب ودمشق وزحف على حمص وحماه . واستطاع تكوين جبهة إسلامية تضم الأمارات والبلدان المتاخمة

للأمارات الصليبية . وكانت خطته دفع الخطـر البيزنطـي من الشمال ومقاومـة الفرنجة من الغرب والجنوب .

ثم اتجه عماد الدين زنكي نحو الرها **٥٣٩** هـ التي قاومـت طويلاً حتـى استنفذت كل وسائل التسليم السلمي ، هنالك نصب عليهـا آلات الحـرب ، وضربهـا بالمجـانيق وافتضها بعـد حصـار عنيف ، وكانـت هذه أولى معـارك الانقضاض الاسلامي على المملكة اللاتينية ، وكان النصر فيها قويا للمسلمين ، رفع من روحهم المعنوية وزادهم قوة وحماسة . كما دفع الأمـراء المسلمـين إلى التآزر والوحدة . لقد كان سقوط الرها ضربة كبرى في مواجهة القـوة ، وكان مقدمة للخطوات التي حققها نور الدين وصلاح الدين .

نور الدين »

حققت هذه الخطوات لنور الدين إقامة وحدة تكتل القوى الاسلامية في وجه الخطر الصليبي على نحو أعطى حركة المقاومة قوة وحيوية . وكان لشخصية « نور الدين » أثرها البعيد المدى في هذه الحركة . فقد تمثلت فيه صورة القائد المسلم ، وأعادت سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن عبد العزيز . بل لقد حاول كثير من المؤرخين أن يضعوا اسمه مع أسماء ابي بكر وعمر وغيرهما من الخلفاء الراشدين .

والحق أن نجاح نور الدين كان إلى حد ما نتيجة للخطوات التي سبقته ، كما كان أثره بعيد المدى في خطوات صلاح الدين ، فهو حلقة مسبوقة وسابقة ومرتبطة . غير أن أثره الواضح العميق وتألق شخصيته في معركة المقاومة للحملة الصليبية ، وبروزه في صورة العباد الزاهدين والشهداء ، إنما يرجع إلى إنكاره للذات . فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهد ، والايمان ، والقوة . فكانت بذلك بعيدة المدى في تحقيق وحدة المسلمين ، وكان أبرز ما اتسمت به حركته هو أنه أعطى السياسة قوة الأخلاق ، فاقترب من مفاهيم الاسلام ومقوماته إلى حد لم يسبقه إليه الكثير في هذه المرحلة من تاريخ الاسلام . وقد كان اقترابه من مفاهيم الاسلام في محاولته لدعم الوحدة الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبي هو أقوى العوامل التي حققت له النصر ، حتى ليمكن القول بحق إن نور الدين قد التمس ثلاث قوى من قوى الاسلام في سبيل عمله هي : (القوة ، الوحدة ، الايمان) .

ولقد جرت محاولات لتصوير نور الدين في صورة زعماء الصوفية في عصره ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً . وأن « نور الدين » كان أعمق فهماً للاسلام ، وأنه كان يجمع بين السياسة والخلق معاً ، السياسة بكياستها ومرونتها ودهائها دون أن يجرفه ذلك إلى الغدر أو الحقد أو الانتقام ، وقد أعطاه ذلك ثقة من كانوا حوله ، أو اتصلوا به ، وقد أغناه هذا الوضوح عن كثير من مناورات السياسة وأكاذيبها ، وأتاح له سرعة تحقيق هذه الوحدة ، ومكن له استمرارها ، ودعم الضربات المتوالية التي وجهها إلى العدو .

وقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه (**٥٤١ ـ ٥٩٦**) أن يحقق أمرين هامين :

أولاً : توحيد القوى الاسلامية مما أسماه المؤرخون « الجبهة الاسلامية المتحدة » . والادالة من الامارات الصليبية . وقد شملت مملكة سوريا الشرقية ، وقسما من سوريا الغربية ، والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر ، وبعض بلاد المغرب ، وجانباً من اليمن ، وكما حصّن قلاع الشام ، وبنى الأسوار حول مدنها ، ومضى مداوما للجهاد يقود معارك المقاومة بنفسه ، لا يتوقف عن مهاجمة الامارات الصليبية التي تكونت في نهاية القرن الخامس الهجري في أربع وحدات : مملكة بيت المقدس ـ أمارات أنطاكية ـ طرابلس الشام ، الرها . وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين من الشام . وقد وصف المؤرخون مواقفه من الصليبيين بأنها نقطة التحول في تاريخ تلك الحروب . وأن نور الدين قد أعد الأساس للعمل الذي حققه من بعده صلاح الدين . وكان أبرز ما حققه في سبيل نجاح خطة المقاومة هو : استيلاؤه على دمشق **٥٤٩ هـ ـ ١١٥٤** م ، (وعلى مصر **٥٦٤ هـ ـ ١١٦٨** م) بعد أن تبين أن حملات الصليبيين قد اتجهت إليها أخيرا بوصفها مصدر المقاومة . أما استيلاؤه على دمشق والقاهرة ، فقد قضى نهائيا على مطامع الصليبيين في التوسع فضلا عن أنه وضع الامارات الصليبية بين فكي الكماشة الاسلامية التي ظلت تضغط بقوة حتى استخلصت هذه الأجزاء واستردتها .

وقد عمل نور الدين على تخليص نصارى العرب من ظلم الصليبيين ، وأعطى مقاومة الصليبيين طابع الغزو والاعتداء . وبذلك وحد « العرب

مسلمين ونصارى » في جبهة المقاومة ، وأعطى معاركه طابع الاسلام : لم يمس كنيسة ولم يؤذ احداً من أبناء الأديان الأخرى ، وكرم الرهبان والقسيسين ، وعارض منهج الصليبيين في اعتدائهم على مقدسات المسلمين . وكان لخُلقِهِ الواضح في عمله السياسي يلقى المهابة في قلوب خصومه ، وقد أقام للمجتمع الاسلامي مقومات حديثة . فقط أسقط المكوس ، وأقطع عرب البادية إقطاعات حتى لا يتعرضوا للحجاج . وقد كان من أهم ما أولاه نور الدين بالغ الاهتمام ، بناء القاعدة الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الاسلامية الموحدة البعيدة عن الخلافات بوصفها جوهر المقاومة وتأريث الجهاد في النفوس ، فبنى مدارس كثيرة ، وبنى أول دار للحديث ، وبنى الخانات على الطريق ، وكان أعدل ملوك زمانه ، عارفاً بالفقه ، يجلس إلى العلماء كل أسبوع ، ويسمح لمن يشاء أن يحضر مجلسه . وقد كان لهذا التكوين الثقافي بالاضافة إلى ما طبع به من عدل وإيمان وخلق صورة رائعة لعصره كله ، ولأجيال المسلمين ، فكانوا يتطلعون إلى دعوته للنفير العام وتنثال الجموع من مختلف الأقطار واثقة بالنصر بقيادته .

وفي الوقت الذي لم تكن الامدادات الصليبية تتوقف من أوربا وصقلية عاماً واحداً . كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس ، وتلتئم في معارك المقاومة . وقد تميز نور الدين عن أفراد أسرته من السلاجقة والأتابكة تميزاً كبيراً . فهؤلاء الذين سبقوه قد نصروا الاسلام وأعزوه كملوك وأمراء ، أما نور الدين فقد أعزه كمجاهد عسكري ، وقائد سياسي ، وعابد زاهد ، فقد « امتلأت نفسه بالاسلام ، وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها الا عند الأوائل من أعلام صدر الاسلام » .

ولم يكن إيمان تعصب وتشرد . بل إيمان سمح بسيط تساوت أمامه المذاهب الاسلامية ، فلم يفرق بينها ، وكانت سماحته في معاملة المسيحيين واضحة ، وكان يحارب الصليبيين بوصفهم أجانب ، اعتدوا على بلاده ومقدسات أمته ، ويفصل فصلا واضحا بين هذا المعنى ، وبين أنهم نصارى . ولذلك كان حفيا برجال الدين مكرماً لهم لا يدخلهم في حساب مقاومته . وقد انضم إلى صفوفه نصارى العرب في معركة المقاومة بناءً على هذا الفهم الدقيق . وكان الصليبيون يقدرون عمق إيمانه بالإسلام في مقاومتهم ، ووسائله

فيقولون : « إن ابن القيم (أي نور الدين) له مع الله سرّ . فإنه ما ينتصر علينا بكثرة جنده وعسكره . وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل » .

والحق أن نور الدين كان يرى في بناء الايمان عن طريق الثقافة الاسلامية عاملاً موحداً للأمة ، ودافعاً إلى الجهاد . ومن هنا كانت انطلاقته الضخمة في بناء المدارس والمساجد والزوايا وإعداد برامج الدراسة ، فيها كوسيلة فعالة ، وأساس جذري للمقاومة . وكانت مؤاخاته لجنده ، والتحاقه بهم ، ومداومة المشورة معهم ، والتقدم أمامهم في المعارك من أبرز العوامل التي أكسبته النصر ، وقد كسب تقدير الصلبيين الذين أسرهم لمعاملتهم بالرفق والاكرام حتى استل اعتراف أقسى الحروب الصليبيين تعصباً ، أمثال : وليام الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس . فقد اعترف بفضل نور الدين وعد له .

إذا كان اسم صلاح الدين قد لمع كثيراً في مجال العدل والسماحة . فإن نور الدين هو الذي بنى هذه القاعدة وترك لصلاح الدين صورة رائعة للمثل الأعلى الاسلامي في مواقف المقاومة والحرب .

« صلاح الدين »

إذا كان « عماد الدين زنكي » قد استطاع أن يستعيد « الرها » أولى الامارات الصليبية ، فقد حقق « نور الدين محمود » الوحدة الفكرية والروحية في المنطقة كسلاح لمقاومة الصليبية . وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أضخم نصر في معارك المقاومة في موقعة حطين الذي مكنه من استرجاع بيت المقدس . فما كاد صلاح الدين يوحد مملكته ، ويؤمن مواقعه حتى بدأ معاركه مع الصليبيين عشر سنوات كاملة ، وتحقق على يديه أضخم نصر في معركة حطين (**٥٨٣** هـ **١١٨٧** م) والاستيلاء على بيت المقدس مما حصر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة انتقلت إليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة (عكا) عاصمة لها . وكان موقف صلاح الدين في استعادة بيت المقدس مشرفا كريما . جرى فيه على مفهوم الاسلام ، فلم يزدهه النصر بحيث يدفعه إلى الانتقام . وقد سمح صلاح الدين للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار زهيد من المال (**١٠** دنانير للرجل - **٥** للمرأة - **٢** للطفل) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء زمنا بلغ أربعين يوماً . وخرج الصليبيون تحت حماية القوات . ولم يدخل بيت المقدس إلا بعد أن أجلى الصليبيين عنها . وقد ادعى الأب لامنس بأن محاسنة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزاً وخوفاً فلم يعاملهم بأبشع حروب القسوة والعذاب . وخير ما يدحض هذه الشبهة ما كتبه ول ديورانت في هذا المجال .

وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائداً بارعاً ، أو محارباً شجاعاً ، أو حاكماً عادلاً بقدر ما كان « إنساناً » فمثلاً للأخلاق والقيم

الاسلامية ، فإن هذا المفهوم وحده هو الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تهدف إلى توحيد الاسلام في وجه الغزاة . يقول هاملتون جب : إنه لم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمهالذاتيين في غالب الاحيان ، وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه ، ودفاعه المعنوي عن الاسلام ضد أعدائه ، وضد من ينتمون إليه انتماءً اسميًا على حد سواء . كان غاية في البساطة ، فذًا في النزاهة . ولقد أجبر أعداءه من الأدنين والأبعدين ، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات السياسية مثلما يفعلون . وكان هو نفسه طيب السريرة ، ولذلك لم يكن يتوقع أبداً أن يفهم فكر الآخرين ، وقلما فهمه . وذلك ضعف استغله فيه أحياناً أقرباؤه ، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصاً لم يكن لأحد من الناس ، أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه .

والحق أن صلاح الدين مضى في خطة نور الدين ، خطة الايمان بأن قيام الامارات الصليبية . إنما جاء ناتجاً عن تخلف عن مفهوم الاسلام نفسه ، وانحراف عن القيم الأساسية له . وفصل بين السياسة والأخلاق ، وكان المفهوم الذي بدأه نور الدين ، وبلغ به صلاح الدين الغاية . مما حقق له النصر ، هو الايمان بضرورة إعادة الكيان الاسلامي في ظل دولة موحدة وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وعلى مستوى القيم والأخلاق التي سار عليها محمد بن عبد الله ، وصحبه الأولون . وقد أورد في بعض رسائله مقاصده الثلاثة من حركة : الجهاد في سبيل الله ، والكف عن مظالم عباد الله ، والجمع حول قيادة سياسية قوامها الخليفة العباسي ، وتكشف رسائله عن كثير من مفاهيمه الأساسية أهمها :

« انه لن يسمح بتداول الحرب بين أمراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد » يقول هاملتون جب : « كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب : بل هي إلى حدّ أكبر أخلاقية نفسية وأنه إذا عالجها على المستوى السياسي والعسكري سيعجز عن حلها . وأدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية » ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه أن يقوي أعماله ، والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ، ويكون قوياً بحيث يتعذر مقاومته . فكان

لذلك في حاجة إلى حلفاء . وبخاصة فقهاء المدارس ، قادة الرأي العام يومئذ . .
وهناك شبه اجماع بين المؤرخين على أن السر في نجاح أعمال صلاح الدين العسكرية وظفره في معركة حطين واستعادته بيت المقدس . إنما يرجع إلى قابلية هذه العوامل . لا إلى الأعمال العسكرية .

(٢٣)

« موجة البربر »

يمثل « البربر » إحدى القوى البدوية الشابة التي اعتنقت الاسلام وجددت شبابه ، وهي القوة الكبرى في شمال أفريقيا ، والتي يدين لها نمو الاسلام وانتشاره في أفريقيا كلها بالأثر البينّ الواضح خلال عمر الاسلام كله ، ومنذ دخوله أفريقيا . وقد برزت هذه الموجة تحت أسماء كثيرة أهمها : المرابطون والموحدون والمرينيون ، هذه القوى ذات الفاعلية الضخمة في تاريخ نمو الاسلام ، والدفاع عنه ، فقد شارك البربر منذ المراحل الأولى في عمليات التوسع ، وكانوا هم فاتحي الأندلس أصلاً ، وهم القوة الاسلامية الأولى التي عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للاسلام في أوربا ، وكانت قوى البربر التي تدفقت إلى الأندلس من بعد ذات أثر كبير في عمليات التوسع والاستقرار والدفاع طوال فترة القرون الثمانية . وقد ساهمت قوى البربر المسلمة بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في قلب أوربا . وكان دورهم أبرز في حركات التوسع في قلب أفريقيا .

وقد ظل البربر ينظرون الى التوسع الاسلامي على أنه سيطرة من نوع جديد ، فقاوموا الفاتحين أمثال : أبي المهاجر ابن دينار ، وعقبه بن نافع الفهري ، وحسان ، وزهير بن قيس . حتى جاء موسى بن نصير ، واستطاع بشخصيته الرائعة أن يكسب البربر إلى صف الاسلام . فقد كان داعية إلى الاسلام أكبر منه قائداً محارباً ، حيث استطاع أن يكسب قلوب البربر

بالاسلام ، وأن ينشر الاسلام نفسه ، ويدعو إليه بينهم ، ويكشف لهم عن جوهره ، وأن يقف منهم موقف الاخاء لا موقف الرئاسة . فقرب إليه البربر وأشركهم في إدارة بلادهم ، فتحقق لهم بالاسلام قوة جديدة ، حين لم يفقدوا سلطانهم ونفوذهم في بلادهم . وكانت زكانة موسى بن نصير هي التي هدته أن يكون إسلام البربر اقتناعاً وحبًّا . فوسع آفاق الثقافة الاسلامية ، وأنشأ المساجد . هنالك تأكد البربر أن الاسلام ليس نظام استعمار شبيه بسابقه . أو أنه سلطة مفروضة ، أو أن اعتناقه أمر ملزم لمن لا يقتنع به . من هنا كان إقبال البربر على الاسلام وتأييدهم موسى بن نصير ، على النحو الذي تحقق في خروجه إلى الأندلس في الغزوات الثلاث بقيادة طريف بن مالك . طارق بن زياد ، ثم بقيادته . وقد كان البربر هم العنصر الأكبر والأغلب من قواته في فتح الأندلس . وقد اشتركت صنهاجة الملثمين في قوات التوسع . وقد تم التحالف بين العرب والبربر بعد إسلامهم ، وأدى ذلك إلى دخول قبائل متعددة في الاسلام ، وبعد صنهاجة دخلت لمتونة وامتدت سياسة موسى بن نصير من بعده حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز الذي أولى نشر الاسلام اهتماماً كبيراً ، وغلبه على نظم الاقتصاد والضرائب ، وكان رسوله إلى إفريقيا إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي ولي أمر أفريقيا . وكان مثلا عالياً من أمثلة دعاة المسلمين وقادتهم مما أدى إلى نشر الاسلام في ربوع المغرب الأقصى ، حتى لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم (المؤرخ ابن عبد الحكم) وكان عمر بن عبد العزيز قد أمده بصفوة من أعلام التابعين انبثوا في البلاد يحضون الناس ويبصرونهم بمقاصد الاسلام ، ويرى المؤرخون[1] أن إسلام الملثمين في القرن الثالث الهجري . كان ذا أثر بالغ في تاريخ قبائل البربر ، فقد تمخض عن تحالف قوي ضم قبائل الملثمين جميعا بزعامة لمتونة ، بفضل زعامة الزعيم اللمتوني (تيولوتان بن تيكلان) الذي أسلم وحسن إسلامه ، وأكسبه دينه الجديد القوة التي مكنته من إتمام هذه الوحدة .

غير أن قوى البربر قاومت محاولات حكام العرب إلى السيطرة مثل حبيب بن عبيدة . مما أدى إلى ثورتها على نظام الحكم العربي ، وقيام جبهة من المقاومة

---

(١) الدكتور حسن محمود/ ك : دولة المرابطين

حملت لواء الدعوة إلى أن الامامة ليست للعرب وحدهم . بل هي للمسلمين جميعاً على السواء ، والمعروف أن البربر والمغاربة كانوا يعتزون بالاسلام كقوة من قوى الحرية . ولذلك ضاقوا بمحاولة السيطرة عليهم ، وثاروا على النفوذ المفروض ، وكانت هذه المواقف نهاية لسلطان العرب ومعبراً لحكم المغاربة لبلادهم . ومع هذا فقد ظل البربر أولياء للاسلام صادقي الايمان به . فقد اندفعوا في سبيل إذاعته ونشره والاستشهاد في سبيله ، مما دفعهم الى إبلاغ الاسلام لديار الزنوج في غانة حتى تحررت من الوثنية ، بزعامة زعيم صنهاجة اللمتوني .

كما قضى الاسلام ووحدته الفكرية على الخلاف بين قبائل صنهاجة وزناتة . وكان العداء بينهما عنيفاً متصلاً تقليدياً لامتداده بين البرانس والتبر . وقد آثر البربر مذهب مالك ، واتخذوه مصدراً لمفهوم الاسلام على النحو الذي آمنوا به ، مستمدين منه مفهومهم في الحرية مؤكدين إيمانهم بالنزعة الاستقلالية ، كمصدر من مصادر القوة في مقاومة كل نفوذ أجنبي يحاول أن يفرض عليهم ، فقد اتسم مذهب مالك بمقاومة نفوذ الحكام المستبدين ، وظلت مفاهيمه مرتبطة في أنفسهم بإعلاء كلمة الحق ، والاستشهاد في سبيل العقيدة ، وأنه لا ولاية لظالم أو متسلط ، وقد تطورت هذه المفاهيم إلى إيمان له طابع الجهاد في سبيل نشر الاسلام والزهادة في المطامع الدنيوية . هذا الايمان الذي كان مضمون الدعوة التي حملها المرابطون ، ثم الموحدون ، وفي القرن الخامس كانت « موجة البربر » هي اقوى موجات الاسلام في أفريقيا والأندلس ممثلة في قبائلها زنانة وصنهاجة وكتامة والمصامدة ، التبر والطوارق والملثمين والبرانس وطوائفها التي واجهها الاسلام عندما بلغ أرض أفريقيا والمغرب ، وهي قوى بشرية تمتد من طرابلس الى السوس الأقصى . وقد كان لهذه القبائل شأن ، أي شأن ، في تاريخ المغرب والاسلام تفوقا في الروح الحربية وشجاعة (زنانة) تتمثل في رجالها الفرسان الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الأندلس زمن المنصور ابن أبي عامر ، حين استقدم إلى الأندلس أعداداً ضخمة قامت بدورها في مقاومة الغزو الخارجي على الأندلس .

وقد كان القبائل الملثمين نواة الدولة المرابطية أبلغ الأثر في نشر الاسلام في ربوع أفريقيا ، والسلطان المغربي ، فقد أمضت بعد إسلامها قرونا طويلة تجاهد

قبائل السودان حتى أدخلتها في نطاق عالم الاسلام وقد أمدّ الاسلام هذه القبائل بالوحدة والالتقاء بعد أن كانت تتصارع ، فأعطاها اتحادها قوة دفعتها في أقاصي الصحراء ، ناشرة لواء الاسلام ، وقد بلغت سعة دولة المرابطين من منحنى النيجر في الجنوب حتى البحر الأبيض في الشمال ، ثم جاوزته الى الأندلس ، وقامت (صنهاجة) بنشر الاسلام بين قبائل السودان ، ميممة شطر الجنوب حتى بلغت منحنى النيجر ، وقد تم توحيد هذه القبائل تحت لواء « عبد الله بن ياسين » .

وقد أعدت هذه المفاهيم البربر إلى التطلع لزعامة تجمع قواهم وتدفعها في سبيل نشر الاسلام حين توحدت بزعامة « عبد الله بن ياسين » باسم « الرباط في سبيل الله » بمعنى الاقامة في الثغور ، حيث ترابط الخيل المقاتلة تحمي الحدود ، وترد المعتدين ، وتجاهد في سبيل الله ، وقد واجه المرابطون القوى المغيرة على السواحل الاسلامية التي ظلت تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي ، من قواعده في صقلية وسردانية ، وجنوب ايطاليا ، وأقاموا في المدن الساحلية ، وتحصنوا بها ، ووفد عليهم عدد كثير من المقاتلة الذين آمنوا بأن الرباط في سبيل الله ضريبة يفرضها الاسلام للدفاع عن ثغوره وسواحله ، وقد انتشرت أعمال الرباط من بعد على ساحل البحر الأبيض من الاسكندرية إلى المحيط الأطلسي ، ومن ثم تراجعت الأساطيل البيزنطية إزاء هذه القوة الجديدة ، وظلت هذه القوة المرابطة تحرس المسلمين ، وتتخذ من الرباط عبادة ، فإذا دهم الغزاة أرض المسلمين تنادوا إلى المرابطين الذين يتدافعون لرد العدوان ويصمدون في وجه الغزاة .

ثم تبلورت قيادة المرابطون في زعامة يوسف بن تاشفين (**٤٥٤هـ**) الذي امتد نفوذه من المحيط الأطلسي إلى الجزائر والمغرب الأوسط وأنشأ « مراكش » . ولم يتردد المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من العبور إلى الأندلس نجدة للمسلمين الذين تمزقت دولتهم بعد جهاد طويل ، ومقاومة ضخمة لعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر . فلما ذوت الدولة الأموية وتقسمت بين إمارات الطوائف طمح الأسبانيون والفرنجة في الأندلس ، وأخذوا يغيرون على أطرافها ، حتى زلزلت دولة الاسلام في أوربا . هنالك عبر يوسف إلى الأندلس في قوات ضخمة من البربر ، واشتبك مع الأسبانيين والفرنجة في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة (**٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م**) .

وقد توحدت قوى الأسبانيين تحت راية الأذفونس السادس لمواجهة القوة الاسلامية الجديدة ، وفي هذه الموقعة الحاسمة أظهر المسلمون شجاعة وقوة ونصروا الله حقا ، فحققوا الظفر الذي ردّ خصومهم واستخلص لهم سرقسطة وطرطوشة وبلنسية . وقد كادت أن تلتهمها القوى الغربية ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة مرة أخرى بعد عام واحد مهاجمة المدن الاسلامية ، اضطره إلى العبور إلى الأندلس مرة أخرى حيث قضى على ملوك الطوائف ، واستولى على غرناطة ومالطة وقرطبة وأشبيلية ، واستطاع أن يؤخر سقوط الأندلس في أيدي الأسبانيين والفرنجة فترة أخرى ، ولم يلبث أن ضعف المرابطون وعاود الأوربيون والفرنجة للادالة من مملكة الأندلس ، فاستولى الأذفونس ملك أرغونة على طليطلة ثم سرقسطة **٥١٣**هـ ومضى يحاصر غرناطة ومالطة . هنالك كانت الموجة البربرية الثانية « الموحدون » قد استحصدت واستطاعت أن تعبر إلى الأندلس بقيادة « عبد المؤمن بن علي » حيث واجه الموحدون الخطر الغربي الذي تدفق على سواحل أفريقيا **٥١٧** في حملات النورمان الذين استولوا على سواحل طرابلس والمغرب والجزائر ، وانتهت بوصول الأسطول النورماني إلى المهدية ، وقد انبعثت دعوة الموحدين في مستهل القرن الخامس الهجري بقيادة محمد بن تومرت . وكان من أعظم أنصاره عبد المؤمن ابن علي . وقد خلف الموحدون المرابطين واستطاعوا أن ينصروا الاسلام في جولة جديدة وموجة تالية حيث طردوا النورمان من السواحل الافريقية (**٥٥١** هـ وعبروا إلى الأندلس ، وضموا إليهم مدائن الأندلس ، التي أصبحت جميعها عام **٥٦٧** هـ تحت سيادة الموحدين . ثم كان للموحدين معركة حاسمة مع الأسبان الفرنجة انتصروا فيها انتصاراً ساحقاً ، وأخضعوا المنتقضين على الأندلس ، هي معركة الأرك سنة **٥٩١** هـ . غير أن هذه القوة الاسلامية الفتية البدوية قد أصابها ما أصاب مختلف القوى من لقاء الحضارة والترف ، فلم تلبث أن اضطربت وتمزقت ، وبينما كانت القوى الأسبانية والأفرنجية تتكتل وتستعيد قوتها لتثأر من هزيمتها في الزلاقة والأرك كانت القوات الاسلامية قد ضعفت حتى عجزت أن تلتقي بالقوى الاسلامية المجاهدة في المشرق حين أرسل صلاح الدين إلى أبي يوسف المنصور **٥٨٠** هـ يدعوه إلى عقد الخناصر لمقاومة الحملات الصليبية في معركة موحدة للعالم الاسلامي كله ، وفي موقعة العقاب

استطاع الأسبانيون والفرنجة الادالة في المسلمين بعد أن توحدت القوى الغربية وتدفقت سيول الصليبيين من مختلف أنحاء أوربا حتى بلغت مائة ألف ، بينما لم تكن قوات الموحدين متحدة أو متحمسة ، فلم تلبث أن اضطربت أمام جحافل الفرنجة سنة **٦٠٩** هـ التي حققت نصراً كان مقدمة لاسترجاع الأندلس .

***

وما تزال موجات القوى الشابة تبرز وتجدد الاسلام ، تبرز قوية شابة خشنة بدوية . ثم تنالها يد الحضارة والترف فتضعف ، لتحل موجات أخرى بديلاً لها ، لم يتوقف عالم الاسلام من إمداد الاسلام بهذه القوى في مجال الدعوة إلى الاسلام أو الفكر ، أو بناة الدول والأبطال ، وما تزال هذه القوى تتوالى ، وما تزال أسماء أبطالها تلمع مرحلة بعد مرحلة ، وكلها تحاول أن تستمد القدوة من المسلم الأول (صلى الله عليه وسلم) ومن تجربته ومفهومه وتصرفه في بناء عالم الاسلام ، وفي الحرب والسلم ، وفي الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه ، وللبربر (المرابطين ومن بعدهم الموحدين) دور في تاريخ الاسلام إيجابي رائع ، فقد نشروا الاسلام في ربوع السودان الغربي ، وثبتوا الثقافة الاسلامية بين الشعوب الأفريقية ، ونشروا اللغة العربية ، وشاركوا في معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دولته في الأندلس ، وقد سجل تاريخ الجهاد أسماء أبطال وقادة وفرسان ، وقرن اسم يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي بأسماء نور الدين محمود وصلاح الدين ، وكان لدولة المرابطين والموحدين قوة جاهدت في البر والبحر ، وصدت الفرنجة وقاومتهم وأدالت منهم .

وقد كان للمغاربة المسلمين في ظل الدولتين دور ضخم في بناء القوى البحرية والأساطيل ، نافس قوى المسلمين في المشرق . وذلك بعد ضعف القوى البحرية الاسلامية التي أنشأها موسى بن نصير ، مؤسس البحرية الاسلامية في غرب البحر المتوسط . فقد عادت دور الصناعة على طول الساحل افريقي من برقة إلى طنجة مرة أخرى قلاعاً ضخمة عامرة ، تصدّ المغيرين ، وتدفع الخطر الافرنجي ، ومن خلالها استطاع المسلمون تنظيم غارات متصلة بين الجزر والقواعد البحرية ، كما أغار مسلمو المشرق على قبرص ورودس ، وكان فضل يوسف بن تاشفين في إحياء البحرية الاسلامية سنة **٥١٧** هـ كبيراً . ويمكن القول في إيجاز :

(١) قاوم البربر توسعات الاسلام ونفوذه حين دخل المغرب واستمروا في هذه المقاومة طويلا بحسبانه نفوذاً غريباً ، كما قاوموا من قبل نفوذ الدولة الرومانية الذي امتد ألف عام ، فلما تحققت عدالة الاسلام وسماحته وإتاحته الفرصة ، لأهل كل وطن في حكم وطنهم أقبل البربر على الاسلام في اندفاعة قوية ، فاعتنقوه وجاهدوا في سبيل نشره جهاداً مشرفا ، وأصبحوا أكثر أنصاره إيمانا ودفاعا عنه .

(٢) البربر هم فاتحو أسبانيا أصلاً ، وهم القوة الاسلامية التي عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للاسلام في أوربا ، فلما تم الفتح تدفقت جماعات كبرى من البربر إليها فانصهرت في مجتمعها مع العرب شركائهم في التوسع ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية .

(٣) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في أسبانيا واستمرت طويلاً ، والتي وصلت في ظل قيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة (صانص) التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلومتر . ومن ثم أصبحت ضفاف أنهار الرون والصاوون واللوار تحت نفوذها .

(٤) قاد المرابطون والموحدون والمرينيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والأسبانيين ، هي إحدى شقي معركة الغزو الصليبي ، وذلك بعد أن ضعفت القوى العربية السيطرة في الأندلس بفعل الترف والتمزق ، وكان للمغرب أضخم دور في حماية الأندلس من القوى الغربية المتجمعة للقضاء عليها .

(٥) كان البربر أقوى القوى الاسلامية الشابة في المغرب في مواجهة أزمة الاسلام في القرن الخامس ومن بعده ، حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي مجتاحة المشرق والمغرب ، وكانت أبرز دولهم دولتي المرابطين والموحدين وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين .

(الأولى) نشر الاسلام في إفريقيا وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن .

(الثانية) الدفاع عنه في مواجهة الغزو الخارجي للأسبان والفرنجة في

الأندلس . فقد عبر الموحدون إلى الأندلس في خلال قرن واحد ثلاث مرات ، ثم عبر بعد ذلك المرينيون .

وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين : المرابطون والموحدون . أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم في وقتها وإبانها ، حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامي ، وحين ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ، وتوقفت غزوات عبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر الذي غزا الفرنجة خمسين غزوة ، فلما تقسمت الدولة الأموية إلى أمارات الطوائف في نفس الوقت الذي توحدت فيه أرجونة وقشتالة مملكتا الفرنجة في مملكة واحدة استأسدت وأخذت تديل من أرض الأندلس ، بينما تقسم المسلمون وتصارعوا مما مكن الأذفونس ملك أرغونة من الاستيلاء على سرقسطة ثاني معقل إسلامي (**٥١٢ هـ**) بعد طليطلة ، ومضى في محاصرة غرناطة وتهديدها ، وبلوغ مالقة ، هنالك كان لا بد لحركة التاريخ الاسلامي أن تعطي قوة جديدة في مواجهة الغزو العنيف ، موازنة للموقف ، وإنقاذاً للاسلام من الانحدار ، وكما كانت قوة السلاجقة وخلفائهم في المشرق ، والمماليك من بعدهم هي عنصر الموازنة ورد الفعل والتحدي إزاء الحملات الصليبية . كذلك كان المرابطون والموحدون في المغرب .

(٢٤)

« موجة المماليك » .

حقق « المماليك » عملاً ضخما في مجال المقاومة الاسلامية ، فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولي والغزو التتري الذي تعرض له (عالم الاسلام) من سمرقند إلى حلب في موقعة (عين جالوت) : بقيادة قطز وبيبرس بعد سقوط بغداد بعامين . وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية في زحفها الطويل خلال أربعين عاماً ، وتوقفت اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر .

ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون التتار وقلاع الباطنية ، وأتم تصفية هذه القوى الغازية : قلاوون وصلاح الدين خليل ، وكان المماليك بحق : قوة من أكبر قوى الاسلام ذات الفاعلية في مجال الجهاد ، ودفع العدوان الذي تعرض له عالم الاسلام خلال القرنين السادس والسابع ، وقد عاشت دولتا المماليك (البحرية والجراكسة) ٢٧٠ عاماً تولى الحكم فيها خمسون سلطاناً . وإذا كان (الغزو الصليبي) على عالم الاسلام قد أبرز القوى الاسلامية المتمثلة في السلاجقة وحلفائهم (عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين) فإن (الغزو التتري) قد أبرز المماليك (قطز وبيبرس وقلاوون والناصر) كذلك أبرز غزو الفرنجة والأسبان قوى البربر (المرابطون والموحدون) : يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ابن علي . وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثا طبيعيا ، ونهاية محتومة ، إذا ما نظرنا إلى تطور القوى في العالم . إذ ذاك ، مع ضعف القيادة السياسية

الاسلامية في مقر الخلافة في بغداد ، حتى ليمكن أن يقال إن العبارات التي وجهها جنكيزخان وتيمورلنك إلى أمراء المسلمين ، إنما تمثل الواقع المحتوم في هذه الفترة حين وصفهم بأنهم « ملوك وحكام ظلمة قد أشبعوا أنفسهم ، وأجاعوا أمتهم ، وأنهم غفلوا عن مفهوم الاسلام في عدالته ووحدته ، وفي المساواة والحق . ولذلك فإن الله قد سلط التتار عليهم لينتقموا منهم ، وإنهم آية الله على هذه القيادات الظالمة » هذه العبارات التي أوردها التتار في رسائلهم إلى أمراء الاسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التاريخ ، فما من قوة تضعف إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها ، وأن تحل محلها ، وان الدول تمر بمراحل من القوة والضعف ، فإذا شاخت كان لا بد لها أن تنهار ، وكذلك كانت الدول الممثلة للاسلام من سمرقند إلى بغداد في هذه الفترة (**٦١٦ - ٦٥٦ هـ**) بين سيطرة جنكيزخان وهولاكو قد أصابتها الفرقة والضعف والغفلة ، واستسلمت إلى الترف والانحلال ، وانطوت على نفسها . فكان لا بد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم .

وقد جاءت موجة المغول الأولى **٦١٣ هـ ١٢١٦** م بقيادة جنكيزخان في جيش قوامه ستون ألفا ، اجتاح هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم ، وتدفق ما بين الصين والأدرياتيك .

ثم كانت موجة المغول الثانية (**٦٥٦ هـ ١٢٥٨** م) بقيادة هولاكو فاجتاح عالم الاسلام حتى بلغ بغداد فدمرها ، وأسقط الدولة العباسية ، وقتل الخليفة المستعصم وبلغ الشام ، واستولى على حلب . وكانت معركة « عين جالوت » هي الرد الحاسم من القوة الاسلامية الجديدة التي برزت في مصر ، وهي « قوة المماليك » التي حملت لواء الدفاع عن الاسلام . غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولاكو أن طواهم الاسلام ، فاعترف بركة خان سابع الخانات . وزعيم القبيلة الذهبية بالاسلام ديناً لدولته **٦٥٤ هـ ١٢٥٦** م وكان بركة خان معاصراً لركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار الوثنيين ، وكان لهذه المحالفة أثر بعيد المدى في انتصار الاسلام والادالة من خصومه ، وفي ظل محالفة بيبرس لبركة خان استطاع أن يكبر المغول خسائر فادحة ، وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر ،

والأجزاء القريبة من عالم الاسلام ، ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين ، وعرف بتحمسه للاسلام والدعوة إليه ، وكان أول من جدّ في نشر الاسلام في جميع أنحاء روسيا .

(٢)

إذا كانت قوة السلاجقة وخلفائهم ممثلة في عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين قد واجهت المرحلة الدقيقة من معركة الحملات الصليبية ، فإن المماليك قد واجهوا معركة التتار ، ومعركة تصفية الامارات الصليبية . وقد كان المماليك قوة إسلامية شابة بدوية . من الصعب أن تتكون وتنمو وتبلغ ما بلغته من عز وقوة في غير ظل الاسلام على حد تعبير (فيليب حتي) فقد كان المماليك مجموعة من أرقاء مختلف الأجناس والعناصر ، رفعهم الاسلام وأمدهم بمفهومه في الحرية والقوة ، فدافعوا عنه ونصروه . سيطر المماليك على مقدرات السياسة في الشام ومصر طول قرنين وثلاثة أرباع القرن ، في أدق مراحل التاريخ الاسلامي ، وفي أدق مناطق الخطر ، وأتيح لهم أن يحققوا نصرين كبيرين للاسلام :

(الأول) إجلاء بقايا الصليبيين والباطنية ، وإقامة سدّ منيع في وجه جيوش التتار دون غزو هذه المنطقة ، أو بلوغ امتدادها في البحر الأبيض وأوربا . وكان ذلك من أدق المواقف التي يقدرها التاريخ العالمي قدرها حين يكون السؤال هو : ماذا يكون ميزان القوى وحركة التاريخ لو لم يكن المماليك في هذه المنطقة ، وماذا يكون مستقبل آسيا الغربية ومصر ، في التعرض لموجات التتار التي ساقوها على بغداد وسوريا وحلب ؟

ولقد كان دور « الظاهر بيبرس » في هذه المرحلة بالغ القوة والأثر ، في معارك « عين جالوت » واستخلاص الامارات التي سيطر عليها الصليبيون ، واحدة بعد واحدة . والحملات العنيفة التي جردها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم في ساحل الشام مما عجل بإجلائهم من بعد .

وكانت للظاهر بيبرس حركته العالمية الضخمة في معاهداته مع ملوك المغول وملوك أوربا واتفاقاته مع زعيم خانات المغول في وادي الفولجا ، وما حقق

من دفع امتداد الاسلام في قبائل المغول ، بحيث كسب الاسلام قوتهم العسكرية للوقوف في صفه والدفاع عنه .

وكان للظاهر بيبرس تاريخ قديم قبل معركة « عين جالوت » فهو الذي هزم لويس التاسع في معركة المنصورة **٦٤٨** هـ **١٢٥٠** م . وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يبني جيشا وأسطولاً قويين ، وقد كللت مختلف اشتباكاته مع الصليبيين بالظفر والنصر . ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث العلمين : هارون الرشيد ، وصلاح الدين . وقد عرف بجولاته الرائعة ، وتنقلاته من حصن إلى حصن ، ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سوريا إلى حدود مصر ، وداخلها . وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين ، فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم حتى انتزعوا منهم آخر معاقلهم ، واستخلصوا آخر حصونهم . كما استأصلوا شأفة الباطنية والحشاشين .

وكان قلاوون وابنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين في سبيل الدفاع عن الاسلام ، ورد خصومه ، وإليهم انتهت آخر قلاع الصليبيين . وفي عهد الأشرف سقطت عكا في أيدي المسلمين **٦٩٠** هـ / **١٢٩١** م وكان لاستعادة عكا صدى بعيد في المجتمع الاسلامي فقد كان ذلك علامة على انتهاء آخر حلقات الغزو الصليبي في المشرق الاسلامي . وقد وصلت سلطة المماليك أقصى اتساع لها خلال القرن التاسع الهجري (ق **١٥** م) حين استطاعت أن تسيطر على قبرص ، وتحاول ضم رودس للاجهاز على ما بعد الحملات الصليبية من محاولات الحصار على عالم الاسلام ، كما بسطت نفوذها على الشام ومصر وأعالي الفرات ، وأطراف آسيا الصغرى الشرقية .

ولا شك كانت هذه الفترة مرحلة من أقوى مراحل « استعادة الثقة » في عالم الاسلام . فقد نشط المسلمون إلى عمليات المقاومة وبرعوا في أعمال القتال بالمنجنيقات والكبوش وهدم الأسوار والأبراج . وفي هذه المرحلة كان الأدب العربي سلاحاً قويا في مواجهة هذه الحملات ، وفي شحذ الهمم ، وتعبئة القوى الروحية والعسكرية . وكان الزحف الصليبي والزحف التتري من بعده دافعاً قويا للمسلمين إلى الوحدة والمقاومة ، وكان التتار مع الصليبيين على اتفاقات

سرية ، وارتباطات حددت مواعيد الغزو التتري . وذلك لوضع العالم الاسلامي بين فكي الكماشة : التتار من الشرق ، والصليبيين من الغرب ، ولكن الاسلام استطاع أن يثبت للصليبيين والمغول ، واستطاع الظاهر بيبرس وخلفاؤه أن يضربوا الصليبيين ويمنعوهم من التحالف مع التتار ، حتى خرج الصليبيون مقهورين ، وامتص الاسلام المغول وصهرهم في بوتقته فاعتنقوا الاسلام وكونوا دولاً إسلامية كبرى أشهرها دولة المغول في الهند التي أسسها الملك بابر . وإذا كان القرن السابع (١٣ م) قد شهد تصفية الامارات الصليبية ، وطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين وساحل الشام . فإن القرن الثامن الهجري (١٤ م) قد شهد ردّ الفعل لهذه النتيجة في المعسكر الصليبي ، حيث قامت أوربا بالدعوة إلى مقاطعة عالم الاسلام وتحريم الاتجار مع المماليك ، مهددة تجار الافرنج بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة . غير أن المماليك كانوا من البراعة والحنكة السياسية بحيث استطاعوا تحطيم هذا الحصار ، وتمكنوا من عقد عدة معاهدات مع الدول الأوربية ، كما أحسنوا معاملة التجار الفرنجة . ومن ثم أخذ الغربيون في إعداد حملة لمهاجمة مصر عسكريا . وقد تم ذلك بالحملة على الاسكندرية التي قام بها بطرس الأول ملك قبرص (٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م) غير أنه اضطر إلى الانسحاب بعد بضعة أيام - ويمثل القرن الثامن الهجري(١٤م) مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام ، ذلك هو ظهور الدولة العثمانية الفتية التي استطاعت من بعد أن تجمع أغلب أجزاء العالم الاسلامي ، وفي مقدمتها العالم العربي تحت جناحها ، وإن بقي المماليك يسيطرون على الشام ومصر خلال القرن التاسع الهجري (١٥ م) حيث واجهوا غارات القراصنة الفرنجة بالتعاون مع القبارصة وفرسان الأسبارية في رودس على السواحل والثغور المصرية والشامية ، مما انتهى إلى إذكاء روح الجهاد من جديد ضد الفرنجة ، حيث قام المماليك بغزوات انتقامية ضد رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض بالاستيلاء على قبرص في عهد (برسباي) .

(٢٥)
« انتشار الاسلام في مرحلة الغزو الخارجي » .

تكشف « حركة التاريخ الاسلامي » عن ظاهـرة بعيدة المدى على طوال مراحله هي : قدرة الاسلام على كسب النصر في مجال النكسة ، وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الأجنبية الانتقاص منه ، وامتـداد ظلالـه إلى شعـوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة أو الضعف في إحدى مراكزه المتقدمة . وفي مرحلة الغزو الخارجي واجه عالم الاسلام هجوم ثلاث قوى :

(١) هجوم الصليبيين في حملاتها المتوالية التي لم تتوقف ومعارك المسلمين معها .

(٢) هجوم الفرنجة والأسبانيين على الأندلس وشواطىء المغرب .

(٣) هجوم التتار والمغول في زحوفهم الضخمة ، وانتصارات المسلمين عليها .

ولقد كان وقع سقوط بغداد في قبضة الغزو المغولي بالغ الأثر في المجتمع الاسلامي كله ، فقد زلزل النفوس وأصابها بالاضطراب والتشاؤم ، وأضفى على المسلمين روحاً من اليأس القاتل . فقد خيل للناس من ضخامة وقع الحدث ، وعمق الضربة أن الاسلام قد انتهى ، حتى أن مؤرخاً كبيراً هو ابن الأثير ظل معرضا عن ذكر الحادثة بضع عشرة سنة . بل لقد كان وقع سقوط بغداد أكثر دويا ، وأخطر أثراً في النفوس من الحملات الصليبية . ذلك أنها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة إلى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدة الاسـلام

بالرغم مما منيت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغته من الانكماش والتضاؤل في نفوذها الحقيقي . غير أن النظرة الأوسع تكشف عن حقيقة عجيبة ، هي أنه في نفس العام ٦٥٦ هـ الذي سقطت فيه بغداد ، مركز القيادة السياسية الاسلامية في يد المغول ، في نفس هذا العام . غزا الاسلام واحدة من أضخم قبائل التتار هي قبيلة بركة خان ، وفتح طريقه بالسيطرة على عقول وقلوب هذه القوة العاتية التي كانت قد هزت العالم كله ، وزلزلت قواعده منذ أربعين عاماً قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعات الغرب الطامع في أن يضمها إلى دينه وثقافته ليجعل منها أحد فكي الكماشة على عالم الاسلام . غير أن ذلك لم يتحقق ، فقد كان « دعاة الاسلام » البسطاء أقدر على كسب إيلخانات المغول من حملات التبشير الغربية . ويرى توماس أرنولد أنه ليس في تاريخ العالم نظير لتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، حيث كل ديانة تنافس الأخرى قلوب أولئك الفاتحين القساة ، وكانت زوج جنكيزخان من قبيلة مسيحية . ومن ثم تطلعت السلطتان المسيحيتان في الشرق والغرب لمساعدة التتار في حربها الصليبية مع المسلمين ، ويؤكد توماس أرنولد أن هينون ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع مانجوخان (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ على أن يظهر عطفاً شديداً على المسيحين . وقد ظن الغربيون أن المغول قد تحمسوا للمسيحية وانتصروا لها ، فأرسل القديس لويس سفيراً من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر المسيحية ، غير أن ظهور الاختلافات بين المسيحية من اللاتين والاغريق والنسطوريين والأرمن وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته . قد جعل الأصل ضئيلا في إحراز نجاح أكبر . هذه عبارة توماس أرنولد في الخطة التي دبرها الغرب مع المغول ، والتي تحطمت حين دخل بركة خان وقبيلته في الاسلام ، ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في الروسيا ، غير أن تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، ربما قد حجب الأمل في انتشار الاسلام بين المغول قليلا ، وكان ابن هولاكو (أباقاخان) قد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وكان يرسل السفراء إلى القديس

لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقيلية وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين ، غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه ملوك أوربا ، فإن اخاه تكودار **٦٨١ هـ ١٢٨٢** م الذي اعتلى العرش من بعده ـ كان قد اعتنق الاسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين ، فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التيار إلى الاسلام ، وأرسل نبأ إسلامه الى سلطان المماليك في مصر « قلاوون » قال في رسالته :

« لقد ابتدأنا بتوفيق الله ، بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديما لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً ، إن الاسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، عفا الله عما سلف ، ومقدمنا بإصلاح أمور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها وإنا أطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد . ليسافروا بحسب اختيارهم » توقيع « دتلودار احمد » . وتوالى الأيلخانات المسلمون حتى كان أعظمهم شأناً « غازان » **٩٦٥ هـ ١٢٩٥** م سابع الأيلخانات الذي جعل الاسلام دين الدولة الرسمي في فارس ، وتوالى إسلام أمراء التتار وملوكهم : أسلم طرماشبرين ملك جعطاي **٧٢٧ هـ ١٣٢٦**) . وتغلق تيموخان ملك كاشغر **٨٤٨ هـ ١٣٤٧** م على يد الشيخ جمال الدين ، وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل أمراء دولته ، وكان أولهم الأمير تولك : وقال له الخان : ألا تدخل الاسلام ، عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال : قد دخلت في الاسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين في كاشغر ، وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين ، ولكني لم أصرح بذلك خوفا منك ، وعرض الاسلام على سائر الأمراء فقبلوه جميعاً إلا واحداً . وفي هذا اليوم قص **١٦٠** ألف رجل شعورهم ودخلوا في الاسلام ، ولما تولى أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية (**٣١٧ هـ**) **١٣١٣ ـ ١٣٤٠**م السلطة عمل على تحويل كثير من الأهلين إليه ، وقد وضع خطة لنشر الاسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا ، وبالرغم من تحمسه لنشر الاسلام وتفانيه ، كان كثير التسامح نحو رعاياه المسيحيين . وقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء .

وفي هذا يقول توماس أرنولد : إنه بالرغم من كل المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها مجاهدين في طي الخفاء لجذب غير المسلمين إلى حضارة الاسلام .

* * *

كما حقق الاسلام توسعا ذاتيا في هذه المرحلة في قلب الصليبيين أنفسهم . فإن روح الاسلام وعدالته التي لمسها الغربيون عن قرب ، وما أدهشهم من شمائل نور الدين وصلاح الدين ، قد شدهم إلى الاسلام ، وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالاسلام إلى تغير مفهومهم عن المسلمين ودينهم ، وبدا رأيهم أقرب إلى الانصاف . بل لقد انجذب كثيرون منهم إلى حظيرة الاسلام ، ويقول توماس أرنولد : يظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحريا خاصا حتى أن نفراً من الفرسان المسلحين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية ، وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين ، حتى أن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس ، أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية ١٢٥٠ م كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ، ثم اعتنقوا الاسلام (جونفيل) . ويتصل بهذا أن المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التي كانت من قبل ، ومن المؤكد أن المسيحين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ، ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيا ١٢٤٤ م رحبوا بالقادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ، ورضوا بحكمهم ، وقد دفع هذا الشعور كثيراً من مسيحيي آسيا الصغرى إلى الترحيب بمقدم السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الافريقية (توماس أرنولد) .

* * *

وقد انتشر الاسلام ذاتيا في آفاق أخرى ، هي المغرب وشمال أفريقيا ، وكان لتقبل البربر له أبعد الأثر في انتشاره في آفاق أفريقيا ، ويرى المؤرخون أن ظهور المرابطين كان بعيد الأثر في انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الاسلامية (الدكتور حسن محمود) وقد ظهر في مستهل القرن الخامس (عبد الله بن ياسين) المعلم التقي الذي اكتشفه يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمة للنهضة الضخمة التي قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام في مختلف أنحاء قطاعيات أفريقيا التي تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطا في جزيرة نهر السنغال ، حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم ألف شخص ، ثم دفعهم إلى قبائلهم وعشائرهم ، ثم زاول الدعوة في القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة عبد الله بن ياسين أن تحقق توسعاً في قلب أفريقيا حيث أسلمت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ، ثم كانت حركة الموحدين امتداداً لحركة المرابطين من حيث جذبت إلى الاسلام قبائل أخرى كانت بعيدة عن الاسلام . وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية ، وشرح قواعد الاسلام وأمر بالأذن بها .

(٢٦)

« الفكر والثقافة في مرحلة الغزو الخارجي »

هل مهدت مرحلة التبلور والانصهار لمرحلة الغزو الخارجي :

الواقع أن مرحلة التبلور والانصهار تميزت باندفاعات قوية نابعة من مفاهيم الاسلام . فقد استطاع الاسلام أن يحقق انتصارات ضخمة في خلال مرحلة « التبلور والانصهار » مستقلا عن الدولة الاسلامية ، ذلك أن حرية الحوار الفكري بين دعاته وبين دعاة الأديان الأخرى والمذاهب والملل المختلفة قد كشفت جوهره ، فاستطاعت بساطته وشموله وتكامله أن تنفذ إلى أعماق النفس الانسانية المتطلعة إلى قوة دافعة إيجابية ، تعين على البناء والتقدم والانشاء ، وقد أعطى الاسلام معتنقيه هذه القوة ، وأنشأ نهضة ضخمة في مجال العلوم والفكر والبناء والحضارة فهو بقيمه الانسانية من التوحيد والعدل والمساواة ، وسماحته في الانفتاح على الثقافات والحضارات قد استطاع أن يستوعب حصيلة ضخمة من عصارة تجارب الأمم ونهضاتها من الاندفاع إلى الأمام ، كما استطاعت مفاهيمه التي تتسم بالشمول والتكامل والوسطية أن تصهر العناصر المختلفة في بوتقة « وحدة فكر » بقيت واضحة الخطوة في مجال البناء ، حيث ظلت قوى الشعوبية والزندقة والالحاد والاباحة تواصل محاولاتها في إزاحة الاسلام عن مفهومه ، أو التألب عليه بالمؤامرة للقضاء على دولته .

وظلت دولة الاسلام تشق طريقها على النحو الذي تحقق لها . دائرة في

فلك الاسلام ، لم تصل بعد إلى تحقيق المثل الأعلى الذي رسمه ، ولكنها مضت تبني الحضارة في الشام ، ثم في العراق وفارس ، وأصبحت القيادة السياسية في بغداد في العصر العباسي ، وقد أفسحت الطريق إلى الدول الاستقلالية ، حيث ظهر بناة الدول ، وقادة الأفكار المختلفة ، وحيث استطاعت كل القوى والملل والمذاهب والعناصر أن تقيم دولاً وحكومات لا فرق في ذلك بين الشيعة والسنة ، وبين القرامطة والزنج ، غير أن الصراع بين هذه القوى بدافع الخلاف بين العرب والفرس أساساً ، وبين محاولة الفرس في الاستقلال عن النفوذ العربي ، وبين حركات التآمر والانقضاض التي حاولت أن تحمل شعارات العلويين ، أو آل البيت كوسيلة لاغراء الشعوب ، هذه المعركة الضارية في مجال الفكر ، وفي مجال الحركات السياسية قد أضعفت الوحدة السياسية الاسلامية بين أجزاء « عالم الاسلام » على النحو الذي مكن القوى الخارجية من التأهب لغزوه من الأندلس في حدود المغرب والدولة البيزنطية في حدود الشام ، هنالك دخل العالم الاسلامي مرحلة جديدة : هي مرحلة « أزمة الاسلام » كما نسميها وهي مرحلة الغزو الصليبي المزدوج على الشام والأندلس ، والغزو التتري الذي ارتبط بالغزو الصليبي في خطط منسقة كمحاولة ثلاثية للقضاء على عالم الاسلام .

وقد استمرت هذه المرحلة : مرحلة الغزو الخارجي فترة قرنين كاملين هما (القرن السادس والسابع) . وفي هذه المرة ظهرت القوى الثلاث الشابة البدوية المحاربة ، ذات الفروسية والصرامة ، والتي كانت في مستوى الأحداث وهي قوى (١) السلاجقة وحلفائهم وتابعيهم الأتابكة والأيوبيين (٢) المماليك (٣) البربر « المرابطين والموحدين » .

ماذا كان شأن الفكر الاسلامي في هذه المرحلة ؟

كان الفكر الاسلامي في مرحلة الانصهار والبلورة قد مّر بعدة مراحل :

(١) المعتزلة : لسان الدفاع عن الاسلام في مواجهة الفلسفات القديمة .

(٢) تحقيق الحديث والسنة ، وتكون مدارس الفقه في مواجهة حملات الشعوبية .

(٣) إعادة صياغة مفهوم الاسلام بالعودة إلى مفهوم « القرآن » بوصفه حجر الأساس للفكر الاسلامي جامعاً بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات :

(١) الاعتزال (الأشعري) . (٢) الباطنية (الغزالي) .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل مرحلة الغزو الخارجي استشرت الدعوة الباطنية .

(١) كقوة فكرية تهدف إلى القضاء على مفهوم الاسلام في بساطته وشموله وتكامله ووسطيته .
(٢) وحركة سياسية تهدف إلى إسقاط الدولة الاسلامية .

كانت الفكرة الباطنية خلاصة الفلسفات المجوسية واليونانية الوثنية مصاغة في قالب ظاهره إسلامي ، تدعو إلى إسقاط التكليف في العبادات ، وتعطيل ظاهر الشريعة ونسخه وذلك عن طريق تأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق ، مع إنكار الغيبيات وإنكار عقيدة ختم النبوة ، وقد صور دعاة الباطنية هدفهم في عبارة واضحة ، بعث بها عبد الله بن الحسن القيرواني ، إلى الحسن بن سعيد الحبابي زعيم القرامطة على هذا النحو « ادع الناس بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منهم رشداً فاكشف له الغطاء فإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا » .

والواقع أن دعاة الباطنية وفي مقدمتهم (عبد الله بن ميمون القداح) قد بحثوا عن أنصارهم بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ـ على حدّ تعبير دوزي ـ ولم يكن ابن ميمون يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة ، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسرِّه وخفي عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية ، وأن باقي البشر (وكان يطلق عليهم الحمر) ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادىء . وقد ظلت الباطنية تنشر دعوتها باسم الدعوة إلى آل البيت ، حتى أصبحت مؤسسة ضخمة تنقض على الحكومات وتقتل الأعلام من الوزراء والقادة أمثال الملك الطوسي ، والوزير نظام الملك ، وكان لها دورها الخطير في معركة الاسلام مع الصليبيين ، فإن معظم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي ترصدتهم الباطنية بالقتل . أو تعرضوا لمحاولات الاغتيال ، كما تعرض صلاح الدين .

ويتصل بالباطنية جماعة إخوان الصفا ودعوتهم خليط من الفلسفة اليونانية ، والعقيدة الباطنية ، ومزيج من الاسلام والالهيات اليونانية مستهدفة خلق دين آخر ، وكانت دعوتهم هي « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (التوحيدي : الامتاع والمؤانسة) والمعروف أن أصحاب حركة (إخوان الصفا) قد كتموا أسماءهم ، وهنا موضع التساؤل فيما لو كانوا مخلصين أو صادقين أو غير منحرفين عن فهم الاسلام ومقوماته . ومن أهم معالم دعوتهم إنكار البعث بالأجساد (جـ ٤ ص ٦١ رسائل إخوان الصفا) ويفسرون الآخرة والجنة والنار على نحو مغاير لما يفهمه ويعتنقه المسلمون . وبالجملة فإن فلسفة إخوان الصفا هي مزيج من فلسفات اليونان الوثنية ، والمزدكية الفارسية ، والمانوية ، والوثنية ، والكهانة ، والتنجيم والسحر . ويرى العلامة ابو الحسن الندوي أن هذه الدعوة كانت تهدف إلى إعداد النصوص والنقول لحركة انتقاض جديدة . وذلك بتجميع علم ماكر يراد به عمل سياسي لهدم دولة الاسلام والاسلام نفسه .

الغزالي : واعادة صياغة الاسلام

هذه هي الصورة التي كانت تتحرك قبل الغزو الخارجي لعالم الاسلام ، بالاضافة إلى التمزق والخلاف الضخم بين العناصر والقوى الاسلامية . ومن هنا كان لا بد للاسلام أن يواجه هذا الصراع بإعادة صياغة مفهوم الاسلام على نحو يسلك الجماعة الاسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة .

أما من الناحية الفكرية فقد كان « الغزالي » هو حامل لواء « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » بالاتجاه نحو القرآن نفسه كمصدر أساسي وإعطاء الاسلام تكامله وشموله بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية ، والفلسفات القديمة .

وفي نفس الوقت كانت القوة السلجوقية ، البدوية الشابه المحاربة في المجال السياسي عنواناً لسيطرة وحدة الجماعة ، فهم حملة علم السنة ، وأصحاب اللواء المرفوع في وجه الغزو الخارجي . وقد استطاع الغزالي أن يعيد صياغة مفاهيم الاسلام صياغة جديدة . بعد أن أوغل في دراسة الفرق ، وتعمق حجج الفلاسفة والباطنية . (٤٥٠ - ٥٠٥) كان جوهر الاسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصفى الغزالي الاسلام من جديد ، وأزال عن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه ، وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الاسلام أسلحة قوة ، ثم تحولت مع الزمن ومع انفصالها عن شمول الاسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الاسلام نفسه ، صارع قوى

المتكلمين والباطنية والفلاسفة ، وواجه انحرافاتها وردها جميعها في صياغة جديدة ، وصبها جميعها من جديد في « بوتقة الاسلام » ليبرز الاسلام بمفهومه الأسنى ، وقد استصفى عناصر القوة والحيوية التي تتمثل في هذه الأفكار والدعوات ، وأعادها إلى منابعها من الاسلام ، وأقام من جوهرها بناء فكر الاسلام في شموله .

فليس الاسلام فلسفة وحدها ، ولا فقهاً وحده ، ولا زهداً وحده ، ولا كلاماً وحده ، ولكنه هو الأصل الأصيل الذي تلتقى فيه هذه القيم على قدر لتكون شمول الاسلام وتكامله ، ووسطيته . وقد دعا الغزالي إلى اتخاذ القرآن نفسه أساساً لمنهج الفكر الاسلامي ، كاشفاً عن أن علم الكلام كان سلاحاً من أسلحة الاسلام لفترة من الفترات غلبت فيها الفلسفات القديمة . فكان دفاع الاسلام ـ عن نفسه ـ بنفس أسلحة خصومه ، وإنما يمثل الكلام أمراً جزئياً فيما يتعلق بالدفاع عن شكوك خصوم الاسلام ، وهو ليس دعوة شاملة ، للطباع السليمة ، والعقول المستقيمة « أما القرآن » فهو الغذاء الصالح والماء السائغ لكل إنسان ليس فيه ما في الكلام من ضرر أو خطر أو جزئية مجال الدفاع عن الاسلام والرد على خصومه فضلاً عما تعطي آراء المتكلمين من صورة الجدل مما يعجز عنه العامي ، وربما يكون سبباً لروح العناد في قلبه ، والأنفع هو الكلام الجاري كما يشتمل عليه القرآن .

« «وادلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، أما أدلة المتكلمين فهي مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون . بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي » . أما الفلسفة عنده فهي « مجموع أفكار وقياسات وتخمينات » والغزالي لم يتهم الفلسفة بالتكفير أو يهاجمها بالهجاء . ولكنه قال : « إن أغلب قضاياها برهانية ، ولا يخدم الاسلام إنكارها ، وقال إن الاسلام لا ينصر بإنكار هذه العلوم . وليس في الشرع تعرض لها بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للعلوم الدينية ، وقال إن بعض علوم الفلسفة لها فائدتها وخاصة علوم (الرياضة والطبيعة) أما الالهيات ففيها أكثر أخطائهم . وقال إنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه من المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الالهيات ليست كالعلوم الأخرى (الرياضة

والمنطق) وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادىء . ولذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وقال إن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يجدوا أصحابها مع رزانة عقولهم ، وغزارة علمهم منكرين للشرائع والنحل جاحدين لتفاصيل الأديان والملل ، ولم يهاجم الغزالي علوم الفلسفة التي لا تصادم الشريعة . وناقش مسائلهم في الالهيات . وما بعد الطبيعة ، وبين ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم في ثلاث مسائل :

(١) قدم العالم .

(٢) قولهم بأن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص وأنظارهم .

(٣) بعث الأجساد وحشرها . وقال إن هذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه ، وعلى هذا النحو بدأ القرن السادس . وقد أقبلت الحملة الصليبية الأولى ، وبدأت حركة مقاومة ضخمة في منطقة الشام وساحل فلسطين ، ولم يلبث أن برز عماد الدين زنكي يحمل لواء الوحدة الاسلامية السنية وخلفه نور الدين محمود صاحب دعوة « إعادة بناء الأخلاقية الاسلامية » كقوة أساسية لمعركة المقاومة .

ثم صلاح الدين الذي أقام بخلقه الاسلام نموذجاً جديداً للمثل الأعلى الاسلامي . وقد كان لأزمة الاسلام أثرها في أمرين :

(١) وحدة الجماعة الاسلامية : وحدة سياسية وفكرية ، وبروز دعاة ومصلحين من أمثال: « عبد القادر الجيلاني » .

(٢) بروز دعاة الزهد والتصوف ، وتجمع كتائب المرابطين في الثغور ، ثم تحولهم إلى جماعات تعيش في الخوانق والزوايا .

(٣) ظهور أدب جديد هو أدب المقاومة للصليبيين (الشرق) والفرنجة (الغرب) والتتار . وقد كان لحملات الصليبيين المستمرة أثرها في بروز دعاة السنة من السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة وآل زنكي والأيوبيين والمماليك وأثرها في التقاء الفكر الاسلامي على وحدة تتمثل في مفهوم أهل السنة والجماعة ، حيث انصهرت مختلف الفرق الفلسفية والكلامية والمتصوفة والفقهية من جديد في لقاء روحي وفكري بين أجزاء العالم الاسلامي ومفاهيمه الفكرية ، وفي مقاومة

الغزو الصليبي والتتري والفرنجي خلال قرنين كاملين ، وكما انتشرت حلقات الوعظ ، وحلقات الصوفية ، وانتشرت المدارس السنية التي أنشأها السلاجقة ، وفي مقدمتها المستنصرية والنظامية ، وبدأت التربية الاسلامية تشق طريقاً جديداً قوامه « وحدة الجماعة السنية » في التقاء المذاهب الاسلامية ، كما برزت حركة الاخاء والفتوة الاسلامية . غير أن الغزالي في إسقاط الكلام والفلسفة الالهية اليونانية قد أنعش التصوف خلال القرن السادس كله حين بلغ التصوف مبلغه من الانحراف الذي بلغته الفلسفة والكلام من قبل ، عندئذ كان الاسلام في حاجة إلى شخصية ضخمة « تعيد صياغة مفاهيم الاسلام » في مواجهة محاولة الجزئية الصوفية بمفهومها الجبري ، حيث حاولت أن تتمثل مفهوماً كاملاً للاسلام ، ففي نحو قرن من الزمان انقلب التصوف إلى حركة فلسفية مضطربة جمعت إليها انحرافات الفلسفات القديمة ، وقالت بالحلول : والاتحاد ووحدة الوجود . وبعدت عن بساطة الاسلام في شموله وتكامله ، ووسطيته ، ويتمثل ذلك في أقوال الحلاج والسهروردي وابن عربي ، كما تحولت حركة الرباط في الثغور إلى حركة الدراويش المنسحبة من المجتمع والعمل والحركة والحياة إلى الاعتكاف في الخوانق ، ومن هنا أصبح التصوف انحرافاً إلى نزعة فلسفية فكراً ، وإلى جمود وعزلة وسلبية من الناحية العملية ، ودخل إلى التصوف القول بإسقاط التكليف . وبذلك بعد عن مذهب السنة وقواعد الشرع ، وروح الاسلام في طبيعته الايجابية القائمة على محاربة النفس والتوكل على الله والجهاد ، غير أن الحركة الصوفية من ناحية أخرى قد استطاعت أن توسع قاعدة الاسلام ، وأن تنشر التوحيد ، في مختلف أجزاء أفريقيا وآسيا . ثم لم تلبث خلال هذه المرحلة أن تقاربت السنة من الصوفية ، كما تقاربت الصوفية من مفاهيم الشيعة ، وحاولت أن تلتقي في وحدة فكر في حظيرة الاسلام .

وإذا كان « الكلام » هو محاولة إيقاف الاسلام في فلك العقل فإن « الصوفية » هي إيقاف الاسلام في فلك القلب ، وكلاهما شطرا الاسلام ، ولا يستطيع مفهوم منهما أن يستقل بالاسلام ، والاسلام في شموله وتكامله ووسطيته يلتقي بهما منصهرين فيه ، والاسلام دين العقل والقلب معاً .

(٢)

الحركة الموسوعية الكبرى

كان هجوم الصليبيين والفرنجة والتتار من خارج عالم الاسلام عليه في ثلاثة اتجاهات متلاقية يربطها خط واحد هو القضاء على الاسلام « دولة وفكرة » . وهي حملة « عاتية » يمكن أن توصف بأنها « أزمة الاسلام الكبرى » . كان يمكن أن تقضي على أي حضارة يحمل لواءها فكر ودولة ، غير الاسلام ، فقد استطاع الاسلام أن يخرج أحشاءه من البدو المقاتلين الأشداء في ثلاث قوى : هي السلاجقة والماليك والبربر في مواجهة القوى الثلاث ، كانت هذه القوى عاملة على « إعادة وحدة الجماعة » في مفهوم الوسط (السنة) والدفاع عن أرض الاسلام ، غير أن الاسلام لم يتوقف في هذه المرحلة عند « الدفاع » بل استطاع أن يفتح فتحاً سلمياً في آفاق جديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، ويشق طريقاً مجدداً فيغزو قلوباً جديدة ببساطته وسماحته وشموله ووسطيته ، فيضيف عناصر جديدة في الوقت الذي كانت قلاع الباطنية تسقط ، والمغول البرابرة يدخلون في الاسلام أفواجاً .

وفي هذه المرحلة برزت « حركة فكرية وثقافية » بعيدة المدى ، لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واتساعها وشمولها . ذلك أن الغزو الخارجي قد هز نفوس الأعلام والمفكرين هزاً عنيفاً . وكانت عمليات القضاء على التراث الاسلامي على النحو الذي حدث في بغداد حين فقدت مئات الألوف من مجلدات الكتب ، أو ما حرق منها في ساحات حلب أو دمشق أو نقل إلى مناطق بعيدة

بقصد القضاء على قوتها كفكر ، لقد هال الباحثين المسلمين الأعلام هذا الموقف ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل تأليف الموسوعات الضخمة تضم إليها ألوان الفنون والثقافات التي كانت موزعة على كتب مختلفة الفنون والثقافات . وقد نسقت من جديد دون تقدير كبير للصياغة الفنية . وكان ذلك حماية لها من الضياع وإعادة لاحيائها من جديد ووضعها في أيدي الباحثين .

ونظرة إلى مؤلفات الغزالي ، أو ابن تيمية ، أو ابن القيم ، تجد أنها محاولة تقديم عصارات شاملة سريعة للفكر الاسلامي كله ، حتى لقد قيل في وصف كتاب « إحياء علوم الدين للغزالي » انه يكفي بديلاً ، إذا فقد التراث الاسلامي كله ، ومهما كان في هذا القول من المبالغة ، فإنه محاولة لتصوير مدى هذا التحدي الذي واجهه الغزالي في سنواته الأخيرة ، بعد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق ، واستيلائها على بيت المقدس . وفي مواجهة ذلك الاحساس المضطرم بالخطر على الفكر الاسلامي مما كان ثمرته تأليف عمل ضخم كإحياء علوم الدين .

* * *

قد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة عجيبة في مجال الفكر هي وجود إنتاج ضخم في مختلف مجالات الثقافة . ففقه ونحو ولغة وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم . فقد كانت هذه المرحلة في الواقع ثمرة المرحلة السابقة التي توسعت فيها دور العلم والمساجد والمعاهد والمؤسسات العلمية المختلفة في عواصم الحواضر الاسلامية ، وكانت منطقة الشام ومصر أغنى هذه المناطق حيث لم تحل الحروب الصليبية ، ولا الغزوات التترية ، ولا غزوات الفرنجة لأطراف الأندلس والمغرب دون استمرار حركة الفكر والثقافة والأدب ، وطعمتها بتحد جديد وأضفت عليها لون المقاومة والمحافظة على التراث وظلت الجامعات الكبرى : الأزهر في مصر . والقرويين في فارس . والزيتونة في تونس . والأعظم في القيروان والأموي بدمشق ، والنجف وكربلاء ، وسامّرا . ظلت قادرة على أن تحتضن هذه الثقافة وأن تحميها . وعندما سقطت بغداد تحت سنابك المغول، ظلت القاهرة ودمشق وحلب وحواضر المغرب جميعها حافظة للثقافة منمية لها .

ولعل هذا العمل هو أقوى رد على الشبهات التي كانت تتردد من آن لآخر بأن الحياة العقلية قد واجهت في مرحلة الغزو الخارجي مرحلة انحطاط . فضلاً عن أن الخلفاء وبناة الدول في عصر ما قبل الغزو (**٤٩٢ هـ** إلى **٦٩٩ هـ**) - وهو أول فترة الحملات الصليبية إلى أوائل عصر الوحدة العثمانية - هؤلاء القادة لم يترددوا في تكريم النوابغ والعلماء ، واستقدموا إلى دولهم عدداً كبيراً من أعلامهم أمثال : البيروني وابن سينا وابن الهيثم . غير أن هذا العصر يتسم بظاهرة أشد عمقاًهوأن « الجدل الفكري الاسلامي »قد انتهى،حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت ، وبدأت تلتقي في وحدة فكر إسلامي له وسطيته وشموله . ذلك أن حكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة ، وعلى قدر كبير من الثقافة ، وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أعلام المثقفين . فقد كان نور الدين محمود يتابع سياسة السلاجقة في بناء المدارس ، واستقدام العلماء وكذلك شجع صلاح الدين العلماء وقربهم . وكانت مجالسهم حافلة بأهل العلم والفضل ، حيث تطرح مذكرات واسعة ، ومحاورات مفتوحة حول مختلف جوانب العلوم ، وكان صلاح الدين يتكلف السعي إلى العلماء الذين لا يغشون مجالس الأمراء والسلاطين ، كما بنى الكامل دار الحديث في القاهرة وناظر العلماء ، وفي كل ليلة يجلس إلى المفكرين ، ويعقد المباريات بين العلماء في حفظ الجامع الكبير وغيره من كتب الحديث ويجزي عليها .

كذلك كان كلف الظاهر بيبرس بالعلماء والنوابغ ، وحبّه لمحاورات التاريخ والفقه ، وعلى هذه السنة كان قلاوون الذي أنشأ المدارس الكبرى ، وطارح الأدباء . وكانت حلقات العلم زاخرة في مختلف الجوامع الكبرى والزوايا . وفي القاهرة كان جامع عمرو والأزهر والطولوني وجامع الحاكم والمشهد الحسيني ، وكذلك كانت جوامع دمشق وحلب ، ودار الحكمة في طرابلس كلها تشتغل بالعلم .

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحلب وبغداد بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، واستقبلت القاهرة عدداً من علماء الأندلس وفدوا إليها مهاجرين خلال حملات الفرنجة ، وساهمت الأميرات المسلمات : روح الملك الأشرف وأختا صلاح الدين في إقامة المدارس ، وقامت مدارس للمذاهب

الفقهية المختلفة ، المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة ، ومدارس للحديث ، ومدارس للقرآن . ومدارس للطب ، وكانت هناك خزائن الكتب المتعددة ، وقد تعددت آثار الباحثين خلال هذه الفترة في مجالات الحديث والفقه والقراءات والتعبير وأصول الدين والنحو والعروض والقوافي واللغة والبلاغة والنقد الأدبي والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلوم الرياضة والكيمياء والفلك والموسيقى والطب والسياسة واللغات الأجنبية ، وبرز أعلام متعددون في مقدمتهم : الشاطبي . السخاوي . القرطبي . محي الدين النووي . ويجمع الباحثون المثقفون على أن الحياة الفكرية في مرحلة الغزو الخارجي . قد نشطت نشاطاً كبيراً ، وأن ظاهرة « الموسوعات » علامة صادقة على حركة التحدي ورد الفعل في مواجهة الغزو الخارجي : الصليبي والتتري في القضاء على الثقافة الاسلامية .

وقد ظهرت في هذه المرحلة موسوعات : نهاية الأدب : للنويري . صبح الأعشى : للقشلقندي ، ووضع كثير من معجمات اللغة والتاريخ ومطولات السير والأخبار . وقد ظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة ، وقد اصطنعها السلاجقة والمماليك والبربر بوصفها لغة القرآن الكريم . وكان للفاطميين والأمويين من قبل دور واضح في رعاية الآداب والعلوم والفنون في مصر والشام بعد أن تحولت الحركة الأدبية والعلمية إليها بعد سقوط بغداد .

(٣)
الفكر الاسلامي يقاوم تحديات الغزو

بمراجعة مرحلة الغزو الخارجي (من وصول الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ إلى نهاية الحملات الصليبية ٦٩٠ هـ) نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر في حركة التاريخ الاسلامي . هذه الظاهرة أن مقاومة حملات الفرنجة في المغرب ، والصليبيين في المشرق ، والتتار في خلال هذه الصلة وهي حملات متوالية لم تتوقف ، بل كانت دائماً في اضطراد وتدفق ، هذه المقاومة لم توقف العمل في مجال الثقافة والفكر الاسلامي . بل يمكن القول بأن ثمار مرحلة الانصهار والبلورة ، قد تحققت في هذه المرحلة يظهر ذلك بوضوح في مراجعة سريعة للأعلام الذين ظهروا في هذه الفترة ، وهم من ألمع شخصيات الفكر الاسلامي في مختلف فنونه : الفقه والفلسفة والعلوم والدعوة والتصوف والحكم :

الغزالي ، وعبد القادر الجيلاني ، وفخر الدين الرازي ، ومحمد بن تومرت ، وابن رشد ، ويوسف بن عبد المؤمن ، وأبو فرج الجوزي ، وعز الدين عبد السلام ، ونصر الدين الطوسي ، وتقي الدين بن تيمية ، ومحي الدين النووي ، وابن دقيق العيد ، ومحي الدين بن عربي ، وجلال الدين الرومي . وقد اتسم مجال عملهم الفكري شأن الفكر الاسلامي في مختلف تطوراته ومراحله ، اتسم بمقاومة الغزو الخارجي ، وتوجيه مفاهيم الاسلام إلى العمل في هذا المجال ، وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف

إلى القضاء على الدعوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التي كانت من عوامل التخذيل ، ومن الأدوات التي استغلها الغزاة لتفرقة جماعة المسلمين ، أو بث روح التراخي والترف والهزيمة . وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ أيديولوجية الاسلام على نحو جديد ، جامع موحد شامل ، يمزج بين الدعوات المتفرقة ويردها إلى أصلها ، ويقرب بين دعاتها في وحدة ، حتى لا تكون هذه الفرقة بين الصوفية والمتكلمين ، أو بين الفقهاء والفلاسفة عاملاً من عوامل التمزق في كيان المجتمع الاسلامي . وكان هناك أيضاً الاحساس بالخطر من تدمير مقومات الفكر الاسلامي . ومن هنا كانت خطورة ذلك العمل الذي وصف بالتصنيف والموسوعات . وقد لعب العلماء والفقهاء والمسلمين دوراً كبيراً في مجال المقاومة للغزو الصليبي والتتري ، كان إيمانهم بأن مقاومة هذا الغزو تتطلب تحرير الاسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والطغيان .

ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد في مواجهة الأمراء . كانوا يوصون السلاطين بالعدالة في جمع الضرائب والمكوس ، ويطلبون إليهم أن يقدموا ما لديهم ولدى مماليكهم أولاً من حياصات الذهب والحلى . فإذا أنفقوا هذا في الجهاد ، أفتى لهم الفقهاء بأخذ مزيد من مال الرعية .

ولقد عزفوا جميعاً عن المناصب المرموقة واستعلوا على عطايا السلاطين ، وحين استجاب مثل ابن دقيق العيد تلميذ العز بن عبد السلام إلى تولي منصب قاضي القضاة ، اشترط بأن لا يرد حكمه ، وأذاع منشوراً عاماً يدعو الجميع إلى التزام نصوص الشرع واطراح ما يؤثر في تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام . ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصح . بل شاركوا بسيوفهم في الجهاد . شارك ابن تيمية في مقاتلة التتار ، واشترك العز بن عبد السلام في مدافعة الصليبيين في غزو دمياط ، وأشعلوا الحماسة في الصدور ، وكان ابن تيمية يوقد الحماسة في الصفوف المقاتلة ، ويقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد .

وكان « ابن تيمية » يرى أن مهاجمة الجمود والتقليد الفكري وتحرير الاسلام من الشبهات والبدع عامل من عوامل النصر في معركة الغزو الخارجي ، هاجم أصحاب الدعوات المنحرفة عن مفهوم الاسلام في شموله وتكامله ، وهاجم أنصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول : وناصر عقيدة التوحيد ، ونازل خصومه بالرأي والحجة ، وعقد مجالس المناظرة ، واحتمل في سبيل ذلك مؤامرات خصومه ، وتقبل السجن والاضهاد في تصميم وإيمان ، ودعا الى إحياء روح الجهاد في المسلمين ، وفتح باب الاجتهاد في الفروع وإصلاح التصوف وكتب الامام النووي إلى الظاهر بيبرس يوجهه في أمور المسلمين ، وهاجم المبتدعة والباطنية .

***

وقد قام العز بن عبد السلام بدور ضخم في الاصلاح الاجتماعي حيث أنكر بيع الخمور واصطفاف الجند وتقبيلهم الأرض بين يدي السلطان ورابط في مواجهة الحملة الصليبية السابعة مع المسلمين في المنصورة يحمسهم ويحثهم على مقاتلة الصليبيين . وقد عني قادة المسلمين : نور الدين محمود ، وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس بفتح مدارس الحديث ، كما حرصوا على وحدة العلماء والمسلمين . فقد أجرى صلاح الدين حسماً للخلافات بين العلماء من أجل استئصال الخطر الصليبي ، وكان العلماء موضع شورى القادة ، كان الملك العادل أخو صلاح الدين يستشير الشيخ عبد الرحمن البيساني (القاضي الفاضل) في شؤون الجند والأسطول ونقل المؤن إلى ميادين القتال . كما قدم مصر والشام خلال مرحلة تصفية الأندلس عدد كبير من العلماء حيث لم يتوقف البحث العلمي الصرف ، فقد وصل إليها عالم النبات : أبو العباس بن الرومية من المغرب **٦١٣** هـ والطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الداخور الطبيب والأديب ، وألف بها مقالة عن الأغذية ، واشتغل بعلم الفلك ، واقتنى الآلات الفلكية . وكانت لديه ست عشرة رسالة في الأسطرلاب . وكان بها : العلامة الكمال شديد بن القاسم مدير البيمارستان الناصري ، وأخوه رشيد الدين أبو خليفة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب ، كما اجتذبت القاهرة العالم الرياضي علم الدين قيصر تلميذ كمال الدين موسى بن يونس ، والنباتي

البارع صفاء الدين عمر (ابن البيطار) الذي عرف بسياحاته وأسفاره لدراسة خواص النبات في اليونان وآسيا الصغرى . كما شيد السلطان الكامل دار الحديث الكاملية ، وشجع على التأليف في التاريخ والسياسة ، وألف في « فن الدبلوماسية » تاج الدين بن حمويه كتابه عن السياسة الملوكية . وألف علي بن يوسف كثيراً من كتب التاريخ .

وممن لمعوا في هذه المرحلة جمال الدين الحاجب في النحو الصرف ، وزكي الدين عبد العظيم في الحديث والطبيب أبو سعيد ابن أبي سليمان الذي ألف عيون الطب والعشاب ابن البيطار مؤلف الجامع في الأدوية .

ومن أبرز ملامح هذه المرحلة أدب المقاومة المتمثل في شعر الشعراء والخطب الحماسية ، والكتابة عن الجهاد والفروسية وتفسير آيات الجهاد وأحاديثه ، وإعادة كتابة مواقف البطولة في التاريخ الاسلامي ، فقد أشاد الشعراء بالأبطال والمحاربين . وكان الشعر من أعظم الأسلحة في معركة الصليبيين .

كما لعب الفقهاء في الأندلس دوراً هاما في إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الاسلامية المتنافرة للوقوف في وجه الخطر الغربي ، ولاسيما بعد سقوط طليطلة ، ومن أوائل الداعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجي الذي طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصرة الاسلام وتوحيد الصفوف (الدكتور حسن محمود) .

(٤)

الفكر لا الادب هو أداة المقاومة

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٦٥٦ بعد سقوط بغداد إلى ١٢١٣ - ١٧٩٨ وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط . والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد . فضلاً عن أن علامات اليقظة في عالم الاسلام سبق قدوم نابليون بوقت طويل ، وقد انبعثت من الأعماق ، ولم تكن بفعل مؤثر خارجي .

وأعتقد أن هذا الحكم قد قصد القائلون به قطاعاً منيعاً هو « الأدب العربي » . ثم انسحب على الفكر الاسلامي كله . ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الاسلامي قد واجه مرحلة ضخمة من مراحل التحدي خلال فترة الغزو الخارجي ، وأنه استجابة واضحة ، فكان على مستوى المعركة . وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة « عصر الوحدة الاسلامية العثمانية » وأن فترة ضعفه لم تزد عن مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الامام محمد بن عبد الوهاب .

والواقع أيضاً أن الأدب ليس هو الفكر العربي الاسلامي في هذه المرحلة ، ولكنه قطاع واحد منه ، ولم يكن سقوط بغداد في الحق هو أول مرحلة الغزو . ولكنه وسطها . إذ بدأت هذه المرحلة بالغزو الصليبي . وليس بسقوط بغداد الا

حادثاً جزئياً ، وربما أحدث أثره في الآداب نتيجة للهزة العاطفية التي أصابت المسلمين بعد سقوط مقر القيادة السياسية الاسلامية . أما أثره الفكري فلم يكن عميق الغور . إذ ان مراكز الثقافة لم تلبث أن انتقلت إلى الشام ومصر والمغرب . ويمكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتداداً طبيعياً « لعصر التبلور والانصهار » لعالم الاسلام فكراً ومجتمعاً ، بل ان ثمرات الفكر الاسلامي والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت في عصر المقاومة . ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول انحطاطاً . قد جاء بنتيجة ما لوحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب والدعوات التي اتسم بها « عصر التبلور والانصهار » . بيد أن هذا التوقف في معارك السجال ، إنما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة ، وليس علامة جمود فإن المذاهب التي نشأت نتيجة اختلاف مفاهيم المعتزلة والسنة ، ودعاة الكلام والفلسفة والتصوف . كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسي الذي كان يحمل لواءها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت إلى الاسلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والمماليك ، وعناصر مختلفة من الأجناس والأمم . وبعد أن غلبت الثقافة السنية التي حمل لواءها الأتراك في عناصرهم المختلفة : سلاجقة وأتابكة وأيوبيين وعثمانيين من بعد ، وكانوا بالاضافة إلى المماليك والبربر (المرابطون والموحدون) جميعاً من أنصار الثقافة السنية . بينما كانت الثقافة التي تحمل طابع أهل البيت وهي أساساً لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة إلا في الفروع قد انحسرت في منطقة فارس وما بعدها ، وتمثلت في الفرس والتتار .

ومنْ أبرز ما تتسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجي للعالم الاسلامي (الصليبيون في المشرق ، والفرنجة في المغرب) هو غلبة طابع التصوف على الجماعات الاسلامية ، وتغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية في الالتقاء على حُبّ النبيّ وآل البيت مما قرب هذه المرحلة بين أهل الفقه وأهل التصوف ، وبين السنة والشيعة جميعاً .

وقد كان لسمة التصوف ، الظاهرة الواضحة في هذه المرحلة ، أثرها البعيد المدى في معركة المقاومة للغزو الأجنبي . فقد كانت من عوامل القوة

الدافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمرابطة في سبيل الله والانصراف إلى الجهاد ، والمقاومة والاعتصام بالثغور ، والانضواء تحت لواء القوات الاسلامية المندفعة بقيادة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وغيرهم من زعماء مقاومة الغزو الخارجي لعالم الاسلام .

وفي هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلامية القائمة في أنحاء العالم الاسلامي ، هي العامل الأكبر الذي حافظ على اللغة العربية والفكر الاسلامي . الأزهر في مصر . والقرويين في فاس . والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقيروان . والأموي بدمشق . ومعاهد النجف وكربلاء وسامّراء . وكلها استطاعت أن تحتضن الفكر الاسلام واللغة العربية في هذه المرحلة الدقيقة ، وتذور عنهما عادية الغزو . وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكتاتيب ، وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخي خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرنجة لعالم الاسلام . وكان دور المرأة في مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرد النماء . فقد ظهرت أسماء لها شهرتها في هذه المرحلة من المسلمات المتفقهات ، كن يعلمن ويتحدثن في مجالس القاهرة ودمشق . كما رافق حكم المماليك في مصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية فضلاً عن التآليف والأبحاث الدينية واللغوية ، وظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة .

وكان للأزهر دوره الضخم في هذه المرحلة ، فقد أطلق صلاح الدين الأيوبي **٥٦٧ - ١١٧١** م للأزهر رسالته في مجال الثقافة الاسلامية السنية ، ومنذ عصر صلاح الدين أصبح الأزهر جامعة الفكر الاسلامي ، ومعهداً للاسلام واللغة العربية ، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الأزهر . حيث عادت صلاة الجمعة .

وكانت للأزهر في مرحلة الغزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة تمده بالطلاب . وكانت إقامة هذه المدارس قد بدأت في عصر الدولة الأيوبية ، وقد أقامها نور الدين محمود في الشام (دمشق وحلب) وفي مصر قامت مدارس مختلفة لدراسة الفقه الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ، وفي المدرسة الناصرية تولى

شأن الدراسة ابن خلدون . وقصد الأزهر علماء كثيرون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، في هذه الفترة منهم : عبد اللطيف عبد البغدادي (٥٨٩) وقد تولى التدريس بضعة أعوام فيه ، وكان موسى بن ميمون يلقي فيه دروساً في الرياضة والفلك والطب . وكان شرف الدين بن الفارض يعقد به حلقاته الصوفية والروحية . وكذلك شهاب الدين السهروردي وشمس الدين بن خلكان صاحب وفيات الأعيان . وكان الأزهر في هذه المرحلة يضم أعداداً ضخمة ، وكان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب ، تدرس فيه سائر العلوم الدينية واللغوية ، ويقوم على تثقيف العدد الكبير من الطلاب عدد كبير من الأساتذة يقصدونه من كل بقاع العالم الاسلامي ويقطن في أروقته منهم عدد كبير . بلغ في أواخر القرن الثامن الهجري سبعمائة وخمسين طالباً (المقرنري) .

ومن علماء الأزهر في القرن الثامن الهجري : شمس الدين الأصبهاني (إمام الدنيا في المقومات) وشرف الدين الزواوي المالكي ، وكان بمصر من الأندلس العلامة : محمد بن يوسف بن جنان النفري ، والعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وتقي الدين المقريزي تلميذ ابن خلدون ، والحق أن الأزهر منذ الغزو المغولي والقضاء على الحضارة الأندلسية أصبح أكبر معهد في عالم الاسلام كله . وميزته أنه يتوسط هذا العالم ، وأنه قريب من الحجاز وله صبغته العربية المحضة (د . فولرز) والواقع أن هذه فترة ناضلت فيها الثقافة الاسلامية ، وإن ضعف الأدب . كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة في مجال التاريخ والقصة والنصوص . وفي تأليف الموسوعات وكان ذلك تحدياً للضعف السياسي ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع أفقه في الأندلس ، بينما عرفت الشام ومصر بالتقدم في مجال الفقه والنصوص .

ولعل من أهم الظواهر في هذه المرحلة « ظهور الثقافة العربية » مقام الأدب العربي الذي لم يكن في كل هذه المراحل ممثلا للفكر الإسلامي . وقد كان طابع التكامل والوسطية التي اتسمت به الابحاث في هذه الفترة أكثر أصالة من ذلك التمزق الذي حفلت به الفترات الماضية ، حين كان الأدباء والشعراء يذهبون إلى أبعد مدى في خدمة الأمراء ، وإذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، وإسرافهم في المدح والهجاء والمجون والإباحة والخمريات على نحو بلغ انحرافه عن مفهوم الإسلام حداً كبيراً .

أما « الثقافة العربية » في مرحلة الغزو الخارجي فقد كانت تحررت من خلافات المذاهب ومعاركها ، كما تحررت من أهواء الشعر والنظامين الواقفين على أعتاب الأمراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة في هذه المرحلة أشد عزوفاً عن عطايا الحكام ، أو قبول مناصبهم ، تحرراً لفكرهم واستعلاءً على قبول الظلم أو كتمان كلمة الحق ، وكان للثقافة الإسلامية في هذه المرحلة أثرها الواضح ، والتخلص من المحسنات البلاغية ، ومع جمع الفنون المختلفة والمزج بينها ، وكان التأليف الموسوعي الجماعي المنوع في هذه المرحلة يهدف الى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة . وكان ذلك في واقعه إنما يمثل أكبر ردّ فعل للغزو الصليبي والفرنجي والمغولي ، وما دمر من مكتبات وآثار ، وقضى على معاهد وجامعات . فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامي وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التي قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة .

أما توقف الاجتهاد وغلبة النقل والتقليد ، فيرجع ذلك الى طابع العصر نفسه . فإن عصور المقاومة والجهاد لا تتيح فرصة العمل العقلي المنظم الذي يحقق الإبداع والاجتهاد إبداعاً واجتهاداً يتصل بعصور البناء ونمو الحضارات وازدهار السلام ، كما يقوم في كنف الوحدات النامية المزدهرة ، ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالتفاعل والتعامل . أما في عصر المقاومة فمن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامي كله إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد ، وإعادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقوماته الأساسية . وآية ذلك أن النشاط العقلي للمسلمين لم يتوقف وإن ضعف فيه الابتكار الذي هو ثمرة حياة الدعة والسلام ، وبرزت ظاهرة تأليف الموسوعات التي تعد من أعمال مراحل التحدي والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه الفترة ليست فترة موت ، ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حياطة وتجديد الفكر الاسلامي وتنسيقه على نحو جديد .

وقد تنوعت الثقافة في هذه المرحلة : بين أبحاث التاريخ والجغرافيا والأدب والكلام واللغة والعروض والحديث والتفسير والفلك والموسيقى والسياسة والفلسفة والرياضة (أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في مصر والشام في عصر

الحروب الصليبية) ويرجع ذلك الى انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وخزائن الكتب . وقد وصف حكام هذا العصر بأنهم كانوا مثقفين ثقافة ممتازة . وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين ، وآية ذلك مجالس نور الدين محمود وصلاح الدين الحافلة بأهل العلم ، فضلا عن بناء المدارس .

وقد مضى المماليك في نفس طريق الأيوبيين ، فكان الظاهر بيبرس يقرب النابعين في كل علم وفن . ويقول إن سماع التاريخ أعظم من التجارب ، وكذلك فعل قلاوون . وظلت المساجد خلال هذه الفترة عامرة بحلقات العلم . وكذلك الزوايا والمدارس .

وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام .

مرحلة الغزو : القزويني : (**٦٠٥ ـ ٦٨٢**) ابن منظور : (**٦٣٠ - ٧١١**) ابن بناتة : (**٦٨٦ ـ ٧٦٨**) ابن قيم الجوزية : (**٦٩١ - ٨٥١**) .

مرحلة الوحدة العربية الإسلامية : ابن بطوطة : (**٧٠٣ - ٧٧٩**) القلقشندي : (**٧٥٦ - ٨٢١**) المقريزي : (**٧٦٦ ـ ٨٤٥**) لسان الدين الخطيب : (**٧٣٣ ـ ٨٠٨**) . ابن خلدون : (**٧٣٢ ـ ٨٠٨**) .



الباب الخامس

مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية



(٢٧)
« الوحدة الاسلامية العثمانية »

- ١ -

مر الإسلام خلال قرنين كاملين (من الحملة الصليبية الأولى الى القدس حتى ظهور الدولة العثمانية) بأدق مرحلة في تاريخه كله . مرحلة الأزمة الكبرى ، في محاولة ضخمة من القوى الخارجية على عالمه للقضاء عليه ، واكتساحه . وقد تدفقت عمليات الغزو من أطرافه الثلاثة : من الشمال عم طريق بيزنطة بالحملات الصليبية . ومن الشرق : بالغزو التتري المغولي . ومن الغرب : عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والأسبان ،وكانت أوربا هي التي تقذف عالم الإسلام بالقوى الغازية من قلبها إلى جناحيها عن طريق آسيا الصغرى ، وعن طريق حدود فرنسا التي ألبت التتار المغول،وتآمرت معهم على ضرب جناح المشرق ، غير أن عالم الإسلام لم يقف صامتاً إزاء هذا الغزو . بل واجهه بالمقاومة والوحدة والقتال ، واستطاع أن يديل من القوى الصليبية الضارية ، وأن يمزقها ، وأن يردها على أدبارها مهزومة ، وأن يصهر القوى التترية المغولية في بوتقته ، فيحولها الى الإسلام ، فتصبح قوة ضخمة من قواه الفاعلة . أما في المغرب فقد قاومت الأندلس ولم تستسلم ، . . هنالك كان لا بد لتاريخ الإسلام أن يستقبل موجة جديدة من موجات القوة . وقد تمثلت هذه القوة في الدولة العثمانية الجديدة الشابة التي حملت رايات الإسلام من جديد بعد أن ضعفت السلاجقة والمماليك والبربر بعد أن أدوا دورهم في المقاومة .

كان هدف حملات الغـزو هو : « القضـاء على الإسـلام » وقـد ألحـت هذه الحملات خلال قرنين كاملين على عالم الإسلام وردّت منهزمة مدحورة ، ونجا الإسلام ، غير أنه كان ضعيفا منهكا مثخناً بالجـراح . وكان عرضـة لحمـلات جديدة ، قد بدأت فعلاً بالحصار الاقتصادي الـذي ضربتـه أوربـا على البحـر الأبيض ، مع اندفاع القوى الأسبانية والبرتغالية في محاولة صليبية جديدة ، هي تطويق عالم الإسلام من خارجه ، والسيطرة على نفس الثغور والموانىء المغربية التي قاومتها ودحرتها ، هنالك استطـاع الإسـلام ان يبـرز قوة جديدة من قواه المذخورة ، هي قوة الأتراك العثمانيين الذين اندفعوا من أطراف آسيا هاربين من وجه الغزو التتري ، والذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام ودخلوا في حظيرته كقـوة جديدة شابة بدوية عسكرية . هذه القوة الجديدة التي استطاعت أن تقوم بدور كبير عجزت عنه قوى السلاجقة والمماليك والبربر ، وهي القوات الثلاث البدوية المحاربة التي سبقتها ، والتي واجهت مرحلة الغزو التتري الصليبي الفرنجي .

ومـن ثم بدأ « عصر الوحـدة الإسـلامية العثمانية » (**٦٩٩ هـ ١٣٩٩ م**) واستمرت هذه الوحدة قوية قادرة على أربعة قرون ونصف القرن . ثم ضعفت من بعد ، ولكنها ظلت تسيطر سياسيا حتى مزقها الغزو الاستعماري الغربي عام **١٢٣٧ - ١٩١٨** أي أنها عاشت مسيطرة مؤثرة أكثر من (**٦٤٨** عاما) . ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة : مرحلة قوى الوحدة الثلاث ، فقد قامت فيه الدول الكبرى الثلاث : (العثمانية) التي ضمت العالم العربـي وتـركيا وأجـزاء من أوربا . و (الصفوية) في فارس . و (المغولية) في الهند . ومن قلب هذه الموجة برزت الموجة الجديدة : « موجة اليقظة العربية » كقـوة ذات فعـالية في تجـديد الاسلام ونموه ، ويمكن القول بأن عصر الوحـدة الإسـلامية العثمانية قد أمضى القرن الثامن والتاسع والعاشر في مكان القـوة والصـدارة ، وهـو دور التوسـع والتوغل في أوربا . هذه المرحلة التي كانـت في حدّ ذاتهـا ودّ فعـل للحـروب الصليبية التي تسيطر على الشاطىء الشامي خلال قرنـين ، حيث استطاعـت الدولة العثمانية الاسلامية ان تسيطر على قلب أوربا ، وأن ترفع رايات الإسلام فيها على البلقان والصرب ، وتصل إلى أسـوار فينّـا ثلاث مرات ، وفي القـرن الحادي عشر (١٠٠١ - ١١٠٠) بدأت الدولة العثمانية تنتقل إلى مكان الدفاع بدلا من الهجوم ، وأخذت تفقد نفوذها حثيثا ، وترفع يدها عن هذه الأجزاء التي

سيطرت عليها في أوربا . في هذه المرحلة بالذات كانت أجزاء كثيرة من العالم العربي ، قد بدأت تستقل حيث أخذت قيادات جديدة عربية تسيطر . غير أن البعث العربي الإسلامي كقوة روحية وفكرية قد بدأت فعلا في منتصف القرن الثاني عشر ، وحوالي **١١٥٣ - ١٧٤٠** بظهور دعوة التوحيد كقوة سياسية وروحية عربية ، تنبعث من قلب الجزيرة العربية مجددة دعوة ابن تيمية ، وداعية في نفس الوقت الى ابتعاث القوة ، كقوة جديدة شابة تلعب دورها على مسرح الأحداث في عالم الإسلام .

في هذه المرحلة (**٧٠٠ هـ ١١٥٣ م**) (**١٣٩٩ هـ ١٧٤٠ م**) سقطت الأندلس في أيدي الفرنجة ، والأسبانيين ، وارتفع عنها لواء الإسلام الذي عاد إلى حدود إفريقية ، حين أصرت أوروبا على أن تحرر من الإسلام والمسلمين والعرب جميعاً . ومن ثم أجلت هذه العناصر ، وحررت أوربا تحريراً كاملاً من حكم الإسلام وأهله . غير أنها لم تكن قادرة على أن تحرر أوربا من أثر الإسلام الفكري والعلمي والثقافي . إذ كانت قد استوعبت حضارة الإسلام والعرب وتراثها وعلومها وفلسفاتها ، واعتصرت هذه القوة الفكرية الحية ، وترجمتها الى لغاتها ، ومضت بها في قوة فطورتها ، وأمدتها بالقوة والحياة في مجال الكشف والرحلة والملاحة والصناعة والعلوم . وإذا كانت أوربا قد بلغت غاية التعصب حين أخذت فكر الإسلام وعلومه وفلسفاته . ثم عاملت أهله بأقسى صنوف الاضطهاد والعنف . فإن الإسلام بسماحته قد استطاع حين أقام في أرض أوربا بالأندلس ثمانمائة عام أن يعطي للإنسانية علومه وحرياته ورسالته الحية التي لا تموت ، أبلغها إلى أرض الأندلس ، وأقرها في جامعاتها ومكاتبها ، وأوقد لهيبها في نفوس علمائها . حتى استطاعت أن توقد جذوة اليقظة والضياء في قلب أوربا ليمضي مشعل الإنسانية مرفوعاً حين تخلف المسلمون والعرب عن حمل لوائه . وإذا كان الإسلام قد طوى امتداده في أوربا عند الأندلس من الغرب . فإنه قد استطاع ان يحقق نصراً بالغ الأثر والقوة ، هو امتداده إلى اوروبا من خلال البلقان من الشرق . ثم وضع يده على « القسطنطينية » عاصمة الدولة البيزنطية ، وتحقق له في هذه المرحلة اسلام القبيلة الذهبية في روسيا والباكستان . فضلاً عن توسع الإسلام بقوته الذاتية في إفريقية الوسطى ، حيث دخلت الصومال في الإسلام ، وظل التوسع سائراً ، وظلت الدولة العثمانية تزداد باسم

الإسلام قوة ونفوذاً في مجال الحضارة والتوسع . وهي تتسم أساساً بالسمة العسكرية ، حيث قضت أعوامها في ميدان الجهاد مؤمنة به كأساس من أسس الإسلام ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة النصر ـ هذا النصر الذي تجمعت أوربا في وجهه . وعقدت الخناصر على هزيمته ، وعجزت عن ذلك ، كما عجز عنه تيمورلنك الذي هاجم أنقرة في القرن التاسع ، وهدم قصر الإمبراطورية في الأناضول . غير أن العثمانيين ما لبثوا بعد قليل أن أفاقوا . وقد أعادوا كيانهم قويا ، وحققوا بعد قليل أعظم نصر هز أوربا كلها . وهو السيطرة على القسطيطينية ، ومن خلال الصراع بين الإسلام ممثلاً في الدولة العثمانية من ناحية ، والغرب من ناحية أخرى ، كانت طلائع الاستعمار التي تحمل لواء تطويق عالم الاسلام مندفعة من أسبانيا والبرتغال في طريقها ، حيث استطاع فاسكودي جاما كشف طريق رأس الرجاء الصالح ـ ١٤٩٨ وإقامة محطات على طول الساحل الشرقي لأفريقيا كمرحلة من خطة الضغط الاقتصادي على عالم الإسلام وحرمانه من قوافل التجارة التي كانت تمرّ في أعماقه ، وتنفيذاً لخطة الدوران حول إفريقيا دون المرور بأرض الإسلام ، لفرض العزلة على العالم الإسلامي . نمت القوة الإسلامية العثمانية الجديدة بين القرن السابع والقرن العاشر (٧٠٠ ـ ١١٥٣) فقد اندفع العثمانيون بعد أن استولوا على آسيا الصغرى وأزالوا الدولة الرومانية الشرقية الى شبه جزيرة البلقان ، الصرب ، بلغاريا ، اليونان ، البوسنة ، الهرسك ، أزوف ، القرم ، بلغاريا ، المجر ، ترانسلفانيا . سيطروا على هذه كلأجزاء من أوربا في الفترة ما بين ١٣٩٩ م ٧٠٢ هـ ـ ١٥٤٧ م ٩٥٤ هـ وحين دخل العالم العربي في قلب هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ، امتدت الدولة العثمانية من الدانوب الى الخليج الفارسي الى المغرب الأقصى . وقد قامت في هذه المنطقة وحدة سياسية اسلامية الطابع على انقاض التفكك الذي واجهه عالم الاسلام بعد ضعف قوى المماليك التي استنفذت في مقاومة الصليبيين والتتار . وفي ظل هذه الوحدة بدأت مرحلة استقرار في عالم الاسلام . فقد كان قيام هذه الوحدة إنقاذاً لهذه الوحدات من عالم الاسلام (من آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق) من سيطرة قوات المغول ، أو الحملات الصليبية التي كانت توشك على التحرك قبل ظهور القوة العثمانية الاسلامية ، كما أوقفت هذه الوحدة النفوذ البرتغالي من التوغل في البحر الأبيض المتوسط . وبذلك استنفذت أدق مناطق الاسلام ، وأشدها حساسية من الخطر الأوروبي .

ولا شك أن الوحدات العربية قد وجدت في « لواء الإسلام » الذي رفعته الدولة العثمانية قوة جديدة تحميها وترد عنها الغزوات الغربية ، وكان النظام الذي وضعه العثمانيون لحكم هذه الوحدات نظاماً مرناً ، فقد أقروا النظم القديمة وتركوا لكل وحدة : الحرية في تصريف أمورها ، مع ربطها بحزام السياسة العامة ، والدفاع والضرائب . وإن كان هذا النظام الذي كان مقبولاً في فترة القوة قد أصبح عاملاً من عوامل الخطر في فترة الضعف ، ويمكن القول إن القوة العثمانية الجديدة كانت موجة جديدة من موجات الإسلام أمدته بقوة جديدة ، ردت عنه الغزو الخارجي ، وأقامت « وحدة » استمرت قوية أربعة قرون ونصف قرن ، فقد خلف العثمانيون العرب والفرس والسلاجقة والأتابكة والأمويين والبربر في رفع راية الاسلام ، واستطاعوا أن يمتازوا عن القوى الاسلامية التي سبقتهم بانهم وقفوا في صفوف الدفاع والمقاومة بل أعادوا عصر التوسع الاسلامي الأول بأن اندفعوا في قلب أوربا ، وحققوا انتصارات وضموا أجزاء كبيرة منها إلى عالم الاسلام ، وإن كانوا قد عجزوا ان يصهروا أهل هذه الأجزاء ، أو أن ينشروا فيهم دعوة الاسلام .

وإن كانت اوربا قد استطاعت أن تصد الإسلام كقوة سياسية عنها من ناحية الأندلس وفرنسا حتى نهر اللوار ، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فينّا . فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفكر . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يوجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون كاملة ، ومدافعين ثلاثة قرون أخرى . فإن هذا كان رد فعل للحملات الصليبية على المشرق ، وحملات الفرنجة على الأندلس . . وكان في نفس الوقت مصدر تلك الخصومة العنيفة التي ظلت اوربا والتاريخ الغربي يحملها للدولة العثمانية وللوحدة الإسلامية ممثلة في هذه الفترة ، لقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخلف الموجات الإسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض ، واستطاعت أن تحيل البحر الأسود بحيرة إسلامية . كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر ، وخليج فارس وأثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوروبية المتحدة والبابا . وقد عاشت القوة الإسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ، ثم في صراع الدفاع والمقاومة . وكانت مرحلة من مراحل الإسلام استعاد فيها قوته ، ورفع راياته في قلب أوربا . وأكد وحدة شعوبه ، وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التي دفعت العثمانيين إلى اكتساح الامبراطورية البيزنطية ، والتوسع في

ممالك أوربا . وإذا كان العثمانيون لم ينشروا دعوة الإسلام على نحـو تربـوي وعلمي كما فعل المسلمون من قبل ، فإن الإسلام قد اتصل بأوربا ، وأثر في أسلوب الفكر والحياة والحضارة ، وأثر في جذور الفكر الأوربي نفسه ، كما ترك العثمانيون في قلب الأوربيين هيبة للإسلام ، وتقديراً له حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوربا المتجمعة مرة ومرة ومرات . وفي هذه المرحلة لم يكن العثمانيون متعصبين ، ولكنهم كانوا يعاملون العناصر المختلفة على أساس أحكام الإسلام .

وقد ظل شيخ الإسلام مرجعاً للسلطة في الأمور الشرعية والمدنية على السواء ، ولا شك كان طابع العثمانيين طابعاً حربيا عسكريا . وبذلك غلبت على حياتهم صورة الحرب والقتال والغزو . مما قلل من فترات الاستقرار وبناء الحضارة ، وقد أعان على هذه الوحدة الإسلامية تحت لواء العثمانيين أن الفكر الإسلامي قد دخل في مرحلة غلب فيها الطابع الصوفي ، وصبغ بلونه السنة والفقه والفكر جميعاً ، وكان هذا الطابع هو أحد عوامل أسلمت عالم الإسلام إلى مرحلة الضعف التي قصرت فيها عن مقاومة الغزو الغربي من بعده . كانت مرحلة الغزو الخارجي لعالم الإسلام مرحلة شاقة ، واجهها المسلمون بكل قواهم ، وصمدوا لها ، وقدموا زهرة شبابهم في مجال الجهاد المقدس باسم الدفاع عن راية الإسلام ، وحماية أرض الإسلام ، وقد امتدت هذه المرحلة قرنين كاملين ، وانتهت . وقد استنفذت كل القوى الحية الشابة . وخلفت المعركة وراءها عالما مفككا مضطرباً من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد انطوت القوات الثلاث : السلاجقة وتوابعهم (الأتابكة والأيوبيون) والمماليك ، والبربر : (المرابطون والموحدون) بعد أن بلغت قمة قوتها ، وأدت دورها ، وضعفت وتحللت بالحضارة والترف ، ووقف عالم الإسلام والحملات الصليبية تصفي مواقفها من ساحل الشام يترقب قوة جديدة شابة بدوية لها طابع الفروسية والحرب تحت لواء الإسلام تحقق له وحدة تضم أجزاءه المتناثرة المضطربة ، وتدفعه في مجال الحياة دفعة قوية ، ولم يكن الغرب بعد أن فرض على بقايا قواته الغازية أن تنسحب من المشرق . قد جعل ذلك آخر جولاته بالنسبة للصراع التقليدي المستمر بين عالم المغرب وعالم الإسلام . بل بدأ مرحلة جديدة قوامها الضغط على المسلمين في أسبانيا لتصفية دولتهم ، وإخراج آخر مسلم وعربي من أوربا . وبدأ في نفس الوقت مرحلة

جديدة من مراحل الزحف لتطويق عالم الإسلام ، وكانت جبهة الغرب الإسلامي قد ضعفت بعد أن انهارت قوى المرابطين والموحدين والمزنيين ، وحيث كانت جبهة المشرق لا تزال صامدة بالمماليك البحرية وسلاجقة قونية . لذلك كان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة ، تطوراً تاريخيا طبيعيا على النحو الذي تطور إليه تاريخ الإسلام في مراحله المختلفة ، وكظاهرة اعتيادية موافقة لناموس حركة التاريخ الإسلامي ، وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى ، وأبرز ما تمثله هذه الظاهرة أنها حققت مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام هما : الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث وهو (العدل) وهو مظهر افتقدناه طويلاً على طول حركة التاريخ الاسلامي ، وتتسم القوة الإسلامية الجديدة بطابع التكامل من حيث إنها لم تكن كالقوى الثلاث التي ظهرت في مرحلة الغزو الخارجي قوى قادرة على المقاومة ، والدفاع ، ورد العدوان فحسب ، ولكنها كانت قادرة أيضا بالإضافة إلى ذلك على التوسع ودفع قواها في قلب أوربا ، كتعويض عادل للإسلام على مرحلة انتقاض القوة الغربية لأرضه من خلال جداره الشمالي ، وكرد على محاولة إخراجه من أوربا الغربية . وعلى يد القوة الإسلامية العثمانية عرفت أوربا - بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية في ساحل الشام لسبعين عاما - قوة إسلامية جديدة لم تقتصر على إيقاف توسعها في أرض الإسلام ، بل زحف الى قلب أوربا وظلت تهددها بالغزو حتى حاصرت أسوار فينا . وكان دور العثمانيين طبيعيا بحكم أنه دور قوة إسلامية ، استطاعت أن تنمو بعد أن ضعفت القوى الاسلامية التي توالت : العرب والفرس والبربر والسلاجقة . ولقد كانت العثمانية أشد حماسة للإسلام واندفاعا في سبيل نشره .

وكان أبرز ما تتسم به هذه القوة هو : الطابع الحربي العسكري المتطلع الى توحيد عالم الإسلام ، وتوسيع نطاقه بإضافة أرض جديدة ، وإبلاغه الى القارة المستعصية عليه ، القارة التي قاومته منذ وطىء أرض الأندلس ، ويجمع المؤرخون على أن دور العثمانيين في بناء الإسلام دور طبيعي وأنه « بينما كانت الجذوة الإسلامية تضعف في نفوس قيادات الإسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم في أفئدة الترك ، وتدفعهم إلى أداء دور العرب في صدر الإسلام ، والمبادرة إلى تمثله ، ويقول ليون كاهن : إن دخول الإسلام لديار الترك قلب حال

العالم . فبعد أن كان الأتراك أعداء للمسلمين وحلفاء صادقين لاوربا . انقلبوا عقب إسلامهم إلى خصوم لها ألداء . وقد كرسوا كل قوتهم لخدمة الإسلام ، وأنهم دخلوا إلى الإسلام بعد فترة وبعسر شديد » والواقع ان الأتراك أقبلوا على الإسلام بعد خصومة طويلة له ، فلما اعتنقوه ـ شأنهم في ذلك شأن البربر ـ انقلبوا إلى حماة له شديدي التمسك به .

ولما برزوا في ميادين الجهاد وظهرت بوادر انتصاراتهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية التي وقفت أمام موجة الإسلام المندفعة إلى أوربا سبعمائة عام . هنالك علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليهم ، ووجدوا فيهم المنقذ والحامي . وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذي حققه العثمانيون في حركة توحيد عالم الإسلام حيث لم تقف في وجوههم إلا قوة الفرس التي أقامت دولة ضخمة هي الدولة الصفوية التي حملت لواء الثقافة الشيعية ، واتخذتها شعاراً لها في نطاق الإسلام السمح المتقبل للثقافات المختلفة .

وكان ظهور القوة العثمانية الموحدة لعالم الإسلام قد برزت بتوقيت متفق مع نواميس حركة التاريخ الإسلامي في طريقه إلى حتميته . وفي خلال معركة الأندلس بين المسلمين والعرب من ناحية وبين القوى الأسبانية والفرنجة ، التي كانت قد أعدت خطة لإجلاء الإسلام عن أوربا . وقد استسلبت القوى العثمانية واجتازت البسفور الى الضفة الغربية . ثم أتيح لها أن تدخل القسطنطينية **٨٥٧ هـ ١٤٥٣** م فقضت على الدولة البيزنطية ، ومضت في طريقها حتى حاصرت أسوار فينّا ثلاث مرات .

وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة في تاريخ العالم كله ، وفي تقدير أوربا والغرب . فقد أتاح للقوة الإسلامية العثمانية ان تزحف إلى رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر ، وبذلك قلبت القوة الإسلامية العثمانية ميزان القوى ، بعد ان كان عالم الإسلام في موقف الدفاع وعالم الغرب في موقف الهجوم ، أصبح العكس . فقد وقفت أوربا منذ ذلك التاريخ الى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع في وجه الهجوم العثماني .

وعندما احتل العثمانيون القسطنطينية (**٨٥٧ هـ**) كان ذلك قمة الموقف بالنسبة للغرب . فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس ولم يمض أكثر

من أربعين عاماً (**٨٩٨** هـ) حتى سقطت الأندلس وانطوت صفحة الإسلام بها ، وبالرغم من تجمع القوى الغربية وتوحدها في وجه الزحف الإسلامي ، فإن القوة الاسلامية العثمانية ظلت قادرة على كسب النصر غير أن اوربا لم تقف توقف المقاومة في وجه القوة الاسلامية العثمانية . بل عمدت الى فتح جبهة أخرى عن طريق أسبانيا والبرتغال في الكشف الجغرافي لتطويق عالم الاسلام ، والاتجاه نحو افريقيا الاستوائية والهند وأندونيسيا ، ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الأسباني البرتغالي لعالم الاسلام ، قد خطت أولى خطواتها ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى بدأ (فاسكودي جاما) طوافة حول رأس الرجاء الصالح الى الهند (**٩٠٤** هـ **١٤٩٨** م) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة تحقق إحكام الحصار الاقتصادي للعالم الاسلامي بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانئه الاسلامية .

ولقد كانت أسبانيا والبرتغال أولى دول الكشف الجغرافي والاستعمار كرد فعل على السيطرة الإسلامية على الأندلس ، وكقوة دفعتها أوربا لغزو عالم الإسلام الذي ظل يسيطر على أسبانيا ثمانمائة عام ، وكمواصلة لمخطط متصل لم يتوقف بالقضاء على الإسلام والعرب في الأندلس . بل بالزحف على أرض الإسلام نفسه والسيطرة عليها . وقد بدأت فعلا في ذلك الوقت حركة التطويق . غير أن نمو الدولة العثمانية وصمودها أخر ذلك أكثر من ثلاثة قرون .

- ٣ -

سجل عام **٦٥٦** هـ اجتياح التتار لبغداد وإسقاط الخلافة كما سجل عام **٦٩٠** هـ **١٢٩١** م تصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائيا من ساحل الشام وبيت المقدس ، وسجل عام **٦٩٩** هـ ظهور أول خيط في بناء الدولة العثمانية التي أصبحت من بعد قوة إسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربي بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها (**١٣١٦** هـ **١٩١٨** م) . في ظل هذه المواقف الحاسمة الثلاثة التي سجلها القرن السابع الهجري قبيل نهايته شهدت هذه الفترة رد فعل شديد ، في عالم الغرب ، يتمثل فيما قامت به أوربا والبابوية من الدعوة إلى تحريم الاتجار مع دولة المماليك بقصد حرمانها من الموارد الاقتصادية الرئيسية لها . وقد تمخض اتجاه الحصار الاقتصادي عن حملة ملك قبرص لاحتلال الاسكندرية

٧٦٧ هـ ١٣٦٥ م ثم انسحاب الحملة ، وقد تطور الاتجاه خلال القرن التاسع الهجري إلى مشروعات تخريب للموانيء المصرية لشل الحركة التجارية ، وانتشار الفرسان على السواحل المصرية والشامية للتربص بسفن التجارة الإسلامية ، وقد واجه المماليك ذلك بغزوات انتقامية على أوكار القراصنة في قبرص ورودس . هذه هي الحملات الصليبية الجديدة التي كانت تتمثل في مواجهة عالم الإسلام قبيل بروز قوة الدولة العثمانية وتوحيدها العالم الإسلامي تحت جناحيها (ماعدا فارس والهند) . لذلك فإننا حين نقول إن عالم الإسلام لم يلبث ان اندمج في الوحدة الاسلامية العثمانية بمحض إرادته ، وأن عملية السيطرة العثمانية على العالم العربي لم تكن فتحاً بالمعنى الذي تصوره الكتابات الغربية التي تحمل الحقد على الدولة العثمانية والواحدة الإسلامية القادرة التي هاجمت عالم الغرب ، وأوقفت تقدمه وغزوه لعالم الإسلام . لقد كان عالم الإسلام في الساحل الأفريقي كله من الشام الى المغرب يواجه غزواً غربيّاً جديداً في نفس الوقت الذي برزت فيه القوة العثمانية داعية إلى الوحدة الإسلامية الكبرى . ولذلك فإن التقاء القوى العربية التركية ، إذ ذاك ، كان ردّاً على التحدي الغربي المتمثل في جولة جديدة لغزو عالم الإسلام . ومن هنا فإن اندفاعات العثمانيين للسيطرة على أوربا كانت تواجه من عالم الإسلام كله بالإعجاب والتقدير والتأييد ، وأن حركة الجهاد المقدس التي حملت الدولة العثمانية لواءها في دفع رايات الإسلام إلى أبعد مدى في قلب أوربا أدت إلى إذكاء روح الوحدة والتضامن بين المسلمين في الشام ومصر والمغرب .

بدأت الدولة العثمانية ٦٩٩ هـ ١٣٠٠ م وانتهت ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م . وقد مرت في طورين كبيرين : الطور الاول : « طور القوة » . والثاني : « طور الضعف » . كان طور القوة مرتبطا بمفهوم الإسلام أو دائراً في إطاره من حيث الوحدة والقوة . فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم ، وحل الصراع والضعف العسكري تحولوا من مركز الهجوم والتوسع إلى الدفاع والانتقاض .

ويرى الكثيرون أن مرحلة الضعف تبدأ بهزيمتهم عند أسوار فينّا ١٠٩٥ هـ ١٦٨٣ م أو ١١٠٩ هـ ١٦٩٧ م . وهي نفس الأعوام التي بدأت فيها إرهاصات اليقظة العربية التي وضحت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري

(القرن الثامن عشر الميلادي) وهي المرحلة التي تمثل حركة التناقص حتى انتهت في أواخر الحرب العالمية الأولى (**١٣٣٩** هـ **١٩١٨** م) . ويهمنا هنا أن نركز على : مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية ، وأن نعنى بالمرحلة الأولى : مرحلة القوة والتوسع .

امتدت توسعات العثمانيين في ثلاث اتجاهات :

(**١**) أوربا . (**٢**) العالم العربي . (**٣**) فارس .

(**١**) وقد تحقق لها النصر في الميدان الأوربي ، وظل شغلها الشاغل حتى مرحلة الضعف ، وقد بدأت الدولة العثمانية فعبرت مضيق الدردنيل إلى غاليبولي ، وشرعت في اكتساح الأقاليم الأوربية التابعة لدولة (الروميلي) الشرقية ، ومنها بدأ توسعهم في جزيرة البلقان ، وكان انتصارهم في موقعه أنقرة قد مد نفوذهم إلى نهر الطونة . ثم والى السلاطين غزو أوربا حتى استطاع محمد الثاني أن يحقق أكبر نصر في تاريخ الإسلام بالسيطرة على القسطنطينية ، وبسقوطها في يد عالم الإسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وامتد التوسع إلى بلاد القرم ، وجزائر الأرخبيل ، وخفق العلم الإسلامي العثماني على قلعة (أوترانتو) في إيطاليا نفسها ، ومضى التوسع إلى بلاد بلغراد حتى أصبحت بلاد المجر في يد العثمانيين ، وبدأ حصار فينّا **١٥٢٩** ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة ، حيث اكتسحت أساطيل القوة الإسلامية العثمانية شطوط البحر المتوسط (بحر الروم) وجزائره إلى سواحل أسبانيا ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراغوت وبيالة الهيبة على سواحل أوربا وشمال أفريقيا ، واستطاعوا طرد الأسبان من بلاد الجزائر . وقهر العثمانيون الأسطول البابوي ، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الطونة . غير أن هذا التوسع الذي ظل ممتداً ومستمراً حتى **١٥٧١** م بدون هزيمة أو توقف . بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية ، وليس معنى هذا أن انتصارات العثمانيين قد توقفت ، ولكنها أصبحت تترجح بين النصر في مواقع والهزيمة في مواقع أخرى . فقد أضاف العثمانيون إلى نفوذهم أقريطش وجزائر أخرى . غير أنهم ارتدوا عن فينا **١٦٨٣** م . وقد تحطمت قواهم في موقعة (موهكس) فضاعت بلاد المجر من أيديهم **١٦٨٦** م .

(**٢**) أما في المشرق فقد تضامت الوحدات العربية في الشام ومصر وكردستان

وديار بكر وبلاد العرب ومكة والمدينة . ثم توالى انضمام أجزاء المغرب العربي : تونس - الجزائر - والمغرب إلى الدولة العثمانية

(٣) أما بالنسبة لفارس فقد توالت حملات العثمانيين عليها دون أن تحقق نصراً ، واستطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها ، وأن تقيم دولة عظمى هي « الدولة الصفوية » . أما الهند الإسلامية فقد نجت من حملات العثمانيين وأقامت « دولة المغول الكبرى » التي ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند ، وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية وبالبطولة العسكرية التي عرفت لسلاطينهم: عثمان ، وأورخان ، مراد الثاني ، بايزيد ، محمد الخامس ، سليم الأول ، سليمان . وهم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار . وقد تمثلت قوتهم العسكرية في التنظيم الرائع الذي أقامه أورخان للجيش ، والذي أطلق عليه « الانكشارية » وهو نظام عسكري إسلامي له طابع الجهاد الإسلامي ، ممتزجا بالزهادة الإسلامية . هذه القوة التي استطاعت أن تحقق هذه الانتصارات ، والتي حين تلقت الضربة الجائحة التي وجهها إليها المغول لم تسقط نهائيا . بل استطاعت أن تسارع إلى تنظيم صفوفها من جديد . وكان تيمورلنك قد ظهر في جنوب آسيا ، واسترعى انتباه الغرب الذي خشى أن يجتاح أوربا . ومن هنا اتجه المخطط الغربي إلى توجيه قواه لضرب الدولة العثمانية خصم أوربا والغرب . فإذا قضى عليها أزال نفوذها ، وإذا قضت عليه خلصت أوربا منه .

ولقد جرت بين تيمور وعالم الغرب مفاوضات واسعة في محاولة استغلال قوته العسكرية ضد الاسلام ، والانتفاع بها من ناحية تجنب خطرها ، وتحطيم القوى الاسلامية وكانت « جنوة » قد تبادلت مع تيمورلنك المراسلات والشعراء وحرضته على تحطيم الدولة العثمانية ، كما أرسل ملك قشتالة (أسبانيا) الشعراء إلى تيمور ، وبتحريض من أحد الرهبان الدومنيكان الذي كان صديقا لتيمور . ومن دعاة المسيحية هناك ، وقد جرت أوربا في ذلك على نفس المخطط الذي نفذته مع هولاكو حين حرضته على تخريب بغداد خدمة للمملكة الصليبية القائمة في قلب العالم الإسلامي إذ ذاك ، وكخطة تحالف بين التتار والصليبيين لدحر عالم الإسلام ، وتشهد معظم كتب التاريخ ان المراسلات دامت بين الغرب (فرنسا والبابا) وبين خلفاء هولاكو . فلما تألق تيمور . كان الخطر العثماني قد

أحدق بأوربا الشرقية ، وطوق القسطنطينية . ومن هنا حرصت أوربا في أن تحرضه على قتال العثمانيين . يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتئذ الراهب « فرنسيسقوس » من ملك فرنسا شارل السادس ، ذلك الكتاب الذي كتب تيمور عليه الرد بعد أن قضى على آل عثمان . وقد أرسل ملك أسبانيا إذ ذاك يهنىء تيمور في إجهازه على آل عثمان . وقد كانت مصادمة التتار والعثمانيين **٨٠٤ هـ ١٤٠٢** م من الضربات القاتلة التي تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب ، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع على جراحها . وأن تعيد تكوين جيشها ، وان تخلص القوة الإسلامية النامية من الموت ، وأن تعود مرة أخرى أشد قدرة على التوسع ، وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها وهو (فتح القسطنطينية) .

وقد نجح العثمانيون في بناء هذه القوة العسكرية « الانكشارية » حين أقاموها على أساس نظام الإسلام في التربية العسكرية وفق مفهوم الإسلام ، فصارت ولا مثيل لها في القوة والإقدام ، وقد استمر نظامها مثلا عاليا في الكفاءة ثلاثة قرون ، ثم تغير مع ضعف الدولة .

– ٤ –

كان العثمانيون قد ورثوا السلاجقة في الأناضول ، وقامت حركتهم على مفهوم الجهاد المقدس ، ورفع راية الإسلام ، والدفاع عنها ، ودفعها إلى الأمام ، وهو نفس المفهوم الذي تبناه (السلاجقة والأتابك ، والأيوبيون والمرابطون والموحدون والمماليك) استمداداً من مفهوم الإسلام نفسه ، وعلى نفس الخط الذي سار فيه المسلمون في حركة بناء الإسلام ، وتوسيع عالمه ، وكان هذا الأساس السياسي هو الذي دفع القوة الإسلامية العثمانية إلى العمل في ميادين :

الأول : « القضاء على الدولة البيزنطية » التي وقفت أمام توسع الإسلام الى أوربا عن طريق القسطنطينية ستمائة عام .

الثاني : « التوسع في أوربا » وقد استطاعت أن تبلغ فيه بعد فتح القسطنطينية رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر ، وأن تحاصر أسوار فينا ثلاث مرات .

الثالث : « إقامة وحدة إسلامية » ضمت العالم العربي كله من العراق إلى المغرب ، إلى الحجاز والسودان . بالإضافة إلى الأناضول حيث قامت الدولة

العثمانية ، ولم يتخلف عن هذه الوحدة غير دولتي : الصوفيين في فارس ، والمغول في الهند .

وقد رحب العرب بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن ضعفت المماليك والبربر ، وأصبحوا هدفا لهذه الحملات الصليبية الجديدة . وقد وجدوا في العثمانيين منعشاً جديداً للإسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الإسلام عالية خفاقة ، وأعادت ذكرى الأبطال الأوائل في سبيل إعزاز الإسلام ونشره . كما رحب العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن نقموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة فحاربوا في صفوفهم ، والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك . فقد كان الطابع الإسلامي هو الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية الكبرى . والحق أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الإسلام في نطاق الحكم ، وتحركوا من خلال إطاره . ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح ، وتمثلوا اعمالهم واتخذوهم تودة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العماء والأتقياء ، وإنشاء الجوامع والمدارس . وكان عثمان مثلاً على ذلك . فقد أطعم الفقراء بيديه ، وأكرم العلماء والأتقياء .

وظلت مفاهيم القرآن بوصفه الكتاب المقدس ، أساس السنة والتشريع الإسلامي هو طابع الحكم والحضارة والفكر . فضلا عن احترام الترك للعرب وتقديرهم للغة العربية ، وإعلائهم للطابع العربي الشامل الذي هو طابع الإسلام نفسه : لغة وتقاليد وقيما ، وكانت جامعة الإسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلافات العناصر والأمم والأخطار على النحو الذي حققه الإسلام في تاريخه كله . وبالنسبة للفرس والترك والبربر ، كانت وحدة الثقافة وتقاربها في ظل مفهوم « السنة » والوسائط التي جمعت بين السنة والتصوف ، وكادت تمزج بينهما عاملاً أساسيا في الالتقاء السياسي والاجتماعي ، كما حرص الحكام الأتراك على تقدير العرب ، وتأكيد معنى الرابطة الإسلامية « وقد توطد ذلك بطول المدة ، فعاش أهل البلاد في جو الفكرة الإسلامية » وذلك خلال مرحلة القوة التي تؤرخها . وقد حرص العثمانيون بوصفهم أصحاب القيادة السياسية للوحدة الإسلامية على متابعة الخط الذي سارت فيه الخلافة الأموية والعباسية ، وفق التقاليد والمخططات التي رسمها الخلفاء وفي نطاق دراسات فقهاء السنة .

ومهما قيل في أمر تنازل اخر الخلفاء العباسيين للعثمانيين عن الخلافة ، وهو أمر شكلي محض . فإن نظام الخلافة قد أصبح ضرورة سياسية لا محيض عنها بالنسبة للعثمانيين ، كما كان ضرورياً من قبل بالنسبة للمماليك بحسبان أنه يعطى القوة الروحية المرتبطة في نظام الاسلام بالقوة السياسية ، وقد قام منصب « شيخ الاسلام » في الدولة العثمانية كرمز على تطبيق الشريعة الاسلامية . وكان نظاماً مقدوراً من الخلفاء الذين لم يكونوا يتصرفون في أمر من الأمور الدينية أو المدنية إلا بعد صدور فتوى المرجع الأكبر للشريعة الاسلامية . وكان المفكرون المسلمون والفقهاء قد صاغوا نظام الخلافة وفق حاجة المسلمين وتطور التاريخ الاسلامي ، وفي نطاق مفهوم أساسي للاجتهاد في الاسلام . هو المحافظة على وحدة المسلمين ، وحماية عالم الاسلام من التفكك . وبذلك حلت السلطنة محل الخلافة في مختلف أعمالها والتزاماتها ، وقد صاغ هذه النظرية العلامة (الدواني) ووصل ابن خلدون إلى نفس النتيجة ، وكانت عند كلا العالمين تطبيقاً لنظرية الغزالي التي كانت ترمي إلى توحيد المجتمع السني تحت لواء إمام خليفة أو سلطان ، أو حاكم يقود الناس إلى الكمال ، ويحقق لهم نظاماً صالحاً .

— ٥ —

وقد حرصت القيادة السياسية الاسلامية في هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأوليائها على النحو الذي رسمه مفهوم الاسلام ، وقامت العلاقة بين الدولة والعناصر غير المسلمة على تسامح كامل ، وإن لم تتعد تساكن المسلمين وغيرهم وتزاوجهم ، وقد أعطت الدولة الحرية الدينية التامة لكل العناصر ، وخولتهم حقوقهم من ناحية العبادة والتعليم ، وإن ظلت هذه العناصر على عداء للوحدة الاسلامية العثمانية ، بالرغم من هذا التسامح الذي كان فيما بعد عاملا من عوامل التجمع للتآمر ضد الدولة وعنصراً من عناصر هدمها . وقد سجل ذلك كثير من المؤرخين المنصفين ، ومن بينهم المؤرخان لامنس ورامبو (من مؤرخي فرنسا) قالا : إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً في دينه . وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية . بل إن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك ، فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة

العثمانية يقول دجوفارا : أن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية الثابتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها . لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية .

وقد أشار العلامة جميل بيهم في كتابه « فلسفة التاريخ العثماني » إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين في الفقه والحكم ، وكان يخيرون الخصم بين الاسلام والجزية والحرب ، وأن السلطان محمد الخامس قلد « بطريق الروم » الرئاسة على قومه وثبته فيها ، وأن هذا العدل لم يكن قاصراً على الذين يرضون بدفع الجزية طوعاً . وإنما كانت شاملة الأمصار المفتوحة قسراً ، وأن محمد الخامس حين دخل القسطنطينية (**٢٩** مارس **١٤٥٣**) أعلن حرية الدين لغير المسلمين والاحتفاظ بأملاكهم وأموالهم . وقال العلامة جميل بيهم معلقاً : انه جرى في ذلك مجرى عمر بن الخطاب في معاملة البطريرك (صفريغوس) في بيت المقدس . وفي أيا صوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم واستقلالهم . وكانوا ينعمون بالسيادة والحرية ، ويتركون لأهل البلاد أمرها بما فيه استقلالها السياسي . وعندما اعترض على محمد الفاتح لعدم تخيير رعيته من النصارى بين الاسلام والقتل . قال : كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة على حضرة الشارع (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) وكذلك فعل أورخان في البلاد التي ضمها . فقد حافظ على سلامة أهلها وخيرهم بين البقاء والهجرة ولهم أموالهم كافة .

وإذا كان العثمانيون قد مدوا سلطانهم باسم الاسلام إلى قلب أوربا ، وحقق ذلك دخول عدد كبير في الاسلام ، ولا سيما في آسيا الصغرى ، وأن سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر كانت من العوامل المشجعة لهم على دخول الاسلام . بالرغم من هذا ، فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حدّ له في الدعوة الاسلامية بين العناصر التي ضمتها الدولة خلال ستمائة عام ، وأنها لو فعلت لتركت في أوربا قوة إسلامية فاعلة . إذن فقد درج آل عثمان على التمسك بالشريعة الاسلامية منذ اليوم الأول ، وكرموا مفكريها وفقهاءها وقد سجل هذا منصفو كتاب الغرب يقول « دوش » سواء للسلم أو للحرب ، أو لنظام سياسي ، أم لقانون عسكري . كانت تركيا تلجأ إلى شيخ الاسلام طالبة فتواه ، ويقول

جونين وفونجيفر صاحب كتاب تاريخ العالم : كان كل شيء في المملكة تحت نفوذ مفتي الاسلام لانه نائب السلطان المطلق في الأمور الشرعية والمدنية سواء . وقد أشار كثير من المؤرخين إلى مدى تأثير الاسلام في نظام الامبراطورية العثمانية من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على أحكامه ، ومن حيث مفعوله في أخلاق السلاطين .

(٢٨)

القوى الاسلامية الثلاث

قامت في هذه المرحلة ثلاث وحدات إسلامية :

(١) الامبراطورية العثمانية وتضم بلاد الأناضول والعالم العربي .

(٢) الدولة الصفوية في فارس .

(٣) الدولة المغولية في الهند .

وقد حاولت « الدولة العثمانية » السيطرة على فارس ، وضمها إلى نطاق الوحدة الاسلامية العثمانية , غير أنها فشلت ، واستطاعت فارس في ظل « الدولة الصفوية » أن تقاوم العثمانيين ، وأن تقيم دولة قومية على أساس من الثقافة الشيعية الاسلامية ، بينما كانت الدولة العثمانية تنصر الثقافة السنية . وقد كانت حوافز الثقافة الاسلامية العربية تحت سلطانها ، ومن بينها المدن المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما « الدولة المغولية » في الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين والفرس . ويمكن القول بان الحركة الصوفية كانت هي بذرة الدولتين العثمانية والصفوية . وان هذين الدولتين هما من ثمرة الثقافة الصوفية الاسلامية وتجمعاتها . وأن هذه التجمعات ذات الطابع الصوفي الذي كان يحمل طابع الجهاد لنشر الاسلام كان لها أثرها من قبل في بناء دولتي المرابطين والموحدين في المغرب . وقد كانت هذه الحركات قد بدأت دعوة الاسلام ، ثم تحولت إلى دولة

وقوة سياسية وعسكرية . وكانت « فارس » قد سقطت تحت نفوذ المغول ، ثم استطاعت أن تتحرر من هذا النفوذ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهنا ظهرت دعوة صفي الدين أحد شيوخ أردبيل ، حاملاً لواء الدعوة إلى الثقافة الشيعية فلقيت دعوته قبولاً وتجمعت معه القبائل ، وقد اتصل صفي الدين باوزون حسن شيخ قبيلة ألاق فيون لو ، اتصالا بامتزاج الدعوة الشيعية بالقوة العسكرية . وقد ترك صفي الدين أساساً قوياً مكن ابنه « الشاه إسماعيل » من إقامة دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل ، وامتدت من باكو شمالاً إلى شتسترجنوباً ، ثم بلغت نهضة الدولة الصفوية الفارسية الاسلامية أوجها في عهد عباس الأكبر (٩٨٥ ـ ١٠٣٨ هـ ، ١٥٨٧ ـ ١٦٢٩ م) وفي هذه المرحلة استطاع الصفويون الانتصار على العثمانيين . يقول « بروكلمان » : إن نهضة فارس قد مكنتها من استرداد شخصيتها مستقلة عن العالم الاسلامي ، وأصبح لها جيش قوى منظم بالأساليب الأوربية في أوائل القرن الحادي عشر .

وقد وسع الشاه عباس الأكبر امبراطوريته حتى شملت فارس كلها . وقد قام بدور واضح في المقاومة الاسلامية للنفوذ الغربي حين حارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وكذلك قامت الدولة المغولية في شبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري ، فوصلت بالحكم الاسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبلغ نفوذ الاسلام أوسع مداه ، ونشرت الوحدة الاسلامية إلى أقصى درجات الذيوع واستطاعت ـ بنشر الاسلام في ربوع الهند ـ أن تحول ملايين عدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الاسلام ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم . وقد عاصرت الصفوية في فارس ، والعثمانية في آسيا الصغرى والعالم العربي ، ويمثل قادة الدولة المغولية خلفاء التتر والمغول . بعد أن صهرتهم بوتقة الاسلام ، وتحولوا إليه ، وتحولوا من دعاة هدمه إلى دعاة نصره وإذاعته والدفاع عنه .

وقد عرفت الدولة المغولية الاسلامية برعاية العلم والعلماء ، رعاية صادقة ، وأقامت منشآت الثقافة والمدنية ، وازدهرت على أيديهم الحضارة الاسلامية في الهند وما وراء الهند وخراسان وفي كثير من المدائن التي ضربها

أجدادهم من قبل (بارتولد : تاريخ الحضارة) وقد كان ولاة الدولة المغولية يمثلون الاسلام في معاملاتهم مع غير المسلمين . فقد أطلقوا حرية العبادة لأهل البلاد من الهندوك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب ما كان له أثره الواضح البعيد المدى في اعتناق عدد كبير منهم للاسلام بوصفه رسالة المساواة بين معتنقيه ، فدخلوا فيه أفواجاً . كما كان لهم دورهم في رعاية الثقافة الهندية وتطويرها . وقد بدا للاسلام أثر واضح فيها حيث نشأ مزيج إسلامي هندي بلغ بالحضارة الاسلامية الهندية أرقى صورها . وكان للاسلام أثره الواضح في مفكري الهندوكية ومصلحيهم الذين نادوا بمذاهب جديدة خففت من قيود نظام الطبقات ، وأنكرت عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة الإله الواحد (نامديو كبير ونانك) وقد أقام الدولة المغولية الاسلامية ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكيزخان في أول الربع الثاني من القرن العاشر الهجري **٩٢٥** هـ وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع الاستعمار البريطاني نفوذها . وكان من أبرز مظاهر الالتقاء بين الثقافة الهندية والاسلام وآدابها ظهور « اللغة الأردية » أوسع لغات شبه القارة الهندية ، والتي أخذت أغلب ألفاظها من اللغة العربية ، ومزجتها بالألفاظ الفارسية والهندية الأصلية ، وكانت الأردية لسان الزعماء المسلمين . وقد أشار الندوي إلى أن أثر الاسلام في الهند كان بالغاً . فإنه فضلا عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً لم يلبث أن دفع طائفة من المصلحين الهنادكة إلى الدعوة لأفكاره في التوحيد ، وإنكار نظام الطبقات وزواج الأطفال .

(٢٩)

الاسلام والاندلس

يمكن تعريف تاريخ الاسلام في أسبانيا في ثمان حلقات :

* عصر الولاة : **٩٢ - ١٣٨** هـ .
* العصر الأموي : **١٣٨ - ٤٢٢** .
* حلول الطوائف : **٤٢٢ - ٤٨٤**
* عصر الموحدين : **٤٨٤ - ٦٤٠** .
* الحروب الصليبية بالأندلس : **٦٢٥ - ٨٩٨** . **وسقوط غرناطة** .
* عصرالعرب الأخير: مرحلة **الاضطهادوالتنصير (٨٩٩ - ١٠١٧ هـ)**
* ترحيل المسلمين نهائياً من الأندلس (**١٠١٨**) .

المقاومة والمعارك مع الفرنجية
خلال عصر الدولة الأموية بالأندلس

حين سيطر المسلمون على الأندلس ، غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة ، هي منطقة « قنطرية » على مقربة من حدود فرنسا ، وكانت جبلية وعرة ، استهان بها المسلمون ، واعتز بها الفرنجة وآزروها حتى قامت بها حكومة في (استورباس) التي استهدفت استعادة أسبانيا إلى الغرب ،

وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الاسلامية العربية ، ولم تلبث هذه القوة أن استعادت ليون (١٠١ هـ) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا . ثم استفحل شأن الأستوريين ، وأمدهم الافرنج بالمعدات والامدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جليقة وقشتالة ، واستغلوا تنازع العرب ، فلما انحلت الدولة الأموية إلى « ولايات» وقام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول : نوارة ، ليون ، قشتالة ، قطلونبة ، أراغون ، البرتغال .

واحتاطت هذه الدول بالأندلس العربية الاسلامية على هيئة هلال . وقد هددت هذه الحركة الدولة الاسلامية فبدأت معركة المقاومة والادالة ، واستمرت فترات طويلة ، بل إنها لم تتوقف في الأغلب ، قد أمضى عبد الرحمن الناصر سنوات حكمه في الغزو والمقاومة ، وواصل أبو عامر المنصور حركة المقاومة والادالة من الفرنجة ، ففي خلال فترة حكم (٢٧ عاماً) انتصر عليهم في خمسين موقعة وقضى حياته شهيداً .

وقد استمر هشام بن الحكم الثاني (٣٦٥ - ٤٠١ هـ) حكمه على تعبئة خلال اثنين وعشرين عاماً في مواجهة ممالك ليون ونوارة وقشتالة ، وقطلوبة . غير أن الفرنجة استطاعوا أن يجتاحوا ثلث الأندلس حين انهارت الدولة الأموية ، وقامت الامارات الأربع لملوك الطوائف : بنو زيري (غرناطة) بنو عامر (بلنسية) وبنو عباد (أشبيلية) بنوهود (سرقسطة) . وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازعاً شديداً ، واستعان كل منهم بالأسبان الفرنجة على خصومه ، وبرزت للفرنجة مملكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس هي : « قشتالة » :

٣٥٠ هـ ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام ٤٢٩ هـ فانتظمتا تمثلان مملكة ضخمة لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والادالة من المسلمين إلى أن تولى الفونس السادس ملك قشتالة ، فاقتحم طليطلة ٤٧٨ م واتخذها قاعدة للدولة . وبدأ تهديد عنيف لأمراء المسلمين ، دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة (المرابطين) في مراكش ، وكان يوسف بن تاشفين ٤٥٣ - ٥٠٠ هـ قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الاسلام هي موجة البربر في أفريقيا ، فسيطر على المغرب الأقصى والأوسط ، وبنى مدينة مراكش . وقد استجاب للنداء فعبر إلى الأندلس وهزم الفرنجة في موقعة حاسمة هي « الزلاقة » ثم لما عاود الفرنجة الهجوم على

مواقع المسلمين في الأندلس من بعد عبر مرة أخرى عام **٥٣٧** هـ واندمجت دولة المغرب والأندلس في وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجة المتدارك .

ثم لم يلبث « الموحدون » وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل المرابطين، وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجي على مملكة الأندلس ، فقد ألقوا الرعب في أوربا فتنادت للتجمع لمقاومة الموحدين وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية . وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن (**٥٥٧ - ٥٨٠**) . ويعقوب المنصور (**٥٨٠ - ٥٩٥**) .

وقد استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة ، وأن يعيدها إلى الاسلام ، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد آذنت بالفشل ، ومن هنا ركزت أوربا همها على تحرير القارة من الاسلام والعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في الأندلس ، عنيفة عاصفة ، حملت لواء الدعوة إلى إخراج « الهراقطة » أي المسلمين من أوربا . وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة وإصرار ، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة في معارك ، فأدالوا منهم . غير أن الموقف كان في صف القوى المتجمعة على أرضها ، والتي ازدادت استقراراً وقدرة على مقاومة إمارات بدا عليها الضعف والتمزق والخلاف ، حتى انهزم المسلمون في موقعة العقاب . (طولوز) عام **٦٠٩** هـ **١٢١٢** م.ولم يلبث بنو مرين (**١٦٧٤** هـ) وهم موجة من موجات البربر - الذين نصروا الاسلام - أن سيطروا على المغرب ، وجاوزا إلى الأندلس ، واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة .

غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس ، والذين عبروا إليهم من المغرب ، واستند - بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين في الأندلس - على خصومهم في الانتصار على أشقائهم وجيرانهم ، ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الامارات واحدة بعد الأخرى [قرطبة **٦٤٥** ، أشبيلية **٦٤٦** هـ ، مرسليا **٦٩٥** هـ] ثم جاءت أقسى مراحل القضاء على العرب والاسلام في الأندلس ، وفي أوربا . عند ما تضامنت مملكتا فردينانـد وإيزابيلا **٨٨٤** هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعة عشر عاماً حتى أسلمت آخر أنفاسها ، **وانطوت صفحة** الاسلام والعروبة في أسبانيا .

***

وهذا إجمال له تفصيل : فمنذ ضعفت قوى « الموحدين » أخـذت قوى الأسبان والفرنجة في إثارة الاضطرابات ، وكانت مملكتا قشتالة وأرغونة تحملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الاسلام المنقسـم إذ ذاك إلى ولايات تتصـارع ، وأخذت « حركة الاسترجاع » التي بدأت منذ عصر ملـوك الطـوائف تقـوى ، وزادها قوة واضمحلال الموحدين ، الذين كانوا الموجة التالية بعد المرابطـين في إنقاذ الأندلس من الخطر الحتم ، ولم تلبث إمارة بلنسية **٦٣٦ هـ** أن سقطت في أيديهم ، واتجه أهلها من المسلمين إلى غرناطة بجنوب الأندلس ، واستسلمت عاصمة بني أمية « قرطبة » عام **٦٢٣ هـ ١٢٣٦** م . واتجهـت قوى الغـزاة إلى أشبيلية ، وتوحد ملوك أسبانيا ضد المسلمين ، وأبدى المسلمون بسالة لا حد لها في كل مختلف عمليات الاسترجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعد أن استنفذوا كل ما يملكون من قوى بشرية وحربية .

ولم يسلم المسلمـون موقعـاً واحـداً إلى الأسبـانيين بدون قتـال ، وقـد حاصرت الجيوش الأسبانية مدينة أشبيلية وامتد الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون ضروباً من الصبر والشجاعة ، دون مدد أو مساعدة ، فلم تستلم قواتهم **٦٤٦ هـ ١٢٤٨** م إلا بعد أن استنفذت كل قواها .

ولم تبق بعد إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بني الأحمر ، وهي رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة إيبريا محصورة بين الـوادي الكبـير والبحـر الأبيض ، وقد تجمع المسلمون فيها بعد أن انتزعت منهم إماراتهم ، واستمرت قائمة قرنين ونصف قرن (**٦٣٥ - ٨٩٧**) ولم تلبث ممالك أسبانيا الثـلاث أن أتحدت على مواجهة « مملكة غرناطـة » وعبـر سلطـان بنـي مرين إلى الأنـدلس بجيوش عظيمة عام **٧٧١ هـ** ؛ اشتبـكت في معـركة (طـريف) مع الفرنجـة وانتهت بهزيمتها .

ولم تلبث مملكة غرناطة أن واجهت الخطر الأسباني بمفردهـا ، وعمـل الأسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بني الأحمر ، ولـم تلبـث مملكة قشتالة أن استولت على جبـل طارق **٨٦٨ هـ ١٤٦٢** م بعـد أن توقفـت النجدات الواردة من المغرب الأقصى . وبلغ الخلاف الداخلي أوجه في غرناطة حيث اقتسمها الأخوان ، فأصبحتا مملكتين : غرناطة ، ومالقـة ، وقـع ذلك في

نفس الوقت الذي اتحدت فيه قشتالة وأرغونة ٨٨٤ هـ - ١٤٧٩ م ، ثم توالت الخلافات والمؤامرات ، وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة ، وبين زوجات السلطان وأبنائه ، حتى سيطر الأسبان على مالقة .

وقد حوصرت أسبانيا حصاراً عنيفاً وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر ، ولما علم حكام الأسبان أن سلطان العثمانيين وسلطان المماليك بمصر عزما على نجدة الأندلس بادروا إلى احتلال الموانيء الأندلسية وأهمها مالقة ، حتى يحولوا دون وصول أي مدد إلى الأندلس ، ولما طلب حكام أسبانيا إلى غرناطة التسليم عمدوا إلى آخر ما في استطاعتهم من قدرة على المقاومة ، ووجد الأسبانيون مقاومة جبارة ، هي مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين في دائرة ضيقة ، وكان الأسبانيون قد أحكموا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار ، وكان موسى بن أبي الغسان أبرز من حمل لواء المقاومة . وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين ، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الذخيرة ، وتفشي الجوع والمرض ، ولم تستلم غرناطة في ٧٩٨ (٣ ربيع الأول) ١٤٩٢ م إلا بعد أن أعذرت إلى الله بالمقاومة . وتقدم فرديناند وإيزابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الأسبانية في مظهر رهيب . وبذلك انقرض آخر مظاهر الاسلام والعروبة من الأندلس (٩٢ - ٨٩٧) بعد ثمانية قرون .

لقد سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الاسلامية القوية ، كالعثمانيين والمماليك ، وكان حكام الأسبان قد أحكموا الحصار البحري عليها حتى لا تتسرب إليها أي معونة أو مدد من عالم الاسلام ، وتعهد الأسبانيون في « وثيقة تسليم » غرناطة باحترام أمر المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم ، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الاسلام . غير أن الأسبان لم يصدقوا في عقدهم ، ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين لتصفيتهم والتخلص منهم نهائياً .

واستطاع الكردينال كيمناس أن يحمل حكام أسبانيا على نقض شروط الأمان التي منحت للمسلمين ، وبدأت دعوة جائحة إلى تنصير المسلمين ، وفي عام ٩٠٥ هـ ١٤٩٩ م - صدر قانون تنصير المسلمين جبراً ، وتحريم إقامة

شعائرهم الدينية ، وإغلاق المساجد ، وأحرق الكردينال كيمناس كتب التراث الاسلامي في غرناطة فاشتعلت النار في مئات الألوف منها ، وزادت الحملة عنفاً على المسلمين . ففي **٩٠٧** هـ **١٥٠١** م منع المسلمون من البقاء في أسبانيا ، وثار المسلمون في جبال البشرات ، فقاومهم الأسبان في عنف ، وصدر قانون بإكراه المسلمين (الموريسكو) على ترك ألبستهم الخاصة ، واتخاذ الزي الأسباني ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات ، والتكلم بالعربية (**٩٥٦** هـ **١٥٥٥** م) وحولت المساجد إلى كنائس ، واندلعت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات **٩٨٦** هـ **١٥٦٨** م بقيادة محمد بن أمية ، الذي استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات ، وقاوم المسلمون مقاومة فناء . وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الأسبانية ، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة ، واستشهد ابن أمية وتولى بعده (عبد الله) .

وثار المسلمون في بلنسية وانتقضوا ، ولكن القوى الأسبانية استطاعت أن تقمع ثورتهم ، وفي عام **١٠١٧** هـ وضعت نهاية المسلمين (الموريسكو) في أسبانيا حيث تقرر نفيهم وإجلاؤهم نهائياً وحشدت لهم السفن . فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأستانة ، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي وتونس ـ ويقرر الطاهر بن عاشور أن عدد المخرجين بلغ (**٣٠٠** ألف) ويردد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون . سافر منهم إلى فارس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس (**١٣٠** ألفاً) . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب ، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف ، فاشترط عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ، فردوا من حيث أتوا ، فاحتاروا في أمرهم ، وقصدوا المراسي الفرنسية للسفر ، فمات منهم كثير في فرنسا ، ونجا قليل . وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ، ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس .

ولا شك تكشف هذه الصفحة المؤلمة عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد ، ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في

مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أقسى صور الظلم والغدر التي واجهتهم.

ولكن هل نوقف المسلمون المخرجون من الأندلس ، وهل انتهى أمرهم ، « والحق أن لا » فإن هؤلاء المخرجين عاشوا وعاش أبناؤهم من بعد في مقاومة متصلة للفرنجة . فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجة الذين حاولوا السيطرة على موانىء المغرب العربي ومراسيه .

ذلك أن الأسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، بل كانت خطتهم اقتحام سواحل المغرب ، والانتقام من المسلمين الذين ظاهروا الأندلسيين في مخطط طويل لتطويق العالم الاسلامي والسيطرة عليه .

ومن هنا بدأ الأسبان والبرتغال في اقتحام السواحل الأفريقية كمرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التي شنها عالم الغرب على عالم الاسلام . لقد فشل الصليبيون بالمشرق وسيطر العثمانيون على القسطنطينية واخذوا يهددون أوربا الغربية والوسطى ، كان كل هذا بالاضافة إلى السيادة البحرية في مشرق حوض البحر الأبيض مما دفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض المتوسط ، فاندفع الأسبان والبرتغال يغزون شواطىء المغرب والقارة الأفريقية ، وكان هنري الملاح قد أعد خطة مع ملك البرتغال بملك الحبشة المسيحي للتعاقد والتحالف ضد المسلمين .

وفي هذا المجال كان عمل المهاجرين الأندلسيين بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الأسبانية ضد السواحل المغربية ، والانتقام من الأسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد ، وشارك فيها سكان السواحل الأفريقية . وقد بدأت على هيئة غارات متصلة على السفن الأسبانية ، كانوا يعودون منها بالغنائم والأسرى ، ومن ثم تكونت هذه القوة المرابطة في الثغور التي تحمل لواء الجهاد ، والانتقام من الأسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد ، وبرزت أسماء عروج وخير الدين ، واستطاع خير الدين أن ينقذ ٧٠٠ ألف مسلم أندلسي ، وقطعت هذه الحركة على البرتغال والأسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها ،

واستطاع الأخوان عروج وخير الدين (٨٩٩ ـ ٩٣٢) الاستيلاء على السواحل الجزائرية ، واستخلاصها من الأسبان .

* * *

وإذا كان سقوط الأندلس في أيدي الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وعروبتها قد هز الشعراء والأدباء وبعض المؤرخين . فإن النظرة العلمية وفق نواميس التطور ، وحركات المدّ والجزْر في التاريخ كانت تكشف جميعها عن قلق واضح في هذا الجزء من عالم الاسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الاسلامي قد توقف عندها . فإن أوربا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت هذه القرون الثمانية تقاوم ولا تستسلم أبداً لغزو الاسلام لها سواء من القسطنطينية أو من الأندلس ، وأنها طاولت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفتن ، والمقاومة ، ولم تهدأ حتى ضعف المسلمون وتمزقوا ، وانقسموا على أنفسهم .

وإذا كانت الأندلس مرت بكل ما تمر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت في أعماقها من حضارة باهرة زاهرة ، فإنها كانت في الواقع أشبه بالمحاصرة أو المعزولة من عالم الاسلام بحكم وقوعها في أوربا . وكان العدو أقرب إليها من أهلها في المغرب ، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة لها طابع واضح يجري في إطار طابع الاسلام ، ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوربية والجوار والعقلية والتحديات المختلفة . ولكن الأندلس كانت من ناحية أخرى هي أزكى ثمرات الحضارة العربية الاسلامية التي تكونت وتجمعت في قلب أوربا إيذاناً بالدور الذي سيقوم به الغرب في تلقف هذه الحضارة وتنميتها ، وإذا كانت الحروب الصليبية واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة ، وتبنى القيمة الحضارية العربية الاسلامية ، فإن قوة التاريخ في تحركه وتطوره ، قد نقلت مركز الثقل في الحضارة الاسلامية إلى قلب أوربا نفسها ممثلا في قرطبة بوصفها البيئة المعدة والمتبناة لحمل أمانة الحضارة في هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضاري لن يتوقف اذا ضعفت أمة عن حمل أمانته وتنميته .

ولقد استطاعت أوربا فعلا أن ترفض الاسلام ، وأن تجلي العرب عن

أرضها ، ومن مداخلها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض « فكر الاسلام ، وعقلية العرب ، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون ، وإن صاغت ذلك على نحو أو آخر بمحاولة أن تغضي إغضاء الناكر للجميل عن الدور الاسلامي في الحضارة . هذا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هي نفسها امتداداً لعوامل توقف الاسلام عن التوسع في أوربا ، نتيجة ضعف روح الجهاد والايمان بالعمل في سبيل نشر الاسلام وتبليغه وحمله إلى آفاق العالم على النحو الذي فعل الرواد الأولون بالاضافة إلى طابع الترف والدعة والحضارة والاستقرار ثم غلبه عنصر التمزق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة ، بينما أحرز العدو كل القوى الايجابية للحضارة الاسلامية وفكرها ، فاتحد وتسلح وآمن بحقه في استعادة أرضه ونشر دينه .

ويمكن القول إجمالا إنه لولا الموجتان البربريتان اللتان جازتا إلى الأندلس ، فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لانقضى أجل دولة الأندلس قبل ذلك بكثير ، ولقد كانت هذه القوى التي أعادت شباب الاسلام قوى بدوية لم تتحضر .

(٣٠)

الثقافة في عصر الوحدة الاسلامية العثمانية

ينتظم عالم الاسلام في هذه المرحلة : ثلاث وحدات سياسية هي :

(١) الدولة العثمانية التي قامت على انقاض الدولة البزنطية في آسيا الصغرى ، وقد انضم إليها العالم العربي من العراق إلى المغرب الأقصى .

(٢) الدولة الصفوية في فارس .

(٣) الدولة المغولية في الهند .

غير أن هذا التغيير السياسي الذي بدأ منذ أوائل القرن الثامن ، واستقر في القرن العاشر تقريباً ، لم يغير كثيراً أو قليلاً في مجرى الثقافة الاسلامية التي كانت تمضي كنهر قد عمق مجراه ، واتصلت روافده بين أقصى عالم الاسلام وأقصاه ، قائماً على الاسلام أساساً كإطار فكري عام بمقوماته الأساسية من التوحيد والعدل والاخاء .

وكانت مرحلة الغزو الخارجي التي سبقت هذه المرحلة قد أضافت إلى هذه الثقافة تطوراً جديداً ، وخلقت فنوناً جديدة من الأدب والفكر ، فقد هزت أعمال الغزو نفوس المفكرين ، وأظهرت فنوناً جديدة من فكر المقاومة والجهاد والتحدي حين تدافعت في حدود أرض الاسلام من الشرق والشمال والغرب قوى الغزو الثلاث : التتار والصليبيون والفرنجة ، قد دفعت في سرعة وقوة إلى التجمع والتوحيد بين أجزاء عالم الاسلام تحت قيادات جديدة بدوية شابة

ظهرت في أوانها ، وحملت لواء « الجهاد » في سبيل الدفاع عن الاسلام ، ورفع رايته ودحر خصومه ، وكان لهذا أثره في مختلف جوانب الفكر والأدب والثقافة معاً .

وقد برز في هذه المرحلة طابع التقاء فكري بين كبرى الحركتين الثقافيتين الاسلاميتين وهما : السنة والشيعة . وإذا كان اللقاء والتقارب بينهما ، قد تم في حركة « التصوف » فإن أعمال العدوان الضخمة المتصلة خلال القرنين السادس والسابع قد دفعت المسلمين في طريقين هما : طريق الجهاد والرباط لمقاومة العدو . وطريق الزهد والارتفاع على ماديات الحياة ومطامعها في ظل الجائحات التي فتكت بالأعداد الضخمة من المسلمين في هجمات التتار المتوالية والحملات الصليبية المتصلة . غير أن أبرز ما تتمثل به هذه المرحلة : هو اتساع نفوذ اللغتين الفارسية والتركية إلى جوار اللغة العربية ، فقد برزت ثقافة إسلامية لها طابع فارسي منذ القرن الثالث الهجري . غير أنها لم تلبث أن توسعت وتعمقت وحملت مضامين قومية وصوفية ، ثم كانت نهضة الأدب التركي المستمد من الأدب الفارسي أساساً والسائر في نفس خطه الصوفي ، والمتميز بطابعه القومي فيما بعد . وقد بدأ طابع الثقافة الشيعية يغلب على فارس منذ قيام الدولة الصفوية ، ويبدع فيها فكراً جديداً يتمثل في مفهوم الدعوة الشيعية وفقهها وتاريخها وبطولاتها ، كما اتسمت الثقافة التركية - التي أحيت اللسان التركي وبدأت تكتب به - بطابع السنة ، المشوب بروح التصوف الفارسي ، ويرى أرنولد أن الترك لم يتخلوا عن لسانهم . ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية الايرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية في أي مكان أن تصبح لغة رسمية ، أو لغة ثقافية وحتى القرن (**١٣٥٧** م) كانت اللغة العربية رسمية في آسيا الصغرى ، وهي أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب . والنقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن **١٣** م باللغة العربية . وقد ظلت العربية لغة القضاء في بلاد الترك حتى كاشغر إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي .

ولا شك قد لعب الاسلام دوراً هاماً في تكوين الثقافة التركية ، التي كانت في الأساس جزءاً من الثقافة الاسلامية مطبوعة بطابع السنة بالاضافة الى التقاليد، والعادات ، واللغة العربية ، واصطناع الحروف العربية في كتاباتهم .

وبالرغم من اتخاذ الدولة العثمانية « التركية » لغة فإنها لم تحاول أن تفرض لغتها على البلاد العربية ، حيث ظلت اللغة العربية سائدة ، وظل الاسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان . بل إن اللغة التركية تأثرت باللغة العربية القرآنية حتى وصفت بأن نصفها عربي ، وظهر أثر ذلك في أسماء الأسر والأفراد ، وغدت طوابع التقاليد الاسلامية العربية واضحة الأثر في المجتمع العثماني وفي أنظمة البيوت ، بل إن المثقفين والكتاب العثمانيين احتفظوا باللغة العربية أساساً ، بعد أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية ، وألفوا بها كثيراً من الكتب ، وظل القرآن العربي والحديث العربي يتلى ويروى بأدائه وحروفه العربية (عزة دروزة) وهناك شبه اجماع بين الباحثين على أن العنصر التركي لم يستطع أن يصبغ العرب والعالم الاسلامي بصبغته بل هو أن الذي تحول إلى الصبغة الغالبة : صبغة العربية والسلطان العربي بحكم أنه طابع الاسلام أساساً .

وقد ورث العثمانيون النظام الاسلامي الاجتماعي والسياسي المستمد من الشريعة الاسلامية وطبقوه وجعلوا من المفتي (شيخ الاسلام) وعدد من المفتين والفقهاء ، ومشايخ الطرق ، وخطباء المساجد ، هيئة تتولى الناصيتين القضائية والتعلمية في أنحاء الدولة ، وكان هذا هو مصدر محافظة العثمانيين على الثروة الفكرية والثقافة الاسلامية التي تتمثل في الفقه والتوحيد والشريعة والتصوف والفلسفة .

ويصور العلامة حيدربامات أثر الاسلام في الأدب التركي فيقول : يبدو عند الكلام عن الآداب التركية أنه من المتعذر تجريدها من المؤثرات العربية ، فمما لا جدال فيه أن هذه المؤثرات قامت بعملها خلال الأدب الفارسي على الخصوص ، وأن الأدب الفارسي لم يبلغ أوج كماله إلا بمباشرة الفاتحين العرب . ويفضل المثل الديني الأعلى الذي كان العرب حملة لوائه .» ويقول فون هامر برجستال : عرف الترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند للعرب والفرس من عبقرية شعرية فطرية أن يجمعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين فبدوا تجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها ، كما بدا الرومان تجاه اليونان . وقد ردد الشعراء العثمانيون صدى الشعر الفارسي والعربي .

وقد ظلت اللغة العربية هي : اللغة الدينية والعلمية التي تكتب بها الوثائق الدولية ، وتتم بها المراسلات . أما اللغة الفارسية فهي لغة البلاط . أما اللغة التركية فكانت لا تستعمل في غير الاتصال بالشعب . وقد أجمع المؤرخون على اهتمام العثمانيين بالعلوم والآداب العربية الاسلامية ، وولوع سلاطينهم بها ، وأن السلطان محمد الفاتح فضلاً عن أنه أسس جامعين عظيمين : (وكل خلفاء العثمانيين أسسوا مساجد فاخرة) فإنه عني بالكتب ، وأنشأ لها الخزائن ، وأبقى على نفائسها ، وأمر بأن يكتب على أبواب المكتبات قول النبي صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد أولى اهتماماً لكتب اليونان فأمر بنقلها إلى التركية .

كما برع العثمانيون في التاريخ ، فلم يكونوا رواة فحسب ، بل محللين . وقد قدموا في مجاله بحوثاً مستفيضة (مادة وتحليلاً) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ ، وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ، ناصروا الأدب وأهله ، وقدموا للعلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون ، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة ، وقد برز في عصر الدولة العثمانية الأولى مفكرون وعلماء كثيرون ، نقول هذا ونتحفظ في أن العثمانيين لم يتأثروا خطى العرب لا في أمور الشريعة والفقه وعلوم الدين ، ولم يظهروا ميلا إلى الغربية وخدعتها على النحو الذي أظهره الفرس .

وقد حظي في عصور السلاطين أعلام كثيرون بالتكريم للعلم ، فقد تشبهوا بالخلفاء والسلاطين والملوك السابقين في تقدير العلماء وبناء المدارس ، وقد اتخذ أورخان بن عثمان من العلماء أهل شوراه ، وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحها ، ومن العلماء اللامعين في حاشيته عربشاه السوري . أما محمد الفاتح فكان يتكلم خمس لغات ، وكان مُلِمّاً بالعلم والرياضة ، وقد أحيا في القسطنطينية ما وصف بعصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ، ودار الفنون . وكان السلطان سليم الأول شاعراً وله آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية ، واستقدم العلماء والأدباء . أما السلطان سليمان القانوني فقد كان عالماً بالفقه والقانون . وهو الذي وضع قوانين الدولة .

الحركة الصوفية

كان للتصوف دوره الحاسم في كلتا المرحلتين : مرحلة الغزو الخارجي ، ومرحلة الوحدات الثلاث : (العثمانية ، الصفوية ، المغولية) ومنذ القرن السادس (**١٢** م) صارت للصوفية منظمة اجتماعية ، احتضنت عدداً ضخماً من أفراد المجتمع ، وكانت في مصادرها الأولى تتمثل في مجموعة المرابطين في الثغور ، والمتطوعين للجهاد وقتال العدو المغير على السواحل ، والعاملين على نشر الاسلام في الأطراف البعيدة . غير أن حركة التصوف لم تلبث أن ركدت وتحولت من ناحية إلى جماعات من الدراويش المقيمين في الخالقاه والتكايا ، وغزا فكرها خليط من التصورات الفلسفية الهندية والمجوسية والبوذية واليونانية القديمة في مسائل الحلول ووحدة الوجود فانحرفت عن مفهوم الزهادة الاسلامي السمح . ومن هنا كانت معارضة ابن تيمية لها وحملته عليها ، واعتباره الحجيج للأضرحة ، والتماس العون من قبور الأولياء « وثنية » تخرج عن مفهوم الاسلام البسيط السمح الذي يفتح الطريق بين الانسان وربه دون وساطة أو شفاعة .

غير أن دعوة ابن تيمية إلى التوحيد الخالص (**٧٢٩** هـ) ومحاربة مختلف الفرق كالصوفية والفلاسفة والمتكلمين . إنما كانت تهدف إلى تصحيح مفهوم الاسلام في شموله وتكامله ووسطيته . هذه الدعوة لم تحل دون امتداد التصوف وانسحابه طوال العصر العثماني حتى تجددت الدعوة إلى التوحيد الخالص في إبان يقظة الأمة العربية كقوة جديدة من قوى البعث الاسلامي ، وكموجة جديدة هي عنوان على « مرحلة اليقظة العربية الاسلامية » بعد أن صعفت « الوحدة

الاسلامية العثمانية » عن حمل لواء الاسلام كقوة متطورة دافعة لتاريخ الاسلام إلى حتميته .

وكان جلال الدين الرومي قد ظهر في الأناضول (توفي **٦٨٨** م) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية ، وله كتاب « المثنوي » بالفارسية وهي منظومة صوفية في نحو **٣٠** ألف بيت . قال المؤرخون إنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقاً إلى شاطىء البحر الأبيض غرباً . وأنها مرجع لكل من أراد الماماً بقصائد الصوفية . وقد كان للمثنوي أبعد الأثر في الشعر التركي . وقد نشر جلال الدين الرومي طريقة الصوفية في الأناضول قبيل ظهور الدولة العثمانية فانتشرت طريقته المعروفة بالمولوية .

* * *

وفي أوائل العصر العثماني ظهرت « الطريقة النقشبندية » وعمت أنحاء الدولة العثمانية ، ثم توسعت الطرق الصوفية من بعد (أورخان ـ الطريقة السعدية) .

وقد تأثر الأدب العثماني بالتصوف تأثراً كبيراً . ويرى حيدر بامات أن التصوف كان من العوامل التي ساعدت على نشوء الأدب التركي . وأن هذه المبادىء الصوفية جاءت من آسيا الوسطى ، وقد كانت الأناضول مستعدة استعداداً خاصاً ـ بعد أن احتاجتها الغارات المغولية الأولى ـ لتقبل مواعظ الدراويش الذين أدخلوا إلى الأناضول أشعار أحمد يسري التركية ، فانتشر نفوذ هذا المتصوف الخراساني في جميع آسيا الوسطى وفي آذربيجان حتى سهل الفولجا ، وكان متصوفة الأناضول يكتبون باللغة الفارسية ، فيعانون نفوذ التصوف العربي الفارسي الذي ظل جلال الدين الرومي عنوانه الأعلى .

وقد تأثر العثمانيون بالتصوف والسنة معاً ، ويرى الباحثون أن تشدد الترك واندفاعهم إلى العمل تحت راية الاسلام ، والجهاد كان نتيجة مفهومهم لعقيدة السنة والتصوف ممتزجين . وان هذا يختلف عن مفهوم الفرس الذي يتسم بطابع الاجتهاد والعقلانية . كان عبد القادر الجيلاني (**٥٦١** هـ) أكبر دعاة الصوفية الذين حملوا لواء الدعوة إلى إخضاع الطريقة للشريعة والتمسك بالكتاب

والسنة ، فقد عارض بقوة دعوى القائلين بانفصال الشريعة عن الحقيقة ، ودعوى أن الوصول إلى الحقيقة يسقط الفرائض والتكاليف الشرعية ، وكان ذلك التصحيح لمفهوم الاسلام سبباً في دخول عدد كبير من غير المسلمين في الاسلام ، وتصحيح عقائد عدد هائل من المسلمين . غير أن التصوف الاسلامي لم يلبث أن انحرف مرة أخرى بتأثير تراث التصوف الفارسي القديم من الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

- ٢ -

يقسم هذا العصر في مجال الفكر والثقافة بمظاهر هامة :

أولا : نمو البحث العلمي الاسلامي في مجال الفلك والعلوم الطبيعية . فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والأندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد التهمها الغرب حين أضاف مدنهم الحافلة بمعامل الأبحاث والدراسات إلى نفوذه . كما حدث في طليطلة وبلنسية وقرطبة . وقد اتسعت مرحلة الغزو الخارجي بالتحاق كثير من علماء الأندلس والمغرب بحواضر مصر والشام ، وفي هذه المرحلة استمر هذا التدفق .

ثانياً : كما ظهر في مرحلة الغزو والمقاومة (٤٩٨ - ٦٩٨) مجموعة من أعلام الفكر الاسلامي في مجال العلوم الطبيعية لا تقل قدراً عن أعلام مرحلة التبلور والانصهار (١٣٢ - ٤٩٨) أمثال القزويني وابن منظور وابن طفيل وابن رشد . فإن مرحلة الوحدة الاسلامية (٦٩٩ - ١١٥٣) قد حفلت بأعلام لهم دور كبير في بناء الفكر الاسلامي وتطويره ، لعل من أبرزهم ابن تيمية (٧٢٨) وابن القيم (٧٥١) وابن خلدون (٨٠٨) وابن نباتة (٧٦٨) وابن بطوطة (٧٧٩) والقلقشندي (٨٢١) والمقريزي (٨٤٥) والشاطبي والبلقيني والسيوطي . وقد اتصل تطور العلم في مجال الطب والطبيعيات ، فقد كان من ألمع أطباء هذه الحقبة : ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية .

ثالثاً : ظلت معاهد وجامعات الفكر الاسلامي تقوم بدورها : الزيتونة والأموي ، ومدارس النجف ، والأزهر . ومن خلال هذه المعاهد انبعثت اليقظة مرة أخرى ، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية الاسلامية ، ومرجعاً

للدولة العثمانية في شؤون الفقه واللغة العربية ، وفي الأزهر تعلم أكابر العلماء العثمانيين شمس الدين الفناري، ويعقوب بن إدريس، ومحي الدين الكافية جي والمولى أحمد بن إسماعيل الكوراني ، وعديد من أعلام الثقافة الاسلامية من الأتراك ، وكان للأزهر إلى ذلك هيبته واحترامه . وفي هذه المعاقل تحصنت اللغة العربية والتراث الاسلامي وغالبت لغة العثمانيين ، وفي خلال القرن التاسع الهجري حفل الأزهر بأعلام في مقدمتهم : ابن حجر العسقلاني **٨٥٢** القلقشندي **٨٢١** المقريزي **٨٤٥** ابن تغرى بردى **٨٧٤** بدر الدين العيني **٨٥٥** سراج الدين البلقيني **٨٦٨** وشمس الدين السخاوي **٩٠٢** وجلال الدين السيوطي **٩١١** . وفي خلال القرنين العاشر والحادي عشر أبرز الأزهر عدداً من العلماء أمثال : ابن الحق السنباطي والشيشيني والمناوي والصفدي والشويري والشبراملي والزرقاني والبرماوي وحسن الجبرتي (والد الجبرتي) والشرنبلاني (راجع : الكواكب السائرة في أعلام المائة العاشرة) .

وظل الأزهر كذلك مقصد أكابر العلماء الوافدين إلى مصر من أنحاء عالم الاسلام ، وممن قدم إليه خلال القرن الحادي عشر علامة المغرب : شهاب الدين المقري **١٠٢٧** وتوفي بها ، وكتب المقري في مصر : نفح الطيب ، وإزهار الرياحين .

وظلت حلقات الأزهر خلال هذه المرحلة غاصة بالعلماء والطلاب ، وبلغ طلابه في هذه الفترة نحو ألف طالب . وفي فاتحة القرن الثاني عشر وفد على القاهرة عبد الغني النابلسي وكتب يقول : دخلنا الجامع الأزهر المعمور بالعلماء والصالحين وقراءة القرآن ، ودرس العلم ليلاً ونهاراً . كما قدم إلى مصر في هذه الفترة مرتضى الزبيدي شارح القاموس ، والعلامة المغربي أبوعبد الله المربي .

رابعاً : بدأت في هذه المرحلة إرهاصات اليقظة فالوزير العثماني أحمد باكور والي مصر **١١٦٢ هـ ١٧٨٤** م كان من هواة العلوم الرياضية . وقد قابل علماء الأزهر وفي مقدمتهم عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر وسألهم عن العلوم الرياضية فاعتذروا بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً . ونعى الوزير هدا النقص من علماء مصر وقد نال الشيخ حسن الجبرتي والد الجبرتي المؤرخ حظوة عند الوزير

لبراعته في العلوم الهندسية والرياضية ، وقام الوزير بتصميم عدة مزاول لبيان الوقت ، وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر . وقد ظلت قائمة به إلى عصر الجبرتي .

خامساً : دارت في هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة : فقد أثارت آراء ابن حجر والقلقشندي والمقريزي في صحن الأزهر مناقشات . وقدم ابن خلدون نظرياته في العمرات والعصبية ، وأسس الملك ونشأة الدول . وتلقاها عنه تلميذه المقريزي الذي تأثر بها في موسوعة : « إغاثة الأمة لكشف الغمة » ودارت بين البقاعي والسيوطي ، وبين البقاعي والسخاوي ، وبين السيوطي والسخاوي معارك أدبية وفكرية في اللغة والأدب ، وجرى في صحن الأزهر مراجعات تحفل بها موسوعة السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن الرابع .

كان موقف العثمانيين من الثقافة بوجه عام موقفاً يتسق مع طابعهم العسكري الحربي . فقد كان الحكام الأول قريبون من اللغة العربية والثقافة الاسلامية . ثم توسع نطاق الثقافة التركية القائمة على اللغتين الفارسية والتركية ، وضعف أمر الثقافة العربية الاسلامية ، ويمكن القول بأن ثقافات ثلاث شملت عالم الاسلام مرتبطة باللغات الثلاث الكبرى :

* الثقافة الفارسية الاسلامية في فارس والهند .
* الثقافة التركية الاسلامية في آسيا الصغرى .
* الثقافة العربية الاسلامية في الوحدات العربية .

هذه هي الظاهرة الأولى : أما الظاهرة الثانية فهي سيطرة الأدب الصوفي في العالم الاسلامي كله . ولقد كان للثقافتين الفارسية والتركية أثرهما في توسيع نطاق هذا الأدب العاطفي ، وتأثر الأدب العربي به نتيجة لاتصال مضمونه بالاسلام نفسه . ومن ثم ضعفت في هذه المرحلة وتقلصت الدراسات العقلية في مجال الفقه والفلسفة والتوحيد ، ويمكن أن يقال : إن العالم الاسلامي قد انحاز إلى الطوابع الروحية والوجدانية التي تتمثل في الصوفية المغرقة في الجبرية والاستسلام . وقد كان لهذه الظاهرة المنحرفة عن وسطية الاسلام أثرها البعيد المدى لعدة قرون من بعد .

الظاهرة الأولى : تقوم الثقافة التركية الاسلامية على عناصر ثلاثة :

(١) الثقافة الفارسية . وقد ظلت هي لغة البلاط العثماني .

(٢) الثقافة العربية وهي ثقافة الفقه والشريعة والدين والعلوم . وكانت العربية في أول الأمر لغة الدولة في مراسلاتها ، ثم تكونت من العنصرين معاً : « الثقافة التركية » التي كتبت باللغة التركية ، وكانت في أول الأمر لا تستعمل في غير المجالات الشعبية ، فقد تأثر الترك بآثار الثقافتين الفارسية والعربية : أما الثقافة الفارسية فقد غلب عليها الشعر الصوفي ، أما الثقافة العربية فقد غلب عليها الفكر الاسلامي لعلومه ودراساته المختلفة . ولما كانت اللغتان الفارسية والتركية متقاربتين . فقد غلب طابع الثقافة الفارسية المتمثل في اللغة التركية ، وأصبحت لغة الدولة والثقافة معاً . ولما كانت الثقافة التركية فارسية الطابع وليست عربية ، فقد برز دور الأزهر والزيتونة والنجف والقرويين في حماية اللغة العربية . والثقافة العربية الاسلامية . وتبدو هنا ملاحظتان هامتان :

(١) إن جذور الثقافتين الفارسية والتركية قائمة أصلاً على « المثل الاسلامي الأعلى » .

(٢) إن غلب التشيع على الفرس . وغلب السنة على الترك لم يمنعهما من التأثر بالتصوف ، الذي ساد الثقافات الاسلامية الثلاث بدرجات متفاوتة ، ومع ذلك فقد ظلت الثقافة العربية محتفظة بطابعها ومقوماتها الاساسية القائمة على الصوفية والتوحيد معاً ، على المزج بين الفقه والتصوف ، وإن غلب طابع التصوف على الفقهاء .

ويرجع ذلك إلى جامعي الأزهر والزيتونة اللذين حفظا : الفكر الاسلامي واللغة العربية في وقت معاً .

الظاهرة الثانية : ارتبطت ظاهرة اتساع الحركة الصوفية بالحروب الصليبية والغارات المغولية . ففي خلال القرنين ـ خلال معركة الغزو الخارجي والمقاومة ـ وتمثل التصوف في الجهاد والمقاومة . فقد كان عمق الايمان بالاسلام هو الدافع الأكبر لتحرر المجموعات الضخمة من المسلمين عن مطامع الحياة واندماجها في القوى العاملة للحرب والمقاومة والقتال ، وكان ذلك يفرض على هؤلاء المجاهدين نظماً اجتماعية ، قوامها المرابطة في الثغور ، والاكتفاء بالقليل من الزاد ، والالتجاء إلى الله ، فلم يكن الزهد أو التصوف في هذه المرحلة إلا سلاحاً

ضخماً من أسلحة المعركة ، التي عزف عنها الطامعون في الحياة ، الغارقون في ترفها ومتعها ، بينما أقبل عليها رغبة في الدفاع عن أرض الاسلام وكيان المسلمين ، أولئك الذين كانت نفوسهم قد ارتبطت بمتابعة صيحة الدعاة والمرشدين ، وصغرت في عيونهم رغبات الحياة ومطامعها ، وقد اتسعت هذه الظاهرة على أفق عالم الاسلام كله . ففي المغرب وعلى طول سواحله كانت عمليات الغزو التي يشنها الفرنجة لا تتوقف ، وفي المشرق كانت حملات الصليبيين وإمداداتهم لا تتوقف ، وغزوات التتار الجائحة المندفعة كانت تباغت عالم الاسلام وعواصمه ، ومن ثم عاش المسلمون في مختلف هذه المناطق حياة ذات طابع غريب ، هو طابع المقاومة والرباط ، وهو طابع عاشت عليه أجيال متوالية لم تتردد عن أن تهب نفسها للمعركة ، دون أن تولي اهتمامها لأمر من أمور الدنيا ، فلما توقفت الحروب الصليبية وغزوات التتار ، كانت تلك الظاهرة التي استمرت حوالي مائتي سنة قد تركت آثارها في المجتمع والفكر ، وخلفت آثاراً بعيدة المدى ، قوامها ذلك الطابع الجبري من التسليم والرضا بالظلم ، ونشأ ذلك التصور البعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام وهو : تقبل ذلك كله والاستسلام له بوصفه قدراً من عند الله لا يرد ، وكان هذا هو الانحراف البعيد المدى الذي أنتجه الفصال عن مفهوم الاسلام في الجهاد وفي الحياة وفي الزهد جميعاً . ولقد كان هذا المفهوم الجبري دخيلاً على الاسلام ، وليس مستمداً من مقوماته أو مفاهيمه الأساسية ، وإنما جاء من فلسفات ومذاهب قديمة عاشت طويلا في بلاد البيئات ، ولما تنصهر انصهاراً كاملاً في الفكر الاسلامي ، ثم استطاع الغزو الأجنبي أن يثيرها ويجددها ليجعلها عاملاً من عوامل التثبيط والاستسلام والاذعان لنفوذه وسلطانه ، ثم استغلها بعض الحكام والأمراء والولاة في خلال « مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية » التي كان « التصوف » الجبري طابعها الأغلب ، وإن كان الأمر لم يخل مطلقاً من قيام دعاة يفهمون الاسلام فهماً سلبياً يدعون إلى تحرر التصوف ، ويدعون إلى ارتباطه بالشريعة ، وإلى تخلصه من النزعات الفارسية . والهندية واليونانية القديمة التي أضافت إليه نظريات الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وإذا كان « التصوف » قد كان بعيد الأثر في مرحلتي الغزو الخارجي ، ومرحلة الوحدة العربية الاسلامية ، وما بعدها ، في نشر الاسلام وتوسيع آفاقه ذاتياً وكسب أرض جديدة للتوحيد . فإنه قد أضعف الجانب العقلي في الاسلام ، وأصاب المجتمع الاسلامي بعوامل

الركود والضعف والاستسلام والقدرية باسم « الجبرية » التي لم تسلم منها المفاهيم الصوفية جميعاً في هذه المرحلة ، وكان من آثار الموجة الصوفية العاتية اتساع نطاق الزوايا والتكايا ، وكثر الداعون إلى رفض الدنيا ، ومن قلب الدولة العثمانية التي كانت تقود المعارك ، وتقاتل وتحارب ، ظهرت هذه الدعوة وتعمقت ، وكان لها أثرها البعيد في مرحلة الضعف والتخلف . ويرى كثير من الباحثين أن « المفاهيم الصوفية » قد تأثرت كثيراً بالفلسفات اليونانية والمجوسية الفارسية القديمة .

ولم يلبث رجال الصوفية أن سيطروا على المقدرات السياسية في الدولة العثمانية ، وازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية عند ما بالغ الحكام في الخضوع لهم ، وكان موقف العلماء بالنسبة لذلك يتمثل في محاولات اصلاح الصوفية وردها عن انحرافها ، والانكار عليها . ومن الذين أنكروا على الصوفية محمد صفي الدين الحنفي . . . وكلهم تابعوا تقي الدين بن تيمية ، وابن حجر العسقلاني . كما شكا العلماء من انتشار الجهل ، ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون معسكرين منفصلين : الصوفية المجاهدون الذين عزفوا عن السلطان وهاموا في الأرض يدعون إلى الله والذين أسلم على أيديهم كثير من الأمراء والحكام ، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الأخيرون وسيلة لتثبيت ملكهم .

ولم يكن الانحراف في مفهوم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذي أثارته الباطنية والشعوبية ، وخصوم الاسلام وأصحاب دعوات الهدم والتدمير . وكانت كل جهود هذه الدعوات تهدف إلى الانحراف بالاسلام عن مفاهيمه الأصيلة ، أو الاستغناء بالجزء عن الكل . بينما يتمثل الاسلام في مفهومه الحقيقي : في خاصية الشمول والتكامل والوسطية قلباً وعقلاً ، فقهاً وتصوفاً ، وروحاً ومادة . كان أبرز العوامل الهدامة في دعوة بعض الصوفية « طابع الجبرية والاستسلام للمقادير ، وغلبة النزعات الوجدانية والروحية » واعتباره الوسيلة الوحيدة لفهم الاسلام ، وكذلك في رفع مقام الولي إلى مقام النبي أو ما فوقه .

وقد حمل الشعراني (**٩٧٣ هـ**) على المتصوفة في عصره - وهو من أئمة الصوفية - فقد رأى أن معظمهم دجالون يحتالون على كل أموال الناس ، وحذر

المجتمع من حيلهم ودجلهم ، وأورد صوراً وقصصاً تمثل فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا ، ووقوفهم بأبواب الحكام . غير أن كثيراً من أعلام الصوفية ، كأبي الحسن الأشعري ، والشعراني وأحمد البدوي . قد حملوا السلاح في معارك مقاومة الغزو الخارجي ، ولا شك كان التصوف رد فعل خطير في مواجهة التحلل والانحراف والترف الذي غمر المجتمع الاسلامي في هذه المرحلة ، وفي مواجهة طغيان الحكام والولاة والأمراء .

الباب السادس

اليقظة العربية الاسلامية



(٣١)

اليقظة العربية الاسلامية

في أواخر القرن السابع الهجري ، كانت الحركة الصليبية في المشرق قد بلغت غاية الضعف ، فلم تلبث أن طوت أعلامها ، وانسحبت من عالم الاسلام مهزومة بعد قرنين كاملين من الصراع ، هنالك كانت موجة جديدة من موجات الاسلام تتأهب لتأخذ مكانها على مسرح الأحداث وتلعب دورها التاريخي كحلقة متتابعة متصلة من حلقات التاريخ الاسلامي . وقد بدأت هذه القوة بالفعل تأخذ مكانها في آسيا الصغرى منذ (**٦٩٩ هـ ١٣٠٠** م) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوربا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الاسلامية العثمانية (**٩١٥ هـ ١٥١٧** م) في نفس الوقت الذي كانت الدولة الصفوية في فارس والمغولية في الهند تغطي عالم الاسلام في مجال البناء السياسي .

وكانت « الوحدة الاسلامية العثمانية » هي أقوى الوحدات الاسلامية الثلاث وأوسعها نطاقاً ، فقد شملت العالم العربي كله بالاضافة إلى الدولة العثمانية وإلى امتدادها في أوربا . وقد امتدت هذه الوحدة قوية مهيبة ضخمة خلال أربعة قرون كاملة ، غير أنها لم تلبث أن واجهت نقطة التنازل والضعف في القرن الحادي عشر ، فخلاله وخلال القرن الثاني عشر كانت الوحدة الاسلامية العثمانية تتحول من معارك الهجوم الى معارك الدفاع ، وكانت أوربا التي واجهت التوسع الاسلامي العثماني خلال القرون الأربعة قد أخذت تتقدم

علمياً في مجال الحرب والصناعة ، حين توقفت الدولة العثمانية عن تطوير صناعتها الحربية وأساليبها في مجال المقاومة والدفاع ، ومن ثم بدأت هزائم الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت هذه الوحدة تتزعزع ، وأخذت عوامل الضعف والاضطراب تؤثر في كيان المجتمع ، وتوسع شقة الخلاف بين العناصر والقوى والأحداث ، وحين أخذت الصوفية تجرف الفكر الاسلامي وتنحرف به . وتسيطر عليه ، وكأنها وحدها مفهوم الاسلام ، بينما انطوت تحت سيطرتها وضعفت مفاهيم الاسلام الأساسية من التوحيد والعدل والحرية والقوة واليقظة والرباط الحربي ، وحين بلغت الصوفية سيطرتها على المجتمع ووسمته بطابع التواكل والضعف والاستسلام يختفي مفهوم الاسلام الحقيقي : الجامع بين العقل والقلب والعلم والروح ، والدنيا والآخرة ، واختفى طابعه الايجابي التقدمي ، طابع الشمول والتكامل والوسطية .

فإذا ما بلغت مفاهيم الاسلام هذا الانحراف . كان لا بد أن تبرز قوة جديدة لتعيد صياغة مفهوم الاسلام من جديد ، وتصحح المفاهيم ، وتكشف عن جوهره الذي اختفى تحت تضاعيف الانحرافات المسيطرة : شأنها في ذلك شأن الاسلام في مختلف مراحله ، وطوال تاريخه .

ومن هنا كانت « موجة اليقظة الاسلامية العربية » منبعثة من القوة الأصلية الأولى التي بلغت مفهوم الاسلام عن النبي أول مرة في جزيرة العرب ، وحملته إلى العالم كله وظلت تحمل لواءه في مجالي الفكر والسياسة خلال قرون متصلة ، تلك القوة هي « الأمة العربية » . فقد بدأت من قلب الأمة العربية أول دعوة إلى تحرير الاسلام من الزيوف والبدع والاضافات المنحرفة التي عاصرت هذه المرحلة الطويلة ، وكانت عاملاً من عوامل الضعف والتخلف ، امتد أثره من بعد . حين انهارت الوحدة العثمانية الاسلامية وضعفت قيادتها ممثلة في الدولة العثمانية ، وكان الغرب قد أعد مخططه في السيطرة على مختلف وحدات الدولة العثمانية بعد انتزاعها منها ، وبذلك . عن طريق هذا الانحراف في مفهوم الاسلام . انهارت الدولة العثمانية ككل . وسيطر الاستعمار على هذه الوحدات العربية .

غير أن صوت « الدعوة إلى تحرير الاسلام » من الانحرافات قد كان عاملاً

أساسياً في اليقظة الاسلامية الجديدة التي كانت قيادتها مرة أخرى للأمة العربية ، التي بدأ كيانها يبرز كقوة منفصلة عن الدولة العثمانية ، بعد أن مرت حركة المقاومة بمرحلة طويلة من العمل تحت لواء « الجامعة الاسلامية » هذه الجامعة التي كانت تمثل مواجهة الكيان العربي العثماني موحداً لحركة الاستعمار ، ثم كان لا بد من انتقال إلى مرحلة جديدة من المقاومة باسم الوحدة العربية وحدها ، بعد أن وقع الصراع بين العثمانيين والعرب . حين حمل العثمانيون لواء الدعوة إلى الجامعة الطورانية أو القومية التركية .

وفي نفس الوقت الذي كان دور الترك بالنسبة لقيادة عالم الاسلام ينتهي ، كان دور العرب يتألق ويقوى ، فقد حملت الأمة العربية مرة أخرى لواء هذه المرحلة من مراحل التاريخ الاسلامي كقوة قيادية موجهة ، حملت لواء اليقظة ، هذه اليقظة التي انبعثت من تصحيح مفهوم الاسلام « التوحيد » بينما كان انهيار القوة العثمانية يقظة للاستعمار الذي حل محلها في كل مكان ، بدأت حركة اليقظة الاسلامية . وقد أطلق عليها حركة الاصلاح الاسلامي من قلب الأمة العربية ، وتمثلت في دعوات متناثرة في أجزاء العالم الاسلامي في وقت واحد ومتوالية من بعد على فترات .

بدأت الحركة الأولى والكبرى والأم (عام **١١٥٣** هـ **١٧٤٠** م) : في منتصف القرن الثاني عشر ، وما زالت مستمرة إلى اليوم خلال أكثر من قرنين كاملين (أو ما يقرب من **٢٢٧** سنة) وكانت الأمة العربية هي « بؤرة الحركة » وإن كان قد امتد أثرها إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا .

وقد صحح العرب مفاهيم الاسلام في دقة ، وكان أبرز ما ركزوا عليه ، شجب المفهوم القائل بأن الصوفية وحدها هي الاسلام . أو أن القلب وحده هو طريق المعرفة ، وكانت دعوة اليقظة العربية الجديدة : تقول بأن العقل والقلب هما مصدر المعرفة ، وأن الاسلام في تكامله وشموله ووسطيته يجمعهما ويمزج بينهما .

وبذلك التقى الغزالي وابن تيمية في نفوس هؤلاء الدعاة والتقى التصوف والاعتزال ، وقامت « السنة » من جديد وفق هذا المفهوم تفسر اتصال الاسلام بالحياة وبالحضارة وتكشف عن جوهره وحيويته وقدرته على الحركة والعمل في كل

عصر وبيئة . وحين بدأت الوحدة العربية استلهمت قاعدتها الأساسية من وحدة الفكر العربي الاسلامي الذي يتمثل فيه فكر مختلف العناصر التي تعيش في العالم العربي ، هذه الوحدة التي كانت تحمل مفهوماً واضحاً هو أنه إذا ذل الاسلام ذل العرب وأن يقظة الاسلام لا بد أن تنبعث أساساً من الأمة العربية التي تأهلت لحمل لواء الاسلام منذ أربعة عشر قرناً ، والتي تحمل لواء اللغة العربية : لغة القرآن .

وكما كشفت هذه المرحلة عن جوهر الاسلام قوياً إيجابياً قادراً على الحياة . فقد كشفت عن أصالة العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الاستعماري الحديث في مرحلة عنيفة ممتدة حاول فيها الغرب السيطرة على هذه الوحدات المختلفة ، بدأت هذه الحركة بتطويق العالم الاسلامي من خلال حملات الكشف والملاحة التي بدأها البرتغاليون والأسبانيون كرد فعل انتقامي لشواطىء المغرب وأفريقيا ، وكحركة تطويق للعالم الاسلامي اتصلت بسقوط الأندلس ، اتصال معركة الحروب الصليبية في المشرق بمعركة الحروب الصليبية بالمغرب .

وقد واجه العالم الاسلامي الاستعمار الغربي . هولندا في أندونيسيا ، وانجلترا في الهند ، وفرنسا وانجلترا في العالم العربي في معركة مقاومة مستمرة ، كما واجه المسلمون معركة تصفية خطيرة في التركستان وما وراء النهر من الروس . كما صمدوا أمام مواجهة ضخمة في الهند والصين . وكان أخطر ما واجه الاسلام سيطرة الصهيونية على فلسطين .

- ٢ -

بدأت علامات اليقظة العربية الاسلامية في أوائل القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) كان العلماء في الأزهر أول ضوء في هذه اليقظة . فقد أخذ العلماء يواجهون الأمراء والحكام ، ويجبونهم بالمظالم ويأخذون عليهم المواثيق ، هذه الظاهرة تعطي أول دلالة على « أصالة » مفهوم الاسلام في مواجهة معضلات المجتمع . فقد كشف العلماء في هذه الفترة عن إيجابية الاسلام في مواجهة الأمراء المستبدين ، وكانت آراء « ابن تيمية » في تحرير الاسلام ، والدعوة إلى التوحيد . وما أفاض العلماء في الكشف عن نصوص الشريعة من حق الأفراد ، وواجبات الحكام . ومن هنا بدأ « علماء الاسلام »

يأخذون مكان الصدارة . بعد أن ظلت هذه الصدارة فترة طويلة « للصوفية » الذين كانوا موضع تقدير الحكام وتقدير الاستعمار من بعد لمفاهيمهم المنحرفة التي تفرض على الناس التسليم بالواقع ، وقبول الجبرية في سلطة الحاكم . ويسجل الجبرتي أن عام ١١١٤ هـ ١٧٠٢ م . شهد موقفاً باكراً من هذه المواقف عندما أصيب أهل الأسواق . نتيجة لظلم الأمراء ، فاتجهوا إلى الجامع الأزهر . « وشكوا أمرهم إلى العلماء وألزموهم بالركوب معهم إلى الديوان » وقد بلغ ذلك الأمر من القوة غايته حين ألزم العلماء الأمراء بالتوقيع على ميثاق (١٢١٠ هـ ١٧٩٥ م) الذي يعد وثيقة مجددة لمفهوم الاسلام في إلزام الحكام بمنع فرض أي ضريبة على الأهالي إلا بعد استشارتهم .

ويروي الجبرتي أنه عندما حكمت المحكمة على أحد الأمراء بالاذعان فرفض . هنالك هب العلماء لنصرة الحق ، أرسل الأمراء له وحملوه على الاذعان ، ولم يترك العلماء الأمير بغير حق مسجل فكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضي به القانون .

ومن هذه النقطة ، نقطة تجدد نفوذ العلماء . وارتفاع صوتهم ، بدأ عامل جديد مضاد لعامل الجبرية الذي فرضه الصوفية ، الذي كان يعطي للحكام حق إذلال الرعية والسيطرة عليها باسم الاسلام . لقد وقف العلماء مع الشعب في نضاله ضد الأمراء الطغاة كمقدمة للحد من استبداد الولاة . وهكذا كان العلماء في هذه المرحلة على رأس الثورات الشعبية التي قام بها الشعب على الأمراء الظالمين ، وكان مراد وإبراهيم طاغيتين متجبرين حيث كانت مجموعات الشعب تقصد إلى الأزهر فيتقدمهم العلماء ، وفي مقدمة من شاركوا في ذلك أعلام أجلاءهم : الدرديري ـ العروسي ـ الشرقاوي . وكان لعمر مكرم دور كبير من بعد . قال الجبرتي عن الشيخ الدرديري : فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير ، فكلمه ووبخه وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله ، كما التجأ الناس إلى الشيخ العروسي بعد وفاة الدوديري يلتمسون عنده الحماية من الظلم .

وقد عزل الوالي وولى غيره ، قال الجبرتي ، ونزل الوالي الجديد من الديوان إلى الأزهر وقابل المشايخ واسترضاهم ، كما التجأ الفلاحون إلى الشيخ

الشرقاوي لمخاطبة مراد وإبراهيم ، فلما كلمهم ولم يجد أثراً لمسعاه ، دعـا إلى الثورة ، فاجتمع له أهل القاهرة وأهل الأطراف ، هنالك « التـزم الأمـراء بمـا شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح » وكان القاضي حاضراً ، فكتب صحيفة بذلك ، وفي خلال الحملة الفرنسية كان موقف عمر مكرم والعلماء مشرفاً . وقد بلغ عمر مكرم القمة في ذلك حين خاطب خورشيد الحاكم التركي الذي رفض أن يستجيب لرغبة الشعب بعزله . قال عمر مكرم : « إن أولي الأمـر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها . وإن للشعوب طبقاً لما جرى به المسلمون قديمـاً ، ولما تقضي به أحكام الشريعة الاسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم . لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة . فقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أني لا أكتفي بذكر ما جرت عليه عادة البلاد من قديم . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه .

وقد صدر « عمر مكرم » في هذا عن فهم مفهوم عميق للاسلام والشريعة الاسلامية ـ ولم يصدر كما رد بعض المؤرخين عن فهم لآراء الفرنسيين ـ والواقع أن علماء المسلمين كانوا دائماً ينصحون الحاكم ويواجهونه إذا سار في الرعية سيرة الظلم . وكان عمر مكرم امتداداً لمفهوم العلماء الذين سبقوه منذ أوائل القـرن الثاني عشر ، ودلالة على أن الاسـلام قد أخـذ يكشف عنـه تلك القشرة التي حجبت جوهره خلال استشراء مفهوم الجبرية الصوفية ، والحق أن صوت الامام محمد بن عبد الوهاب كان قد ارتفع منـذ (**١١٥٣** هـ **١٧٤٠** م) بالدعـوة إلى التوحيد ومواجهة الاستبداد السياسي . وظلم السلاطـين والملـوك ، ولـم تكن دعوته إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح المفاهيم وإعادتها إلى نقائها إلا تحـرراً من الخضوع لغير الله . وقد كانت تنطوي في أعماقها على مفهوم سياسي واسع يرمي إلى مقاومة الظلم ونفوذ الأمراء المستبدين .

***

وقـد ساير ذلك في نفس الفتـرة حركات سياسية يمـكن أن توصف بأنهـا

حركات إقليمية تدعو إلى تحرر بعض الوحدات واستقلالها عن الدولة العثمانية . مثال ذلك حركات : علي بك الكبير في مصر - الأمير فخر الدين المعني في لبنان ، وظاهر العمر في سوريا ، وداود باشا في العراق . ولا شك يمثل القرن الثاني عشر مرحلة دقيقة في حياة الاسلام ، وتاريخ العالم الاسلامي ، والأمة العربية ، والدولة العثمانية . هي في جوهرها ردّ فعل واضح للتحدي الخطير الذي واجهه الاسلام نتيجة لضعف الدولة العثمانية ، وغلبة عوامل التفكك في عالم الاسلام . ومن أبرز مظاهر هذا التحول الجديد ما يتصل به بالمواقف التي حاولها نادر شاه في إيران . والسلطان محمود في الدولة العثمانية من أجل مواجهة حالة الضعف والتفكك .

وكان نادر شاه الذي ولي عرش إيران ۱۷۲۱ م قد تنبه إلى أن ضعف المسلمين يرجع في جوهره إلى الانقسام بين السنة والشيعة . وأن الاختلافات المذهبية هي العامل الأول لهذا التمزق الذي مكن الاستعمار الأوربي من فرض نفوذه . ومن هنا حاول تأكيد الالتقاء بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السنية في محاولة لتوحيد السنة والشيعة على أسس مستمدة من جوهر الاسلام ، وفي نفس الوقت اتجه السلطان محمود ليحمل لواء هذه الدعوة ، وكان من أهم ما قام به في هذا السبيل : القضاء على قوة الانكشارية . تلك القوة العسكرية التي ظلت تركيا تعتمد عليها جيلا بعد جيل . وقد أصابها في هذه المرحلة الانحلال والتمزق والضعف نتيجة لتسرب مذاهب تحمل اسم التصوف وتنحرف به عن مفهوم الاسلام .

وكان قد تكشف بوضوح مدى الخطر الذي أصاب الروح المعنوية للانكشارية بعد أن انحرفت عن مفاهيم الاسلام الأساسية مما أدى إلى فرار ٥٠ ألف جندي في وجه خمسة آلاف جندي في البلقان ، وقد عمد السلطان محمود في مواجهة الزحف الغربي على عالم الاسلام إلى إجراء إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية مستهدفاً استعادة هيبة الدولة العثمانية لتظل صامدة كسد قوي في وجه النفوذ الأوربي ، غير أن هذه الاصلاحات لم تكن جذرية ولم تتحقق وفق مفهوم الاسلام ، الذي يجمع إلى القوة والتكامل بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، والتي تهدف قيمه أول ما تهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعي ، والحكومة الشورية ، وتوحيد العناصر . وقد كانت القوة والرباط والجهاد واليقظة

في مواجهة العدو . والوصول إلى مثل قوته ودرجة كفايته الحربية والعسكرية أمراً سياسياً ، من أول مفاهيم الاسلام في مواجهة العدو ، وهو ما لم يتيسر على وجه حقيقي للسلطان محمود ، مما مهد للنهاية المحتومة للدولة العثمانية .

(٣٢)
تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار

اقتصر العثمانيون على العناية بالقوة العسكرية ، والجري وراء التوسع دون تركيزه واستقطابه وبلورته ، واستغرقت الدولة العثمانية تاريخها كله بين التوسع والمقاومة ، ثم تطورت أوروبا بسرعة ، وتوقفت العثمانية وتجمدت . وكان التطور في أساليب الحرب وفنونها وآلاتها هو العامل الأول الذي رجح كفة أوربا حين ضعف لدى العثمانيين مفهوم الاسلام بعد أن ضعف تطبيقه ، غير أنه لا سبيل إلى إنكار دور العثمانيين الحاسم حين أعادوا وحدة الاسلام ، ورفعوا رايته ستة قرون ، فقد واجهوا أوربا التي كانت تتحفز للسيطرة على عالم الاسلام ، فاستطاعوا صدها وتجميدها على الأقل عن طريق البحر الأبيض ، ومن هنا تبدو حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، هو أن العثمانيين لا ينالون من المؤرخ الأوربي أي إنصاف . بل على العكس يواجهون حقداً وخصومة تحول دون كلمة الحق .

ويمكن القول انه في القرن الثاني عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) مال الميزان بالدولة العثمانية وارتفع بقوة جديدة ، هي القوة العربية حاملة اليقظة للفكر الاسلامي العربي .

كان الانبعاث أساساً مستمداً من مفهومين هما : التوحيد ومقاومة الاستبداد في صورة الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبي معاً ، وكان ذلك رداً على تحد

خطير تمثل في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وعالم الاسلام كله في هذه الفترة ، وهو غلبة طابع « الجبرية والتواكل » الذي تغلغل في مختلف قطاعات المجتمع والفكر ، وهو ما أسلم تركيا العثمانية إلى مرحلة الانحدار ، وأورث الغرب الغلبة والسيطرة على العالم الاسلامي كله ، فلم يكن الجزر العثماني إلا مداً عاليا للاستعمار ، انتهى بإسقاط المنطقة كلها في يد « قوة غربية » تحاول أن تستعيد نفوذها القديم على الأمة العربية والوحدات الاسلامية وفق أسلوب جديد . وقد تمثل هذا المعنى في عبارة اللورد اللنبي قائد الجيوش البريطانية حين دخل القدس عام ١٦١٨ بعد مرور ٨٢٣ عاما على خروج الصليبيين عام ١٠٩٥ حين قال « الآن انتهت الحروب الصليبية » . ومعنى هذا أن كل حركات الغزو بجناحيه في المشرق والمغرب طوال تلك الفترة إنما كانت تستهدف تحقيق إسقاط العالم الاسلامي كله في قبضة الغرب .

كانت سمة الوحدة العثمانية الغالبة هي : « القوة والحرب » مختلفة في ذلك عن طابع الموجات الاسلامية المتوالية التي تقدمتها، والتي كانت تمزج بين بناء القوة وبناء الحضارة . كانت « القوة » سمة الحرب تبدو بارزة في سنوات التكوين الأولى للدولة ، ثم سمة تكوين « الحضارة » هي الغالبة من بعد . أما في خلال خمسة قرون من النفوذ العثماني فقد كانت القوة والحرب هي الصورة الممتدة المتصلة ، لا تفسح للحضارة أو البلورة الفكرية أو لانصهار العناصر أي مجال . مما قلل كثيرا من طابع الحضارة الذي يتمثل فيه الاستقرار والبناء الاجتماعي والامتزاج بين العناصر المختلفة .

ومن هنا تعذرت عملية الانصهار والبلورة ، في مجال المجتمع ، كما غلب طابع الفكر الصوفي المهوم ، مما أضعف من قوة الجوانب العقلية في عالم الفكر الاسلامي . وكان لذلك أثره في المجتمع والبناء السياسي وكيان الدولة نفسها ، وكانت أقسى عمليات التدهور والاضطراب هي أن العثمانيين ضُربوا في مجال مجدهم ومظهر دولتهم : « القوة والحرب » فقد غفلوا عن عوامل التطور والنمو والتغيير في هذا المجال بالذات فسبقهم الغرب فيه ، فكانت هزيمتهم المتوالية في حروبهم مع أوربا . ومن هنا بدأ التدهور والضعف من قلب مصدر القوة .

توقفت الدولة العثمانية إذن ، وخمد عالم الاسلام كله في الوقت الذي

تقدمت فيه أوربا ، واقتحمت مجالات الكشف والملاحة والعلم واتصلت بعلوم المسلمين ، فكأنما أخذت أوربا مفهوم الاسلام حين غفلت عنه القوة الاسلامية الكبرى ، فتألقت أوربا وسادت وضعفت القوة العثمانية وتدهورت .

****

نستطيع أن نقف طويلا عند مرحلة التدهور ، ويجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة تبدأ بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فينا عام **١٦٨٣** حين فشل الحصار للمرة الثانية ، ومن هده النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الاسلام يتحول لصالح الغربيين ، والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تكن هي نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين . بل كانت علامة على الضعف الذي أصاب معسكر المسلمين في مواجهة التصاعد في القوى الغربية . فقد توالت من بعد تلك الهزائم وخاصة في الحرب الروسية التركية **١٧٦٨ - ١٧٧٤** .

ويرى بعض المؤرخين أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك ، حين تجمعت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثماني في موقعه (ليبانت) عام **١٥٧١** .

غير أنه لابد من ربط ذلك الموقف المتصل بالواجهة العثمانية الاسلامية بالخطوات الواسعة التي خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد أسبانيا إلى عالم الغرب وصفاها من القوى الاسلامية والعربية ، وسيطر على جامعاتها ومعاملها وتراثها وحضارتها . وبدأ في نقلها إلى لغاته ، والتوسع فيها ، وما تبع ذلك في خط واحد من حركات الكشف ، والسيطرة على البحار ، حين اندفعت البرتغال وأسبانيا في حركة رد فعل عنيف للانتقام والادالة من أطراف عالم الاسلام ، ومن شواطىء المغرب وأفريقيا بالذات ، وهو ما وصفه المؤرخون وفي مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة « تطويق عالم الاسلام » هذه الخطة التي بدأها العالم الغربي بتطويق البلاد الاسلامية عوضا عن مقابلتها وجها لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية يقول : « وفي طوافهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطىء الغربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هنك (المغول) آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية ، هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر . وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسي والهادي مروراً

(بمكسيكو) قامت في الفلبيين حواجز جديدة آسوية هذه المرة ، بين المسيحية الغربية والاسلام اللذين حتى ذلك التاريخ لم يتجاورا إلا في الطرف الثاني من العالم في وادي الدانوب وغربي المتوسط ، وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين ، وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم . هذه الثقة المتينة قضى عليها شيئا فشيئا على أثر الفشل المتعالي الذي منيت به الامبراطورية العثمانية وباقي الدول الاسلامية ، وقد كبدهم إياه خصم مجهز بأسلحة غربية تملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة » .

* * *

ولا شك كانت حركة الكشف والملاحة عاملاً هاما في إضعاف الوحدة الاسلامية العثمانية وتحطيمها من الخارج ، وقد امتزجت بها حركة موازنة لاضعاف هذه الوحدة من الداخل وتمزيقها ، تمثل هذه الحركة خطة الاضعاف من الداخل ، فيما حاولت دول الغرب فرضه على الدولة العثمانية من الامتيازات مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها ، وكان هذا النفوذ في أكبر خطره ، وأهم أمره داخل العالم الاسلامي متمثلاً في إتاحة الفرصة للارساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الاسلامي والعربي بوجه خاص ، وكانت هذه الامتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد . وقد كانت مؤامرة ١٨٦٠ بين الموارنة في لبنان من نتائج هذه السياسة .

* * *

عاشت أوربا خلال فترة المد العثماني لأوربا (١٣٠٠ - ١٦٨٣ م) مرحلة خصومة وانتقاض ، لم تتوقف فيها المعارك ، ولم تتحول العلاقة بين الدولة العثمانية والوحدات التي سيطرت عليها من أوربا إلى رابطة سياسية أو اندماج ، حيث لم تقم الدولة العثمانية بصهر هذه العناصر ، وإقامة نظام اجتماعي لها يؤهلها للدخول في عالم الاسلام ، كان طابع العلاقة هو طابع السيطرة

العسكرية لا الترابط العقلي أو الروحي ، أو الحضاري . ومن هنا عاشت أوربا في إحساس بالخطر العثماني المباغت ، وقامت علاقة خصومة وعداوة حملت طابع الصراع بين المسيحية والاسلام ، حتى أطلق على العثمانيين اسم الاسلام وحمل الاسلام تبعة تصرفاتهم وسياستهم ومفاهيمهم . وإذا كان التوسع العثماني الاسلامي في أوربا يمثل في نظر بعض المفكرين « ردّ فعل » للحروب الصليبية في فترة بلغت ضعف زمنها . فإنه قد أعاد تأجيج نار الخلاف والخصومة مما دفع الغرب إلى رد الفعل في عنف لا حدّ له بمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية ، فقد ساد أوربا اتجاه عاصف يحمل طابع الخصومة والانتقام ، وقص أجنحة الاسلام عن أن يستطيع في غده أن يملك القوة المادية أو الوحدة أو الايمان وهي العوامل التي تمكنه من مواجهة الغرب أو الانتصار عليه أو التحرر من نفوذه .

وكان مخطط الغرب قد أعد منهجا سياسيا وعسكريا وثقافيا يحاول أن يقضي على القوة المادية لعالم الاسلام وتمزيق وحدته حتى يحال في حسم شديد دون استئناف مقدرته في مجال الصناعة والتكنيك وللقضاء على مقومات فكره التي تعطيه القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة ، وذلك بالعمل على إثارة الشبهات من حول تاريخه ولغته ودينه ومفاهيمه ، وتسليط نزعة مادية وإباحية « نيتشرية » على شبابه وأجياله الجديدة حتى يحال بينها وبين العوامل الايجابية القادرة على مقاومته وهزيمته ، وذلك بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالتحلل والترف والتمزق ، وكانت هذه الحرب موجهة أساساً إلى مفاهيم الاسلام باعتبارها أبرز عوامل القوة في بناء عالم الاسلام السياسي والاجتماعي .

ولقد كانت حملة الغرب على الدولة العثمانية عنيفة ومستمرة ، تمثلت في عشرات المؤامرات والتكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيا وتقسيمها ، وقد امتدت هذه المشروعات طوال فترتي القوة والضعف ، واتخذت أول الأمر سبيل مقاتلة المسلمين بالتجارة بالطواف حول رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي حول عالم الاسلام ، حتى إذا بدأت الدولة العثمانية تضعف . كانت الخطة هي تحرير أجزائها الأوربية والسيطرة على أجزائها العربية . واتصل بهذا المخطط إنشاء قناة السويس في مصر قلب العالم العربي ، كوسيلة لربط العالم الاسلامي بالعالم الغربي ، والسيطرة على مقدراته . يقول

دوجفادا الوزير الروماني في كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا :

مدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطة ، مما يناهز مائة برنامج ، كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك . فإذا جاء الوقت الذي يتكلمون فيه عن تركيا (الرجل المريض) اتفقوا أن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة ، ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة ، في مدة الأعصر الطوال التي كانت أوربا تناصبها العداء ، فما السبب ؟ الأسباب كثيرة ، منها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى في العالم .

(١) سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة .

(٢) اختلاف الأمم الخاضعة واستحالة إذابتها في بوتقة واحدة ، وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة .

(٣) فساد الادارة وارتخاء النظم .

(٤) ضعف القوة العسكرية .

(٥) اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي ، وكان التسامح هو الذنب العظيم عند الأتراك : فقد أعطت الدولة العثمانية المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم أيضا الحرية المدرسية ، هذه الحرية التي كفلت نموهم وترقيتهم . وقد كانت النصرانية عروة دينية وثيقة كفلت للأمم البلقانية جامعة تتأهب للمقاومة ، أقول : ومن هنا فقد حرص الأوربيون على هدم هذه الجامعة في عالم الاسلام حين استولوا على بلاده . قال دجوفارا : لقد كانت عدواة الأوربيين للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الدين والحرية الدينية ، قال المؤرخان : لا منس ورامبو (من مؤرخي فرنسا) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، كانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه . وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية .

ثم ركز دجفارا على هذا المعنى حين قال : إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم

المسيحية التي كانت خاضعة لها . لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتنهض وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية . ومن خطط تمزيق تركيا : ما قدمه الرهبان ومستشارو الملوك عن مشروعات يجعلون التجارة فيها أساساً للسيطرة، ومعاودة العمل على استعادة بيت المقدس ، والسيطرة على العالم الاسلامي في استئناف مخططات الحروب الصليبية ، ويرى دجوفارا أن هذه المشروعات بدأت في أواخر القرن السادس عشر بعد موقعة ليبانت البحرية . وكانت الخطة هي جمع كلمة أوربا على وقف تقدم الاسلام في قلب أوربا ، وعمل البابا ماكسيمان على دعوة الملوك والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا . وتم التحالف في **٢٥** مايو **١٥٧١** على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي سيطر عليها الأتراك ، ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس ، وفي موقعة ليبانت فقد المسلمون **٣٠** ألف مقاتل و **١٣٠** سفينة وألف اسير . ووصفت بأنها علامة الانحدار الأكيد للقوة الاسلامية العثمانية .

***

منذ ذلك الوقت بدأت أوربا تستعيد أجزاءها البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية ، واستمرت عملية الاسترداد حتى عام **١٩١٨** حين وقف اللورد اللنبي في بيت المقدس ليعلن أن الحروب الصليبية قد انتهت . وقد نشأت في ظل هذه الحركة أجيال من أوربا ، تحمل في عقولها ونفوسها طابع الحقد والكراهية للاسلام متمثلاً في خصومتهم للدولة العثمانية ، وتحمل طابع الانتقام من تركيا وتقسيم أملاكها والسيطرة عليها . وكانت في مجموعها تهدف إلى محو تركيا والاسلام بأسره ، يقول فندال : في هذه المرحلة لم يكن رجل سياسة إلا وعنده برنامج تقسيم للسلطة العثمانية . وقد استمر ذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين قدم تاليران (أكتوبر **١٨٠٥**) مشروعا بتقسيم السلطنة العثمانية . وقد درس نابليون مع الروس هذا المشروع . وكان يرى أن يستولي على فلسطين .

(**٢**) إذا كان ضعف القوة العسكرية هو العامل الأكبر في تدهور الوحدة الاسلامية العثمانية . فإن عامل الانفصال عن جوهر الاسلام ومفهوم فكره ومقوماته الأساسية كان لا شك بعيد الأثر ، فقد سقطت الدول وانهارت النظم في

وحدات الاسلام خلال تاريخه الطويل نتيجة هذا الانفصال أو الانحراف عن مفهوم الاسلام .

كانت سلبية الصوفية واستعلاء الدراويش وسيطرتهم ، عاملاً هاما وأساسيا في حركة الجزر المندفعة في قوة ، ذلك لأن الفلسفة التي غرستها في أعماق القلوب والعقول كانت سلبية جبرية تدفع إلى الزهادة والانقطاع ، والانصراف عن العمل والبناء ، وقوامها ترغيب الجماهير في الفقر والمسكنة ، وبذلك قضت على أبرز مفاهيم الاسلام وهو الايجابية والعمل والحركة ، ويصور العلامة بهجت الأثري كيف كان سلطان طوائف المتصوفين في العهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكيف كان مسلكهم يجري على هدي الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطدت للمظالم والاستبداد ، ووقفت في وجه الاصلاح والمصلحين ، كما حللت طاقة الأمة وقعدت بقواها عن السعي ، ولاشك كانت هذه المرحلة مصدر تأخر الاسلام وانحطاط مجتمعه . بينما كانت الحركة الصوفية في خلال الحروب الصليبية وبعدها علامة قوة وتجمع ، وكانت في قلب أفريقيا وشمال شرق آسيا عاملاً هاماً من عوامل توسيع رقعة الاسلام ، وكانت نظم « الفتوة الصوفية » قد تحولت في الدولة العثمانية إلى قوة ذات تأثير، وفي مقدمتها الولاية النقشبندية، وكذلك كان نظام « الأخية » وهو ما يسمى بنظام الأخوة ، عاملاً فعالاً في خلق جوّ اجتماعي بعيد الأثر في نجدة الغرباء ، وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدي الظلمة ، والاحتفاء بالغرباء من الناس . غير أن هذه الحركات التي كانت علامات قوة ، لم تلبث أن تراخت مع الزمن ، فأصبحت من عوامل الضعف .

(٣) ومن علامات الضعف تمزق الثقافة الاسلامية . فقد كانت قوة المسلمين في وحدة الثقافة . وقد بدأ ذلك على نحو باهر في مرحلة الغزو الخارجي والمقاومة . غير أن الثقافة الاسلامية قد تقاسمتها : اللغتان الفارسية والتركية اللتان ظهرتا إلى جوار اللغة العربية ، وكان المسلمون قد صاغوا ثقافة موحدة ، هي عصارة الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية التي انصهرت في بوتقة الاسلام ، وتبلورت في إطاره القائم على التوحيد والنبوة والاخاء والحرية والعدل ، ولم يكن الخلاف في الفرعيات إلا محاولات مرنة لتوسيع مجال

المعاملات في نطاق الاجتهاد الذي هو أحد طوابع الفكر الاسلامي الذي يتسم بالوسطية والشمول والتكامل .

وقد كتب الفارسي والتركي والهندي باالعربيـة، ومن ثم كان هذا هو من عوامل تقارب المسلمين والتقائهم ، وحماية للفكر الاسلامي من غلبة عناصر الفلسفات القديمة وتعقيداتها التي تخرج الاسلام عن بساطته ومرونته وقدرته على الحركة والتطور مع الزمن . فلما توزعت الثقافة الاسلامية في اللغات الفارسية والتركية والعربية ، غلبت طوابع جديدة عليها . كان أبرزها الطابع الصوفي الشاعري الذي ظهر في الأدب الفارسي ، ثم سيطر على الأدب التركي . ثم بدأ باللقاء بينهما ، والامتزاج ، مخالفاً لمقومات الفكر الاسلامي العربي اللغة ، مباعداً عن جوهر الاسلام ومقوماته . ومن هنا غلب ذلك الطابع الصليبي الذي اتسم به الأدب العثماني في مرحلة الضعف . وهو ما تنبه له مجددون ومصلحون من بعد أمثال : نامق كمال ، ومحمد عاكف ، وحاولوا تغييره بوصفه عاملاً من عوامل الضعف والتخلف . والحق أن كل محاولات الاصلاح العثماني التي جرت في مجال السياسة أو الفكر لم تحقق نجاحاً ، لأنها أجرت محاولاتها على السطح ولم تتعمق عوامل الضعف ، ولم تحاول التغيير الجذري الذي يجب أن يعتبر أساساً من مفاهيم الاسلام .

(٤) ـ ضمت الدولة العثمانية ـ في قطاعها الأوربي ـ عناصر وشعوباً مختلفة : اليونان والبلقان والمجر والجرمان والسلاف والصربوالرومانيين والألبان والأرناؤوط . وفي قطاعها الاسلامي العربي ، كانت تضم التتار والعرب والأكراد والتركمان والأرمن والموارنة والكلدان والفرس والعثمانيين والبربر . وبعض هذه الأجناس والشعوب تدين بالمسيحية ، وبعضها يدين بالاسلام . وقد عاشت شعوب أوربا خلال هذه القرون الخمسة أو الستة ، وهي تعتبر آل عثمان غرباء عنهم للاختلاف في الجنسية والدين واللغة وآفة العثمانيين أنهم عجزوا عن تذويب هذه الشعوب في جسم الدولة الكبرى ، فظلت هذه الأمم محافظة على قومياتها . ومن هنا كانت حركة انتقاضها بمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجعها سريعة وعاصفة . وقد أعانها على ذلك أنها نهضت وتجمد العثمانيون .

(٥) ـ أغضى العثمانيون عن عملية تصفية الغرب للدولة العربية في

الأندلس . وكان في استطاعتهم الاتجاه إلى أسبانيا وتحرير المسلمين فيها . وقد طال أمر تصفية المسلمين والعرب في أسبانيا زمناً خلال فترة تألق العثمانيين . بل إن بعض الأندلسيين الفارين قد التقوا بقادة الدولة العثمانية ، وشرحوا لهم ما حل بالمسلمين والعرب من نكبات . غير أن العثمانيين لم يتخذوا أي مبادرة في هذا الشأن . ولما علم قادة أسبانيا أمر اتصال مسلمي الأندلس بالعثمانيين ، سارعوا إلى ترحيل المسلمين إلى خارج البلاد ، وقد بلغوا في تقدير المؤرخين ٦٠٠ ألف . وإن استطاع خير الدين بربروس أن يؤازر الأندلسيين بفرض سلطانه على البحر المتوسط ، غير أن ذلك كان في مجال الثأر بعد أن تمت تصفية الأندلس ، ولا جرم قد شنّ بعض الغارات الموفقة على الاسبان في الثغور وعلى قوافلهم البحرية الذاهبة إلى الشرق .

وقد أشار المؤرخ الألماني ليوبولد زنكي إلى موقف آل عثمان فقال « لو هاجم العثمانيون أسبانيا لما تجرأت البندقية على مساعدتها ، وهي تكاد تكون في قبضة العثمانيين لاتصال الحدود بينهما ، وقد كان تعرض السلطان للبندقية في فتح قبرص ، مما حرض فيليب الثاني ملك أسبانيا الخائف من خطر تركيا عليه ضم أسطوله إلى أسطول (البندقية) وأسطول البابا فكانت موقعة (ليبانت) التي أضاعت سيادة تركيا البحرية ، فلما أمنت أسبانيا عقب موقعة ليبانت من آخر نصير يرجى للمسلمين أقدمت على إجلاء من لم يرض بالتنصر منهم .

(٣٣)

حركات اليقظة والتجديد .

* استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع عالم الاسلام ، فهب أتباع محمد من مراكش إلى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو هبوب العاصفة المزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي .

« لوثروت »

ظل الاسلام قادراً على طول تاريخه ـ كظاهرة عضوية لا تتخلف ـ قادرا على الانبعاث من داخله حين تنحرف مفاهيمه ، أو يتخلف عالم الاسلام عن مفهوم الاسلام ، وكانت مقومات الاسلام الأساسية قادرة على أن تجدد المجتمع الاسلامي ، وتقوم نظمه في مختلف ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة . وقد كانت أزمة عالم الاسلام في مرحلة انحدار الدولة العثمانية قد صدرت عن تجمد مفهوم الاسلام والانحراف عن مضمونه الأساسي بوصفه شاملاً متكاملاً وسطيا ، مما أهوى بالوحدة الاسلامية العثمانية . غير أن اليقظة العربية للقضاء على غلبة مفهوم الجبرية الصوفية لم تتح لها الفرصة الكافية لتحقيق البعث ، كانت قوى الغرب التي ارتدت مهزومة في الحروب الصليبية خلال قرنين ، والتي واجهت « المد الاسلامي » خلال خمسة قرون في قلب أوربا . قد عاودت عملية الغزو من جديد وفق أساليب مستحدثة ، لا تعتمد على الغزو الجائح المضطرب ، بل على

منهج علمي قوامه التنظيم الحربي ، والكشف ، والتجارة ، ومحاصرة الموانىء ، وعمليات التطويق الاقتصادي والعسكري .

ومن هنا سارت حركة اليقظة والتجديد الاسلامي مع حركة الاستعمار والنفوذ الغربي ، وكانت هذه اليقظة تمثل قدرة الأمة العربية على حمل لواء مسيرة الاسلام ، وبعثه وفق مفاهيمه الأساسية ، واندفاعه كقوة مقاومة ضخمة إزاء النفوذ الاستعماري الذي كان مندفعا للسيطرة على عالم الاسلام ، واتخاذ أماكن الدولة العثمانية ، وتمزيق أواصر وحدة عالم الاسلام ، ووحدة الأمة العربية كسلاح أساسي في القضاء على مضامين الفكر الاسلامي التي كانت قادرة على إمداد أهله بالقوة على المقاومة والبناء والحركة .

ومن هنا كانت حركة التجديد واليقظة الاسلامية تعمل في عدة مجالات في وقت واحد .

مجال : تجديد الاسلام نفسه وإزالة عوامل الضعف والجمود .

ومجال : مقاومة نفوذ الاحتلال بالحرب وحركات المقاومة .

ومجال : بناء حركات إصلاحية في مصر والهند والمغرب والسودان وصحراء ليبيا .

ومجال : العمل الوطني الخالص في نطاق التنظيمات السياسية الحديثة .

ومجال : الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الاسلامية ، وهو التصدي للنفوذ الاستعماري ، وتوسيع جبهة المقاومة وفاعليتها ضده .

***

في كل هذه القطاعات وفي كل ما ظهر فوق أرض عالم الاسلام ، منذ بدأت حركة الغزو الاستعماري الحديث . كانت في أعماقها موجة من موجات اليقظة العربية الاسلامية مهما حمل اسمها أو مظهرها من معاني أو مسميات جديدة عصرية . فقد تحولت هذه الحركات ، وتطورت من الطوابع الاسلامية الصرفة إلى الطوابع الوطنية والقومية ، ثم إلى الطوابع الديمقراطية والاشتراكية ، ولم تكن في مجموعها إلا أسلحة لها طابع العصر ، وروح التطور ، ولكنها ظلت في أعماق أعماقها علامات طريق طويل يمكن أن يطلق عليه اسم « اليقظة العربية الاسلامية » .

وفي هذا يقول العلامة : ولفرد كابتول سميث : إن الحركة القومية هي حركة مقاومة للاستعمار الحديث ، ولم تكن حركات القومية مطابقة للاسلام فحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين ، وكفاح السوريين ومسلمي العرب للتخلص من الفرنسيين ، كل ذلك كان جزءًا من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر . بل إن طرد الأتراك لليونانيين عام **١٩٢٢** ، والايرانيين للقضاء على منطقة نفوذ الروس والانجليز كلها خطوات نحو إحياء الاسلام . فكل المسلمين مسلمون اجتماعيا وسياسيا ، والصفة الاسلامية غالبة على كل الحركات الوطنية حتى في الحالات التي يكون القادة فيها قد تأثروا بالغرب تصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجماهير والأتباع . وبالجملة فان الاسلام في العصر الحاضر قد احتضن كل النزعات والحركات القومية .

وعندنا أن الغزو الاستعماري الجديد . كان هو التحدي الكبير الذي لون حركات اليقظة والبعث الاسلامية ، وأعطاها طابع التحدي وردّ الفعل ، والمقاومة للنفوذ الغربي الذي لم يكن تسلطا سياسيا أو عسكريا فحسب ، ولكنه سيطرة كاملة للمقدرات والقيم في مجال الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة . ومن هنا فقد كانت مواجهته للفكر الاسلامي بفكر آخر من أكبر تحديات حركة التمدن الاسلامي .

– ٢ –

بدأت اليقظة العربية الاسلامية كقوة حية بديلة للقوة العثمانية الاسلامية التي ضعفت وأصابها التحلل في منتصف القرن الثاني عشر **١١٥٣** هـ ، **١٧٤٠** م جريا على ناموس حتمية التجدد وتصحيح المفاهيم ، وهي الظاهرة التي لم تتخلف خلال تاريخ الاسلام كله ، سواء بالدعوة الفكرية على يد المصلحين أم بالحركة السياسية على يد القادة وبناة الدول . وقد برزت ظاهرة التجدد هذه المرة في قلب الأمة العربية ، ومن محورين في وقت واحد : محور « قاهرة الأزهر » ومحور جزيرة العرب حيث انبعث الاسلام أول مرة .

أما في القاهرة فكانت تحمل طابع التحرر من ظلم الأمراء والولاة ، وهو من أبرز مفاهيم الاسلام ، وكان ذلك على أيدي العلماء الذين برزوا لأول مرة

كقوة قائدة بعد أن كان النفوذ الاجتماعي كله في يد زعماء الصوفية . وفي الجزيرة كانت الدعوة تحمل طابع التحرر من الجبرية الصوفية بإبراز مفهوم الاسلام الأصيل : التوحيد .

وفي خلال ستين عاما منذ ظهرت دعوة التوحيد بقيادة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، كانت القاهرة تموج بحركة العلماء في مقاومة نفوذ الأمراء باسم مفهوم الاسلام ، وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانت اليقظة الاسلامية التي قادتها الأمة العربية سنة ١٢١٣ هـ ، ١٧٩٨ م . قد أخذت تعمق وعيها في المجالين : تحرير العقيدة بالتوحيد وتحرير الأمة بالحرية ، ولم يكن مفهوم التوحيد في الاسلام إلا خلعا للعبودية والذلة لمن سوى الله وحده .

ومن هنا كانت الدعوة إلى التوحيد نفسه ، سلاحاً أساسيًّا لمقاومة الاستبداد . ثم امتد المعنى واتسع بمقاومة النفوذ الأجنبي والاستعمار . وكان هذا المفهوم قد نضج خلال ستين عاما حتى بدا أثره واضحا في مقاومة أول غزو استعماري مباشر ، بعد مرحلة الكشف والاستعمار المبطن بالتجارة في شواطىء أفريقيا ، والجزيرة العربية والهند وأرخبيل الملايو وهي مرحلة (١٦٠٠ - ١٧٩٨) .

وكان وصول الحملة الفرنسية إلى مصر إيذاناً ببدء مرحلة الغزو العسكري السافر لعالم الاسلام ، والتركيز بنوع خاص على « الأمة العربية » بحسبانها القوة الجديدة التي تحمل لواء اليقظة في سبيل مقاومة .

(١) جبرية الصوفية : التي كانت طابع المرحلة السابقة من الاستسلام للظلم .

(٢) مقاومة استبداد الأمراء ونفوذ الغرب المتزايد ، وباسم مفاهيم الاسلام الأصيلة التي حملها العلماء ، كانت مقاومة مصر للحملة الفرنسية ١٩٧٩ ، وللحملة الانجليزية بعدها ١٨٠٧ وللوالي العثماني خورشيد ، ثم لمظالم محمد علي من بعد ، وكان عمر مكرم رمزاً على هذه المرحلة كلها ومعه عديد من العلماء .

(٢) ثم تطورت حركة اليقظة الاسلامية وتأقلمت في طوابع مختلفة ، كان أبرزها حركة السنوسي في طرابلس، ثم حركة المهدي في السودان ، وهما حركتان مستمدتان أساساً من مفهوم الاسلام ، وتعتبران استمراراً لحركة التوحيد . وقد كانت الحركة السنوسية بمثابة رد فعل للنفوذ الاستعماري بعد احتلال فرنسا للجزائر وهو أول استعمار مركز على الأرض العربية ، وقد واجهه المسلمون بعملين متوازيين :

(١) العمل العسكري الحربي بقيادة الأمير عبد القادر . وقد استمرت أعمال المقاومة سبعة عشر عاماً .

(٢) العمل التربوي الاسلامي بقيادة الامام محمد على السنوسي للقيام بحركة إسلامية شاملة لمواجهة الاستعمار الغربي المتحضر للانقضاض على العالم العربي ، ثم كانت حركة محمد بن أحمد المهدي (**١٢٨٧** هـ ، **١٨٧٠** م) حركة سياسية تحريرية للتخلص من النفوذ المسيطر . وقد قضى عليها الاستعمار البريطاني بعد احتلال مصر .

(**٣**) ثم انبثقت من قلب هذه الحركة موجة أخرى هي حركة « الجامعة الاسلامية » التي قادها جمال الدين (**١٢٨٨** هـ ، **١٨٧١** م) والتي تبناها بعد ذلك السلطان عبد الحميد واصطدمت في آخر أيامها بحركتي الجامعة الطورانية التركية والوحدة العربية .

(٤) ومن خلال حركات اليقظة ظهرت ثورة الهند (**١٨٥٧**) وثورة فارس (**١٨٩٥**) وثورة مصر بقيادة عرابي **١٨٨٢** .

(٥) حركة الاصلاح الدستوري والاجتماعي ، ويتمثل في دعوة خير الدين التونسي **١٢٧٨** هـ ، **١٨٦٠** م وحركة إسماعيل المويلحي في الدعوة للدستور المصري **١٢٩٧** هـ ، **١٨٧٩** م .

ولم تلبث حركة اليقظة العربية الاسلامية أن تبلورت في منهج علمي فكري ثقافي في حركتين متجاورتين : حركة محمد عبده ، وحركة عبد الرحمن الكواكبي . وقد توسعت حركة محمد عبده إلى آفاق المغرب كله ، وتبلورت في الحركة السلفية التي قاومت النفوذ الاستعماري الفرنسي . وهكذا حفل القرن الثالث عشر الهجري بحلقات متتابعة ، وموجات متوالية من عوامل اليقظة في مختلف ميادين المقاومة ، والتجديد والاصلاح . فاذا أضفنا إلى هذا حركة تطوير

الفكر بالترجمة والتأليف التي قادها رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك ، وحسن العطار ، وحسن الطويل عرفنا إلى أي مدى أمكن تعميق حركة اليقظة .

وأبرز ما اتسمت به هذه المرحلة :

(١) حركات مقاومة الاستعمار مقاومة عسكرية في الجزائر (الأمير عبد القادر) وفي مصر (عرابي) وفي السودان (التعايشي) وفي القوقاز (شامل) وثورة المسلمين في الهند .
(٢) حركت فكرية تحولت إلى دولة في نجد (١٤٧٠ هـ ، ١٨٩٣ م) .
(٣) حركة سياسية في مصر أقامت امبراطورية عربية (مصر والشام والحجاز) .

وقد استطاع النفوذ الأجنبي المندفع في حركة الغزو الاستعماري الادالة من هذه الحركات وفرض نفوذه العسكري والسياسي ، غير أن الملاحظ بوضوح أن المسلمين والعرب لم يسلموا إلا بعد نضال مرير ، وبعد أن استنفذوا كل وسائل المقاومة . وإذا كانت حركة المقاومة العسكرية توقفت ، فإن حركة اليقظة العربية الاسلامية ، وهي في أحد شقيها حركة مقاومة بالكلمة لم تيأس ، حتى بعد سقوط الوحدات المختلفة لعالم الاسلام في قبضة نفوذ الاحتلال ، فقد تعمقت حركة جديدة من المقاومة عن طريق الفكر ، وتصحيح مفاهيم الاسلام والكشف عن جوهره ، ومحاربة النفوذ الاستعماري من خلال القيم الأساسية للاسلام والفكر العربي .

- ٣ -

اليقظة في العالم العربي

إن مفهوم حركات اليقظة والتجديد في تاريخ الاسلام كله تتمثل في هذه القاعدة : « إن الاسلام مهدد دائما بالاضمحلال » لما يتطرق إلى أسسه من بدع تغطي وجهه الحقيقي ، وتحجب مفهومه الأساسي ، وأهدافه وقيمه العليا . وأنه لابد من تطهير مجرى الاسلام أولاً بأول ، والحيلولة دون انحرافه عن مفاهيمه الأساسية ، وعن جوهره المتمثل في : « الشمول والتكامل والوسطية » ووفق هذا المفهوم بدأت حركة التوحيد وتابعتها حركات تصحيح المفاهيم والمقاومة والجامعة الاسلامية والوحدة العربية .

١ ـ قاد حركة التوحيد : الامام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه :

(١) صياغة شعار الاسلام في كلمة التوحيد دون سواها .
(٢) تنقية الاسلام من البدع والأدران التي علقت به .
(٣) التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن ديار العرب .
(٤) إيجاد وحدة سياسية إسلامية .

ويقدر الباحثون أن « دعوة التوحيد » كانت رد الفعل الطبيعي لانحراف حركة الصوفية عن مفهوم الاسلام وأنها كانت محاولة لتصحيح الجوهر بعد أن

غلبت الصوفية في فترة الانحدار والضعف مفهوم « الجبرية » والاستسلام للظلم والاستبداد .

وليس من شك أن الحركة الصوفية استطاعت أن تحقق في مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية نتائج ضخمة في كسب مجموعات كبيرة من الوثنيين وتحويلهم إلى الاسلام ، حيث استطاعت أن تمد نفوذ الاسلام الفكري لا السياسي إلى أجزاء واسعة في شمال وغرب ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا . غير أن هذه الجماعات الاسلامية الجديدة كانت مفاهيمها قاصرة على المفهوم الروحي الخالص ، وهو شطر الاسلام ، وليس الاسلام كله .

وقد كان أعمق ما أبرزته دعوة التوحيد أمرين هامين هما : جماع مفهوم الانبعاث في الاسلام :

(أولاً) باب الاجتهاد مفتوح ، وأن لكل مسلم الحق في أن يجتهد لفهم دينه .

(ثانياً) ضرورة القيام بفريضة الجهاد .

وقد ركز الامام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار الكتاب والسنة هما دستور الاسلام الوحيد ، ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة في فهم الاسلام بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية . ويرى بعض المؤرخين أن « دعوة » التوحيد التي أطلق عليها « الوهابية » والتي تحولت إلى « حركة » حين اتصلت بالأمير سعود ، لو تحقق لها أن تحيط دعوتها بأسلوب من البراعة السياسية ، والمرونة لاستطاعت أن تكسب القلوب إليها .

وعندنا أن طابع هذه الدعوة مستمد من بيئتها ، وتكوين دعاتها النفسي والاجتماعي ، وأنها في مواجهة مد عنيف من الجبرية والضعف والاستسلام الذي فرضته الصوفية ، قد اقتضت ـ شأن كل الحركات والدعوات التي تقوم في مواجهة تحد كبير ـ أن تصل إلى نفس المدى من التطرف في الجانب الآخر ، وهذا سر ما وصفت به من طابع عسكري أو تشدد ، أو عدم المرونة في قبول وجهة النظر الأخرى ، أو المساومة ، أو ما جرت إليه من تصنيف المسلمين ، بحيث اعتبرت عدداً كبيراً منهم ممن تجب محاربتهم ، ويتصل بهذا ما دعاه إلى القصور عن طابع

العصرية في الحرب والتسليح ، أو ميدان الصناعة أو غيرها . وعندنا أن أهميتها لم تكن في مجال « الحركة » وإقامة الدولة بقدر ما كان في بعث النفس العربية ، وإيقاظ العقل الاسلامي وإعادة النظر في مفهوم الاسلام وتحريره من الجزئيات والانحرافات والبدع ، وتصفية العقيدة ، وتطهير الفكر الاسلامي من الانحرافات والأوهام . ذلك أثرها البالغ العميق في كل حركات اليقظة والتحرير والاصلاح الاسلامي التي تلتها .

وبالجملة فإن دعوة التوحيد (الوهابية) كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه عالم الاسلام ، وأول مواجهة عربية حقيقية لحمل لواء الدعوة الاسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها . وقد استمدت مفهومها من نفس الأسس التي أقام عليها (ابن تيمية **٧٢٨** هـ) وتلميذه ابن الجوزية دعوتهما قبل أربعة قرون ، وكانت دعوة ابن يتمية قد ضعفت ، ولكنها لم تتوقف ، فقد ظل العلماء يعتقدونها ، ويتوالى ظهورها ، جيلا بعد جيل ، ومن السابقين لمحمد بين عبد الوهاب : عثمان النجدي سنة **١٠٩٦** في نجد وإسماعيل الصنعاني في صنعاء (وهو مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد) وقد ترك محمد بن عبد الوهاب بحق أثراً في يقظة الاسلام أكبر مما كان يتطلع إليه ابن تيمية . وقد دخلت الحركة الوهابية فعلا في صراع مع الشيعة والمتصوفة وصل إلى القتال المسلح على حدود العراق .

الحركة الصوفية

ظلت الحركة الصوفية منذ القرن الثامن الهجري توسع آفاق الاسلام ، وكانت حركة ابن تيمية ومن بعده ابن القيم في تصحيح مفاهيمها ، متصلة مستمرة في عديد من تلاميذهما ، وإن ظلت خافتة إزاء استغلال الأمراء والولاة للحركة الصوفية بوصفها وسيلة إلى تأصيل التواكل والتسليم والقبول بجبرية الظلم . وقد بلغ أمر الصوفية قمته في الانحراف عن مفاهيم الاسلام حين انضم الفقهاء والعلماء إلى المنظمات الصوفية وانصهروا فيها ، غير أنه منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدأت يقظة العلماء والفقهاء . وقد اشتد تأثير مفهوم ابن تيمية لجوهرالاسلام سيطرة على نفوسهم ،وأخذت كتابات ابن تيمية تحيا من

جديد على أقلام بعض أتباعه حيث كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الصيحات ، ويرى « جب » أن الحركة الصوفية قد أكسبت الاسلام حيوية كبيرة ، غير أن غلبة مفاهيم الأدب الفارسي ، والأدب التركي المستمد منه ، والقائمة على طوابع صوفية مغرقة في الانحراف نحو الحلول ووحدة الوجود . قد أبعد مفهوم الصوفية عن شمول الاسلام وقصره على جانب القلب وحده ، ومن ثم كان لابد كرد فعل لا يتخلف في تاريخ الاسلام ، وأن تبرز حركة لتصحيح المفاهيم ، والكشف عن جوهر الاسلام وحقيقته وفق أسسه الأولى ، ممثلة في حركة التوحيد التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب ، وأهمية هذه الحركة ليس في تأسيس دولة بقدر أهميتها في خلق نقطة تحول جديدة عن محور الروحية الصوفية الذي ركز المسلمون عليه أكثر من خمسة قرون إلى مفهوم الاسلام الأساسي : متكاملا شاملاً جامعاً بين العقل والقلب ، مهاجما أشد الهجوم مفهوم « الجبرية » الذي لا يعترف به الاسلام ولا يقرّه ، والذي كان مصدراً من مصادر الضعف الذي عرّض عالم الاسلام لأزمته المتمثلة في تدمير الغرب للوحدة الاسلامية العثمانية . وتطويق عالم الاسلام كله وتمزيقه بالاحتلال والسيطرة .

ومن هنا كانت أهمية « حركة التوحيد » في أنها تمثل طلائع اليقظة العربية الاسلامية قبل وصول الحملة الفرنسية من ناحية ، وإيقاظ عالم الاسلام لمواجهة الغزو الغربي ، وقد كان أثرها واضحا في حركات : شريعة الله . وسيد أحمد ضد سلطة المغول والبريطانيين ، وحركة أحمد خان (الهند) والسنوسية (طرابلس الغرب) والمهدية (بالسودان) وحركة جمال الدين في الهند وفارس ومصر ، وحركة محمد عبده ، وصحيفة المنار ورشيد رضا . كما امتد نفوذ حركة التوحيد (محمد بن عبد الوهاب) إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطره . وكان دورها في تأريث الحركات الثورية .

وكان اتجاه الحركات الاسلامية كلها واضحاً في مواجهة النفوذ الغربي ومقاومته ، وفي نفس الوقت ، وفي ضوء مفهوم التوحيد المجدد ظهرت حركات ذات طابع صوفي كانت بعيدة الأثر في نشر الاسلام وتربية الشخصية الاسلامية وبنائها كشخصية مثقفة ومحاربة في نفس الوقت ، وكانت الحركة السنوسية تمثل هذا المفهوم على خير وجه كما تمثله الحركة المهدية . وكان لنشاط الطرق التيجانية

والقادرية والمرغنية الصوفية في مجال التبشير بالاسلام أبعد الأثر . فقد قامت بدور كبير خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر في كل من الجزائر ومراكش ، وفي صحراء أفريقيا الغربية ، وقامت في الهند حركات مماثلة تحت قيادة الفرق الصوفية . غير أن بعض هذه الفرق الصوفية قد انحرفت من بعد مرة أخرى ، في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها فكانت الحركة السلفية المغربية حركة مقاومة لها .

السنوسية (١١٤٧ هـ ١٨٣١ م)

تمثل « السنوسية » الحلقة الوسطى بين دعوة التوحيد وبين الجامعة الاسلامية ، وتجمع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة ، وتربط بين التوحيد والتصوف . وقد انبعثت السنوسية كرد فعل لاحتلال فرنسا للجزائر . وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل ، فدفعته الصدمة المذهلة إلى الطواف بالعالم الاسلامي بحثاً وراء محاولة جماعية إسلامية للمقاومة . ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامتين أساسيتين :

(أولا) بناء أجيال من شباب المسلمين بالتربية الاسلامية والعسكرية في نفس الوقت .

(ثانيا) نشر الاسلام في مجاهل أفريقيا .

وقد رسمت السنوسية مفهومها على أساس أن تحرير عالم الاسلام سياسيا من الغزو الغربي يجب أن يسبقه « انعاس روحي ومعنوي عميق للمسلمين » توطئة لتحقيق وحدة الشعوب الاسلامية ، وقد قامت على أصول ثلاثة : الدين والاجتماع والسياسة .

لقد انتشرت السنوسية في السودان الغربي وأواسط أفريقيا . وقد كان الامام السنوسي مجتهداً مزج بين المذاهب الأربعة السنية المعروفة . ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنن والمذاهب ، وأجملها في مذهب واحد . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية **١١٩٧ هـ ١٨٨٤** م مائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان

وطريق مصر وطريق واداي وشبه الجزيرة العربية ، والجريد بتونس ومراكش ، وتوسع نفوذ السنوسية في أفريقيا الغربية . ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٩٥ عمق الدعوة ، ودعم نفوذها ، فعلم السنوسيين استعمال الأسلحة التي كانت تهرب من ميناء طبرق ومن هنـا بدأ نفـوذ السنـوسيين يفـزع الاستعمار الأوربي ، ويهدد نفوذه في قلب أفريقيا . واتسع نطاق الحركة سياسياً ، فبغ من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطىء الأطلنطي غرباً من خلال ليبيا وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقة تشاد ، وكان للسنوسيين من بعد دود ضخم في مقاومة الاحتلال الايطالي سنة ١٩١١ .

الجامعة الاسلامية

ظهرت الجامعة الاسلامية كمرحلة متقدمة لدعوة التوحيد ولمعت كمحاولة سياسية للتجمع لمواجهة الغزو الاستعماري ومقاومته كوحدة ، وكان مفهوم جمال الدين الأفغاني للجامعة الاسلامية مفهوماً تقدميا قائما على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلحته ، والاقبال على العلوم الأوربية ، وأساليب الحكم العصرية ، وتطهير الاسلام من الشوائب ، وتضامن المسلمين وتوحيد كلمتهم ، والتضييق على استبداد الأمراء بالحكم الدستوري والشورى ، واستكمال أسباب القوة المادية ، ونبذ الخلافات الجنسية والمذهبية . وقد كانت دعوة جمال الدين الأفغاني أقوى موجة من موجات مفهوم اليقظة العربية الاسلامية ، وكان إيمان جمال الدين بأن الأمة العربية هي التي تستطيع أن تحمل لواء اليقظة هو ما دفعه إلى أن يترك الأفغان والهند وفارس ، وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا أوائل القرن الرابع عشر : محمد عبده ، ورشيد رضا ومصطفى الغلاييني ، وشكيب أرسلان .

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يتلقف دعوة جمال الدين بعد أن تحررت الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية وانفصلت عنها ، وحين التقى جمال الدين والسلطان عبد الحميد تبين مدى الفرق بين الفكرة التي يحملها الأفغاني في سبيل غاية حقيقية ، والفكرة التي يحملها السلطان في سبيل دعم الدولة العثمانية ، فقد واجهه جمال الدين بمشروع يرمي إلى جعل كل من الولايات

العثمانية خديويات على غرار خديوية مصر تصبح مستقلة ذاتيا وتابعة للسلطنة ، فاذا تحقق ذلك أمكن أن تتم خطوة تلقائية تالية لذلك بأن تنتظم إيران وأفغانستان والهند تحت لواء السلطنة ، ويصبح الاسلام قوة منيعة يرهب الغرب جانبهـا ، وتستطيع أن تواجه الزحف الاستعماري ، ويتحقق قيام جامعة إسلامية لا تضم تركيا والعالم العربي وحدهما . بل تضم العالم الإسلامي كله .

ولابد لنجاح المشروع من استعراب الأتراك ، وجعل اللغة العربية لغـة الدولة الرسمية « لو استعرب الأتراك لترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله » غير أن السلطان عبد الحميد لم يكن حين دعا إلى مشروعه ليستهدف مثل هذا العمل الكبير ، ولذلك فقد طوي مشروع جمال الدين .

***

وقد صور جمال الدين مفهومه لإيقاظ الإسلام في عبارات واضحة صريحة حين قال : « العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والإسلام على الخصوص ، تجميع الـدول النصرانية متحدة معاً على دك المالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدورالنصارى كمون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل .

فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها ، متغلغلاً في أحشائها ، ومتمشيا في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظـرة العـداء والحقد والتعصب الديني الممقوت تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لهـا في كرهـا وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراههـا بقولهـا ان الممالك الإسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدني بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها ، وفوق جميع هذا . فهي النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى حتى بالحرب والحـديد والنـار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب أن يتحد اتحاداً دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من

القضاء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبيرة ، إنما يجب عليه اقتضاء اسباب الغرب والوقوف على مقدراته وقدراته .

وبالجملة فإن جمال الدين كان يرى أن ضعف المجتمع الإسلامي هو علة تأخره ، ومن أجل هذا طاف بالبلاد الإسلامية (الهند . إيران. أفغانستان مصر . تركيا) يلهب حماس المسلمين ويذكرهم بأمجاد الماضي ، ويدعو إلى أمرين : مقاومة النفوذ الأجنبي ، والقدرة على كسب علوم الغرب وثقافته ، وكان طابع المقاومة للجبرية واضحاً في كلماته حين دعا إلى أن يغير المسلمون ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم . وذلك بالعمل وشجب الجمود .

حركة محمد عبده

وتمثل حركة محمد عبده امتداداً طبيعيا للعمل السياسي الذي قام به مع جمال الدين الأفغاني ومنطلقا منه إلى مفهوم جديد ، ربما جاء نتيجة لأن أهداف جمال الدين الأفغاني لم تتحقق ، وربما لطبيعة تكوين محمد عبده . ذلك هو تبلور إيمانه في حقيقة واحدة هي : أن التربية والعلم هما المجال الوحيد لليقظة ولمقاومة الاستعمار .

الكواكبي ١٨٤٨ - ١٩٠٢

قام مفهوم الكواكبي لليقظة الإسلامية على أساس أن العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة ، وأن يقظة الإسلام انبعثت أساساً من الأمة العربية ، فقد أكدت كتابات الكواكبي مفهوم قدرة الأمة العربية على حمل لواء يقظة الإسلام . وإذا كان جمال الدين قد هاجر إلى مصر بوصفها قلب الأمة العربية والعالم الإسلامي كله في هذه الفترة ، وإذا كان جمال الدين يدعو إلى تجميع المسلمين في وجه الغزو الأجنبي فان الكواكبي قد اتخذ ذلك اساساً للأمة العربية وبذلك تكون قادرة على أن تحمل لواء المقاومة والتجمع ورفع راية الاسلام ، والدفاع عنه ، وتصحيح مفاهيمه .

وقد هاجم الكواكبي التصوف الزائف الذي حمله بعض دعاة الجبرية . ممن كانوا يبثون في الناس روح الاستسلام والاستكافة للحاكم المستبد ، وللغزو

الغربي ، وكان يرى أن انحدار الدولة العثمانية وأزمة عالم الإسلام في هذه المرحلة نبعت أساساً من فرض « جبرية » ليست من الاسلام أساساً ، استطاعت أن تشل العزائم ، ولذا فقد كان إيمانه منصبا على إيقاظ مقومات الإسلام الأصيلة وهي : الحرية والقوة والوحدة والعلم ، وكان أبرز ما دعا إليه الكواكبي مقاومة الاستبداد والمستبدين .

وقد حلل الكواكبي في كتابه « أم القرى » أسباب الضعف والتأخر ، وقال إن مرجعه إلى ضعف الدولة العثمانية في الستين سنة الأخيرة ، وحمل على « الأمراء المستبدين ، والعلماء المدلسين ؛ وجهلة المتصوفين » ويرى الكواكبي أن موجة الاستعمار الغربي الحديث قد انصبت بأكبر قدر منذ فاتحة القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري) على العالم العربي .

الحركة السلفية

ومن خلال مفاهيم الإمام محمد عبده التي تبلورت بعد الثورة العرابية ، وبعد عودته من المنفى (١٨٨٦ تقريباً) وبعد انفصاله عن السيد جمال الدين الأفغاني وعلى أساس الخطة التي حملت لواءها « المنار سنة ١٨٨٩ » وقادها تلميذه « رشيد رضا » تكونت مدرسة في شمال أفريقيا . وقد تمركزت هذه المدرسة في المغرب الأقصى الذي لم يتح للشيخ محمد عبده زيارته حين زار تونس والجزائر .

ويرجع العلامة علال الفاسي جذور هذه الحركة إلى أحمد بن حنبل وابن تيمية والشاطبي ، وإلى دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب التي حملت لواء « تجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدعة والعودة إلى الإسلام في معينه الأول : الكتاب والسنة .

ولقد قامت الحركة السلفية في المغرب وفي الجزائر كرد فعل لما نشأ عن انتشار الشاذلية في البلاد مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية . إذ ترتب على ذلك ازدهار شأن طبقة من المشايخ والمرابطين ؛ أصبحوا يملكون زمام الأمر في الأمة ويسيرونها في الاتجاه الذي يريدون . ورأى الأتراك أن يستغلوها لاستمرار سلطتهم في الجزائر ، أما في المغرب حيث لا نفوذ للسلطان العثماني . فقد أمكن خروج هذه الدعوة . فقد دعا السلطان مولاي سليمان العلوي إلى السلفية الأولى ، ومقاومة الطرق وتشعباتها ، ويرجع العلامة الفاسي تحول الانتباه إلى القوة العسكرية والعمل السياسي كنتيجة لهزيمة المسلمين أمام قوات الاستعمار في

الجزائر مما دفعهم إلى التفكير في : « التجديد العسكري والاجتماعي » .

فقد كتب أحد علماء المغرب كتاباً أسماه « كشف الغمة في أن الحرب النظامية واجبة على هذه الأمة » وقال : إن الأوربيين تطوروا في أساليبهم العامة ، بينما نحن لازلنا نواصل الأساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . وكان أول من تصدى لنشر دعوة اليقظة والإصلاح وهي ما يطلق عليها في المغرب الدعوة السلفية ، الشيخ عبد الله السنوسي . أحد علماء القرويين الذي سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب الدعوة ، وصدع بدعوته داخل الجامعة القروية . ثم تتلمذ عليه « محمد بن العربي العلوي » ثم ظهر الخضر السنقيطي وأبو شعيب الدكالي ، وقد كان للعروة الوثقى التي أصدرها الأفغاني ومحمد عبده في باريس . ثم للمنار أثره البعيد المدى في تأريث مفاهيم تحرير العقيدة ، وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي ، وقد اتخذت الحركة السلفية في المغرب خطوات أشد حسماً وعنفا عند ما استغل الفرنسيون بعض الطرق ، مما أدى إلى الحكم على رئيس الزاوية الكتابية بالاعدام وتنفيذه ، وصدور رسائل وكتابات عنيفة في مهاجمة الكتانيين وغيرهم من رجال الطرق ، ووسعت الحركة نطاقها بمقاومة الشيوخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية ، واستطاعت هذه الحركة من بعد ومع الزمن أن تحل محل التصوف ممثلة قوة الإسلام وسلامة مفاهيمه .

- ٤ -
اليقظة في عالم الاسلام

لم تكن حركة اليقظة التي ظهـرت في القاهـرة ونجـد هي أولى حركات اليقظة في عالم الإسلام ، فقد شهـدت « الهنـد » الإسلامية في خلال القـرن الحادي عشر دعوة أحمد عبد الأحد السرهندي الذي ظهر في حكم « جلال الدين أكبر » وقاوم دعوة أكبر إلى ما ادعاه من دين جديد أطلق عليه « الدين الإلهي » وكان السرهندي من تلاميذ الطريقة النقشبندية . وقد استطـاع أن يواجـه هذا الانحراف ويقاومه ، وأن يقاوم حكم ابنه ، وأن يبث دعو الاسلام الصحيح في رجال دولته وجيشه ، وأن يستنفرهم لخدمة الإسلام ، كما قاوم طائفة الصوفية الذين تأثروا بفلسفة البراهما ، وهاجم فكرة « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » التي تغلغلت في التصوف والآداب ، وقضى على فكرة استقـلال التصـوف من الشريعة ، وهاجـم كثيرا من العقائـد والأفـكار والعـادات التـي تسربـت إلى المسلمين ، ودعا إلى التصوف الإسلامي الخالص من منابع القرآن ، كما هاجم أباطيل العلماء الخاضعين للأمراء ، ودحض ما ابتدعوه ونسبوه إلى الإسـلام ، ونصح الأمـراء والحـكام ، وحـارب التظاهـرات والبـدع (تـوفي سنـة **١٠٣٤** هـ **١٦٢٥** م) وكانت حركة شاه ولي الله المتوفى (سنة **١١٧٦** هـ **١٧٦٢** م) تمثلا لمفاهيم حركة التوحيد التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب ، ثم ظهر أحمد عبد الرحيم الدهلوي **١١٧٦** هـ الذي دعا إلى تصحيح مفهوم الاسـلام والاتصـال المباشر بالكتاب والسنة ، ونشر علم الحديث ، وبيان أساليب الاسلام وأسسه في

تنظيم الحياة والمجتمع ، وأبرز كتابه « حجة الله البالغة » وقد ظهر الدهلوي بعد ذيوع دعوة التوحيد « الوهابية » وقد تأثر بها . ثم ظهر الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وبدأ دعوته **١٢٣٦ هـ** . وقد دعا الناس إلى الدين الخالص ، والتوحيد ، واتباع السنة ، ومحاربة البدعة ، واستطاع أصحابه إنشاء دولة في (بشاور) طبقوا فيها نظام الإسلام ، وجمعوا بين العبادة والجهاد ، واستشهد **١٢٤٦ هـ** .

وقد كان لهذه الحركات أثرها في ثورة الهنود المسلمين على الانجليز (**١٨٥٧ ـ ١٢٧٤ هـ**) هذه الثورة التي جالد فيها المسلمون النفوذ البريطاني . وفي أعقاب انتصار البريطانيين تحولت شركة الهند الشرقية الى احتلال بريطاني سافر ، وكان لهذا الحديث اثرها البعيد المدى في نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند وتكوين الامبراطورية البريطانية . هذه السيطرة التي أبعدت المسلمين حكام الهند حتى هذه الفترة من مكان القيادة ، وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم ، وقدمت الفئات الأخرى عليهم ، مما أثار روحاً من اليأس في نفوس المسلمين وأضفى على مستقبلهم لوناً من فقدان الثقة ، وقد زاد في هذا الجو المكفهر ما عمدت إليه بريطانيا من دفع مجموعات من المبشرين في القرى والمدن في حماية سلطانهم ليشنوا حملة ضخمة على الاسلام : « شريعة وعقيدة » وعلى نبي الاسلام بالاضافة إلى الدعوة إلى المذهب الطبيعي والمادية والالحاد ، وكان المجال الضخم لسحب الأرض من تحت الاسلام بالتركيز في مجال التربية والتعليم . فقد حرص الاستعمار البريطاني على إنشاء مدارس تحمل لواء الهجوم على الاسلام والأديان والقيم الاسلامية الفكرية والتاريخية والاجتماعية بهدف خلق أجيال جديدة من المسلمين معادية له ، وقد واجهت حركة اليقظة هذا الموقف بفتح المدارس العربية الاسلامية والمعاهد الدينية الأهلية ، التي استطاعت أن تكافح خطر الغزو الفكري الغربي .

واستطاع المسلمون تخريج دعاة للإسلام ومرشدين يقاومون تيار الإلحاد والتغريب العنيف ، وكان في مقدمة العاملين في هذا الميدان مولانا محمد قاسم النانوتوي الذي أنشأ مدرسة ديونيه ، ومولانا سعادت علي الذي أسس مدرسة مظاهر العلوم في سهاتبور ، ثم تطورت هذه الحركة التعليمية حين ظهرت ندوة العلوم في لكهنو **١٣١٢ هـ** بزعامة مولانا محمد علي المونكيري ، واستطاعت أن تخرج علماء موفقين يجمعون بين الثقافة الغربية والاسلامية ، وقد ركزوا على

السيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامي كسلاح دفاع في مواجهة حملات دعاة البشرية والمبشرين ، وفي مقدمة أعلام هذه المدرسة : شبلي النعماني وسليمان الندوي ومسعود البدوي الذي أصدر مجلة الضياء العربية **١٣٥١ - ١٣٥٤** .

وقد كان أبرز مفاهيم حركة اليقظة الإسلامية في الهند أن الأمة العربية هي وعاء الإسلام ولسانه ، وأنها القادرة على حمل رسالة العمل الاسلامي في هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية .

وقد ظهر في هذه المرحلة السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة داعياً إلى التعليم العصري الذي حجبه الاستعمار الانجليزي عن المسلمين عمداً ودفعوا إليه غيرهم . وكانت كلية عليكرة (**١٢٩٣**) تطوراً لليقظة الإسلامية على نحو المصالحة مع النفوذ البريطاني ، ومنه أيضا انطلقت دعوات أخرى باسم الإسلام أخذ عليها انحرافها عن شمول مفهوم الإسلام وتكامله .

وقد عدّ كثير من الباحثين حركة أحمد خان من حركات الإصلاح الإسلامية - مغضين عن تحريفاته في تفسير القرآن ، من تقي المعجزات واعتبارها خوارق غير طبيعية ، وتقريره بأن النبوة غاية إنسانية ، يصل إليها المرء بالرياضة النفسية والمجاهدة مما مهد لظهور المذهب القادياني في الهند ، وقيام غلام أحمد بدعوته . وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري ألقى الانجليز بثقلهم في أولى محاولات التغريب وإثارة الشبهات (**١٨٨٠** م **١٢٩٨** هـ)

توسع نطاق الدعوة المادية التي أطلقوا عليها « نيتشر » وعمت وحدات أوده وبنجاب وبنجال والسند وحيد آباد مساجلات ضخمة في هذه المفاهيم ، وقد واجه جمال الدين هذه الحركة وألف بالفارسية كتابه المعروف الذي ترجمه الشيخ محمد عبده « الرد على الدهريين » وقال إن الدهرية نزعة ظهرت في بلاد اليونان في القرنين الثالث والرابع قبل المسيح ، وأن هدف هذه النزعة محو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والإشتراك في الأموال .

(٣٤)

الاسلام والغرب

لم يتوقف اتصال الإسلام بأوربا منذ بزغ فجره ، حين اتصل بعالم الغرب عن طريق الأندلس ، وجنوب فرنسا وصقلية ، ثم اتصل مرة أخرى بالحروب الصليبية ، ثم اتصل عن طريق القسطنطينية والبلقان . بعد أن وسع الإسلام آفاقه إلى أسوار فينّا . ومن هنا فقد امتد اتصال الإسلام بأوربا سياسيا وثقافيا دون توقف . ويمكن القول بأن الضياء الذي ألقاه الإسلام إلى العالم منذ بزوغ فجره . قد تطور واتسعت آفاقه في مجال العلوم والطب والفلك كامتداد للحضارة الإنسانية ، وكان دور الإسلام في هذا المجال إيجابيا وقويا . فقد أضاف إضافات أساسية إلى حركة العلوم ، وطبعها بالطابع الإنساني ، وجعلها حقا مباشرا للبشرية بعد أن كان طابعها أرستقراطيا . ولقد أعطى الإسلام للعلم إلى ذلك طابع الأخلاقية والخير والإخاء وتكريم الإنسان والاستعلاء على الظلم والغدر ، وأعطاها تربية الضمير .

وحين كانت أوربا تمر بأقسى مراحل التأخر . كان عالم الإسلام يزخر بحضارة واسعة الآفاق ، عميقة الأثر ، في مجال العلم والحضارة والفن والعمارة . وقد التقى الغرب بحضارة الإسلام في معارك الصليبيين ، حين غزا الأضعف حضارة الأقوى . فكان ذلك مقدمة لإقامة الجسور الكبرى التي نقلت الحضارة والفروسية وقيم الفكر الإسلامي إلى مجتمع الغرب وثقافته .

وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجامعاته ومعاهده العلمية ، وبخزائن كتبه ، وآثار حضارته وثقافته إلى الغرب انضماما نهائيا ، وأجلى العرب والمسلمين عنه ، وحرمهم من آثار علمهم ، هنالك نقلت أوربا جذور الحضارة الإسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها . ومنذ ذلك اليوم كانت كل خطوات النهضة ذات اتصال وثيق بالفكر العربي والحضارة الإسلامية . بل كانت الخطوات التالية استكمالا لما أتمه المسلمون والعرب وحققوه في مختلف ميادين العلم والفن والفلسفة والأدب والعمارة .

وهكذا لا يموت التقدم العقلي الإنساني . بل ينتقل حين تضعف الدول وتضطرب السياسة ، ويمثل في هذا مرحلة من أدق مراحل حركة الحضارة الإنسانية التي نشأت على ضفاف النيل والفرات . ثم انتقلت إلى يونان ورومان ، ثم تحولت مرة أخرى إلى عالم الإسلام ، ثم تحركت مرة أخرى إلى أوربا بعد مرحلة خصبة امتدت أكثر من ألف عام ، منذ سقوط روما في القرن الخامس إلى أن بدأ عصر الرينسانس في الخامس عشر ، غير أن الأثر الإسلامي للحضارة والثقافة قد ظل قويا بعيد الأثر في اليقظة الأوربية في مختلف مجالات الحضارة والثقافة ، مهما حاولت أوربا أن تنكره ، أو تزيل مظاهر آثاره ، فقد ظل بارزاً في معالم الفلسفة وفي مجال الطب والفلك ، والكشف البحري لا يمكن أن ينكر . بل في مجال الفكر المسيحي نفسه ، وإذا كان الفكر الإسلامي قد توقف في عالم الإسلام نتيجة لسنن التاريخ وظواهر الكون ونواميس الزمن ، فإنه قد تحرك في أوربا من خلال النهضة ، ولم يستطع المؤرخون المنصفون إنكار نتائجه . وقد كان أثر ابن رشد بعيد الأثر في الفكر الفلسفي الأوربي إلى حد يمكن أن يقال معه انه كان نقطة تحول ، وأن مفهوم الإسلام للحرية والكرامة الانسانية وللمساواة ، كان بعيد الأثر من بعد في كل كتابات الفلاسفة أمثال : روسو وديدرو وفي الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها .

وكانت دعوة الفكر الاسلامي إلى « تحرير العقل » بعيدة المدى في انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة . بل إن حركة لوثر وكالفن كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامي ، ومن قبل كانت حركة إبطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد في بيزنطة نتيجة لمفهوم الإسلام ، حتى ليصل بعض المؤرخين في هذا

المجال إلى القول بأن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية في القرون الوسطى كان صراعاً بين الكنيسة والفلسفة الإسلامية بأسرها . وقد كان الرهبان الفرنسسكانيون أنصاراً أقوياء للفكر الإسلامي . وقد أثار كثير من الباحثين إلى أن دعوة الإصلاح في أوربا لم تبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، وذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام (رسالة التوحيد) .

وقد ظل العلماء في أوربا منذ القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي يعملون على نقل العلم العربي والفكر الإسلامي ، وقدمت الثقافة الإسلامية مادة ضخمة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وكما ترك ابن رشد أثره الفلسفي فقد ترك الغزالي طابعه العقلي على الباحثين الغربيين فاستعملوا براهينه في مسائل اللاهوت ، كما أثر التصوف في الفكر الغربي (ج مور : تاريخ الأديان) كما ترجم القرآن إلى اللاتينية ، فاللغات الأوربية في القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) .

وكان لابن حزم أثره البالغ المدى في الفكر الغربي . وقد بقيت آراؤه في اليهودية والمسيحية ، وقد أشار (كتاب تراث الإسلام جـ ١ ص ٥٤) إلى هذا المضمون حين قال : « استغرق تأثيرالاسلام كل مرافق الحياة في أسبانيا في القرن العاشر حين سقطت طليطلة ، وانتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ، وذلك أن (طليطلة) كانت قد أصبحت شيئا فشيئا مركز الثقافة الإسلامية في القرن الحادي عشر بعد أن خرب البربر قرطبة .

وكان توماس الأكويني بالغ التأثر بكتابات الغزالي وابن رشد ، وكان للقرآن بعد أن ترجم بالغ الأثر في صيحة لوثر ، بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد ، وابن سينا والفارابي عن نبي الإسلام « محمد » مما دفعه إلى أن يقول عن المسلمين : ان نشاطهم الديني مثل يحتذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة ، وقوانينهم وصدق إخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذي يميلون إليه ولا يكرهون أحداً . ولا شك كان حادث الإصلاح البروتستانتي المسيحي من الأحداث البارزة في تاريخ الأديان . فقد ارتبط بأصول الإسلام وعلوم الإسلام . وقد أشار أمين الخولي في رسالته (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) إلى أن التأثير الإسلامي كان في أوربا قويا واضحاً ، وبخاصة في البيئة الجرمانية . ومن هنا كان أثر الإسلام الواضح في تحرير العقل الأوربي ، وفي مقدمة هذا الأثر : إلغاء

وساطة الكنيسة بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور وتحطيمها .

في تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوربا عن مصادر مختلفة . غير أن الجزء الاكبر قد انتقل عن طريق « الأندلس » ويقدر بأربعة أخماس هذه الحضارة . فقد كانت موطن استقرار للحضارة والثقافة الإسلامية ، وتزاوج واختلاط بين المسلمين والعرب من ناحية ، وبين الأوربيين من ناحية أخرى خلال ثمانية قرون ، والواقع أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي لم ينتقلا من عالم الإسلام إلى أوربا . ولكن الأرض التي كانت تحملها الحضارة هي التي نقلت . وذلك باسترداد الفرنجة والأسبانيين وحدات المملكة الاسلامية « الأندلس » جزءًا بعد جزء خلال فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولعل أبرز ما نقلت الحضارة إلى أوربا « المساواة » كان القانون الإسلامي يطبق على الجميع ، يقف الفقير والغني أمام القاضي .

ومن هنا كانت هذه أبرز الأفكار الإسلامية الأساسية التي قامت عليها حركة النهضة وفلسفة الثورة الفكرية ، التي كان لها أكبر الأثر في أوربا . ومن أعظم ما نقلته النهضة عن طريق الأندلس « الفلسفة الاسلامية » بطابعها المختلف كل الاختلاف عن الفلسفة اليونانية أو الهندية أو غيرها ، وأهم ما تمثله الفلسفة الإسلامية : المقارنة والتوفيق بين الإيمان والعقل ، وبين العلم والدين .

فقد كان أبلغ ما وصل إليه مفكرو الاسلام وفلاسفته استمدادا من مفاهيم الإسلام نفسه ، التقريب بين مجرى الإيمان والعقل ، وبين الدين والعمل والتأليف بين أجزائهمابعد أن كانت الفلسفات السابقة تفصل بينهما . وقد بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغا عاليا وضخما بالمقارنة بينها وبين أوربا . فقد كانت قرطبة وعدد سكانها نصف مليون نسمة ، بها ثلثمائة حمام وسبعون داراً للكتب ، وفيها من الطرق المرصوفة المضاءة ليلاً ما يبلغ في جملته أميالاً كثيرة في نفس الوقت الذي كانت لندن وباريس في حالة تأخر شديد ، وفي قرطبة أنشئت الجامعة الإسلامية الكبرى التي استقدم لها عبد الرحمن الثالث العلماء من المشرق وأنشأ فيها ستا وعشرين مدرسة مجانية ،ونقل اليهامئات المؤلفات من المشرق . غير أن الفرنجة لم يلبثوا أن انتزعوا مملكة طليطلة الإسلامية من المسلمين عام (٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م) ومن ذلك بدأ ريموند رئيس الأساقفة ، ترجمة الفلسفة والعلوم العربية . وظلت هذه الحركة مزدهرة فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً . وقد

اتسعت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري (**١٣** م) وعن طريق هذه المؤلفات العربية الإسلامية المترجمة تجمعت مصادر الفكر الغربي الحديث مستخلصة عصارة الفكر والمعارف والثقافة العربية .

وقد درس في معاهد الإسلام في طليطلة كثير من اعلام الفكر الغربي ، وعن طريق صقلية تمت حركة مماثلة ، وقد شملت هذه الحركة العمارة البحرية والفلك والتنجيم ، والرياضيات ، والطب ، والزراعة ، والتجارة ، والصناعة والفلسفة والإدارة والموسيقى والألعاب والفروسية .

وهكذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوربا عن طريق بالرمو (صقلية) وطليطلة (الأندلس) بالترجمة ، وانتقل إلى اللغات الأوربية بواسطة هذه الترجمات وأمثالها عديد من المصطلحات والألفاظ العربية ، ومختلف آثار ابن رشد والفارابي والخوارزمي وابن سينا والرازي . وما تزال مصطلحات الفلك حتى اليوم عربية ، وكان للمسلمين دورهم الطليعي في مجال البصريات والرياضيات والفلك والموسيقى والطب .

(٣٥)
الغرب والاسلام

ذلك كان دور الإسلام في أوربا فماذا كان دور أوربا في الإسلام ؟ الحق أنه كان دورا مليئاً بالعقوق والكراهية والتعصب . فإن الغرب لم يلبث أن استيقظ على فكر الإسلام وحضارته حتى استأنف الغارة على عالم الإسلام . وبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو أشد عنفا من الحروب الصليبية ، وكان البرتغاليون والأسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية الإسلامية ، والمحرزون لذلك التراث الضخم ، هم حملة لواء العقاب لعالم الإسلام ، ولشواطىء المغرب أولا ، وأصحاب فكرة « تطويق عالم الإسلام » بالالتفاف حوله . وقد غفل الكتاب والباحثون والمؤرخون طويلاً في آثارهم ومؤلفاتهم التي عرضت لحركة الكشوف الجغرافية حول شواطىء العالم الإسلامي ، أو في قلب أفريقيا من بعد ، غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية ، وأنها كانت تخفي وراءها مطامع الحروب الصليبية القديمة ، وأنها كانت تستهدف السيطرة على عالم الإسلام ، مورداً للخامات ، ومصدراً للإنتاج ، ولا يمكن تفسير أعمال هنري الملاح ، أو مركوبولو ، وكولمبس إلا في ضوء مرحلة جديدة من مراحل استرداد عالم الإسلام نفسه بحسبانه في تقديرهم كان ملكاً للإمبراطورية الرومانية ، وأن تصفية الإسلام والعروبة من أوربا بالقضاء على دولة الأندلس ، كان في نظر الغرب يستتبع السيطرة على المغرب ومصر والشام بوصفها كانت تحت نفوذ عالم الغرب قبل الإسلام ، وهو مفهوم استعماري متعصب ، بعيد عن الفهم النزيه لتطور التاريخ وحركته ، يقول جورج كيرك « لقد كان هدف هنري

الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربيا وتجاريا ، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين ، والاتصال في جنوبي الصحراء بجون نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب . ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والأسبانيون في الاستيلاء على موانىء شاطىء أفريقيا (مراكش والجزائر) : سبتة وطنجة ومليلة والمرسى الكبير ، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل الحربية في البحر الأحمر الفارسي » .

وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح **١٤٨٧** واستطاع الفونسو البوكرك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز ، ثم سيطر البرتغاليون على الخليج الفارسي خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكو دي جاما إلى موزنبيق ، وفي عام **١٥٠٢** سيطر على زنجبار وعام **١٥٠٥** خرج من البرتغال أسطول تعداده **٢٠** سفينة (**١٥٠٠** محارب) فاحتلوا سفالة وكلوة وممباسا ، وبلغوا مسقط وهرمز **١٥٠٩** ، وفي عام **١٥١٩** احتلوا السواحل الأفريقية وانتزعوها من أيدي العرب .

غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمع فيه ، فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تقضي عليها . فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج **١٥٨٥** وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد ، ولا سيما أهل ممباسا . كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية واسعة ، كان أبرزها استيلاء هولندا على أرخبيل الملايو وفرنسا وانجلترا على إفريقيا ، واستأثرت انجلترا بالهند ، كما ناهض الانجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام **١٦١٦** ، واستقبل الشاه عباس أول بعثة تجارية إنجليزية . وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم العربي من الغزو البرتغالي الأسباني الذي استهدف خنق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه ، هنالك سارع العثمانيون بالسيطرة على الغرب كله ما عدا مراكش ، واستطاعوا مواجهة الأسبان في حوض البحر المتوسط وجزائره وسواحله ، وأدالوا منهم ، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تقضي على النفوذ البرتغالي الأسباني ، وأن تحفظ شاطىء البحر الأبيض المتوسط

للعروبة والاسلام . غير أن الاستعمار لم يلبث أن أستأنف حركته باسم بريطانيا وفرنسا وهولندا للسيطرة على البحار الإسلامية منذ **١٦٨٣** .

واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا ، وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) فأرهب ذلك الأوربيين وأزعج انجلترا وهولندا ، واستطاع أحمد بن سعيد عام **١٧٤٠** أن يقف في وجههم في عمان ، هنالك فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة .

وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية دامت نهضتها من عام **١٠٠٠** إلى **١٢٥٠** . وقد استولت على ثغور البحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، والخليج الفارسي ، فأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح . وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاث ، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي ، وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والأفريقية ، ولقد كان الأسطول العثماني مؤلفاً من ثلاثمائة قطعة من بارجة وقرقاطة ونسافة وحراقة ، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية ، ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا ، فعملوا في مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها ، وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل (ك : حياة الشرق) .

وقد بدأت حملات هولندا إلى جزر الهند الشرقية عام **١٥٩٩** واستطاعت أن تركز نفسها من بعد ، أما شركة الهند الشرقية الانجليزية ، فقد بدأت عام **١٦١٢** وفي حوالي عام **١٧٨٠** ركز الاستعمار الهولندي في أرخبيل الملايو وركز الاستعمار البريطاني في الهند ، ولا شك كان هدف الاستعمار الغربي أساساً هو القضاء على الإسلام كقوة للوحدة والمقاومة وكخطر يقف أمام توسع النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي في السيطرة على المنطقة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : إن أوربا لم تكف عن التفكير في الإسلام ، والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين **١٢و١٣** (السابع والثامن الهجري) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الإسلام بين دولتين مسيحيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت الى الغرب للوصول إلى الهند ، وللوصول إلى بلاد

الإسلام . ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد . بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره ، نعم . تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران الإسلام بينهما ، فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن أسبانيا . وفي جانب من شرق البحر الأبيض . ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام **١٣١٦** م وأسلم اهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) . وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي **١٣٨٦ - ١٣٧٠** وأقفلت أبواب الصينيين في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية ، واتساعا بعيدا في رقعة الإسلام الذي أدرك شأوا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ،ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا في أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الأوربيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر . لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف . وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة ، هكذا كان مفهوم الغرب للغزو الجديد وللمرحلة الجديدة للحروب الصليبية ، التي أطلق عليها اسم « الاستعمار الحديث » .

وقد كان احتلال بريطانيا للهند ، وهولندا لجاوة ، وأرخبيل الملايو ، هو الخط الأول لتطويق عالم الإسلام ، وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية ، فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام **١٦١٢** .

وأسس الهولنديون عام **١٦٠٠** الشركة الشرقية ، وأسسوا شركة الهند الغربية عام **١٦٢١** فامتلكوا غينيا وسورينام وركاب وسيلان عام **١٦٥٣** .

وجزائر ملقة ، وفي **١٦٨٠** استولوا على جاوة.وكان الحضارمة (أهل حضرموت) قد هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام إلى جزائر الهند الشرقية ،ونشروا فيها

***

الإسلام . وبعد أن نمت حركة التسلويق تحولت شركتا هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح .

لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام : « الإمبراطورية العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من **١٦٨٤** إلى **١٨١٨** م خلال مائة وأربعة وثلاثين عاماً ، وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا ، واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة ، وفي مقدمتها القضاء على القوة في مصر التي قادها محمد علي ، وابراهيم ، واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية ، وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمتها روسيا (حين عبرت القوقاز ، وبسطت سلطتها على أواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا ، وتتمثل في هذه الحركة الضخمة « أزمة الإسلام الكبرى » المكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها ، والتي لم تتوقف أكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت ـ ولا تقول توقفت ـ في أواخر القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجري) .

وقد تمثل ذلك في عدة خطوات :

(**١**) تطويق العالم الإسلامي (**٢**) السيطرة على الهند وأرخبيل الملايو (**٣**) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل (**٤**) اقتطاع أجزاء الدولة العثمانية (**٥**) تنازع السيطرة على فارس .

❊ ❊ ❊

وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه إليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر . يقول الدكتور مصطفى الحفناوي : إنه في سنة **١٤٩٨** حدث تحول خطير في التاريخ الانساني . ذلك أن أحد الملاحين البرتغاليين ، (فاسكو دي جاما) استطاع أن يصل إلى الهند طوافا حول رأس الرجاء الصالح ، واستعان في ذلك بجماعة من الملاحين العرب أبرزهم (أحمد بن ماجد) وكانت قد رفعت إلى ملك فرنسا عام**١٢٤٩**(**٦٤٧هـ**) وثيقة تطالب بشق قناة في برزخ السويس تكون ملكا للعالم الغربي كجزء من خطة الحروب الصليبية ، ثم توالت المشروعات التي تستهدف إنشاء طريق في

برزخ السويس ، وفي **١٥** مارس **١٦٧٢** رفع الفيلسوف ليبنز إلى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها « أريد أن أتحدث في مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة فيها على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، أنكم حين تغزون مصر ستقضون على الامبراطورية التركية القضاء المبرم ، إذا غزو تم مصر ستنظرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين الخ . ثم كان مشروع المركيز دي سنبلاي لشق قناة في برزخ السويس تصل النيل بالبحر الأحمر . وقد كادت الدبلوماسية الفرنسية أن تظفر بموافقة السلطان العثماني . غير أن الحركة القومية المصرية التي قادها العلماء وقفت دون المشروع سداً منيعاً . وفي نفس الوقت توسعت حركة النفوذ الاستعماري في قلب الدولة العثمانية عن طريق الإرساليات والكليات الدراسية التبشيرية ، وعن طريق خلق طليعة مثقفة من غير المسلمين تحمل لواء الحملة على تركيا ويكون من نفوذها البالغ إنشاء الصحف في مصر والمغرب وأوربا للهجوم عليها وتركيز الحملة عليها بوصفها « صورة الإسلام » ومن هنا كانت الحملة على الإسلام بحسبان كل أخطاء الدولة العثمانية هي « أخطاء الإسلام » نفسه ، وكان هذا من التمويهات الضخمة التي اصطنعها الاستعمار كسلاح خطير في وجه « اليقظة العربية » التي حاولت أن تحمل لواء نمو الإسلام وحيويته .

الاسلام والغرب

مرت العلاقة بين الإسلام والغرب في ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة العطاء : قدم الإسلام إلى الغرب كل حصيلته من الحضارة والعلم والثقافة ، فكانت مبعث النهضة الحديثة في أوربا في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) .

الثانية : مرحلة الجمود من الغرب : فقد أنكر فضل الإسلام ، وازدرى أثر الثقافة الإسلامية ، واستعملها سلاحاً لضرب الإسلام وعالمه ، والقضاء عليه كقوة ، واستغل مختلف قوى العلم في السيطرة والظلم مغلفا فكره بالتعصب والاستعلاء الجنسي ومقاومة فكر الإسلام ودينه ومقوماته .

الثالثة : مرحلة التحول : وهي مرحلة دقيقة تتمثل في آراء عديدة من الباحثين المنصفين ـ غير المستشرقين والمبشرين ، ودعاة التغريب المتصلين بدوائر وزارات الاستعمار والمستعمرات ـ هؤلاء الذين بدأوا يحسون بالحاجة إلى مقومات جديدة للفكر الإنساني بعد أن بلغ الفكر الغربي غايته في الانحياز للماديات ، فقد تكشف للعلماء والباحثين المجردين عن الغايات الاستعمارية ، أن العقل الإنساني قد كبر وتضخم ، بينما روح الإنسان قد ضعفت . ومن هنا كان تطلع الباحثين إلى الثقافات الإنسانية ، وكان الرأي على أنه إذا كان الفكر الغربي (الأوربي) قد بلغ إلى مرحلة المادية الحالية . فإن الفكر الشرقي مطبوع بطابع الروحية الخالصة ، بينما يتسم الإسلام وفكره بطابع الشمول والتكامل والوسطية في الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة . ومن هنا برز تيار

جديد في الفكر الإنساني يحمل لواء التطلع إلى الإسلام كحل نهائي وحاسم للمعضلات البشرية ، وكوسيلة للقضاء على الأزمات وحل الخصومات والخلافات المتراكمة في عالم الغرب . هذا التيار[١] قد حقق بعض النجاح ، ولكنه لازال ضعيف الأثر والحركة بالنسبة للتيار الضخم الذي يتصدره الاستعمار في سبيل إثارة الشبهات والقضاء على مقومات الإسلام . وذلك في سبيل العمل على خلق وحدة فكر عالمية قوامها الفكر الغربي - ينصهر فيها الفكر الإسلامي ويذوب . ولقد استطاع الإسلام أن يواجه هذا المخطط وأن يتحداه ، ويديل منه ، وليس أدل على قدرة الإسلام في مرحلة اليقظة ، انه في خلال الخمسين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر (هـ) قد صارع الفكر الرأسمالي والماركسي والصهيوني جميعاً ، واستطاع أن يقاوم القوى الاستعمارية الجبارة ، ذات السلطان والنفوذ ، ويواجه الأسلحة والقوى المختلفة التي حاولت أن تؤثر في مقوماته أو تقضي عليها ، ولاشك سينتصر الإسلام في أزمة الفكر الأممي ، وسيخرج من محنة الفكر الرأسمالي (الغربي) والماركسي والصهيوني ظافراً منتصراً مؤكداً ذاته وقيمه بحسبانها أصلح القيم لعالم الانسان .

---

(١) راجع كتابنا « الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني » .

(٣٦)
انتشار الاسلام

اتسمت هذه الفترة بأن جمعت بين : حركتين : (١) حركة يقظة داخلية استهدفت تجديد الإسلام وتصحيح مفاهيمه (٢) حركة انتشار الإسلام ذاتيا خارج دائرة عالم الإسلام ، وقد عمل المسلمون على نشر الإسلام في بلاد غربي أفريقيا وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفليبين ، وصمد لهذه الحركة عدد كثير من التجار والحجاج والعلماء على اختلاف الأجناس ، وكان للمبشرين السنوسيين دور ضخم ، هؤلاء الذين أخرجتهم زوايا الصحراء . وهم يعدون بالألوف . فقد قاموا بجولات واسعة في غربي إفريقيا ووسطها ، وصف المؤرخون والباحثون نتائجها خلال القرن الثالث عشر (١٩ م) بأنها عجيبة من العجائب الكبرى ، وكتب أحد الباحثين ١٩٠٦ يقول : إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقيا فوزاً خطيراً حيث الوثنية تختفي أمامه اختفاء الظلام في فلق الصبح ، وليس ظفر الاسلام في أفريقيا مقصوراً على الوثنية فحسب . بل على الأديان الأفريقية الأخرى .

ولم يتوقف هذا التوسع الذاتي للإسلام عند أفريقيا وحدها . بل امتد إلى بلاد التتر في روسيا وفي الصين (قبل أن يصاب فيهما بأزمة القضاء عليه خلال القرن الرابع عشر) . وقد أشار زويمر إلى أن مصدر انتشار الإسلام ؛ فريضة الحج والطرق الصوفية .

---

(١) راجع كتابنا « الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني » .

وليس عجيبا أنه خلال هذه المرحلة ـ حين كانت اليقظة العربية الإسلامية تحل محل الوحدة الإسلامية العثمانية التي آلت إلى الضعف ، والتي كانت في نفس الوقت تواجه أعظم تحد لها ، وهو النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف في غزو جديد ، نجد الإسلام يشق طريقه ذاتياً في قلب إفريقيا وغربيها بسرعة مذهلة ، ويحقق انتصارات جديدة في أرخبيل الملايو ، وشمال شرق آسيا . فقد سجل الإسلام على طول تاريخه كله هذه « الظاهرة » من التحدي وردّ الفعل ، فحيث تظهر قوة تحاول أن تقضي عليه ، يظهر الإسلام وهو يكسب أرضاً جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف والانهيار في وحدة من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة في وحدة أخرى ، فلا يسقط اللواء أبداً ، فإذا ضعفت اليد التي تحمله ، امتدت يد أخرى فأبقته مرفوعا ، ظهر هذا واضحا في « الغزو الصليبي والغزو التتري » ، كما ظهر حين بدأت القوة الإسلامية العثمانية تضعف حيث حلت محلها يقظة عربية إسلامية عارمة . وحيث يواجه الإسلام في هذه المرحلة غزواً غربيا جديداً يسيطر على مقدرات عالم الإسلام في الهند وأرخبيل الملايو ، والعالم العربي يندفع إلى مناطق جديدة في إفريقيا وجاوة .

* * *

وتبدو صورة التوسع الإسلامي في قلب إفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن الرابع عشر الهجري يرسمها كابتن تيلر في تقريره الذي ألقاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية (**١٨٨٧** م) والذي نشرته جريدة التيمس **٧/ ١٠/ ١٨٨٧** يقول : إن الإسلام اليوم يمتد من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت أقدامه في الكونغو وزامبيري ، وأصبحت أوغندا ـ أقوى البلاد السودانية وأشدها بأساً ـ إسلامية بأجمعها . أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي يهدم أركان الوثنية قائماً يمهد الطريق للدين الإسلامي لاغير ، وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون . وليس هذا بأول تقدم للإسلام يلزم بيانه ، والبحث عن سرعة انتشاره . بل هو عدم الخلط والخبط في أصوله وتبيانه ، الأمر الذي جعل له مكاناً ثابتا في قلوب أهله وكل من يدين به . أجل : فقد اعتنق الإسلام أمة بحذافيرها في إفريقيا صفقة واحدة ، ولم ترتد إلى الوثنية قط ، والإسلام أفاد التمدن أكثر من أي دين آخر . فقد نشر راية المساواة والأخوة ،

وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الإنجليز . هذه النتائج التي تنتج عن الإسلام ، فإنه عندما تدين به أمة من الأمم السودانية (الأفريقية) تختفي من بينها في الحال عبادة الاوثان ، وتحرم أكل لحم الإنسان ، وقتل الأولاد ، ووأد الأطفال ، وتضرب عن الكهانة ، وتأخذ أهلها بأسباب الإصلاح ، وحب الطهارة ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور الممنوعة ، ولعب الميسر والأزلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز منعدمة ، وتصبح عفة المرأة عندهم من الفضائل ، فالإسلام هو الذي يعمم النظافات ، ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء والقسوة بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة على ذلك ، فالإسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية التجارية . وقد غني عنها بالمرة ، والتجارة الأوربية تروج لبيع وسائل المسكرات ، وتسوم الشعوب خسفاً وإذلالاً . والإسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس .

ويكشف الرحالة جوزف تومسون في تقرير له نشرته التيمس ١٤/ ١١/ ١٨٨٧ جوانب أخرى من حركة انتشار الإسلام دائبا في إفريقيا فيقول : إذا بلغنا غربي إفريقيا والسودان الأوسط ، نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام ، كما كان في أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجاً أفواجاً ، وتقبل عليه بإقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، وأخذة في إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سليمي الطوية ، منخفضي الجناح ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة وإقدام يدعى (هواذا أونوبيه) كان ذاك الراعي يجهد نفسه في نشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأتلانتيكي ، ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم إلا رئيس يحمي ذمارهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم في بدء هذا الجيل رجل يسمونه (فوديو) لم يمض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام ، وامتد جناح

سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة واسعة ، وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة فأصابت فوزاً عظيماً .

إن زعيم الاسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني (الأفريقي) الذي كان يعتمد في مهمته على تقواه ، ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة عن بلده ، ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم من طعام واحد ، وكان أينما حل أو سار لا يألو جهداً في توسيع نطاق ديانته ، وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة إن الفرائض والسنن التي يقضي بها لا يتيسر فهمها على أخيه الوثني ، ولا تخرج عن قوة إدراكه ، هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهراً وطوراً ستة أشهر ، أو سنة . وفي خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملابسه . ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده ، واتباع طريقه ، وليس في ديانته شيء تشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية في عدة قبائل همجية ، ونما الايسلام بينها نمواً هائلا إلى حد رَنّ صداه في هذه البلاد ، وملأ الآفاق .

— ٢ —

ما زال الاسلام يشق طريقه في قلب القارة الافريقية بالرغم من القوى المضادة التي تحمل لواءها هيئات التبشير باعتماداتها الضخمة ، وبقواها السياسية والعسكرية ، وترجع أسباب تفوق الاسلام إلى أنه أكثر بساطة ، وأبعد عن التعقيد من الأديان الأخرى ، فهو خلو من الأسرار المذهبية ، أو تعذيب الضمير ، فالاعتقاد بإله واحد ، وبمحمد نبياً ، هما الشرطان الأساسيان في الاسلام ، فضلا عن أن الاسلام يجيز تعدد الزوجات واقتناء العبيد والجواري ، وهو من هذه الناحية ملائم للنفسية الأفريقية كما اقترن الاسلام في إفريقيا بمقاومة الاستعمار وشجب التمييز العنصري . يقول نعيم قداح : إن الاستعمار في غرب أفريقيا كان نهاية للحقبة المزدهرة التي توهجت فيها الثقافة الاسلامية في ظل الدولة الاسلامية التي قامت في تلك الأصقاع ، وقد التهمت نيران جيوش الاستعمار في مدن أفريقية العربية كثيراً من المدارس والمكتبات ، وأتى المستعمر على كل أثر علمي عند ما قطع التيار الحضاري العربي الاسلامي القادم من شمال أفريقيا ومصر . ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للافريقيين بصورة عامة ، وجد

كثير منهم أن الاسلام هو الذي سيخلصهم من ظلم المستعمرين ، ولذلك تضاعف عدد معتنقيه في مدى نصف قرن ، واقترنت الدعوة للدين الحنيف بمجهود فردي لاعادة أمجاد الثقافة العربية الاسلامية ، وقد بدأ الاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا منذ ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م يقضي على الاسلام واللغة العربية ، فهو لم يحاصر اللغة العربية في شمال أفريقيا والجزائر وحدها . بل حاصرها أيضاً في قلب إفريقيا ، فانقرضت المدارس الاسلامية ، لأنها لم تستطع الحصول على إعانات ، ولم تبق إلا الزوايا للتعليم القرآني . وقد كان تعليم القرآن هو المنطلق الأول في التعليم العربي هناك .

وإن كان الذين تعلموا في الأزهر قد أنشأوا عدداً من المدرس الاسلامية عندما عادوا إلى بلادهم ، غير أن المستعمرين سرقوا الكتب الاسلامية ، ونقلوها إلى بلادهم ، وأغلقوا المدارس ، فسادت الجهالة بين المسلمين ، بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار . على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الاسلام في تلك الفترة ، وتضخمه بصورة واضحة .

وفي المناطق الي احتلها الانجليز حالوا بصورة عامةبينالمسلمين والتعليم . إذ كانوا يشترطون على المسلم أن يغير اسمه الى اسم « لاتيني » ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ، ودراسة التاريخ الاستعماري ، ووجد السلمون أن أمامهم طريقتين . إما أن يعمدوا إلى تغير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين ، وإما أن يحتالوا على المستعمرين ليتعلموا ، ثم يعودوا إلى دينهم ، بعد أن تشبعوا بآراء وتوجيهات المستعمرين .

وقد صور توماس أرنولد انتشار الاسلام في أفريقيا فقال : كانت الأساليب السليمة هي الطابع الغالب على نشر الدعوة الاسلامية في أفريقيا ، كان التاجر المسلم عربياً كان أم إفريقيا ، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، حتى إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التي يبدو فيها وكأنه يخاطب كائناً خفياً . وما يتخلى به هذا الرجل من سمو عقلي وخلقي كان يفرض احترامه وثقة الأهالي الوثنيين به .

ويدهش المؤرخون والباحثون من أن الاسلام قد انتشر بصورة ضخمة في افريقيا في نفس الوقت الذي وطد الاستعمار أقدامه في قلب أفريقيا ، ومضى

ينشر حملات التبشير والشبهات حول كل ما هو اسلامي وبالرغم من ذلك فقد واصل الاسلام فتوحه ، وكان للصوفية وأبناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا الى أفريقيا دور فعال .

ويرجع ذلك الى بساطة الاسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقاة الفطرة أو التقاليد أو العادات المحلية دون أن يصادمها ، وهو ما اطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » أو « الامتزاج الصحي » وقد كان لمبدأ « المساواة » بحسبانه المبدأ الأساسي في الاسلام أثر مباشر وعملي في ترحيب شعوب أفريقيا به ، والمسارعة إلى اعتناقه ، وأبرز ما يتسم به في نظر الأفريقيين هو أن الذين يتحولون الى الاسلام يعطون نفس الحقوق التي يتمتع بها أي عضو آخر في المجتمع الاسلامي حتى قيادة الجيوش ، وتولي أعظم مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان » : الفضل في نشر الاسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية . « فقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة » ويركز على أن انتشار الاسلام تم بمجهود الطرق « القادرية » : التي نشأت في العراق ، وتوسعت في جنوب افريقيا والسنغال ، «والتيجانية » في فاس ، وتتميز بشدة مقاومتها للوثنيين ، وقد كان للحركة « الأحمدية » دورها في نشر الاسلام في أفريقيا ، كما كان للمرابطين[1] المغاربة وأغلبهم من اتباع الطريقة القادرية والتيجانية ـ دورهم في نشر الاسلام ومد نشاطه من السنغال إلى غينيا والسودان حتى ساحل العاج ، ومستعمرة النيجر .

ويرجع ذلك في نظر هوبير ديشان إلى أن الاسلام دين فطرة ، سهل المتناول ، لا تعقيد فيه ، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الاسلام مظاهر البقاع التي دخلها ، وأشاع النظافة التي يتميز بها المسلم عن بقية الناس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » . ويتسم الاسلام في أفريقيا بطابع صوفي ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التي لا تزال باقية .

---

(١) المرابطون : الدعاة المسلمون

ولعل أبرز أثر للاسلام في افريقيا اختفاء أقبح الرذائل ، وهي أكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قرباناً ووأد الأطفال أحياء . لقد حول الاسلام العراة إلى لابسين ، والذين لم يغتسلوا قط إلى الطهارة ، وأعان على اندماج القبائل فأصبحت أمماً . وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة . وقد أمر الاسلام الأفريقيين بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس ، وقضى على الحروب الصليبية .

ولعل أبرز ما أعان على انتشار الاسلام في افريقيا ما صوره أحد الباحثين الأجانب حين قال : إنه من السهل على الزنجي أن يصير مسلماً ، فكيفيه أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ليندمج حينئذ في مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تعاضد على مسافة الآف الكبيرة من الكيلومترات ، وان الزنجي المسلم سيجد عند أخيه في الدين دائماً الطعام والحصير للنوم .

هذا بالاضافة إلى روحه التحريرية للفرد والجماعة . وقد حاول الاستعمار ضرب حركة انتشار الاسلام بإثارة الشبهات حوله ، واتهامه بأنه قائم على مفهوم الغيبيات والتواكل ، غير أن اندفاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قوى التبشير التي تواجهه ، تكشف عما يتميز به جوهره من بساطة تعاليمه وانسجامه ، وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات . ولا شك أن انتشار الاسلام في هذه المرحلة من مراحل الغزو الاستعماري يكشف عن جوهر الاسلام وقدرته على التحدي ورد الفعل .

وفي أرخبيل الملايو استطاع مصارعة البرتغال والهولنديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين .

(٣٧)

بين العرب والترك

حين أخذ نجم العثمانيين الترك في الضعف ، تألق نجم « العرب » كقوة جديدة للاسلام ، لم تكن القوة هذه المرة في مجال الحرب والتوسع ، أو المقاومة العسكرية ، ولكنها كانت قوة فكرية سياسية تمثل « مرحلة جديدة » من مراحل حركة تاريخ الاسلام . ولقد كان من الضروري على هذه القوة الجديدة أن تتحرر من سلطان الأتراك السياسي والفكري ، وكان عليها في نفس الوقت أن تواجه نفوذ الاستعمار الكاسح المندفع للسيطرة على ميراث الدولة العثمانية التي كانت تمر بمرحلة « الرجل المريض» والحق أن الخلاف بين القوة الاسلامية الجديدة المتألقة وبين القوة الاسلامية التي أدت رسالتها ، واستكملت دورة التاريخ ، كان مركزاً في مفهوم واحد ، هو مفهوم « إعادة صياغة الاسلام » صياغة مجددة في مجال بعثه كرد فعل على عوامل الضعف والتأمر التي مني بها المسلمون نتيجة الانحراف عن تكامل مفهوم الاسلام ، الجامع بين العقل والقلب ، وغلبة التصوف كمفهوم روحي وجداني له طابع الجبرية والتواكل

ومن هنا كانت اليقظة العربية الاسلامية تقوم على حركات متوالية متتابعة ، تمثل في مجموعها تطور الفكر الاسلامي العربي في مجال التجديد والاصلاح والتحرر من عوامل الجمودوالتخلف والضعف ،وكانت الدعوة إلى التحرر من « الجبرية الصوفية» هي في نفس الوقت دعوة للتحرر من نفوذالاستبداد السياسي والجمود الاجتماعي . وفي مجال التاريخ الاسلامي بدأت حركة اليقظة بعلامتين كبيرتين :

تقدم العلماء مرة أخرى لحمل لواء المناصحة للحكام والامراء ، وقيادة الحركات المطالبة بالاصلاح والعدل الاجتماعي ، وكانت ابرز هذه الصور ، قد انبعثت من الأزهر في القاهرة ، لمواجهة ظلم الأمراء : إبراهيم ومراد ، وفي نفس الوقت كانت الدعوة إلى « التوحيد » التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم العبودية السياسية والروحية والاجتماعية كافة . ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة . وبين الدولة العثمانية التي كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية . غير أن قوة جديدة في مجال السياسية لم تلبث أن ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد علي في مصر . وكانت تحمل طابع القوة العسكرية ، وتستهدف إقامة إمبراطورية تحل محل القوة العثمانية المنهارة . وبذا أصبح على المسرح في ذلك الوقت قوى أربع :

* النفوذ الغربي المتمثل في الغرب المندفع للسيطرة على العالم الاسلامي ، وتقسيم ميراث الوحدة الاسلامية العثمانية .

* الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها بين مؤامرات الاستعمار ، ومحاولات الإصلاح .

* القوة السياسية الحربية ممثلة في مصر ومحمد علي .
* القوة الإسلامية السياسية ممثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب والأمراء السعوديين .

ولما كان الاستعمار المتصارع على مناطق النفوذ متفقا في القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها وتقسيمها فيما بينه . فقد استطاع أن يوعز إلى الدولة العثمانية أن تضرب القوتين بعضهما ببعض . وقد حدث ، فاستعان السلطان بقوة مصر العسكرية الحديثة في القضاء على قوة الجزيرة العربية ، ثم استطاع الاستعمار من بعد أن يقضي على قوة مصر . بذلك انفسح أمامه الطريق مرة أخرى لتحقيق غايته في السيطرة على العالم الاسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له .

غير أن القوة الإسلامية التي انهارت ، ظلت قوة فكرية متألقة ، وكان مفهومها هو لباب مختلف حركات الإصلاح والتجديد الإسلامي من بعد ، وكان

القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) مجالا خصباً لعوامل اليقظة التي بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بستين عاماً . من هنا بدأ وجه الغرب من جديد في أولى خطوات الغزو الاستعماري الغربي الحديث (**١٣١٦** هـ - **١٧٩٨** م) والتي امتدت خلال القرن الثالث عشر باحتلال : الجزائر ومصر وتونس والخليج العربي ، وذلك مقدمة للسيطرة التامة على العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها . وكانت الهند وأندونيسيا قد سقطتا في قبضة النفوذ الاستعماري في منتصف القرن التاسع عشر . وبذلك تمت السيطرة على العالم الإسلامي بعد ثلاثة قرون من حركة تطويقه ، وفي عام **١٩١٨** تمت الحلقة الأخيرة بانتهاء الحكم العثماني على العالم العربي بعد أن سقطت وحداته تحت نفوذ الاستعمار الغربي .

- ٢ -
مراحل الخلاف

مرت العلاقة بين العرب والعثمانيين في عدة أدوار :

(الدور الأول) المرحلة التي بدأت (**٩٢٣ هـ ١٥١٧** م) وذلك باندماج العرب والعثمانيين في وحدة إسلامية شاملة ، بعد أن ضعفت القوى العربية ، وقوى المماليك والسلاجقة حين بدأت الوحدات العربية تتعرض للهجوم الغربي وخاصة في مناطق البحر الأبيض المتوسط ، وهي المناطق التي واجهت الغزو والحصار الاقتصادي بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وقد امتدت هذه المرحلة حتى ظهرت محاولات الانتقاض في وحدات عربية مختلفة على الحكم العثماني : خاصة في مصر (على بك الكبير) وسوريا (ظاهر العمر) ولبنان (فخر الدين المعني) . ثم ظهرت حركة عربية أيدلوجية ذات طابع فكري إسلامي هي دعوة التوحيد : التي كانت تحمل في مضمونها لواء المقاومة والانتقاض لطابع الحكم العثماني الذي بلغ غايته في الضعف والجمود . ومن هنا بدأت اليقظة الإسلامية تنبعث من قلب الأمة العربية ، وبدأت الأمة العربية تستعيد مكانها كقوة إيجابية في مواجهة عوامل الانهيار لتحمل لواء اليقظة والنهضة في العالم الإسلامي كله ، وكان ذلك إيذاناً بأن الوحدة الإسلامية العثمانية قد وصلت إلى نهاية المد ودخلت مرحلة الجزر ، وأكملت دورتها في مراحل التكون والتألق والانحدار . وقد وقع هذا في (**١١٥٣ هـ ١٧٤٠** م) في نفس الوقت الذى بدأت فيه الدولة العثمانية تتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع

بالنسبة لوحداتها في قلب أوربا والبلقان . غير أن اليقظة العربية ظلت فترة طويلة في مرحلة « الشرنقة » .
(الدور الثاني)المرحلة التي بدأت في اول حكم السلطان عبد الحميد ، والتي كان يقودها دعاة الحرية على المفهوم الغربي ، وفي مقدمتهم « مدحت » والتي استطاعت أن تقيم نظاماً سياسيا جديداً (١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م) قوامه الدستور . بيد أن هذه الحركة لم تستكمل عناصر البقاء . ولذلك فإنها سرعان ما انهارت ، ودخلت الدولة العثمانية في دور صراع فكري خلال مرحلة استمرت حتى عام ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م حينما استعادت الدستور العثماني مرة أخرى .

في هذه المرحلة كان « جمال الدين الأفغاني » قد بدأ دعوته إلى الجامعة الإسلامية التي نؤرخها بوصوله إلى القاهرة عام ١٨٧١ . وذلك بحسبان أن مذهبه الفلسفي كان قد تحدد بعد سنوات الكفاح التي قضاها بين فارس والهند وتركيا ، وبحسبان أن مصر - في تقديره - قلب العالم الإسلامي ، وأشد مناطق الأمة العربية حساسية ويقظة ، هي أصلح موقع لإطلاق دعوته التي تمثل تطوراً لحركة اليقظة العربية الإسلامية التي تقدمه بأكثر من سبعين عاماً . وفي ضوء حركات التحرر والاصلاح في الدولة العثمانية ، والوحدات العربية ، وخاصة فيما يتصل بحركة مدحت وأتباعه الاتحاديين في قيام دستور وحكم نيابي ، وتقييد سلطات الولاة والأمراء ، وهو ما شارك فيه من بعد عندما وضع دستور فارس . وعندما أشار على سيد (المابين العثماني) من قيام نظام الولايات ، وما ناقشه مع توفيق وعباس من حكام مصر .

من خلال هذه الدعوة ظهرت حركة السلطان عبد الحميد التي تعمل من أجل « وحدة المسلمين » . ومع اختلاف هدف الدعوة التي يقودها رجل فكر . والحركة التي يقودها حاكم فعلي فإن السلطان العثماني قد استطاع بذكائه أن يجعل من دعوة « وحدة العالم الإسلامي » سلاحا يواجه به النفوذ الغربي المضطرد الغزو لعالم الاسلام . وقد جاءت حركته في أعقاب تحرر الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية . ولا شك كان للحركة أثرها ومفعولها وامتدادها بعد سقوط عبد الحميد عام ١٩٠٩ - فقد ظل نصراؤها يحملون إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ - ثم تطورت بعد إلى منهج آخر ، وأسلوب جديد . غير أن

الصراع كان خفيا بين دعوة الجامعة الإسلامية التي يدعو إليها جمال الدين الذي توفي في ظروف عام ١٨٩٧ وبين حركة الجامعة الإسلامية ، التي قادها السلطان العثماني من ناحية ، وبين حركة الجامعة الطورانية التي كان قيادها في أيدي الاتحاديين ، غير أن هذا الصراع لم يتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ .

فقد استطاع الاتحاديون أن يفرضوا نفوذهم عام ١٩٠٨ ، وأن يحققوا إصدار الدستور في نفس العام ، هذا العام الذي يعد من الأعوام الحاسمة في تقدير المؤرخين لحركة اليقظة ، فقد استقبل هذا الدستور في مختلف أجزاء عالم الإسلام ووحداته العربية بالذات باهتمام كبير . غير أن هذا الجو من التفاؤل لم يلبث أن تضاءل بعد سقوط عبد الحميد ١٩٠٩ حين حاول استرداد الدستور . فقد كشف الاتحاديون عن هدفهم في إعلان الدعوة « إلى الجامعة الطورانية » وأخذوا في تنفيذ مخطط تتريك العناصر في الدولة العثمانية وواجهوا الأمة العربية بأقسى ألوان الاضطهاد ، حين أصر العرب على الحفاظ على كيانهم القومي ولغتهم العربية ، ووقفت سوريا بالذات في خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح الذي قاوم الوحدة العربية أعنف مقاومة .

(الدور الثالث) ومن هنا بدأ الانفصام بين الوحدة العثمانية العربية المتمثلة باسم الإسلام في الدولة العثمانية . كانت الحركة العربية في أول أمرها حريصة على بقاء الوحدة العثمانية العربية على أساس قيام نظام لا مركزي يحفظ للوحدات العربية كيانها ولغتها ، غير أن إصرار الاتحاديين على تتريك العناصر ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية التي تعارضت في أسلوب الدعوة مع مفهوم الإسلام ، ومع مقومات الأمة العربية ، هنالك انفصمت الوحدة ، وبرزت الدعوة إلى الوحدة العربية سافرة ، غير أن الأحداث العالمية كانت بعيدة الأثر في تحديد موقف العرب والترك ، حين قامت الحرب العالمية وانضم الأتراك لألمانيا ، وأغرت بريطانيا العرب بوعود مكذوبة بإقامة الدولة العربية بعد الحرب شريطة مساعدتهم لها ، هنالك بدأ الصدام بين العرب والترك في الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا ولبنان على النحو الذي تحقق معه النصر للحلفاء (الانجليز والفرنسيين) في الحرب العالمية وهزيمة ألمانيا وتركيا ، غير أن بريطانيا كانت قد غدرت بالعرب ، وأنكرت عهدها لهم ، وتعاهدت مع فرنسا على تقسيم الشام (فلسطين وسوريا ولبنان) . والعراق .

وانتهت الحرب باحتلال انجلترا للعراق وفلسطين ، واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان مع صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وفي نفس الوقت احتل (الحلفاء) العاصمة العثمانية ، وأجزاء من الدولة . هنالك برزت حركة التحرير التي قادها (مصطفى كمال) واستطاعت تحقيق إجلاء الحلفاء واليونان عن (آسيا الصغرى) وهي القسم التركي الباقي من الدولة العثمانية بعد انتزاع الوحدات العربية منها .

(الدور الرابع) حققت الحرب العالمية الأولى للاستعمار الغربي الوصول الى استكمال عملية الغزو التي بدأها عسكريا منذ بدأت حملة نابليون **١٧٩٨** ووقف اللورد اللنبي (القائد البريطاني) في بيت المقدس ، وقال كلمته الحاسمة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومن ثم بدأت مرحلة « الإقليمية الضيقة » في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، تحاول أن ترجع هذه الوحدات إلى ماضيها قبل الإسلام لتدعو اليه من جديد ، ففي مصر ظهرت الفرعونية ، وفي سوريا ولبنان ظهرت الفينيقية ، وفي العراق ظهرت الأشورية ، وفي المغرب ظهرت البربرية ، ثم بدأ تمزيق عنصري وفكري وديني بين العناصر المختلفة قوامه مسيحي ومسلم ، وكردي وعربي ، وشيعي وسني ، وماروني ودرزي ، وبدأت حركة الإقليمية الضيقة تستعلي وترتفع صيحاتها حتى يحال بين عالم الإسلام ، وبين التجمع في وحدة فكرية . واتصل ذلك باللغة العربية التي جمدت ، وباندفاع اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى السيطرة الثقافية في العالم الإسلامي كله ، كما اتصل ذلك بالثقافات والبطولات ، وتاريخ وأمجاد الدول المختلفة لتصبح أجزاء أساسية في مناهج التربية والتعليم ، وذلك لحجب الطابع الاسلامي الذي كان مسيطراً على الفكر قبل هذه المرحلة ، وبدأت الوحدات صراعاً داخليا عنيفاً مع المحتلين ، أحوجها إلى مرحلة طويلة حتى عادت إلى التنبه لأسلحتها وقواها في الوحدة والايمان بتراثها ومقوماتها .

أما تركيا الكمالية ـ فقد اتجهت نحو الحضارة الغربية اتجاها قويا وحاداً ، فألغت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، وكان ذلك كرد فعل للعوامل الضخمة التي أوقعت الدولة العثمانية في الاضطراب والتفكك والهزيمة في الحرب العالمية ، وكاستجابة لنتائج مرحلة ضعف طويلة استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، ومن طباع الأشياء أن تتحرك

القوى المتغلبة من أقصى اليمين إلى أقصى اليساركمرحلةاندفاع أولى ، ثم تعود مرة أخرى إلى التوازن والتعادل بعد أن تمر بمرحلة الانفجار أو التنفيس ، فقد شجبت تركيا الإسلام اللغة العربية كلية وحجبت تراثها الإسلامي والعربي الثقافي كله ، وبدأت تكتب لغة تركية جديدة منفصلة عن اللغتين العربية والفارسية ، واستعملت الحروف اللاتينية ، وقاومت الطابع الديني كلية في الحياة الاجتماعية ، واندفعت في التحرر إلى أقصى مدى ، في الزي ، وفي البيت ، وفي المدرسة ، وربطت نفسها بعالم الغرب ثقافيا وسياسيا وعسكريا واجتماعيا على نحو أحدث هزة ضخمة ، ثم تابعتها إيران وجرت مثل ذلك محاولة في أفغانستان ، وواجهت الأمة العربية هذه التجربة مواجهة لاحدّ لدقتها ، فقد كانت « حركة التغريب » التي يحمل لواءها الاستعمار ، والتي تهدف إلى فصل المسلمين والعرب عن مقومات فكرهم وكيانهم (التي هي إسلامية أصلاً) بوصفها من عوامل المقاومة للغزو والاستعمار والنفوذ الأجنبي ، كانت تحاول أن تتخذ من حركة تركيا تجربة ناجحة ، وتدعو إلى تقليدها . وقد أحدث ذلك هزة نفسية بالغة في مختلف مقومات الفكر العربي الإسلامي ، غير أن الأمة العربية بحسبانها حاملة لواء « اليقظة العربية » التي بدأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعمقت آثارها في بيئة الأمة العربية استطاعت أن تقاوم .

لقد ربطت حركة اليقظة الإسلامية العربية بين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود ، وبين مقاومة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقدمت كل الأسلحة لمقاومة الشبهات الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا عجزت حركة التغريب عن ضرب الإسلام في الأمة العربية .

(الدور الخامس) بدأت حركة الوحدة العربية تحمل لواء مقاومة النفوذ الاستعماري ، بعد أن تمزقت جبهة الوحدة الإسلامية العثمانية التي التف حولها كثير من المفكرين العرب والمسلمين بحسبانها قوة قائمة فعلاً ، تعمل على دفع الغزو الغربي ، فلما مزق الاستعمار عالم الاسلام ، قامت حركة الوحدة العربية كعلامة على العمل الواقعي لمواجهة الغزو وتوسيع جبهة المقاومة ، وقد بدأت فكرة العروبة مرتبطة بالأساس الفكري بالاسلام . غير أن الاستعمار الذي قاوم أي وحدة ، حاول أن يثير في أعماق هذه الدعوة الشبهات والتمزقات . وذلك حين ظهر تيار يرمي إلى نقل الوحدة العربية من مفهوم الفكر العربي الاسلامي ،

ومن أرضيته الطبيعية إلى « عربية الوحدة » منفصلة عن أرضية الإسلام ، منعزلة عن مقوماتها الأساسية : اللغة العربية والتاريخ ، ودانت مؤامرةالاستعمار في محاولة خلق صراع بين العروبة والإسلام ليضرب الروابط بينه وبين الأمة العربية من ناحية ولتجزئة الفكر العربي الإسلامي ، بإثارة خصومات سياسية وفكرية بين عناصر الأمة العربية .

- ٣ -
الحرب الصليبية الجديدة

يمكن أن توصف الفترة التي بدأت بإعلان دعوة التوحيد (**١١٥٣هـ ١٧٤٠م**) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (**١٣٣٧** هـ **١٩١٨** م) بأنها مرحلة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية ، فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حمل لواءها : محمد بن عبد الوهاب والشوكاني ، والسنوسي والمهدي والسرهندي والدهلوي ، وجمال الدين ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا . كما تمثلت في ثورات متوالية على الانجليز في الهند (**١٨٥٧**) وعلى الفرنسيين في الجزائر (**١٨٣٠**) وعلى الانجليز في مصر عرابي (**١٨٨٢**) وعلى الإنجليز في السودان (**١٨٩٨**) وعلى الروس في القوقاز ، وعلى الانجليز في فارس ، وتمثلت في هذه الحركات العسكرية والسياسية والفكرية مختلف أساليب اليقظة والمقاومة وتصحيح المفاهيم والوحدة السياسية والفكرية والإصلاح الاجتماعي .

ويمكن القول بأن (اليقظة العربية الاسلامية) وقد واجهت مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الأولى لها طابعها وتحدياتها المختلفة . ومن هنا يمكن القول بأن هذه الحركة حققت نتائج بالغة الأهمية في مقدمتها :

* بعث أمجاد العرب والمسلمين ، والرد على مختلف الشبهات التي حمل لواءها المبشرون ودعاة الاستعمار والتغريب .

* هز عالم الإسلام ، وبعث « خط جديد » قائم على تكامل الإسلام وشموله : بالربط بين العقل والقلب ، ومستمد من امتزاج مفهومي الغزالي وابن تيمية للإسلام .

حاولت التوفيق بين الإسلام وحاجات العصر ، وأعطت الأعمال السياسية والوطنية طابع الإسلام .

* رسمت مفهومها في أبسط صورة: العمل بكتاب الله وسنة رسوله مع مسايرة مقتضيات العصر ، بحيث لا تقبل نظرة إلا إذ أقرها العقل وصادق عليها الإسلام . وفهم الإسلام على أساس أنه يعتمد على العقل ونواميس الكون ، وتطورات الزمن في العادات العبادات .

* غلب الطابع السياسي على حركة اليقظة في العالم العربي وغلب الجانب العقلي الاجتماعي على الحركة في الهند وجمعت المغرب بين الاتجاهين .

* ناضل السلفيون في المغرب ضد رجال الطرق الموالين للاستعمار، وضد الغزاة الأجانب .

مزجت حركة اليقظة الإسلامية بين مقاومة الانحلال الداخلي ، ومقاومة السيطرة الأجنبية .

* تصفية التفاسير الجزئية والخاطئة التي وضعت في فترة الضعف .

* إعادة الحرية العقلية .

* الدعوة إلى دراسة الكتب العلمية الغربية ، وإن كان مؤلفوها من غير المسلمين ، أو كان فيها ما يخالف القرآن .

* الدعوة إلى استقصاء الشريعة ، واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر .

* * *

إذا قلنا إن مرحلة الغزو الغربي على عالم الإسلام في العصر الحديث بدأت مرة أخرى بعد أن توقفت الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة ، فإنما يكون ذلك القول بمثابة نظرة جزئية إلى الحروب الصليبية التي انتهت فعلا في المشرق عام **٦٩٠** هـ **١٢٩١** م . أما بالنسبة لعالم الإسلام كله فيمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تتوقف . وإنما دخلت في دور جديد من ثلاث مراحل .

(**١**) مرحلة تطويق عالم الإسلام التي بدأت بحملات البرتغال وأسبانيا بعد تحقيق هدف من أضخم أهداف الغرب ، وهو تخليص أوربا من سيطرة المسلمين والعرب ـ هذا في نفس الوقت الذي كانت أجزاء البلقان قد وقعت تحت سيطرة المسلمين والترك منذ **٧٥٩** هـ **١٣٥٧** م أي قبل سقوط غرناطة بما يقرب من

قرن ونصف قرن ـ وقد كانت الأندلس منطلق حملة تطويق الاسلام حوالي عام **١٦٠٠** تقريباً الى شواطىء المغرب وشواطىء إفريقيا ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى **١٧٩٨** وقد قاومت الوحدات الاسلامية خلالها مقاومة كبرى ، وانتهت بقيام استعمار اقتصادي بواسطة شركتين إحداهما هولندية في أرخبيل الملايو ، وبريطانية في الهند ، ثم بدأت مرحلة الاحتلال العسكري (حملة نابليون **١٧٩٨**) وانتهت هذه المرحلة **١٩١٨** (نهاية الحرب العالمية الأولى) سيطرت هولندا على أندونيسيا عام **١٨٠٠** واحتلت بريطانيا الهند **١٨٥٧** واحتلت بريطانيا الأمة العربية عام **١٨٣٠** الجزائر ، وعام **١٨٣٩** عدن ، وعام **١٨٨١** تونس وعام **١٨٨٢** مصر ، وعام **١٨٩٧** السودان ، وعام **١٩١١** ليبيا ، وعام **١٩١٢** المغرب ، وعام **١٩١٧** سوريا وفلسطين والعراق .

ويمكن القول إنه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله قد سقط في قبضة الاستعمار الغربي ما عدا : إيران وأفغانستان . وإن كان للاستعمار معهما ومع أجزاء من الجزيرة العربية معاهدات . وبذلك انتهت عملية الغزو الاستعماري الغربي الحديث ، الذي ظل ممتدًا في بعض أجزاء المغرب والأندلس منذ الحروب الصليبية ولم يتوقف .

❊ ❊ ❊

وفيما بعد الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة ما تزال ممتدة هي مرحلة الاستعمار الفكري(الغزو الثقافي والتغريب)والاستعمار الاقتصادي لعالم الإسلام ، وقد تمثلت في هذه المرحلة باستمرار عملية المقاومة في مختلف أجزاء عالم الإسلام : هذه المقاومة لم تتوقف . منذ بدأت عمليات الغزو العسكري والسياسي . غير أنها اختلفت في فترة ما بين الحربين عنها في المرحلة السابقة لها . فقد غلب عليها الطابع السياسي والدبلوماسي . حيث استطاع الاستعمار أن يقيم حكومات موالية له ، وظلت القوى الوطنية تقاوم بالكلمة والتجمع وبالثورات .

وأبرز ما تتسم به مرحلة ما بين الحربين : « طابع الثورات » بينما كان طابع المرحلة التي سبقتها يتمثل في « حروب المقاومة » . وقد تفاوتت هذه الثورات طولاً وقصراً ، وكان أكثرها شبهاً بحروب المقاومة : ثورة الريف التي قادها الأمير عبد الكريم الخطابي (**١٩٢٦**) وثورة عمر المختار في ليبيا **١٩٣٠** . أما أجزاء العالم العربي فقد اندلعت فيها الثورات متوالية ومتصلة لم تتوقف : مصر **١٩١٩** ـ العراق **١٩٢٠** ـ السودان **١٩٢٤** ـ سوريا **١٩٢٤** ـ فلسطين **١٩٣٥** .

أما الهند وأندونيسيا وتركيا وإيران وأفغانستان فقد توالت فيها الثورات والانقلابات ، بالإضافة إلى ثورة تركستان . وفي خلال هذه الفترة أثيرت في تركيا وإيران وأفغانستان محاولات تحول وتغيير قامت تحت سلطان التجديد والتغريب . غيرأن العالم العربي كان أقل تأثراً بهذه الحركات ، وظل أكثر أصاالة في مفهومه الاسلامي المتصل بماضيه وقيمه . وكانت تركيا أقوى هذه الوحدات الإسلامية جريا وراء تيار التغريب . وقد اتخذها الاستعمار « نموذجا » للتجربة التي نجا عالم الإسلام من آثارها الهادفة إلى القضاء على طابعه الإسلامي ، والتوغل في عملية التحول والتغريب والانفصال عن مضمون الإسلام الفكري والاجتماعي والسياسي .

***

وتمثل مرحلة ما بين الحربين أدق مراحل المقاومة والصراع ، ليس في مجال المقاومة العسكرية أو السياسية تجاه الاستعمار بقدر ما كانت في مجال مقاومة التغريب والتبشير والشعوبية في مجال هدم مقومات الفكر الاسلامي في نفوس المسلمين ، وإثارة الشبهات حول الاسلام والقرآن والنبي محمد والتاريخ والتراث واللغة العربية .

وقد ركز الاستعمار في هذه المرحلة تركيزاً ضخماً على « الأمة العربية » باعتبارها بدت وكأنها الطليعة الجديدة لقيادة الاسلام ، وبوصفها قلب عالم الاسلام وأقوى القوى المدافعة عن السنة والمفاهيم الأساسية التي كانت دعوة اليقظة في خلال أكثر من **١٧٧** عاماً . قد استطاعت من خلال حركات متعددة تحمل طوابع التوحيد والجامعة الاسلامية والاجتهاد ، وتحرير العقل الى إقامة كيان فكري ضخم قادر على المقاومة لم يكن من اليسير القضاء عليه أو تدميره .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية استطاع النفوذ الاستعماري أن يركز دعائمه الفكرية والثقافية في العالم الاسلامي . ويتخلى عن قواعده العسكرية ، ومن ثم بدأت بعد الحرب حركات جلاء واستقلال لمعظم وحدات العالم الإسلامي تحت ضغط القوى الوطنية التي حملت لواء المقاومة .

ومن أبرز انتصارات الإسلام استقلال أندونيسيا وقيام دولة الباكستان الإسلامية منفصلة عن الهند ، ومن أظهر هزائمه ، وأقسى ما ظهر من حركات الاستعمار في هذه المرحلة ، عملية زرع دولة صهيونية في قلب الوطن العربي في فلسطين (**١٩٤٨**) وقد كان رد الفعل في مواجهة إسرائيل هو ذاك التحول

السياسي والعسكري والاجتماعي الذي شهده العالم العربي والذي تمثل في أكبر وأخطر مواجهة لاسرائيل ، وإذا كان لنا أن نستعرض في كلمة سريعة موقف الاسلام ، قلنا إن مرحلة الحرب العالمية الأولى حققت تقسيم العالم العربي ، وتمزيق الدولة العثمانية بعد انضمامها لألمانية وهزيمتها ، ثم انتقاض تركيا على الاسلام ، وإلغاء الخلافة كمقدمة لحركة غزو ضخم للغة والدين والتراث . أما بعد الحرب الثانية فكانت أبرز الأحداث : قيام إسرائيل وبروز يقظة عربية جديدة . قوامها الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية معاً . ثم بروز اتجاه تقارب بين العرب وعالم الاسلام بعد فترة من الوحشة والانقسام ، هذا فضلا عن تقارب في الفكر الاسلامي ارتقى فوق خلافات المذاهب ، وحاول الالتقاء في مواجهة الغزو الغربي . ومن خلال إيمان بالحفاظ على مقومات الاسلام كقوة مدافعة في وجه حملة الاستعمار الغربي ، ويمكن أن يطلق على مرحلة ما بين الحربين طابع مرحلة الغزو الفكري والتغريب للقضاء على المقاومة وإحلال طابع محاسنة الاستعمار والالتقاء به ، غير أن هذه الفترة قد زخرت بأعلام تابعوا دعاة اليقظة العربية الاسلامية على الطريق ، وبلوروا أسلحة مقاومتهم مع تطور العصر ، ومع ظهور شبهات جديدة ، ومحاولات جديدة للغزو الفكري والتغريب .

في هذه المرحلة برزت مؤسسات عربية وإسلامية ضخمة في مختلف عالم الإسلام ، اتخذت من تصحيح مفاهيم الإسلام ، وإجلاء جوهره سلاحاً لمقاومة الاستعمار والاحتلال والتغريب ، ومقاومة حركات التبشير والشعوبية وكان من أبرزها :

* مؤسسة الإصلاح والتجديد في مصر وقوامها رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب ، وفريد وجدي وتلاميذهم .

* ندوة العلماء في لكنو وقوامها شبلي النعماني ، وسليمان الندوي ، ومؤسسات أخرى قوامها مولاي محمد علي وسيد أمير علي .

* مؤسسة النجف وقوامها الإمام كاشف الغطاء ، ومحمد جواد مغنية .

* اتباع دعوة التوحيد في العراق (الألوسي) وفي سوريا (المغربي والقاسمي والبيطار) .

* السلفيون في المغرب وفي مقدمتهم الدكالي ، ومحمد العربي العلوي وتلاميذهم .

* حركة التجديد في الجزائر بقيادة عبد الحميد باديس ، وبشير الإبراهيمي .

*حركة التجديد في أندونيسيا .

وفي خلال هذه المرحلة لم تتوقف حركة المقاومة : في قطاعاتها الثلاثة : : الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ويمكن أن يقال إن الاستعمار قد واجه عالم الإسلام بأقصى حملات الغزو وحمامات الدم التي لم تتوقف . وقد رد عليها عالم الإسلام بالمقاومة والثورات المتوالية ، وقدم فيها المسلمون في مختلف الوحدات شهداءهم وأبطالهم الذين رفضوا الاستسلام ، وواجهوا القوى الغاصبة بالأجساد المتراصة ، وتلقوا رصاص الغزاة في صدورهم ، ففي ثورة الهند المسلحة على الانجليز **١٨٥٧** ، وفي ثورة الجزائر **١٧٣٠ - ١٨٤٧** بقيادة الأمير عبد القادر التي استمرت سبعة عشر عاماً . وفي ثورة تركستان بقيادة شامل في مواجهة القوى الروسية ، وثورات المسلمين في جزائر الهند الشرقية في مواجهة الاستعمار الهولندي وفي العالم العربي بمختلف أجزائه لم تتوقف الثورات ، بل توالت فترة بعد فترة ، ومرحلة بعدمرحلة ، قاوم السنوسيون في ليبيا سنوات طويلة استمرت من **١٩١١** إلى **١٩٣٢** تقريباً ، وعرفت مصر ثورة عرابي **١٨٨٢** وثورة **١٩١٩** وثورة **١٩٥٢** .

- ٤ -

حرص الاستعمار في مرحلة التغريب والغزو الفكري على تمزيق جبهة الإسلام بالتفرقة بين العرب والترك ، ثم بين الترك والفرس ، ثم تمزيق جبهة العرب ، ثم استغلال الحركات القومية في شجب مفاهيم المقومات الإسلامية ، والعربية الجذرية ، والقضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة لعالم الإسلام بوحدة الفكر ، ومحاولة إذابة المسلمين والعرب في بوتقة حضارة الغرب وفكره ، والسيطرة عليهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططاً حاسمة .

(أولاً) تجميد اللغة العربية في العالم الإسلامي كله ، وإيقاف ثقافتها ، ومحاولة إحياء اللغات القومية ، وتغليب لغة المستعمر (الفرنسية أو الانجليزية عليها) ودفع اللغات القومية إلى طريق جديد بكتابتها بحروف لاتينية كما حدث في تركيا وأندونيسيا .

(ثانيا) فرض المدارس الأجنبية ، ومدارس الإرساليات بمناهجها ولغاتها، والقضاء على المدارس الوطنية وإيقافها ، واعتبار لغة الاستعمار هي اللغة الأولى ، مع فرض تاريخ الغرب وأبطاله ومذاهبه وثقافاته أساساً ، وذلك للقضاء على مقومات الفكر الإسلامي ، وتاريخ الإسلام وابطاله .

(ثالثا) التبشير بالديانات التي تمثلها ثقافات المحتل ، وذلك عن طريق المدارس والمستشفيات والصحف والأندية والكتب والإذاعات ومختلف الوسائل .

(رابعاً) تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية والقوانين ، وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها وأنظمتها ، وإحلال القوانين الأوربية المستمدة من بيئات الغرب وأديانه وحاجاته على القيم الاسلامية والعربية الأساسية .

(خامسا) فرض مظاهر الحضارة الحديثة في الفنون والمجتمع ، وأدوات اللهو ، والقصص المكشوف ، والمسرحيات ذات الطوابع المنحلة ، وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع وأخلاقياته ، وبث روح الانحلال في الشباب ، وتمزيق وحدة الجماعة ، والقضاء على كيان الأسرة .

(سادساً) إذاعة الدعوات التغريبية المنحرفة ، والمذاهب الهدامة ، وضرب الفكر الإسلامي بقضايا وأفكار ، وآراء تقوم على الإلحاد والإباحة والتحلل بما يقضي على مقومات الإسلام والفكر الإسلامي وأخلاقياته ، والنيل من الدين والروحية ، والقيم الانسانية والمعنوية .

(سابعا) ضرب العروبة بالإسلام ، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى نهج منفصل عن مقومات الفكر العربي الأساسية . في اللغة والتاريخ والتراث . وذلك لتفسيخ مقومات الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هامًا في تركيز مفاهيم الفكر العربي الإسلامي وجذوره . وفي هذا يقول الأستاذ محمد علي الغتيت : لقد حرص الاستعمار منذ الحروب الصليبية على القضاء على البعث العربي في أية صورة من صوره ، باعتبار أن ذلك في رأي الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل في ذاته خطراً جسيماً على سياسته : فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر وراءها حتما وتلقائيا « البعث الإسلامي » . فإن بعث القومية العربية في نظر ساسة الغرب هي الطاقة القومية التي متى انبعثت . كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها الى التجمع من جديد على الصورة القوية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل

القومية العربية ، والتجمع الاسلامي ، أو بين العروبة والاسلام ، ففي العروبة يتمثل أمام ساسة الغرب : « الاسلام » . فلهذا فإن الغرب يتهيب دائماً خطر التجمع الاسلامي ويراه كامناً في العروبة حيثما كانت لا في الاسلام حيثما كان » .

(ثامنا) إقامة قواعد عسكرية ذات طابع عنصري تحمل فلسفة خاصة نكون عاملاً أساسيا في ضرب حركات التحرر . وفي الحيلولة دون قيام الوحدة العربية التي هي عامل أساسي في تحقيق جانب القوة للإسلام ، وقد حرصت دول الغرب مجتمعة على تعميق هذه القاعدة وإبلاغها أقصى مدى من القوة ، ودون تقدير لتشريد العرب أهل المنطقة .

(تاسعاً) إثارة الاتهامات الباطلة والشبهات المضللة حول الإسلام واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، ومحاولة بناء ادعاءات كاذبة حول هذا المعنى تستمدة من مرحلة الضعف التي مرّ بها عالم الإسلام في أواخر عصر الدولة العثمانية . والواقع أن الإسلام محجوب بالمسلمين ، وأن انفصال المسلمين عن مفاهيم الإسلام . كان العامل الأساسي في ضعفهم وهزيمتهم أمام الغزو الغربي .

ـ ٥ ـ
الإسلام والغزو الاستعماري الحديث

اتسمت مرحلة اليقظة العربية الإسلامية ، بطابع الإسلام بكل مقوماته ، واستكملت ملامحها على النحو الذي استكملته المراحل المتصلة المتلاحمة ، حلقة وراء حلقة ، لا يفصل بينها شيء ، فكل منها يتمم ما قبله ، ويهيء لما بعده ، فحيث يبدو عامل الضعف في وحدة من وحدات عالم الإسلام، يبدو عامل اليقظة في وحدة أخرى . وحيث ينحرف مفهوم الإسلام ، يظهر المصلح المجدد الذي يكشف عن جوهر الإسلام فيصحح المفاهيم ، وحيث تسيطر فكرة جزئية محاولة أن تمثل الإسلام ، يشرق من جديد ضوء الإسلام في تكامله وشموله ووسطيته ، وحين يقوم الظلم أو الجور أو الانحراف أو التحلل في مجتمع يبرز الآمرون بالمعروف ، والناصحون للولاة ، والدعاة الى الحق ، وهكذا يعطى الإسلام بنقاء جوهره وقدرته على الحركة والحياة ، قوة مجددة على الاستمرار ، والفاعلية والحيوية ، وإعادة تشكيل نفسه ، وصياغة مفاهيمه على النحو الذي يجري مع كل زمن ، وفي كل عصر لا يتخلف ولا ينحرف . وتتسم هذه المرحلة بسمات واضحة .

(أولا) قدرة الإسلام على مواجهة الغزو الاستعماري ، والكشف عن أصالة جوهره وإيجابيته بعد أن تعرف على أسباب تأخر مجتمعه وتخلفه ، وقد تبين أن التخلف لم ينتج عن الإسلام نفسه . فالإسلام بفاعليته وديناميكيته الحية قادر على إعطاء القدرة الدائمة على المقاومة والقوة والحياة ، إنما نتج التخلف عن انفصال المجتمع الإسلامي عنه ، بينما كانت قيم تراث الإسلام وحدها من أكبر

مصادر النهضة التي ظهرت في الغرب ، حيث العدو الذي ظل يستعد للسيطرة والانقضاض .

(ثانيا) أبرز الإسلام في هذه المرحلة قادة فكر وقادة عمل ، واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيئة التي جهر بها قادة الفكر ، واستمدوها من القرآن والسنة أصلاً ، فقد كانت قدرة الإسلام الجوهرية تتمثل خلال الأزمات الكبرى في التماس عوامل النظر من المنابع الاصيلة : القرآن والسنة النبوية ، (حديثا وسيرة) وأن تعبر عن مراحل الفكر الإسلامي كله مستمدة من « الأصول » و « الجذور » بوصفها أصدق إمداداً ، وأعمق أثراً ، وأقرب إلى العزائم ، وأبعد عن الزلل أو الرخص .

(ثالثاً) برزت في هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل في إيمانها بالاسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والبربر والمماليك . وقد تمثلت هذه القوى في الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر ، والقوقازيين بقيادة شامل ، والمصريين بقيادة عمر مكرم ، وأحمد عرابي ، والسودانيين بقيادة المهدي التعايشي والهنود في ثورة **١٨٥٧** وغيرها ، والعمانيين والسواحليين والأزارقة في مواجهة البرتغال والأسبان والانجليز ، وكذلك السنوسيين بقيادة السيد أحمد الشريف ، وبين المغاربة جملة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وبين الفرنجة ، كما قاوم الجاويون هولندة .

كانت هذه الحروب غير متكافئة حيث دارت بين المسلمين والعرب من جهة فيأواخر مراحل الضعف وبين الغرب وهو في أول مراحل القوة ، واستمرت هذه الحروب طويلاً حتى يمكن أن يقال إنها لم تتوقف ، وفي الجزائر استمرت سبعة عشر عاما ، وتوالت . وفي كل هذه المعارك لم يكن النصر فيها للاستعمار - رغم عدم التكافؤ العسكري والحربي - نصر ميدان . بل كان نصر غدر وتآمر . وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرقة لا تقل كفاءة عن صفحات مرحلة الغزو الخارجي التي سبقت عصر الوحدة الاسلامية العثمانية . وبالقطع كان هذا الغزو الجديد امتداداً لها .

وبسيطرة الاستعمار الحديث على عالم الإسلام تمزق الكيان الموحد - حيث سيطرت حكومات جديدة أقامها الاستعمار وبدأت بينها وبين القوى الوطنية معارك مقاومة . وبذلك دخلت وحدات عالم الإسلام في مرحلة جديدة هي

مرحلة « المقاومة بالكلمة » وهو الدور الوطني الذي ازداد اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى . وقد تنوعت وسائل الاستعمار الذي أخذ صورة احتلال مسلح ، وسيطرة كاملة على المقدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع تنفيذ برنامج كامل في مجال التربية والتعليم والثقافة والصحافة تهدف إلى قتل مصادر القوة في المجتمع والأسرة ، وتمزيق القوى المعنوية ، وبث روح من الإلحاد والإباحة والتشكيك والانحلال في القوى الشابة ، حيث سيطرت هذه القوى المحتلة بمختلف وسائل القضاء على القوى الاقتصادية والمعنوية واستغلت الامتيازات الأجنبية لانتزاع الأراضي وتحقيق أكبر قدر من الضغط والإفساد ، وإتاحة الفرصة للارساليات الأجنبية، بعثات التبشير . وتمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة الخلافات بين المذاهب والأديان وابتعاث الدعوات العنصرية القديمة كالفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وغيرها وفرض قوى ضخمة للسيطرة على مجاري الفكر بحيث يتحقق الجهر بهذه الدعوات مع إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وقيمه وتاريخه ،وحول القرآن واللغة العربية والتراث مع ارتفاع هذه الأصوات وجهارتها عن طريق الصحف والمجلات الضخمة المسنودة بمالهم ونفوذهم ، بينما لا تستطيع أن ترقى كلمات المقاومة ، والرد على هذه الشبهات إلى نفس المستوى في التعبير أو الذيوع ، ومن هنا مهد الاستعمار في هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر عنفاً وشراسة في تدمير القيم الأساسية للإسلام بوصفه العامل الضخم الذي أعطى المسلمين القوة على مقاومة الغزو الأجنبي والنفوذ الأجنبي ، واستطاعت قوى المبشرين والمستشرقين أن تعد حملة ضخمة بدأت سنة **١٨٣٠** (وهو نفس العام الذي احتلت فيه الجزائر) بإذاعة الشبهات التي أثارها خصوم الإسلام في عصوره المختلفة بعد إعادة صياغتها من جديد ، كوسيلة للتشكيك في قدرة الإسلام على الحياة ، واستغلت هذه القوى ما وجه إلى المسيحية الغربية من اتهامات في أوائل عصر النهضة للهجوم به على الإسلام على بعد الفرق بين مواجهة الإسلام للحضارة وموقفه من العلم وموقف غيره من الأديان .

وفي الهند حيث كان المسلمون يحكمون الهند قبل الاحتلال البريطاني أبعدت بريطانيا المسلمين عن مجال الثقافة ومراكز القيادة السياسية ، وقدمت غيرهم وحجبتهم جيلاً كاملاً عن التعليم ، حتى هب قادتهم لمقاومة هذا الاتجاه بإنشاء المعاهد والجامعات ، وفي الجزائر حاولت فرنسا ان تقضي على اللغة العربية قضاءً نهائيا وأن تعتبر الجزائر جزءًا من فرنسا ، وفي مصر عمد الانجليز إلى نشر

اللغة الانجليزية ، وإضعاف اللغة العربية ، كما كانت الخطة الرئيسية للاستعمار الفرنسي والانجليزي الذي سيطر على القارة الأفريقية كلها في هذه الفترة هي حجب اللغة العربية وتجميدها وإيقافها عن النمو والانتشار ونشر لغته ، واعتبارها أساس الثقافة والتعليم ، وكما فرضت بريطانيا في الأجزاء الإسلامية بالهند اللغة الانجليزية ، ثم شجعت اللغة القومية « الأوردو » للقضاء على اللغة العربية .كذلك فعلت هولندا في أندونيسيا حيث فرضت الحروف اللاتينية على اللغة الأندونيسية بعد ان كانت حروفها عربية .



الباب السابع
معالم اساسية في تاريخ الاسلام



(٣٨)

السنة والشيعة

هناك خلافان في تاريخ الاسلام وقعا في المجتمع الإسلامي :

(أولا) الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين حول مفاهيم الإسلام وهو خلاف واضح الجذور ، إذ إنه مهما تستر بصورة أو أخرى أو مذهب أو آخر فقد كان بطبيعته يختلف مع أصول الإسلام : « التوحيد ، النبوة ، فريضة العبادات ، والمعاد والقبلة والقرآن » وذا الخلاف يفرق بين الاسلام وغيره .

(ثانيا) الخلاف بين المسلمين أنفسهم : وقد انصب ذلك على الفرعيات، وهي ماسوى الاصول الثابتة للاسلام وقد أطلق عليه من بعد اسم « المذاهب الفقهية » : التي استقرت في خمس مذاهب : المالكية والحنفية والحنبلية والشافعية والجعفرية ،وهو خلاف مقبول ، لأنه يتصل بالمسائل الفرعية وحدها ، ولا يرقى إلى الأصول الثابتة . وقد قامت في صدر الإسلام نحل ومذاهب سياسية كان أساساً لها مذاهبها الفكرية التي تحدد بها موقفها من القيادة السياسيه تي وليت الحكم في الإسلام بعد الخلفاء الراشدين الأربعة : وتمثلت في الأغلب في الدولة الأموية والدولة العباسية .

والمعروف أن القوى التي تصدت للقيادة السياسية في عصر الراشدين كانت تتمثل في الأمويين ، والهاشميين ـ والهاشميون يمثلون العلويين (من آل سيدنا على بن أبي طالب رضي الله عنه) ـ (٢) والعباسيين (من آل العباس بن

عبد المطلب) . وقد كان العلويون هم القوة الوحيدة في القوات الثلاث التي لم تتصدر للحكم أو التي حرص الأمويون على إبعادها مع الهاشميين جملـة ، ثم حرص العباسيون على إبعادها أيضاً ولم يكن الخلاف قائماً أول الأمر حول مفهوم أحقية أهل البيت في القيادة السياسية بوصفهم أهل النبي صلى الله عليه سلم ، وإنما كان الخلاف قائماً حول تحرير مفهوم الاسـلام في الحكم بوصفـه شورى يتولاها أي مسلم مؤهل لذلك ، ولو كان عبداً حبشياً . وقد كان الامام علي في مقدمة رجال القيادة السياسية التي كونها النبي ، وكانت له بطولاته ومواقفه وخلقه وفقهه ، حتى قيل « قضية وأبا حسن لها » غير أن النظام السياسي الـذي وافـق عملية بناء عالـم الاسـلام ، قد أحـدث عدداً من التحـديات الخطـيرة كان في مقدمتها مقتل الخلفاء الثلاثة : عمر وعثمان وعلي . وفي عهد عثمان وقع الخلاف بين المسلمين ، ونشأت عنه تمزقات بعيدة المدى ، اضطرت المسلمين إلى إقرار نظام وراثي يدور في فلك الاسلام ، ولكنه لا يمثل مفهوم الاسلام في الشورى ، ومضى هذا النظام واستمر . وفي خلال ذلك كان تبلور المسلمين في مجموعتـين كبيرتين : أهل السنة والشيعة ، ولم يكن الخلاف بينهما جذرياً . ولكنه كان في الفروع . كانت الأصول الأساسية للاسلام قائمة شاملة لا خلاف فيها . وإن اتسمت الشيعة بسمـة واضحـة هي ذلك الحب القـوي لآل البيت والارتبـاط الروحي والفكري بالنبي وأهله . ومن هنا كانوا « دعاة العاطفة والحب والولاء » وكانت تلك علامة بارزة في فقههم وفكرهم جميعاً .

وقد تحقق للشيعة الصدارة في مجال القيادة السياسية في دول كثيرة فيما وراء النهر « الساسانية والبويهية والصفـارية » ثم قامـت الدولـة الفـاطمية الباذخـة باسمهم في المغرب ومصر ، ثم قامت في القرن العاشر الهجري الدولة الصفوية في فارس . وما زالت فارس تمثل الدولة الشيعية في عالم الاسلام الحديث .

وقـد كان تاريخ الاسـلام حافـلاً بالخلافـات والمساجـلات الفـكرية ، وبالصراع السياسي بين السنة والشيعة ، وقد حرص الغزو الخارجي الممتد منذ الحروب الصليبية الى اليوم ان يغذي هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الاسلام . وكانت حركة التغريب حريصة على الدس والايقاع بين السنة والشيعة ، وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومـة بينهـم . وقـد تنبـه السنـة والشيعة جميعاً لهذه المؤامرات ، وعملوا على تضييق شقة الخـلاف ، والتقـارب

والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافاً بين المذاهب الأربعة ، ويمكن القول بأنه ليس إلا خلافاً بين المذاهب الخمسة . المذاهب الأربعة ، والمذهب الجعفري .

***

أما مصدر الشبهة التي ما تزال سلاحا في يد التغريب والشعوبية وخصوم العرب والإسلام جميعا ، فهي ما يحمل التاريخ من فرق انتسبت ادعاء إلى الشيعة وهي « فرق الغلاة » .

ومن الحق أن يكون الباحث يقظا في التفرقة بين الشيعة والغلاة ، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه .

فالخطأ الأكبر الذي يحترز منه ، هو القول بأن « التشيع » كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام ، إذ الواقع أن الشيعةكانوا أساساً ملتقين مع أهل السنة في قواعد الإسلام ومقوماته الأساسية . وإن الخلاف لم يقع إلا في المسائل الفرعية التي ليست إلا رحمة ، والتي هي نوع من الاجتهاد ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . وقد أكدت النصوص الصحيحة أن الشيعة بعدت عن التناسخ والحلول والتجسيم ،وأنهم قاوموا أقوال الغلاة : وحتموا ألا يقبلوا حديثا إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وقد دعا الإمام علي بن موسى الرضا صراحة إلى رفض ما يخالف القرآن وقبول مايوافق القرآن والسنة . فكل فرق الغلاة: كالرافضة والباطنية وما اتصل بأفكارهم من إلحاد كالقول بتحريف القرآن وكتمان بعض آياته ، ومن راجت فيهم البهائية ، هؤلاء ليسوا من الشيعة الأصلاء الذين عرفوا بالزيدية والاثني عشرية[1] (الإمامية) وقد دعا جمال الدين الأفغاني ، كما دعا كثيرون إلى جمع كلمة المسلمين والتأليف بين فرقهم التي يجمعها الإيمان بالقرآن ومحمد والتوحيد ، وقالوا إن السياسة كانت السبب الأول لهذا التفرق الذي ألبس بعد ذلك لباس الدين .

والحق أن الشيعي والعلوي والدرزي والإسماعيلي والسني كلهم

---

(١) الشيعة الإمامية أكبر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ، ويسمون الإثني عشرية ، تبلغ الإمامية سبعين مليونا في العراق وإيران والهند وباكستان وروسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان وسوريا والحجاز واليمن والصين والتبت والصومال وجاوة والألبان وتركيا والبحرين والكويت .

منضوون تحت كلمة الإسلام ، والخلاف بينهم في الفروع لا يفرقهم ، لما أتاح الاسلام من حرية المذهب الذي لا يؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين وقد علم الإسلام أتباعه أن يكونوا على يقظة كاملة في مواجهة خصوم الإسلام ، وأن لا تكون خلافاتهم المذهبية سبيلاً إلى الفرقة ، ومن هنا فليس في وسع أحد أن يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة .

والحق أن مذاهب الشيعة (آل اليت) الجعفرية وما تفرع منها : وأعلامها الإمام جعفر الصادق ، وسيدنا زيد وإسماعيل بن جعفر هي عصارة العقل الإسلامي في اجتهاده وتحقيقه ، وهي وحدة متكاملة مع ما قدمه مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل والأوزاعي والظاهري وغيرهم من الأعلام ، وما تزال تمثل حركة فكرنا وفقهنا في مواجهة التطور والحضارة .

يجمع الباحثون المتصدرون للتقريب بين السنة والشيعة على أن الإسلام هو اتباع القرآن ، والأخذ بما صح من كلام النبي وأقواله وتقريراته ، وما عداه ففروع مذهبية . واجتهادات الأئمة ، وكل ما توخوه في اجتهادهم ، إنما قصدوا به أن يصيبوا مقاصد الإسلام ، ومن الخطأ التعصب لإمام دون إمام ، وان المغالاة في العصبية لإمام من الأئمة واجتهاداته هي خروج على روح الإسلام المتسامح .

والرافضة غير السنة والشيعة : والرفض هو ترك ما جاء به الوحي والرجوع إلى أساطير الوثنيات ودسائس اليهود ، ويشير الكثيرون إلى الدور الذي لعبه « عبد الله بن سبأ » زعيم الرافضة الذي دخل الإسلام وهو يحمل في أعماق وراثياته إسرائيليات وأساطير كثيرة ، ظهرت في عقيدته الجديدة ، وقد اندس الرافضة (السبئية) أتباعه بين الشيعة وبين أهل السنة ، وبلغت هذه الفرق الرافضة **٧٣** فرقة وهي غير الشيعة أصلاً : كما أن هناك شبهة لا يلتفت إليها الكثيرون في الفرق بين الإمام « جعفر الصادق » وبين الرافضي « جعفر بن حرب » . فقد اختلط الرأي على بعض الباحثين فلم يفرقوا بين الإمام الجليل والرافضي ، وقد فند البغدادي هذه الشبهات في كتابه « الحرب على جعفر بن حرب » متقصياً خرافاته وأباطيله ، كما تناولها أبو منصور البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) ولاشك كان سيدنا جعفر الصادق مناراً من منارات الإسلام .

والرافضة اسم أطلقه الإمام زيد على الفرقة السبئية التي اندست بين رجاله . ومن هنا جاء الخطأ المتصل في إلصاق الرافضي بالشيعة الموحدين المحبين لآل البيت .

* * *

وجملة القول إن الفروق المذهبية بين الجعفرية والمذاهب الأربعة السنية لا تكاد تذكر ، وهي تتمثل فى مسائل فرعية دعا إليها الاجتهاد في الرأي . ومن جهة أخرى فإن حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة وربما كان الخلاف في الدرجة ، ويقول العلامة الشيعي : « جواد مغنية » إن الشريعة لها أصول مقررة ، وان الخلاف والجدل بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول ، وما يستخرج منها ، وان في كتب الشيعة الامامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة ومفكريها . وكذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة .

ويصور العلامة : جواد مغنية موقف الشيعة من الغلاة فيقول : الغلاة هم المتظاهرون بالاسلام الذين نسبوا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والأئمة من ذريته الألوهية والنبوة ووصفوهم بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار .

ويشير العلامة مغنية إلى أن كتابات المستشرقين كانت دائما من عوامل الوقيعة بين السنة والشيعة ، وآية ذلك كتاب المستشرق رونلدس « عقيدة الشيعة » والهدف منه إيقاع الفتنة بين المسلمين ،فقد دعم هذا الدس بشتى الأساليب ، وفي مقدمة ما أثاره من شبهات ما أسماه : تحريف الشيعة للقرآن ، وقال مغنية : إن الإمامية دافعوا عن القول بتحريف القرآن وأنكروه، كل الخلاف بينهم وبين السنة فيه : أن السنة تقول إنه كلام الله والإمامية تقول إنه محدث وليس بقديم . وقال مغنية : إن الشيعة الإمامية إذا أرادوا أن يستخرجوا حكماً شرعيا لمسألة تعرض لهم ، بحثوا في نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء باذلين الجهد ، فإذا وجدوا نصًّا خاصًّا أو جماعيا وقفوا عنده ، واذا لم يجدوا لجأوا إلى العموميات والقواعد الكلية التي وردت في نصوص الكتاب والسنة .

- ٢ -

لقد كان « النجف الأشرف » على طول تاريخ الاسلام مركزاً هامًّا من مراكز الثقافة الإسلامية ، شارك الأزهر والزيتونة ، والقرويين الحفاظ على الإسلام واللغة العربية ، والتراث الإسلامي ، وللشيعة أعلام عظماء خدموا الإسلام وكانوا من كبار رجاله أمثال : عمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، والأحنف بن قيس ، وسعيد بن المسيب ، والفرزدق والكميت ، وابن الرومي ، وأبي تمام ، والبحتري ، ومهيار الديلمي ، وابن هانىء الأندلسي ، وأبي فراس الحمداني، والطغرائي والشريف الرضي ، وهم اليوم من أعلام الفكر الإسلامي .

والسنة والشيعة والدروز جميعاً أهل كلمة التوحيد ، وليس الخلاف في أساسه الا خلافاً في نظرية الحكم وفي الفرعيات، وهو دليل على عظمة « الشريعة الإسلامية » وقدرتها على الخلود والاستيعاب ، وهو خلاف محصور في بعض مسائل لاصلة لها بأصول الإسلام وقواعده .

وإذا كان الشيعة قد اتسموا باكبار آل البيت . فإن أهل السنة يحبون آل البيت ، ويقدرون فضلهم . وقد اقتربت النظرة حول حب الرسول وآل البيت بين مختلف المذاهب الإسلامية ، بين مفهوم « التوحيد » بصورته الأولى ، وبين « التصوف » إلى الحد الذي قرب الصلة بين السنة والشيعة قربا كبيراً .

ولا نثير الخلافات القديمة وحول فضل الإمام علي ودرجته في الخلافة ، وحول خلاف السيدة فاطمة مع أبي بكر حول ميراث النبي في فدك ، وهي ليست من المسائل الرئيسية التي تتصل بأصل من أصول الإسلام ، وهو خلاف طبيعي في هذه المرحلة من حياة الإسلام . أما الخلاف حول مسألة الرجعة ، أو زواج المتعة ، أو مسألة الإمامة ، فهي اجتهادات في الفرعيات ومثلها خلافات كثيرة بين مذاهب السنة نفسها ، وهي لا تحول دون « وحدة المسلمين » . في الأصول العامة ، والواقع أن أهل السنة والشيعة لابد أن يلتقوا بعيداً عن الأطراف وأن يتعارفوا ، وقد تحقق جانب كبير من هذا حين ضم الأزهر دراسات المذهب الجعفري إلى المذاهب الأربعة ، ويقول الدكتور سليمان دنيا في مواجهة الخلاف بين السنة والشيعة :

« إن مذهب التشيع أشبه بثغر في الدولة الإسلامية ، وهو أشد بقاع المملكة الإسلامية كلها قرباً من العدو ،وهولهذا السبب المنفذ الذي يحاول أعداء الإسلام الدخول منه إلى بلاد الإسلام لغزوها، فواجب حامية هذا الثغر أشد من واجبات غيرهم ممن يوجدون في أماكن نائية عن العدو . فإن لم تكن حامية هذا الثغر يقظة منتبهة اقتحم العدو الثغر ، واقتحم قلب الدولة الإسلامية عن طريقه .

ويقول إن أئمة الشيعة قد أعلنوا براءتهم من الغلاة ، وعن أميرالمؤمنين علي رضي الله عنه قال : « إياكم والغلوفينا ، قولوا : إنا عبيد مربوبون ، وقولوا في فضلنا ما شئتم ، وقال : اللهم إني بريء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى ، اللهم اخذلهم أبداً ولا تنصر منهم أحداً » ، ويروى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم أنه قال : أدنى ما يخرج الرجل من الايمان أن يجلس إلى غال فيستمع إلى حديثه ويصدقه . ويقول : إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الاسلام : الغلاة والقدرية » .

وقال : إن أهل السنة وإن كان من رأيهم عدم القول بعصمة الأئمة ، فإنهم مع هذا يحملون للأئمة حبًّا يجري في دمائهم ، ويتمكن من سويداء قلوبهم . فإن لهؤلاء الأئمة من الصلاح وحسن السيرة ، إلى جانب انتمائهم إلى الدوحة الشريفة الطاهرة ما يجعل أهل السنة يكنون لهم كل حب وإجلال وإكبار .

(٣٩)

« العرب مادة الاسلام »

منذ بزغ الإسلام ارتبط بالأمة العربية أوثق ارتباط .

وقد كان التقاء الإسـلام بالأمـة العـربية التقـاءً بعيد المدى في نمـو الإسـلام وتوسعاته ، وفي بناء الأمة العربية ذاتها ، فالأمة العربية هي التي حملت الإسلام إلى العالم أجمع ، وكانت اللغة العربية ـ لغـة القـرآن ـ هي أداة فكره وثقافتـه وحضارته ، والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تكوين الأمم ، إذ جعلها أمة ذات حضارة وفي نفس الوقت ذات رسالة إنسانية وعالمية .

ومن هنا فإن تصور الإسلام منفصلاً عن العروبة ، والعروبة منفصلة عن الإسلام هو تصور مبتور وناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة في بناء الإسلام ، وفي كيان الأمة العربية ، وفي مجالين كبيرين كاللغـة والتـاريخ لا يمـكن فصـل الإسلام عن العرب . فقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف وفي مراحل اتساع اللغتـين الفـارسية والتـركية ، وظـل تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب في بطولاته ومواقفه وتوسعاته وآثاره البعيدة المدى .

فالفكر الديني الذي كونته اللغة العربية بالارتباط بالإسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا ، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربـي خالص ، أو فكر إسلامي صرف ، وكذلك الحضارة ، ويمكن القول بحق بأن الفكر : فكر عربي إسلامي ، والحضارة حضارة عربية إسلامية .

ومكونات هذا الفكر هي : « اللغة العربية والإسلام » وقادة الفكر كانوا عرباً وغير عرب هم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية عن مضمون الإسلام ومقوماته الأساسية وبيئته ، وكان أبطال التوسع ، وبناة الدول كقادة الفكر، قداستمدوا مجال بطولاتهم ومقوماتهاالتي بهرت الدنيا من مقومات الإسلام . وقد ورث الإسلام ثقافات الأمم والأديان والحضارات السالفة من فارسية ورومانية ويونانية وهندية وفرعونية ، هذه الثقافة التي انصهرت في بوتقته وتشكلت من جديدعلى أساس مقوماته ومفاهيمه. ولقدكان للعرب دور بناء الإسلام وتوسعاته ، هذا التوسع الذي بدأ في نظر الباحثين والمؤرخين عربيا . ولكنه في الحق لم يكن كذلك ، فإن طابع الإسلام وأيديولوجيته ، هما اللذان عمقا إيمان العرب الذين رباهم محمد فحملوا لواء الإسلام وآمنوا بمفهوم الإسلام « حب الموت لأجل الحياة » كانوا-أي العرب هم أصحاب القيادة السياسية خلال مرحلة طويلة ، استمرت متصلة حتى نهاية الدولة الأموية ومشاركة مع العناصر الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية وفي ظل الدولةالأموية في الأندلس ، وكان لهم دورهم في مقاومة الغزو الصليبي والتتري والفرنجي حيث شاركوا مشاركة ضخمة مع السلاجقة والمماليك والبربر ، ثم اختفوا عن مسرح القيادة خلال عصر « الوحدة الإسلامية العثمانية » غير أنهم سرعان ما برزوا في مجال القيادة خلال دور اليقظة العربية الإسلامية ففي الحق كان « العرب مادة الإسلام » طوال تاريخه كله ، وكانوا حملة مفهوم الإسلام البسيط الوسط البعيد عن التعصب الفلسفي والغيبية الصوفية .

ويؤكد كثير من الباحثين بأن « عروبة العرب » ظلت حية خلال تاريخ الإسلام في مختلف جماعات وادي النيل والسودان وفي مختلف الدول في أفريقيا : الحميدية ، وبين حمود ، والأغلبية والفاطمية ، وبني مرين ، وبني علول والدولة السعيدية وبني شبابة ، والدولة الشريفية . وفي الشام : التنوخيون ، والدنادشة، وبنو العظم ، وبنو حمدان ، وبنو مرداس ، وبنو المسيب .

وقد ظلت الجزيرة العربية تقذف موجاتها طوال هذه العصور ، فقد كانت أشبه بخزان هائل يقذف بين كل حقبة وأخرى بموجات من المهاجرين ، وقد كانت كذلك قبل الإسلام ، ثم كانت موجة الفتوح الإسلامية هجرة واسعة

النطاق لقبائل عربية بأكملها استقرت في البلاد المفتوحة ، ثم توالت الهجرات من بعد فلم تتوقف .

غير أن العرب في كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا في الأجناس والأمم ، وقام الإسلام بأضخم عملية بلورة بين المسلمين عرباً وفرساً وفرنجة وتركاً . وهي عملية طبيعية لم يكن للعرب فضل فيها . بل كان الاسلام ـ الذي لم يكن العرب مستعمريه ، أو فاتحيه ، بل ناشريه ودعاته ـ هو الذي دفعهم الى الامتزاج بالمصاهرة والنسب والاندماج في الأجناس والأمم امتزاجاً كان على مستوى الأجناس ، وعلى مستوى العقول .

فقد امتزجت ثقافات هذه الأمم المختلفة التي كانت معهم بالاسلام نفسه ، وانصهرت فيه ، ونحى الاسلام مالم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته ، وبلورها على النحو الذي أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة ، وإن ظلت بعض آثار المذاهب والثقافات القديمة تقاوم ، وتجد من يغذيها من أجل مقاومة الاسلام وتمزيق وحدته ، وكذلك تبلورت التقاليد والعادات والطبائع كلها في إطار الاسلام وتعاليم القرآن ، ولم يقف الزواج والمصاهرة عند المجتمع . بل واقتحم مجال الفكر أيضاً .

١ ـ وسادت اللغة العربية مع الاسلام ، فقد أخذت لغة قريش تسود غيرها من اللهجات العربية ، فهي التي نزل بها القرآن ، ومن ثم أخذت مكان الصدارة ، في الكتابة والأدب والتخاطب ، وظهرت اللغة العربية على كل اللغات الإقليمية ، وأصبحت هي بالدرجة الأولى لغة الثقافة والتعامل ، ثم كان إبرازها للثقافة الإسلامية عاملاً في قيام الامتزاج الثقافي و الاجتماعي ، الذي أزال كثيراً من الفروق العقلية والاجتماعية في مختلف وحدات عالم الإسلام ، وعندما ضعفت اللغة العربية عن أن توحد عالم الإسلام ، وغلبت اللغات الفارسية والبربرية والتركية ، كان الإسلام هو الرابطة الحقيقية ، وعندما ضعفت الوحدة اللغوية زادت « وحدة الفكر » قوة ، واختفت الخلافات الذهبية ، وتقاربت المفاهيم بين السنة والشيعة ، والفقهاء والصوفية . ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام كان الإطار الفكري والعقلي للحضارة والثقافة الإسلامية .

- ٢ -

لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجر الإسلام إلى قيام الدولة العثمانية ، وفي خلال التاريخ عندما تخلى العرب عن الصدارة السياسية ظلوا أصحاب القيادة العسكرية ، فقد وجد الفكر الإسلامي في « عالم العربية » أكبر عوامل نموه وأقوى عوامل الحفاظ على جوهره ، وقد كان الإسلام بمفاهيمه ولغته هو الذي حال دون ذوبانها حتى في أشد فترات الضعف ، وقد انبعثت يقظة عالم الإسلام في العصر الحديث من قلب الأمة العربية ، وظل عالم الإسلام ينظر إليها كمركز قيادة .

وبالرغم من اندماج « الأمة العربية » في الوحدة الإسلامية العثمانية ، فقد ظلت محتفظة بطابعها الإسلامي البعيد عن التعقيد الفلسفي أو الصوفي ، بينما تحول الإسلام في مفهوم الثقافات الأخرى إلى جبرية صوفية ، ونصوص تقليدية ، وبالرغم من توسع اللغة التركية بوصفها لغة الدولة وامتدادها على آفاق الأمة العربية ، فقد ظلت اللغة العربية خلال مرحلة الوحدة العربية الإسلامية (٩٢٣ - ١٣٣٦ هـ) هي السائدة ، بل إن الإسلام الذي دان به الأتراك كان عربي الطابع ، وكانت نصف كلمات لغتهم وأسماء رجالهم ونسائهم عربية ، وبذلك كانت التقاليد التي طبقوها في حياة البيت والمجتمع إسلامية ذات طابع عربي . بل ان اللغتين الفارسية والتركية ، كانتا تكتبان بالحروف العربية ، وقد ألف بالعربية كثيرون في فارس وتركيا ، وظل القرآن والحديث يتلى بأدائه وحروفه العربية ، وكان لقوة حيوية اللغة العربية وامتزاجها بالإسلام أبعد الأثر في الثبات والصمود ، عندما أراد الأتراك إزالتها ، بل استطاعت هي أن تطبعهم بطابعها ، وكان الإسلام هو الإطار الأكبر الذي تعلق العرب فيه بآمالهم القومية ، حين انهارت الخلافة الإسلامية باختفاء السلطة العثمانية .

والمعروف أن مجموعات كبيرة من عناصر الترك : التتر والتركمان والشركس والكرد لم تلبث أن دمجها الإسلام في الأمة العربية ونسيت لغاتها ومقوماتها العنصرية، واتخذت « الثقافة العربية » أساساً لفكرها ، ونبغ منها شعراء وكتّاب . هذا فضلا عن أن عدداً كبيراً من العلماء والمؤلفين في مجال الفلك والرياضة والفلسفة واللغة والتفسير من غير العرب أتقنوا اللغة العربية ، وألّفوا فيها ، كما كتب كثير من أعلام الترك باللغة العربية .

- ٣ -

الاسلام فكرة والعرب جنس

ومن هنا كان الإسلام أعم ، وقد اعتنق الإسلام أجناساً كثيرة غير العرب بوصفه إنساني النزعة ، عالمي التركيب ، وقد كان دور العرب فيه هو دور الطلائع القادرة على توسيع رقعته ، وهو وإن صبغ الفكر الاسلامي بصبغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب في وعاء اللغة العربية . غير أن موجة اللغة وموجة الإسلام لم تلبثا أن انفصلتا ، فتوقفت اللغة العربية عند حدود محددة : هي « الأمة العربية » وغلبت اللغات الأصلية على الفرس والترك والهند ، فلم تستعرب هذه الأمم ،وإن كتب بعضها بالحروف العربية ، ولذلك فقد ظل الرباط الأساسي والأوسع والأشمل هو « الفكر الإسلامي » المستمد من القرآن والسنة . ولقد أتيح للوحدات غير العربية أن تترجم القرآن إلى لغاتها ، وأن تؤذن وتصلي بلغاتها . وأن تقيم ثقافات قومية مرتبطة بلغاتها ، وإن ظل الإسلام جوهرها . غير أن دار الإسلام ظلت داراً واحدة لا تفصلها حدود أو سدود ، وكان أهلها يتنقلون في رحابها دون قيد ، كما تحررت كثير من هذه الوحدات من حكم العرب لها ، وأقامت حكامها كما فعل البربر ، والفرس والترك الذين سيطروا حاكمين على بعض مناطق عربية ، ثم استطاع الأتراك أن يصلوا إلى مركز الخلافة . بل وقد كان دور غير العرب من المسلمين بعيد المدى في مجال الفكر والثقافة : فلسفةً وفقهاً وعلوماً طبيعية .

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية الفعلية ، بدلا من مفهوم المساواة الإسلامي . وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة في مختلف المناطق التي وصل إليها حملة الإسلام ، وإن كان الإسلام لا يلزم أحداً باعتناقه ، فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح في مجال الفكر العربي الإسلامي ، جنبا إلى جنب مع المسلمين .

* * *

ويمكن القول أيضاً في هذا المجال أن « القرآن » هو الذي حفظ العربية ، طوال أربعة عشر قرناً من التمزق إلى لهجات محلية ، فقد مرت بعالم الإسلام فترات ضعف قاسية كادت أن تودي بالفصحى ،وتمزقها« لولا أن وقف القرآن سدًا منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة » وقد جرت محاولات تغريبية وشعوبية متعددة في هذا المجال ، غير أن « القرآن » وقف حائلاً دون تحقيق ذلك ، فقد ظلت المعاهد الإسلامية كالأزهر والزيتونة وغيرهماحافظة للفصحى حتى مرت « أزمة الضعف » واستطاعت اللغة أن تنبعث من جديد في عصر اليقظة الإسلامية العربية قادرة على مواجهة الحضارة .

.وبفضل « القرآن » استطاعت اللغة العربية أنتسيطر في كل الوحدات ، وأن تزيل اللغات الإقليمية حتى أن العرب النصاري اضطروا إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، وصارت صلواتهم في كنائسهم بها . ويرى المستشرق جب : أن اللون العربي الذي التصق بالإسلام أتى من القرآن العربي ، وأن القرآن كان المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها ،وأن اتجاهاتالقومية العربية تؤكد على أن اللغة العربية حجر أساسي للوحدة العربية .

غير أن اللغة العربية قد توقفت عند حد محدود ، بينما استطاع « القرآن » أن يوسع نطاقه في فارس وتركيا والهند وأفريقيا وأرخبيل الملايو . إذ استطاع الإسلام أن يشق طريقه إلى هذه المناطق فيالقرون الأخيرة ، دون أنتنتشر اللغة العربية ، وتولدت في هذه الوحدات لغات مختلفة تفهم الإسلام والقرآن ، كما انتشر الإسلام في آسيا الصغرى . وفي بلاد البلقان دون أن تنتشر اللغة العربية .

وكذلك لعبالاسلامدوراً هامًا في توسيع نطاق « العروبة » فإن انتشار اللغة العربية على يديه قد وسع نطاق « الأمة العربية » وكذلك صار « الإسلام » القوة

الواقية التي أكسبت « اللغة العربية » عامل المناعة ضد عوامل التصدع والتفتت ، وصانت بذلك الأمة العربية من الانشطار (ساطع الحصري) .

ولكن الإسلام ولسانه العربي « القرآن » قد طبع المسلمين جميعاً بطابع عربي وفقا للقاعدة الأساسية التي رسمها محمد صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » بمعنى أن من اتخذ « اللسان العربي » منطقاً له فهو عربي مهما اختلفت الأصول التي انحدر منها ، والدماء التي تجري في عروقه ، وقد غلبت خلال القرن الرابع عشر الهجري « دعوة » نسبت إلى العرب كل المقومات والتراث الحضاري والفكري المشترك بين الاسلام والعروبة ، ودأب كثير من كتاب الغرب على العمل الحثيث للفصل بين الأمة العربية وبين الاسلام كفكر وثقافة وحضارة ، محاولين تصور حضارة عربية وثقافة عربية ، وتاريخ عربي منفصلاً عن الاسلام كأساس أصيل لها .

وبالرغم من دور العرب الضخم في بناء الحضارة الإسلامية ، فإنه من الظلم أن ينكر دور الأجناس غير العربية التي شاركت في التاريخ والحضارة والثقافة والتراث ،والواقع أن كلاًمن كلمتي « عرب وإسلام» قدحلت إحداهما محل الأخرى دون تمييز دقيق ، والواقع أن التاريخ العربي لا ينفصل عن التاريخ الإسلامي ، إلا في فترات دقيقة لا تستطيع وحدها أن تمثل تاريخاً قائماً بذاته .

والحق أنه إذا ذكرت « العرب » في مجال الحضارة والفكر ، ذكر ذلك الأصل الذي قامت عليه الحضارة ، وذلك الفكر وهو « الإسلام » فالعرب أمة والإسلام فكر وحضارة ومجتمع ودعوة إنسانية عالمية ، والعرب هم الأمة التي حملت لواء الاسلام وشقت به الطريق إلى أقصى المشرق والمغرب . ولكن الفكر الذي حمله العرب في الرحلة الطويلة كان « إسلاميا » في جذوره مستمدا من مفاهيم واضحة أصيلة ، هذه المفاهيم هي التي دفعت العرب إلى النهضة والحضارة ، وشاركتهم في ذلك عقليات المسلمين من مختلف الأمم من غير العرب ، ولذلك فإن نسبة الحضارة والفكر إلى العرب وحدهم ليست صحيحة تماماً إلا اذا قصد إلى أن اللغة العربية كانت وعاء هذه الثقافة . بل إنه يمكن القول بأنه اليقظة العربية الحديثة « ظاهرة إسلامية » .

فإن الإسلام هو الذي أيقظ العرب مرة أخرى ، ودعاهم إلى التماس الحرية والمقاومة بسلاحه ، ويرى بعض الباحثين ومنهم (الفريد كانتول سميث) أن

الاسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي ملأ نفوس معتنقيه فخراً وإعجاباً ، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها « اللغة » التي اختارها الله لإظهار دينه ، وهي اللغة التي يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الإسلام ديناً له ، ولسنا نحن مع الذين يرون أن قوة الإسلام تتمثل في عصر « الجماعة الاسلامية » أو أنها تنتهي بسقوط بغداد أو دولة الأمويين في الأندلس ، أو فتح العثمانيين لمصر سنة ١٥١٧ . بل الرأي عندنا أن تاريخ الإسلام متكامل في عروبته وإسلامياته ، وفي قوته وضعفه ، وأن هذا الجزء من تاريخ الإسلام الذي نما بعد الحروب الصليبية . إنما هو امتداد طبيعي لعنصر إسلامي قوي استطاع أن يحمل لواء الإسلام حتى عاد العرب ليحملوه من جديد ، غير أننا نذكر أن الإسلام ظل في موجة العثمانيين أقل عمقاً منه في أيدي العرب ، وفي مرحلة « الغزو الغربي الحديث » كان الاستعمار حريصا على أن يقضي على الموجة العربية الجديدة المتصدرة ، حتى لا تقوى على حمل لواء الإسلام ، أو تحويلها إلى النزعات الاقليمية أو الوطنية أو القومية لصرفها عن المفهوم الأوسع . غير أنها استطاعت أن تنتفع بكل هذه النزعات المستحدثة وصبغها من جديد وفق مفهومها الإسلامي . وقد استطاعت هذه الموجة أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ، ومن بين ضرباته ، وان تحقق نصراً في (١) مجال الحرية الوطنية والوحدة العربية . (٢) مجال انتشار الإسلام (٣) مجال

تصحيح مفاهيمه ، وقد فرض الاستعمار على الاسلام سلاح الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية والشعوبية والسيطرة على التعليم والصحافة ، وخلق طبقة من المثقفين الذين اعتنقوا مبادئه ، واتخذوا أسلوبه في الحياة وفكره وقيمه ـ غير أن أغلب هؤلاء ـ ما عدا صنائعه ، قد أحسوا بأنهم خدعوا ، فعادوا أقوى ما يكونون دفاعاً عن قيم العرب والاسلام .

وقد برزت في خلال القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ م) حركات إيجابية كافحت في سبيل الحرية واليقظة ، واستطاعت أن تواجه عوامل الغزو الفكري والتغريب التي تمثلت في دعوات شعوبية متعددة المظهر ، متحدة الهدف ، تخاصم العروبة والإسلام معاً ، وهي تسعى إلى هدفين :

(١) القضاء على الشعور القومي والاعتزاز بالتاريخ الإسلامي .

(٢) القضاء على الاسلام باعتباره الاطار العقائدي للوحدة العربية في مجال نشاطها وحركتها وحيويتها .

* * * *

والحق أن الإسلام في مختلف دورات التاريخ قد احتضن « الوحدة العربية » بكل قوة ونماها ، واتخذ منها منطلقا له . وقد استطاع الإسلام القيام بهذه المهمة ، ولا يزال ، والأمة العربية أعمق وحدات الإسلام عقيدة ، وأقدرها على فهمه فهما صحيحاً ، والدفاع عنه ، والدعوة إليه ، ولا شك كان لحركة « اليقظة في مفهومها العربي الإسلامي القدرة على مقاومة محاولات الغزو الاستعماري ، والتغريب والشعوبية جميعاً .

(٤٠)

« انتشار الاسلام ذاتيا »

يتسم الإسلام بسمتين واضحتين :

« الأولى » هي توسعات الإسلام وانتشاره عن طريق التحركات العسكرية التي كانت تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مدبري خطط العدوان للقضاء على الإسلام الوليد في شبه الجزيرة . وتتمثل هذه « المرحلة الأولى » في حركة توسع امتدت شرقاً وشمالاً وغرباً فاستطاعت أن تبلغ في عصر الخلفاء حدود الهند وأفريقيا . ثم كانت موجتها الثانية في عصر القيادة السياسية الأموية ، وقد بلغت إلى حدود الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً ، بعد ان اقتحم المسلمون أوربا وأقاموا دولة الأندلس العربية المسلمة ، ثم توالت موجات ذات طابع محلي تتمثل في تحركات محمود بن سبكتكين في الهند وما وراء الهند ، وما جرى من محاولات للتوسع في إيطاليا وقلب أوربا الغربية ، ثم كانت حركة القيادة السياسية العثمانية في قلب أوربا من ناحية البلقان .

« الثانية » توسعات الإسلام ذاتيا وهي الحركة التي اتصلت في تاريخ الإسلام كله ، ولم تتصل بأعمال قادة عسكريين أو سياسيين ، وإنما كانت من عمل التجار والعلماء والصوفية ، وقد كسبت هذه الحركة توسعات تزيد عما حققته أعمال التوسع السياسية الأولى .

غير أن هناك حقيقة أساسية يجب أن لا تعيب عن الباحث عن حركة انتشار الإسلام ، هي : أن الوحدات التي سيطرت عليها القيادة السياسية لا يمكن أن

توصف بأنها أصبحت مسلمة بين عشية وضحاها . فقد كان الإسلام حريصاً على ألا يفرض عقيدته على أحد من سكان الأرض الإسلامية ، وأن يترك لأهل هذه الوحدات الحرية المطلقة في ممارسة أديانهم ، بل وحماية مقدساتهم ، وإتاحة الفرصة الكاملة لهم للأمن الشامل في مجال العقائد والمجتمع ، ومختلف عوامل التعامل . ومن هنا فإن « انتشار الإسلام » في هذه الوحدات إنما تم بالإقناع وبمطلق الحرية .

فقد قامت على أثر سيطرة القيادة السياسية الإسلامية على هذه الوحدات ، جماعات من العلماء والفقهاء للدعوة إلى الإسلام وشرحه ، والرد على ما يعرض له أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى ، وما يطلبون تفسيره ، وما يثيره خصوم الاسلام من شبهات . ومن هنا فان تعمق الاسلام وتقبله واعتناقه لم يتم بمجرد السيطرة السياسية على هذه المنطقة الفسيحة من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، وإنما تم ببطء شديد ، وبناء على اقتناع كامل . وقد بقيت وحدات إسلامية على طابعها السابق للاسلام فترة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون (الشام وفارس) ولم يتم انتصار الاسلام في المغرب إلا في القرن الخامس الهجري على يد المرابطين . ومن هنا وبالاضافة إلى ما حققه التجار والدعاة في المناطق التي لم يفرض الاسلام عليها سلطانه السياسي يمكن القول بأن الاسلام قد انتشر ذاتياً .

* * *

وقد استطاع الاسلام بقوته الدائبة أن يحقق فتوحاً بعيدة المدى كان من أهمها : دور عمر بن عبد العزيز ، وهو دور خطير وبعيد المدى ، وهو يتمثل في أكثر من عمل (١) الكتابة إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته نبراساً لهم ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . (٢) ولى بلاد المغرب أحسن الولاة سيرة : إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، فسار في البربر أحسن سيرة ، وكتب عمر كتاباً لهم يدعوهم إلى الاسلام فقبلوه . (٣) كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم كثير منهم . (٤) خفف اثقال الخراج عن النصارى ، وأوقف الجزية عمن دخل الإسلام .

وكان لدخول الأتراك في الإسلام في العصر العباسي ، وبالأخص في خلافة المعتصم بعد اتخاذه بعض أجنادهم أعواناً له ، أثر كبير في كسب جماعة ضخمة

كان لها أبعد الأثر في تاريخ الإسلام خلال عشرة قرون كاملة . استطاع الإسلام بواسطة دعاته أن يجذب إليه أولئك الفاتحين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما : المسيحية والبوذية .

كما اجتذب الإسلام إلى مجال اعتناقه عدداً من الصليبيين ، وكان هؤلاء قواداً وأمراء . وقد سجل توماس أرنولد أن ستة من أمراء مملكة القدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطرهم أحد . كما أسلم عدد كبير من الأسبانيين بعد القضاء على الدولة الاسلامية في الأندلس .

« افريقيا »

بدأ الاسلام توسعاته في أفريقيا باعتناق البربر أهل المغرب الأصليين للإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد بلغ واحة الكوار في الجنوب ، حيث أكد له سكانها أنه لا يوجد بشر جنوب منطقتهم ، فلما نزحت جماعة من العرب والبربر إلى جهة بحيرة « تشاد » . وفي القرن الثاني الهجري - حيث مفترق جنوب الصحراء - نتج عن هذا الاتصال الأول عن الصحراء بين العرب والمسلمين ، وبين السودانيين اعتناق عدد من ملوكهم الإسلام ، وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كانم ، سنراي ، غانا .

وتوالى اعتناق الملوك الافارقة للإسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الأقصى على أيدي قبائل الطوارق ، ولم يلبث هؤلاء الملوك أن جلبوا عدداً من العلماء والفقهاء ليعلّموا شعوبهم أصول الإسلام . وتوالى تأسيس الرباطات التي أسفرت من بعد عن ظهور (المرابطين) في القرن السادس الهجري بعد أن انتشر الاسلام في قبائل صنهاجة فأسسوا مملكتهم الاسلامية الممتدة من أسبانيا إلى السنغال .

دفعت دولة المرابطين الإسلامية بقوة بين رعايا امبراطورية غانا الأفريقية الوثنية الكبرى التي امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب في السنغال الأعلى ، وفي القرن السابع الهجري (١٣ م) كانت (تمبكتو) مركز الثقافة الاسلامية ، ثم ازدادت أسباب التوسع قوة دفع جديد عندما تأسست دول

(سوكوتو) وأخضعت أغلبية السودان الغربي لها بمساعدة الأخوة الصوفية المراكشية مريدي الطريقة التيجانية . وفي السودان الأوسط[1] على محاذاة بحيرة تشاد ، دخل الإسلام في أوائل القرن الخامس الهجري (١١م) أما السودان الشرقي المتاخم لحدود مصر الجنوبية ، فقد ظل على نصرانيته مدة طويلة بعد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية في القرن الأول بعد الهجرة ، وفي القرن السابع الهجري (١٣ م) اعتنق النصارى والوثنيون من اهل افريقيا دين الإسلام عن اقتناع ، ونتيجة لنزوح قبائل عديدة من المسلمين والعرب من مصر .

وقد دعى البيت الحاكم في السودان الشرقي « الفونج » في القرن ١٢ ـ ١٨ هـ . ثم اتسع نطاق الإسلام في إفريقيا الغربية على أيدي الملوك والتجار ، وبواسطة الحج إلى مكة . واستقدام العلماء وإدخال اللغة العربية والقرآن . ومن أبرز الملوك في هذا المجال : كنكان موسى أعظم ملوك مالي (١٣١٢ ـ ١٣٣٥) وأسيكا محمد (١٤٩٣ ـ ١٥٢٨) . وفي القرن الثالث عشر (١٩ م) نشط الإسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست عدة امبراطوريات إسلامية بإفريقية الغربية من أهمها امبراطورية (عثمان دان فوديو) وإمبراطورية ماسنيا وعلى رأسها الشيخ أحمد ، وامبراطورية الحاج عمر . وقد جاهدوا جميعاً لإدخال أفواج كبيرة من الوثنيين في الإسلام . ثم ظهر « ساموري » في مالي فقاوم توغل الاستعمار الفرنسي ، وحارب الغزو الأجنبي (١٨٩٠ ـ ١٨٩٦ م) .

وفي عهد الناصر بن قلاوون (٧٤١ هـ) أسلم ملك دنقلة ، فانتشر الإسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على أيدي التجار .

ودخل الإسلام الحبشة عام ٧٠٢ هـ ثم توسع في القرن الحادي عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد . ومنذ اعتنق الإسلام نصارى النوبة دخله

---

(١) السودان : شرقي ، أوسط ، غربي .
أ ـ الشرقي : حوض النيل ويغطي جمهورية السودان المستقلة
ب ـ الأوسط : حوض بحيرة تشاد
ج ـ الغربي : حوض نهر السنغال وزمبيا وأواسط نهر النيجر .

السنغاليون والسواحليون في زنجبار ، وقبائل الصحراء ، ثم ازداد انتشاره في السودان حيث أسست ممالك إسلامية قوية .

وفي القرن الحادي عشر الهجري نهض الإسلام نهضة قوية على أيدي الدعاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدعاية المسيحية الكاثوليكية والبروتستانية قد نشطت في أفريقيا أواخر القرن الثاني عشر الهجر (١٨ م) غير أن الإسلام اندفع بقوة . من أبواب الزوايا الصوفية في المغرب وبلاد فاس ومراكش ، واخترق بلاد الأردار بجبهة السنغال . وكانت زوايا أتباع الشيخ عبد القادر الجيلي في تمبكتو وزوايا التيجانية (أحمد محمد التيجاني) (٧٢٨) التي اتسعت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية (محمد بن علي السنوسي) في الجنوب وغدامس متجهة نحو بحيرة تشاد . ومن أهم مراكزها وادي وبورنو . ومن خريجي الأزهر امتد خط آخر إلى كردفان . ثم إلى أوغندة . وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور أثر كبير ، وكان أقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنجبار إلى إقليم البحيرات الكبرى . ثم عبر النهر الكنغو إلى بلاد البانتو ، أو من ساحل إفريقيا الشرقي داخل البلاد إلى مدغشقر .

أرخبيل الملايو

يرجع انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا إلى التجار الذين وصلوا هذه البلاد في القرن الأول للهجرة واستطاعوا أن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان ، كلها في أيديهم في القرن الثاني ، ثم راجت تجارتهم مع الصين رواجاً عظيماً وكانت « كانتون » أكبر مركز لهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجري حين ظهر البرتغاليون ، وتطلعوا إلى هذه الآفاق . وقد أسس المسلمون مستعمرات تجارية في أكثر من موقع في جزء أرخبيل الملايو ، وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطرة الغربي ، ويرجع الأثر الحقيقي في الدعوة للاسلام في هذا القطاع إلى الدعاة المسلمين الذين وفدوا إلى أرخبيل الملايو من جنوب الهند ، والذين حملوا الاسلام اليها ، مما أرث جذوره في جاوة وسومطرة . كما كان لاصهار التجار المسلمين إلى سكان البلاد أثره البعيد ، فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجماعة الاسلامية التي ظلت أعدادها تتزايد مما طبع المنطقة بطابع إسلامي واضح ، ثم امتدت الدعوة إلى الاسلام التي حملها وجاهد في سبيلها كثير منهم إلى سومطرة وسيام وبرنيو .

ثم انتقل تيار الإسلام إلى شبه جزيرة الملايو ، فأصبحت إحدى معاقل الإسلام ، وفي جاوة الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الإمارة الهندوكية ، وامتدوا منها إلى جاوة الغربية في القرن العاشر الهجري ، ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن السابع الهجري استطاع « ضوء الإسلام » أن يكسب جولة جديدة في ربوع الأرخبيل الأندونيسي وشبه جزيرة الملايو وجزائر الفيليبين .

وقد قاوم الاستعمار الهولندي في مطلع القرن العاشر الهجري حركة توسع الإسلام الذاتية ، وبذل جهوداً ضخمة لتحطيم جهود الدعاة المسلمين واستئصالها ، وطمس الصلات التي ربطت بين مسلمي أندونيسيا والعرب ، كما عمل الاستعمار الهولندي على إيقاف هجرة المسلمين إلى أندونيسيا ، وَسَنَّ قوانين صارمة ، وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين إلى أرخبيل الملايو من الهند ، أو جزيرة العرب .

وقد حفظ تاريخ انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أسماء كثير من المجاهدين الأعلام الذين قاموا بدور ضخم في سبيل الدعوة إلى الإسلام ، وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لإيواء المريدين والطلاب ، والقيام بتكاليف معاشهم وتعليمهم عقائد الإسلام والواجبات ، والمبادىء ، ثم بث المتخرجين في مختلف النواحي والقرى لإقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرآن والأحكام .

وقد أعان على انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أمران هامان : الأول : كان أغلب سكان هذه المناطق على الفطرة ، فوجدوا في بساطة الإسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم ـ الثاني : مرونة الدعاة وصدق إيمانهم وصبرهم وقدوتهم الحية .

وقد استطاع الإسلام بمرونته أن يتقبل في مرونة ويسر طابع أفراحهم وأناشيدهم وأغانيهم ، وأضاف إليها مفهومه ، ثم استطاع أن يحول أبطال الأساطير إلى أبطال من قادة الإسلام ، كما حول الصور المجردة إلى معان إنسانية . ويرى بعض الباحثين أن بساطة الإسلام استطاعت أن تسيطر في مواجهة الدعوات المتعددة التي كان ينشرها مغتصبو ديانتي شبوا وشبنوا ، وما بين البوذيين والحيثيين . وبينهم من خلاف وخصومات . وقد أتاح هذا الجو المضطرب الفرصة لنشر الإسلام بسماحته وبساطته التي تتمثل في الايمان المطلق بالله ، والمساواة بين البشر وحرية العقل والرأي في الحياة العملية بما ألغى حواجز اللون أو المنصب أو النسب بين الناس .

وقد كان عمل التجار العرب في مجال الدعوة إلى الإسلام بارعاً ودقيقاً ، فقد نالوا تقدير أهل البلاد بتعلم لغتهم وعادتهم ، « وقد بدأوا أولاً بضم النساء اللاتي تزوجوا منهن الى الإسلام ، كما جعلوا كل من يتصل بهن يعتنق

الإسلام ، ومن ثم أخذوا يندمجون في عامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الغرور أو الكبرياء وأخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين في ذلك ذكاءهم الفائق وحضارتهم العظيمة ، وأظهروا مقدرة فائقة في تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث يتيسر أمره لمن يراد جذبهم إليه .

- ٢ -

صور هاملتون جب حركة انتشار الإسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة ، ففي مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين عامي ١٠ - ١٣٣ هـ (٦٧٢ - ٧٥٠ م) استطاعت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً حتى مراكش وأسبانيا في أقصى المغرب ، وظل الإسلام محصوراً في هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن ، امتد بعدها حتى شمالي غربي أفريقيا وآسيا الصغرى ، وآسيا الوسطى وشمالي الهند . وكان ذلك بين عامي (٤٠٠ - ٥٠٠ هـ) حوالي ١٠٠٠ و ١١٠٠ م وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وفي أرجاء الهند إلى أندونيسيا ، وهكذا أضحت خريطة العالم الإسلامي في مطلع القرن التاسع للهجرة (١٤٠٠ م) من الاتساع كما هي الآن باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة ابيريا وصقلية ، متغلغلة في بعض المناطق على نطاق ضيق لاسيما في أفريقيا .

ونستطيع أن نضيف إلى عرض هاملتون جب القول بأن الإسلام قد وسع رقعته ، وما زال في أرخبيل الملايو وفي وسط أفريقيا وغربها على نحو كان موضع الغرابة من الباحثين والمعلقين الذين يتصورون أنه سيتضاعف قوة في خلال القرن الخامس عشر الهجري .

والحق أن انتشار الإسلام في خلال موجاته المتوالية ، قد كشف مقدرة أشبه برد الفعل إزاء تحديات الغزو الخارجي ، حتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون علمي ، أو ناموس طبيعي . يقول : توماس أرنولد : عندما تضعضعت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ، وعند ما ضربت جموع المغول بغداد (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) وعندما طرد فرديناند ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦ م . في هذين الوقتين كان

الإسلام قد استوت دعائمه ، وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة وكان يشق طريقه إلى تقدم ناجح في جزيرة الملايو .

(٢) يقدر جملة الذين أسلموا في البلاد التي كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتيا أكثر من خمسمائة مليون . وهم من أسلم في الهند والصين وأرخبيل الملايو ووسط أفريقيا .

(٣) شارك في نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين : بربر وفرس وترك وزنوج ، وعلى مختلف مذاهبهم : سنة وشيعة ، ولم تكن المساجلات التي دارت بين المسلمين حائلة دون الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل نشره ، وقد حاول كثير من الباحثين الكشف عن السر في انتشار الإسلام على هذا النحو من القوة ، وخاصة في القرنين الأخيرين : الثالث عشر والرابع عشر في مواجهة حملات التبشير الغربية المزودة بالمال ، وأن تتم هذه القدرة في التوسع على يد التجار والعلماء والصوفية .

وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة ، وأن بساطته وسماحته قد نقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله ، فضلا عن أنه بالمقارنة مع غيره ، ليس فيه أسرار مذهبية أو تعذيب للضمير ، كما أنه من المرونة بحيث يتقبل العادات والآداب الاجتماعية الإيجابية ، ويجيز تعدد الزوجات واقتناء الجواري والعبيد ، وأبلغ أثر يتركه في نفوس معتنقيه هو المساواة أو الإخاء ، وشجب التفرقة العنصرية ، وإعطاء معتنقيه صفة الحرية والكرامة .

وقد اعترف هوبرديشان مؤلف كتاب الديانات في أفريقيا السوداء (وكان حاكما للمستعمرات الفرنسية) بأن انتشار الدعوة الإسلامية - في غالب الظروف - على حد عبارته - لم يقم على القهر والتسلط . بل قام على الإقناع لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين ، لا تحوطهم قوة أو تحميهم دولة ، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى إظهار محاسن الإسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الإسلام - في تقدير المؤلف - أنه دين فطرة سهل التناول ، خال من التعقيد ، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة - بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ، لذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة في هدوء ويسر .

(٤١)

مفهوم البطولة في تاريخ الاسلام

يزخر تاريخ الإسلام بأحداث البطولة ، وهي تمتد عبر مراحله المتصلة دون توقف ، وهي في صورها القريبة لا تنفصل في مفهومها عن صورها الأولى ، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسي واضح ، هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة الإسلامية إلى الأمام نحو الحرية والقوة والمجد ، وتتسم البطولة الإسلامية بطابع عملي إيجابي ، وحيث يكرم البطل ، إنما يكرم عمله أساسا ، وليس شخصه أو ذاته ، تقديرا للخطوة التي حققها ، والدور الذي قام به . ومن هنا كان « البطل » دائما خادما لمجتمعه وفكرته وأمته ، يؤمن حق الإيمان بأن عمله مقدور في ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال . ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادي أو المغنم أو الشهرة . وقد عرف تاريخ الإسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر عظيم من الاهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم أو يبوحوا بأسمائهم . وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة . ومن هؤلاء « صاحب النقب » هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق . بعد أن حاصرها المسلمون طويلا وحاولوا مرات متعددة أن يثلموا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل ، فقد كان لا ينطلق أحدهم نحو الهدف حتى تنتاشه السهام والنبال ، فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور ، غير هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ اسمه ، ولم يكشف هو عن شخصيته ، وقد اندفع فجأة - بعد أيام طويلة ظل القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور - اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان دون أن يتوقف

أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقبا ، ثم اخترقه إلى داخل السور وكبّر ، فكبّر المسلمون وعبروا إليه ، فلما انتهت الموقعة ، ظن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن « صاحب النقب » سوف يتقدم إليه ولكن دون جدوى ، هنالك نادى في الجيش أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد ، ووعد ثم هدد ، وبينما هو جالس في خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل ، فقال : أيها القائد : هل تريد أن تعرف صاحب النقب . قال : نعم ، قال : أنا أدلك عليه ، إذا أعطيتني العهد أن لا تسألني عن اسمي ، فقال القائد : محمد بن مسلمة : لك عليّ عهد الله . أن لا أسألك عن اسمك قال : أنا هو : وانطلق خارجاً من خيمة القائد .

* * *

ومعنى هذا أن مفهوم البطولة في الإسلام لم يكن الإعلان والشهرة ، والتطلع إلى الحظ العاجل ، والأجر السريع . ولكنه كان إيمانا صادقا من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذي يجزي على العمل .

ويزخر تاريخ الإسلام ببطولات كثيرة مجهولة ، قام أصحابها بالعمل ، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماساً لرضا الله وحده ، وانصرافا عن مطمع الظهور والإعلان والشهرة ، وكان هذا هو مفهوم « الزهادة » التي تتمثل في إخفاء العمل وتحريره لوجه الله ، وإخلاصه للحق وحده .

ويجمع الإسلام في معنى البطولة قطاعات عدة : بطولة المفكر والمصلح - وبطولة القائد المحارب - وبطولة بناة الدول ومؤسسي الحضارة ، والبطل في الإسلام خادم لقضية وهدف ، ولا يقل عمل المصلح الذي يصحح المفاهيم عن المحارب الذي يرد العدو ، ويتساوى مداد العلماء بدم الشهداء . وفي مجال الحرب تتمثل البطولة ليس في إعمال القتل وحرق المدن . بل في البراعة في كسب المعارك بأقل تضحيات ممكنة .

والبطولة أساساً : بطولة بناء ونمو وامتداد ، تتمثل في مجال العقل مع إضافة الجديد وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة ، والمرونة في تحقيق التجديد والاجتهاد ، وتتكشف في قدرة العاملين في مجال الحضارة والبناء والتعمير ، وفي مجال المربين وبناة الأجيال ، وفي العاملين على إضافة كشوف

جديدة . وتتركز البطولة الإسلامية في العمل نفسه ، لافي « الفرد » من حيث هو من أسرة أو مدينة ، أو بلد معين .

فليست بطولة عمر بن الخطاب . أو خالد بن الوليد . أو صلاح الدين مستمدة من ميراثه الفردي أو العائلي . بل مستمدة من مفهومه وعمله . وكان مفهوم البطولة دائماً هو : دفع الجماعة إلى الأمام ، وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من إسار الغزو ، وإتاحة الفرصة أمامها للحركة والتقدم . ولقد كان تاريخ الإسلام قائماً دوماً على القدزة المتجددة في أن يبتعث البطل الذي يقود المعركة ، ويواجه الأزمة ، وكلما تجمعت التحديات في وجه المسلمين ، برز القائد الذي يحمل اللواء ، ويقود الجماعة في معركة مقاومة ، وكانت الأحداث والأزمات دائماً قادرة على أن تدفع الأمة إلى الوحدة ، والتجمع والتكتل ، والتضحية حتى يتحقق النصر ، ولقد عرف تاريخ الإسلام عدداً من النكسات ، ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر ، والهزيمة الساحقة للعدو . فقد كانت الجماعة دائماً قادرة على مواجهة الخطر مهما بلغ من الشراسة والعنف بالتماسك والتجمع والتضحية .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة جعلها دائماً في مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم ، وكل الأبطال الذين عرضهم (القرآن) أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ، ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ، ولا يخافون ، بل يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس . فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة « التقدم والبناء » ومن هنا عجزت دائماً قوى العدوان ، عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم ، وكانت المدومة عندهم إيماناً في أعماق النفس ، وصلاحاً في اليد . وكانوا يعملون دائماً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة . لقد كان البطل دوما في مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث في وقت الأزمة ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ، ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل على وجه موجة من موجات التقدم .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو « النموذج الإسلامي الأعلى للبطل » وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله موضع القدوة والتمثل طوال فترات التاريخ الإسلامي ، ومراحله . وما تزال حتى اليوم موضع القدوة لكل بطل

وقائد . فهو الذي إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت على فرس عندما خرجوا يلتمسون الخبر . وهو الذي وقف في « حنين » كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادي الناس إلي إلي . . » وهو الذي كان يفرق دائما بين موقفه في الغار ولا قوة معه ، ويلتمس نصر الله ، وموقفه في بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة ، فهو وجل من أن يكله الله إلى القوة ، فهو يلتمس نصر الله مجرداً ، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث ، والقائد الذي لم يهزم قط ، وقد علم خلال السنوات الثلاث عشرة في مكة جيلاً من القادة والمغاوير ، ورباهم على البطولة والتضحية والإيمان ، فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل ذلك الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية .

ومن ثم اتصلت في تاريخ الإسلام روح البطولة والتضحية والموت من أجل الحياة ، وكانت مقاومة الظلم هي أبرز صفحات الكفاح في مواجهة كل باغ وظالم ومعتد ، على أرض الإسلام . ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ، ولعل السر في تقدير الفرنجة لصلاح الدين قربه من مفهوم النبي وأسلوبه ، بل لعل هذا كان هو مصدر النصر الذي كسبه صلاح الدين .

وقد تمثلت البطولة العربية الإسلامية في الشجاعة والمروءة والأريحية والكرامة والاباء مع قوة الإرادة ورجاحة الرأي في ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء . وقد جمع المسلمون بين بطولة الفكر وبطولة الحرب . فقد كان العلماء كلهم قادة معارك يحملون السلاح في مواقف الجهاد : ابن تيمية ، والعز ابن عبد السلام ، حتى المتصوفة تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ، ويقاتلون في معارك مقاومة المغول والصليبيين ، ويحرضون المجاهدين ويملأون قلوبهم شجاعة واندفاعاً . ومن قبلهم الحسن البصري شارك في مواقع الغزو ، كما شارك القاضي أسد بن الفرات .

وبطولة الإسلام تقوم أساساً على إنكار الذات ، ووفق قيم الأخلاق والأريحية : « لا تجهز على جريح ، ولا تقتل صبيا أو عجوزاً أو امرأة أو تتعرض لعابد في صومعته » .

ولقد كانت بطولة العلماء في الدعوة إلى الاستمساك بالقيم وإذاعتها في الأمة ، خاصة في فترات المحن ، على أنها أعظم أسلحة النصر ، فإذا استطاع المغول أو الصليبيون أن يهدموا بيتاً ، أو يملكوا شبراً . فإنهم لا يستطيعون أن يملكوا النفوس الحرة أو أن يهزموا القوى المذخورة في أعماقها . ومن هنا كانت بطولة الجماهير تدفع في طريقها كل ظلم ، وتحطم كل عدوان ، وكانت قادرة على رد العدو وسحق الغزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائماً في أن يبثوا في نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذي يتحين الفرصة ، ويترقب لحظة الغفلة ، وبطولة بناة الدول . إنما تتمثل في بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل . ليس عدوانا ، ولكن اتقاء للعدوان . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن ذلك قول الرسول : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر » وقول عمر : « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » .

ولقد كانت المعركة مع العدو ، هي : معركة المسلمين جميعا ، يشترك فيها الرجل والمرأة ، والشاب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها ، والخادم بغير إذن سيده .

* * *

ومن خلال القيم التي ترسمها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائما القوة على العمل . ومن هنا كانت محاولة الغزاة والخصوم تدمير هذه المقومات أو صرف الناس عنها .

ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفتوة من المجد الفردي والقبلي إلى مجد الأمة ، والدفاع عن مبدأ ورسالة . ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططا واضحا قوامه : « الموت من أجل الحياة » فنرى عمر بن الخطاب يرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يستقدمه ، وقد خشي عليه وباء الطاعون ، فنرى أبا عبيدة يرفض ويقول : « دعني يا أمير المؤمنين بين جندي » ويخشى عمر ما عرفه الناس عن بطولة خالد والمثنى الخارقتين فيعزلهما في أوج نصرهما عن مكان القيادة في الجيش ويقول : خشيت أن يوكل الناس إليهما ، وأردت أن يعلموا أن الله هو

الصانع ، فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أوعز إليه بالمشادة ، فإذا خالد يقول : أما وعمر حي فلا . . إننا نسمع ونطيع لقادتنا ، ويذهب عقبة بن نافع فاتحا حتى يصل المحيط الاطلنطي على شواطىء المغرب فيغرس حافر فرسه فيه ويقول : « والله لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لذهبت فاتحاً في سبيلك » ويرى أبو محجن الثقفي ميمنة جيش المسلمين في معركة « القادسية » تنكسر ، وهو معتقل في محبسه فيطلب إلى زوج سعد بن أبي وقاص أن تطلقه ، ويعاهدها على ان يعود إن لم يستشهد ، وينظر سعد محارباً يقاتل فيزلزل كالصواعق ،ويدهش العدو ، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبو محجن الذي اعتقله لأنه شرب خمراً ، فيرسل في طلبه ويقول : والله لن أضربك الحد أبداً ، مهما شربت الخمر ، فيقول أبو محجن : أنا والله لن أشربها أبداً . فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب إني أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا : « خاف الله » ولقد حفل تاريخنا بهذه الصور : بطولة في خلق ، وإنكار للذات مع طلب للموت ، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الفكر ، على نحو صورة الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس « رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم . ما يعرف كبيرهم من صغيرهم . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » .

- ٢ -

بطولة الحرب

في تاريخ الإسلام تنكشف البطولة في ثلاثة أبعاد :

(١) بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة .

(٢) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم .

(٣) بطولة بناة الدول في مجال الحضارة .

وهي بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجري في هذه الأبعاد الثلاثة . والواقع أن الإسلام قد رسم « أيديولوجية جديدة » لها طابعها الخاص ، تتسم بالإيمان بالله ، وقوامها الجهاد في سبيل كلمته ، وإقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة . ومن ثم فإنه من خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء .

ومن هنا برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه ، والدفاع عنه ، وتصحيح مفاهيمه ، ورد عادية خصومه عن قيمه وعن أرضه . ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » الذي لا يتوقف عند الحرب وحدها ، والذي يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله ، مادام هدف الحياة الإنسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته .

هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها نوره ، وهي أمة مهيأة بالفطرة لتحمل رسالة عظمى كهذه الرسالة ، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إعداداً نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة . ومن خلال هذه الجماعات تبرز بطولات الأفراد التي تخطو بالعمل خطواته المتوالية ، فإن الأمة بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثيتها ، وهي تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس ، والتي بعدت عن معابر الغزاة ، وحركات الغزو ، ومعارك القتال ، وتيارات الحضارة والفكر والمذاهب والأديان ، إنما كانت معدة بذلك إعداداً خاصا لتلقي رسالة ضخمة إنسانية عالمية ، تحمل لواءها بكل هذه العوامل المكونة ، النفسية لجماعتها وأفرادها . وقد التقى مفهوم الإسلام بطبائع العرب ، فتحقق بذلك تحول خطير في قيم العرب وفق مقاصد الإسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير في دقة ويسر ، واستطاعت أعوام لا تزيد عن نيف وعشرين عاماً هي حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثه إلى وفاته أن تحقق هذا التحول .

فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم ، والمقاتلة والصبر والصمود والبذل ، وتلك كلها صفات يرتضيها الإسلام . غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة في سبيل الغاية الفردية ، والمجد الشخصي والفخر ، وفي سبيل الاستطالة والاستعلاء والظلم . فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنساني رفيع ، وجعلها أداة في سبيل تحقيق هدف ووسيلة من أجل غاية عليا ، قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية ، وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها ، وبالتالي عدل اتجاه النفس الإنسانية العربية ، وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حدّ لها في سبيل إذاعة كلمة الله في الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها ، مادامت قوة عدوانية أو أداة تسلط أو ظلم وفق مفهوم القرآن . « أذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » .

ومن هنا ترى النماذج الخطيرة التي كانت تعد من جبابرة الجاهلية تصبح أبطالاً يهز اسمها التاريخ ، ويصل أثرها إلى أبعد مدى في أعمال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد في مجال بطولة الحرب ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان في بطولة بناء الدول . وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود في مجال الفكر .

وهكذا رسم الإسلام مثلا أعلى ، استبطن معالم القوة والبطولة في الشخصية العربية وحولها إلى هدف أعلى ، فبرزت تلك النماذج من البطولة من خلال سنوات التدريب والإعداد . في مدرسة « الأرقم بن أبي الأرقم » التي عاش فيها المعلم الأكبر « محمد » يعد هذه النماذج ، ويعد من خلالها أمة كاملة لا تلبث بعد قليل أن تنساح في الأرض ، فتبلغ في سنوات قليلة لا تزيد عن عمر الدعوة في عهد النبي إلى حدود فارس ، وإلى حدود أفريقيا مكتسحة الامبراطورية الفارسية ، وما تسيطر عليه الدولة الرومانية من أرض الشام وأفريقية .

وهذا هو سرّ ذلك النصر في معارك التوسع ، وسرّ تلقي الناسْ في مختلف هذه الأقطار للمسلمين ، فاتحين لهم صدورهم ، بوصفهم مخلصين من الظلم ، داعين إلى العدل والحق والحرية لا يفرضون دينهم ، ولكنهم يدعون إليه بالإقناع والحجة .

ومن هنا نرى ذلك التحول الغريب في المفاهيم ، رجل يقدّم ماله كله ، ورجل يقدّم نصف ماله ، وابن يحارب أباه ، ورجل يترك بنيه وأهله وماله مهاجراً ، ورجل يقسم ماله ، وما يملك بينه وبين مهاجر إليه ، ونرى أيضا اختلاف الموازين المادية ، فحيث تكون القوة العددية هي مصدر الانتصار ، تتغير هذه « القيمة » ويصبح النصر في الأغلب للقوة العددية الأقل ، وفي مختلف معارك المسلمين والعرب خلال مائة عام كان النصر للقوة الأقل أمام القوات الضخمة التي يتضاعف عددها مرة ومرتين وعشر مرات .

ويرجع السر هنا ، ليس إلى عدد الجيوش ، وضخامة القوى الحربية ، بقدر ما يرجع إلى العقيدة التي يحملها هذا الطرف أو ذاك ، كانت قوات المسلمين دوماً هي الأقل ـ عدداً وعدّة ـ ولكنها كانت تحمل مفهوماً « معنويا » ضخما بعيد المدى في كسب المعارك . وذلك هو مفهوم « البطولة » على المعنى الذي أعده بها الاسلام ، والقرآن ومحمد .

فالمسلمون يقاتلون في سبيل غاية عليا هي تحقيق كلمة الله ، ونشر الإسلام ، والدفاع عنه . وهم لا يطمعون في نفحة مادية بالدرجة الأولى ، وهم في أعمق أعماقهم قد خرجوا على مفهوم واضح في نفوسهم ، هو النصر أو

الشهادة ، وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أكبر نصراً ، فهو قد قدم روحه في سبيل القتل ، لأنه وطد نفسه على أن يموت ، فلا بد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولاً . ومن هنا فإنه ينتصر ولا يموت تحقيقاً لقانون صادق وهو « اطلب الموت توهب لك الحياة » وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين كثير . بل قتل الكثيرون ، ولكنهم ماتوا شهداء ، مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل إيمان امنوا به ، وعقيدة ملأت نفوسهم .

وقد عاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلا ، ولا زال حيًّا نابضاً بالحياة ، فهم يتمثلون في كل خطوة . ذلك المعلم الأول والقائد الأول « محمد رسول الله » ما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة في كتب السنة، في مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي ، فقد كان صلى الله عليه وسلم هو التطبيق العملي لفكرة الإسلام ومقاصده وأهدافه ، وكان تجسيداً كاملاً لتعاليم الإسلام الحق ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن . وقد وصفه الحق بقوله « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

هذا النموذج الرائع قد كوّن جيلاً من القادرين على احتمال أقسى صنوف العذاب والجهاد والحرب ، بصبر وجلد . منهم بلال الذي كان يخرج كل يوم إلى الهاجرة يتعذب ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، ومنهم كثيرون وجههم الرسول في السرايا والغزوات ، ووصفهم بأنهم صبر على الجوع والعطش ، ومنهم من يقاتل بسيف ورمح ، ومنهم من كان يصرع عدوه بضربة واحدة ، تمثلت البطولة في هذه المرحلة في مواجهة « الردة » التي أصبحت الجزيرة العربية عليها بعد اختيار النبي الرفيق الأعلى ، وفيما عدا ثقيف وقريش ارتدت سائر العرب .

وكان موقف الصديق رائعاً . فقد أصر على المقاومة ورفض الاستسلام ، وأنفذ أحد عشر جيشا في يوم واحد ، فاستطاع أن يستأصل الردة في معارك متعددة أكبرها « معركة اليمامة » وسرعان ما ابرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الإسلام بطولات في مقدمتها بطولة البراء بن مالك . فقد زحف المسلمون حتى الجأوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها فيما بعد « حديقة الموت » وفيها مسيلمة مدعي النبوة . فقال البراء : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة ، فقيل له : لا تفعل . قال والله لتطرحني عليهم فيها ، فاحتمل حتى أشرف على

الحديقة من الجدار ، فاقتحم مقاتليهم عند باب الحديقة حتى فتحها المسلمون .
وغير الإسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرها لدى الرجل ، فقد جاهدت المرأة في الحرب وقاتلت ، وقدمت حليها وشعرها في معركة اليرموك ، قاتلت النساء في جولة ، فخرجت جويرة بنت أبي سفيان ومعها زوجها فقاتلا قتالاً شديداً .

وبدا أثر التحول في فكر المرأة ومفاهيمها ، متمثلا في النساء اللائي قدمن الأبناء ، ثم قدمن الأبناء والأزواج ، راضيات مستقبلات شهادتهم بالرضى ، إيمانا بالعقيدة والهدف والغاية غير جزعات للمصير من بعد ، قالت امرأة من النخع لبنيها الأربع الذين شهدوا القادسية : « والله أنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره » .

ويتمثل هذا التحول في موقف الخنساء من مقتل أخيها قبل الإسلام ، ومقتل أبنائها بعد الإسلام ، وكيف استقبلت هذا وذاك . ويبدو هذا التحول في مواجهة المسلمين للفيلة في حرب الفرس . وللبحر في فتح المدائن وكيف استطاعوا التغلب على كل عقبة ، يدفعهم إيمان جارف ،وحب للموت ،ومنهم من غزا خمسين غزوة شاتية وصائفة كما فعل عبد الله بن قيس الحارثي .

وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها ، مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه ، وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت ثمة في العام **١١٤ هـ** بصورة عامة ، فإنها ظلت حية تتمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية ، والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية، وفي حدود العالم الإسلامي من الشرق . فقد امتدت معارك المقاومة منجمة على مراحل وفترات ، ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير هي الإدالة من العالم الإسلامي ، أو الحيلولة بينه وبين التوسع ، ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هي : الحروب الصليبية في المشرق ، وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب ، والغزو المغولي التتري ، وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الإسلام في المقاومة بصمودها وسماحتها في الوقت نفسه ، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي مع صور خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص . وتلمس الآخرون أخلاق الإسلام ومفاهيمه ، وحاولوا أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للذمار ومقاومة

للعدو ، وعدلاً وسماحة ، وقد كان سر نجاح خطة نور الدين وخلفه صلاح الدين الأيوبي هو إعادة بناء « مدرسة تربية الضمير والخلق » كقوة روحية ذاتية دافعة إلى النصر ، وكانت بطولة الزهاد والصوفية ، المرابطين في الثغور من أبرز وجوه المقاومة في هذه المرحلة .

وكان مفهوم الإسلام هو السلاح الأول في معارك رد عدوان التتار والصليبيين معاً . وكان لجولات الظاهر بيبرس ، ويوسف بن تاشفين ، ومحمد ابن تومرت ، والمنصور بن أبي عامر في المشرق والمغرب اثرها في رسم صورة البطولة الحربية ، في صورة المقاومة في هذه المرحلة . غير أن البطولة في مجال المقاومة تختلف عنها في مجال التوسع ، فلا شك كان لتخلف المسلمين عن مفهوم الإسلام في خلال القرنين السادس والسابع الهجري اثره في الشرق والشمال والغرب جميعا ، ولو التمس المسلمون مفاهيم الإسلام وقيمه في حياتهم لما استطاعت قوة عادية أن تغزوهم ، تلك هي مفاهيم « الوحدة ، والقوة ، والإيمان » .

وفي مجال بناء الدول والحضارة ، نرى عشرات من نماذج عالية في الهمة والقوة والحيوية من القادة والأمراء والحكام الذين صنعوا حياة مليئة بالعمل والبناء والتشييد على نحو رائع وعجيب ، وهو ما يدحض كل ما وجه إلى الاسلام من أنه يحض على الرهبانية أو الزهادة ، أو إنكار الدنيا وكراهيتها ، ويؤكد مفهوم الاسلام في أنه روح ومادة ، وقلب وعقل ، ودين ودنيا ، وبناء وعبادة .

فهؤلاء الأبطال في مجال الدول : معاوية والرشيد والناصر والمنصور ونظام الملك . هؤلاء يجمعون بين سمت العلماء وسمت الحكام ، فهم بارعون في الثقافة لا يقلون فيها عن العلماء المتخصصين . ثم هم بناة يشيدون الحضارة في مجالات البناء المختلفة ، المساجد للعبادة ، والجامعات للعلم ، والقصور للسكنى ، والأبراج والقلاع للحرب ، والمراصد للفلك ، ولم يقف الأمر عند هذا . بل بنى هؤلاء الأبطال مُدُناً كاملة ، بنى يوسف بن تاشفين (الدار البيضاء) والكامل بن أيوب (المنصورة) وعبد الله المهدي (المهدية) وجوهر القائد (القاهرة) وأحمد بن طولون (القطائع) وإبراهيم بن الأغلب (العباسة) والمعتصم (سر من رأى) والسمح بن مالك الخولاني (قرطبة) والمنصور (بغداد) وعبد الرحمن الناصر (الزهراء) والمنصور بن أبي عامر (الزاهرة) وبنى يوسف بن تاشفين (منارة أشبيلية) والمهدي (الرصافة) والحجاج (واسط) وسليمان بن عبد الملك (الرملة) وعقبة بن نافع (القيروان) وسعد بن أبي وقاص (الكوفة) وسيف الدولة (قلعة حلب) .

تكريم العلماء

وقد أضاء هؤلاء الأبطال ملكهم بالجامعات والمعاهد والمنشآت العظيمة ، وجعلوا بلاطهم محط انظار الشعراء والأدباء والعلماء، وكان تكريم العلماء مناط إيمانهم ، فالرشيد يصب الماء على يد أبي معاوية الضرير ويقول له : هل عرفت من صب الماء على يديك فيقول لا : يقول الرشيد : إنما فعلته إكراما للعلم ، وقد أقاموا المجالس ليقدموا إليها العلماء ويناقشوهم ويساجلوهم في مختلف فنون الفكر والثقافه وكانت مجالس المأمون مشهورة مذكورة ، حافلة بكل مفكر ونابغة ، وليس الشعراء وحدهم الذين كانوا يجالسون فيها بناة الدول ، وكذلك مجالس سيف الدونة التي كانت تجمع في بلاطه بين الفارابي الفيلسوف وأبي فراس الحمداني ، وابن نباتة الفاروقي والمتنبي والسلافي ، وابن خالويه النحوي ، وكان محمود الغزنوي يستضيف العتبي المؤرخ والبيروني العالم ، والفردوسي صاحب الشاهنامة . أما ألب أرسلان فقد أظهر تقديراً عظيما لنواحي الثقافة والفن ، وقد رتب معاشا كبيراً لعمر الخيام العالم الفلكي الذي ترك في مجاله العلمي آثاره الخالدة ، وإن نسب إليه الشعر وحده ، ولم يذكره أحد في مجال العلم الذي كان عمله الأكبر . أما ملك شاه فقد عقد مؤتمراً من الفلكيين في مرصده الفلكي وطلب إليهم أن يفتحوا التقويم . وكان نظام الملك وزير ملك شاه من المفكرين والباحثين وكانت أيامه خلال ثلاثين عاماً أيام أهل العلم والبحث . وقد أنشأ المدارس والجامعات . وكان إلى ذلك باحثا ومؤلفا ، وله كتاب في سياسة الدولة .

وجهد (بناة الدول) في إنشاء الجامعات والمساجد والقصور حتى بلغوا في ذلك الغاية ، بنى الناصر مدينة الزهراء في أربعين عاماً يتوسطها قصر الزهراء الذي يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام ، ويزينه أربعة آلاف عمود من المرمر ، ويضم بين جدرانه أربعمائة غرفة ومقصورة ، وقد جند لها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وأفريقيا أعمدة الرخام الملون ، وقد كانت شوارع قرطبة مضاءة بالقناديل في حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمومي إلى ما بعد سبعمائة سنة . وقد كان كل إنسان في قرطبة قادراً على أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع ،

وبين صفين لا ينقطعان من المباني . وكان في قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة .

وإذا ذكرت المساجد ، ذكر مسجد قرطبة وجامع الزيتونة وجامع القيروان والجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك واستمر بناؤه عشر سنوات ، وبلغت نفقاته خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف دينار وعمل في بنائه ١٢ ألف عامل . قال الوليد : إذا كان أهل دمشق يفخرون بأربع : بمائهم وهوائهم وفاكهتهم وحماماتهم فقد أحببت أن أزيدهم خامسة هي هذا المسجد . وقد رصع محرابه بالجواهر وصور فوقه بالفسيفساء .

ويعد مسجد قرطبة أروع مثل للعمارة العربية ، فله تسعة عشر دوراً وتسعة عشر باباً يتسع بيت الصلاة والبهو منه لما يقرب من أربعين ألفا ، ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد وله مئذنة ضخمة . وبنى المنصور بغداد وأمضى أعوامه يراقب البناء بنفسه ، وكان في بغداد ستون ألف حمام ، وحيال كل حمام خمسة مساجد ، وكان في دجلة ثلاثون ألف زورق .

(الجامعات والمدارس) أما في مجال الجامعات والمدارس فقد بنى نظام الملك المدرسة النظامية التي تَخَرَّجَ منها : أبو إسحاق الشيرازي وأبو حامد الغزالي ، وبنى المستنصر ، المدرسة المستنصرية التي بلغ ما أوقف عليها من العقارات اكثر من سبعين الف مثقال سنوياً ، وأسس المأمون مدرسة بغداد وسماها بيت الحكمة ، وبنى « المعز لدين الله » الأزهر ودار الحكمة في القاهرة ، وبنى عبد الرحمن الثالث في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية . وبنى نور الدين وصلاح الدين في دمشق والقاهرة عشرات المدارس والمكتبات . وكانت جامعة قرطبة مدرسة الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك . وفي مجال العلم بني أول إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع في جنديسابور ودمشق وبغداد ، وجهزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والأسطرلاب ، والساعة الشمسية . وفي بغداد كانت مكاتب المترجمين والنساخ ومجالس أبي حنيفة ودكاكين الوراقين . وكان للحكم الثاني مكتبة في قرطبة فيها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والأستانة . وبها ٨٠ مدرسة يؤمها الطلاب من جميع أنحاء العالم ،

درس بها البابا سلفستر الثاني ، وكان الحكم بطلا محارباً ، وحاكماً قادراً . وكان إلى ذلك عالماً بالأدب والتاريخ ضليعاً في معرفة الأنساب محباً للعلماء يستقدمهم من البلدان النائية فيدارسهم العلم . أما المأمون فقد أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو فاختار مهرة الترجمة لنقلها إلى العربية ، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة والأنساب والشعر . وكان فصيحاً واسع العلم .

ومن قبل ذلك عبد عبد الملك بن مروان الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، وضبط الحروف بالنقط والحركات . وهو أول من صك الدنانير في الإسلام ، وكان يحادث العلماء والشعراء . وقد بلغ في ذلك أنه ما ذكر أحد أمامه حديثاً ولا شعْراً إلا زاده فيه

أما عمر بن عبد العزيز فقد نشر الإسلام بالدعوة وبالقدوة الصالحة وحل المشاكل ودفع الجزية . وناقش الخوارج وأقنعهم بالحسنى ، وهكذا يبدو كل واحد من بناة الدول وهو عالم مثقف ، يناقش العلماء ، يجمع إلى بطولته في ميدان القتال ، حصافته في مجال الحكم إلى تفوقه في مجال تكريم العلماء وبناء المدارس والجامعات والمساجد والمعاهد والمراصد إلى صاحب مجلس علم ، إلى ناشر للإسلام بالاقتناع إلى مؤمن للتجارة والطرق . فاتحاً الطريق للرحالة العرب يجولون بين أطراف العالم الاسلامي دون جواز سفر ، مكرما أصحاب الأديان الأخرى ، دافعاً لهم إلى كبريات المناصب ، مستقبلا لشعراء الدول الاجنبية ، على نحو غاية في الهيبة والعظمة ، ويذكر في هذا المجال العرض الذي اقامه الخليفة المقتدر لاستقبال رسائل الامبراطور قسطنطين فقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وسبعة آلاف رجل وسبعمائة حاجب ونحو مائة أسد .

وقد بلغت الثروة غاية الغايات . فكان الرشيد يقول للسحابة المارة « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » . وكانت موارد عبد الرحمن الناصر اثني عشر مليون دينار من الذهب ، يقول ديورانت إنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة .

وهكذا تتمثل البطولة في جانب « بناة الدول » بطولة الأفراد الممتازين ،

يخرجون من قلب مجتمعهم ، ثم هم يغيرون المجتمع ويزيدونه قوة وحيوية .

ولا شك كانت البطولة في ميدان البناء والحضارة والإنشاء والحكم أكبر مسؤولية من بطولات الحرب والمقاومة ، فهي تتطلب الجهد الدائب المبذول في كل لحظة على مدى الأيام والسنوات في نفس الوقت الذي تحصن فيه الحدود وتؤمن الثغور ، ومع إثارة روح العمل الخلاق في مجالات التجارة والصناعة والأدب والفن .

وقد ظل تاريخ الإسلام دوماً حافلا بهؤلاء البنائين للدول ، يتوالى ظهورهم في وحدات عالم الإسلام مرحلة بعد مرحلة ، ووحدة بعد وحدة ، يحملون اللواء ويحمون الحضارة ، حتى إذا ضعفت قوة الدفع بعد عهد المنشىء الأول أو الثاني لكل موجة ، ظهر قائد جديد يحمل اللواء ، وكان ظهور الدول المختلفة في أجزاء عالم الإسلام عامل تنافس وقوة ، ولم يكن عامل ضعف . فقد كان الأمراء يتنافسون على تكريم العلماء وبناء الجامعات والمساجد ، وكانوا يحاولون أن يكونوا على مستوى مقر القيادة السياسية في بغداد أو دمشق أو قرطبة .

(٤٢)

المرأة في تاريخ الاسلام

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الاسلام هو ما عبر عنه « عمر بن الخطاب » حين قال : « والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم » .

هذا في قلب الجزيرة العربية ، أما في أوربا فقد انعقد « مجمع ماكون » (٥٨٦ م) ليبحث هل المرأة إنسان . وكانت قرارات المجمع تتلخص في أن المرأة ليست إلا خادمة للرجل ، في نفس هذا العصر قال رسول الإسلام « محمد » كلمته الخالدة : « إنما النساء شقائق الرجال » وبذلك منح المرأة المساواة وقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبذلك كرم الأمومة ووضع ركيزة بناء الأسرة .

وأبرز ما يمثل مكانة المرأة في الإسلام :

(١) شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل .

(٢) إعطاؤها الأهلية الكاملة للإرث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد والاكتساب دون أن يكون ذلك مرتبطا بموافقة الرجل وإذنه .

(٣) التسوية بين الرجل والمرأة في التبعات والتكاليف العامة من زكاة وحج وجهاد وصوم وصلاة . وبذلك برزت شخصية المرأة المسلمة في المجتمع وهي ذات كيان واضح مستقل ، له خصائصه بالنسبة للرجل في حدود القاعدة الأساسية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »

ومن هنا بدأت مشاركتها في المجتمع الإسلامي الجديد حاضرات مجالس النبي ، مشاركات في الحرب ، ومهاجرات ، وحافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات . وقد دخلن المسجد وشهدن حلقات العلم والصلاة الجامعة ، وكان الرسول يعدّ لهن في مجالسه وفي الصلاة أماكن خاصة .

واشتهر نفر من النساء غير قليل برواية الحديث حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن « عائشة » . « وأم سلمة » وغيرهما من الصحابيات . بل لقد رويت بعض الأحاديث مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجل ، وروت « عائشة » وحدها عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث .

وشاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : « أم عقبة » « وأم عمارة » . « نسيبة بنت كعب » . « المازنية » « وصفية بنت عبد المطلب » . ومنهن من غزت مع رسول الله سبع غزوات « كأم عطية » . وكن يخلفن الرجال في رحالهن ، وكن يقاتلن ويصنعن الطعام ، ويداوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى « كأم عمارة » أول مبايعة للنبي وثانية اثنتين شهدتا العقبة الكبرى ، وكان لهن في فتوح الروم والفرس مواقف مشهورة .

قال إدوار جيبون : ـ إن الشجاعة التي أعربت عنها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك ، وفي غضون حصار دمشق لأعظم مما يتناوله التقدير .

ووصف المؤرخون بطولات « خولة بنت الأزور» الكندي و « الخنساء » التي استشهد أولادها الثلاثة في موقعة واحدة ، فاستقبلت استشهادهم بإيمان صادق . بينما كان لها موقفها العاصف في الجاهلية عندما مات أخوها صخر .

وكما غير الإسلام مفهوم المرأة الإنساني في أمر الحياة والمجتمع والأسرة ، فقد أعطى الإسلام المرأة حريتها الفكرية حتى استطاعت امرأة أن تواجه « عمر » وتعارضه في المسجد علانية حين دعا إلى تحديد المهور ، وعدم زيادتها عن أربعمائة درهم ، فقامت من قالت : ما يحل لك هذا والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا » وأجاب عمر في صراحته المعهودة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وفي أيام الدولة الأموية زاحمت المرأة المسلمة الرجل في الثقافة والعلم ، وشاركت في مجال الفقه والحديث والأدب والبيان وأحاطت بجميع فروع العلوم وأتقنتها ، وفي هذه المرحلة قامت النساء بتربية البنات وتثقيفهن فكن يعلمن في البيوت : القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية ، وأسرار اللغة العربية .

وامتد دور المرأة المسلمة في تربية البنات وتثقيفهن ، وفي رواية الحديث حتى بدت عوامل الاضطراب في المجتمع الإسلامي ، هنالك اتجهت المرأة إلى التصوف وعكفت على العبادة ، وإن لم يعدم تاريخ المرأة المسلمة نماذج مختلفة خلال العصور في مختلف الحواضر يعقدن الحلقة في المساجد ويحدثن في الفقه والحديث .

وقد سجل « العقد الفريد » المناورات التي نسبت الى معاوية ، والوافدات من أنصار علي كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة ، وأم سفيان بنت خشمة ودرامية الحجونية . وهي تكشف عن صراحة وجرأة . وكانت عمرة بنت دريد بن الصحة وعائشة بنت طلحة التميمية زوج مصعب بن الزبير وكلتاهما تهب هبة الملوك وقد أفرد ابن حجر في كتابه (الاصابة في تمييز الصحابة) مجلداً خاصاً أسماه (كتاب النساء) وهو الجزء الثامن في ٢٩٢ صفحة من القطع الكبير سجل فيه أسماء وتراجم ١٥٤٥ سيدة من راويات الحديث والصحابيات ، وحوى الاصابة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوي ، وأعلام النساء لكحالة عدداً ضخماً من البارزات في مجال الفكر والثقافة والتصوف على طول العصور بين عابدة ومحدثة وأديبة وراوية ومن ربات الرأي والعقل والنفوذ والسلطان .

وليس في صدر الإسلام وحده بدا شأن المرأة المسلمة عاليا . بل في مختلف العصور ، فإذا كانت « مرحلة بناء الإسلام » قد شهدت أمثال عائشة وزينب بنت جحش ، وأم سلمة وفاطمة وعكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت جريش والزرقاء بنت عدي ، وبكارة الهلالية وهند بنت زايد ، فقد توالت أسماء البارزات تظهر ، فظهر من بعد أصحاب الندوات أمثال : عمرة الجمحية ، وخرقاء وعمرة ابنة أبي وهب وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وكن جميعاً يعقدن المجالس ، ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ، يساعدن إخوتهن

وأزواجهن في الدفاع عن المعاقل والقلاع ، كما عرفت المرأة بالطبابة في صدر الإسلام ، بعد أن نهى الإسلام عن الكهانة ، وإذا كان الإسلام قد نهى عن الخلوة بالنساء إلا أن ذلك لم يمنع المرأة من الخروج إلى مجالس العلم والمساجد . وفي فتح العراق اشتهرت خزانة بنت خالد بن جعفر ، خاضت مع سعد بن أبي وقاص المعارك وحضرت فتوح الحيرة .

ثم كان عصر الانصهار والتبلور (١٣٢ - ٤٩٠) وإلى ما قبل الغزو الخارجي حافلاً بالنماذج المتعددة الشمائل . فاطمة بنت خليل الدمشقي محدثة سمع عليها العلامة السخاوي كتاب الشمائل للترمذي ، فائقة بنت عبد الله تجلس في مجلس أمير المؤمنين المهدي ، فائدة تولت مشيخة رباط الظاهرية في مكة .

ولعبت المرأة دوراً ضخما في المجال السياسي ، كان للخيزران فضل في حياة المهدي ، فإن معاهد التعليم كانت منسوبة إليها . وكان لزبيدة زوجة الرشيد دورهام ، وفضلها في توصيل المياه العذبة بين مكة ومنى ، وجر المياه إلى بيروت ما زال مذكوراً . وكان لزبيدة مائة جارية يحفظن القرآن .

وأنشأت أم المقتدر مستشفى خصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار ، وكانت ولادة بنت المستكفي في القرن الخامس للهجرة تجالس الرجال وتحاورهم . ولعبت « ست الملك » دوراً هامًا في التاريخ ، فقد تولت الملك قرابة أربع سنوات ، وعرف عنها العدل والإنصاف ، وأنشأت والدة السلطان الأشرف « بركة » مدرسة مجانية ، وعمرت فاطمة بنت المحدث « المقري » الدمشقي مدارس ومارستانات وتكايا ، وأوقفت لها الأوقاف ، ولشجرة الدر في حرب الصليبيين ، ومقاومة الغزاة دور جسور في الفترة التي حفلت بالغزو الصليبي والتتري . وكان عالم الإسلام حافلا بنماذج من النساء العالمات في مختلف وحداته : أم الواحد وأم السلام في بغداد ، كريمة بنت محمد حاتم في مكة ، خديجة بنت محمد في بغداد ، وفي القرن السابع والثامن . نرى عائشة بنت أحمد ابن عبد الله في نيسابور ، عائشة بنت الحسن في أصبهان ، فاطمة البغدادية أم الفضل ، ليقة بنت أبي الفرج في دمشق رقية بنت العفيف في الحجاز . فاطمة بنت علاء الدين (سمرقند) ، فاطمة بنت أحمد الرفاعي (العراق) زينب بنت الشعري (نيسابور) . كما نرى في نيسابور عائشة النيسابورية ، وفي المغرب :

عائشة الشريفة ، وزينب بنت إسحاب النصراوية التي تزوجها يوسف بن تاشفين . وفي مصر ساره بنت الشمس البالي المصري ، وفي دمشق شمس الملوك شهدة بنت أحمد العامري ، وشهدة الدينورية ولدت في بغداد وروى عنها (ابن الجوزي) كتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل ، وشهدة المصرية ، وشهدة بنت عمر الحلبية ، وهناك من هاجر في طلب العلم أمثال الحلبية وصفت بأنها شاعرة أديبة وطيبة ماهرة ، كانت تتعاطى كثيراً من الصناعات ، وكتبت الخط الجيد ، أصلها من الشام ، وفدت على تونس ، ثم ارتحلت إلى الأندلس ومراكش ، وراسلت الأدباء والشعراء وناظرتهم وظهرت على بعضهم . وإلى القرن الثالث عشر الهجري لم ينقطع ظهور مسلمات في مجال العلم والفقه أمثال : قرة العين بنت صالح القزويني المتوفاة **١٢٣٠** هـ كانت محدثة وأديبة وشاعرة وعالمة بصيرة بالاكم ، حافظة للقرآن ، عالمة بتفسيره وتأدبه ، عارفة بأسرار التنزيل ، تعقد الحفلات والجمعيات ، وتخطب وتعظ الناس ، عرفت برقة لهجتها فاشرأبت لها الأعناق .

وقد شاركت المرأة المسلمة في العلوم ، وخاصة حركات الكواكب ، فقد روي أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك وسمرت عنده مع شيوخ بني أمية ، فلم يذكروا شيئا من أخبار العرب وأيامهم إلا شاركتهم فيه ، وما طلع نجم أو غار إلا ذكرت اسمه . قال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، أما النجوم فمن أين لك ؟ قالت تعلمتها من خالتي عائشة أم المؤمنين .

وكان للمرأة في مجال الشعر دور . فقد ظهرت مئات من الشواعر : صمدة بنت زيادة ، وولادة بنت المستكفي ، وعلية بنت المهدي ، ودنانير وعائشة الباعونية ، ورابعة العدوية . وأحصى المؤرخون في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ستين ألفا من الشاعرات ، وكان أكثرهن في غرناطة .

وقد ذكر صاحب كتاب « نفح الطيب » أن النساء المسلمات لم تخل لهن مشاركة في العلوم ، الا ان المهنة التي اهتمت المرأة بها هي التعليم والطب ، ومن الطبيبات الشهيرات : أخت المفيد بن زهر وابنتها ، وقد نوه باقتدارهما صاحب طبقات الأطباء ، ولا سيا في الأمراض النسائية ، وقبل كان في الأندلس ستون

ألف حافظة للقرآن الكريم ترفع كل واحدة قنديلاً فوق باب بيتها بالليل تمييزاً لها عن غيرها .

* * *

أما ما وقع للمرأة المسلمة في فترة الضعف فإنه لا يحسب حسابه على مقاييس الإسلام ، ولا ينطبق على قيمه ومفاهيمه هذه المفاهيم التي اضطرت المرأة أن تحتجب عن المجتمعات وتعتصم بدارها ، وتعكف على العبادة والتصوف بعد أن ساد المجتمع الإسلامي بعض عوامل الانحراف ، ومن الحق أن لا يحاكم « الإسلام » إلى فترة الضعف فإنها لا تمثل تعاليمه ، وما مر بالمرأة من انخفاض لمركزها ، لم يكن إلا نتيجة التخلف عن تطبيق تعاليم الإسلام وقيمه ، كان انفصال المجتمعات عن مفاهيم الإسلام هو ما خلق ذلك الجو العاصف من توسع نطاق الإماء والجواري على نحو لا يدانيه جو من الشبهة والشكوك والاضطراب ، مما دفع المرأة المسلمة الى التخلي عن مكانها في المجتمع ، فلما أرادت أن تنهض قبل أوائل هذا القرن كانت « قيم الإسلام » هي الأساس الذي اعتمدت عليه في هذه النهضة . فرفاعة الطهطاوي قبل قاسم أمين بأكثر من ستين عاماً ، اعتمد في دعوته إلى تحرير المرأة ، ليس على مفاهيم الغرب ، وإنما على مفاهيم الإسلام أساساً فلم يكن ما رآه في الغرب دافعاً له على الاقتباس بقدر ما كان داعيا إلى إعادة النظر في مفهوم الإسلام للمرأة والعودة إليه بعد الانفصال عنه ، وكذلك فعل « قاسم أمين » الذي ضمن كتابه نصوصا منيرة من القرآن الكريم والسنة . قيل إن الشيخ « محمد عبده » هو الذي اختارها وأضافها .

والواقع أن المسلمة بعامة والعربية بخاصة لا تستمد قواعد نهضتها من فكر الغرب ، وإنما تستمدها من انبعاث قيمها الأساسية التي رسمها « القرآن » ، ودعا إليها « الإسلام » بفتح الطريق أمام المرأة على أساس من مقومات الكرامة والخلق ، وبناء شخصية المرأة على أساس الإيمان والتربية دون أن يضطرب بها الطريق ، فليست المرأة في مفهوم الإسلام أداة ولا متعة ، وإذا كان الغرب قد أخرجها من أجل ظروفه الاقتصادية أو الحرب ، فإن اليقظة العربية الإسلامية اليوم ترى أن بناء شخصيتها على مفهوم الدين والخلق عامل هام في قدرتها على مواجهة الحياة العاملة بنجاح وعمق .

إن المرأة المسلمة حين اندفعت طوال تاريخ الإسلام في مجال العلم والعمل كانت تحمل معها قيم الإسلام نفسه ولم تتخل عنها . وبذلك استطاعت أن ترسم صورة من أشرف الصور لدور المرأة في الحياة الإنسانية . والمرأة المسلمة تستطيع أن تجد مكاناً عظيماً ضخماً إيجابيا في نهضة العصر ما استمسكت بتلك القيم ، ووازنت بين حاجة بناء الاسرة وحاجة العمل نفسه ، ودورها الطبيعي الفعال في تكوين كيان الأمة .

(٤٣)

عوامل التأخر ودوافع التقدم

لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في ثمان نقاط .

(١) الخلافات السياسية والعصبية ، وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك ، والتزهيد في الإمارة ، ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول .

(٢) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد

وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها، ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء .

(٣) الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات ، حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم

(٤) انتقال الرئاسة والسلطة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

(٥) إهمال العلوم العملية ، والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات ، وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون ، واقتفاء أسرار الخلق .

(٦) الغرور بسلطانهم ، والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة ، وقد أمرهم القرآن باليقظة ، وحذرهم مغبة الغفلة .

(٧) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والاعجاب بأعمالهم ، ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم ، والأمر الصريح بمخالفتهم ، والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد .

***

ويرى كثيرون أن أبرز أخطاء مرحلة الضعف هي غلبة « عقيدة الجبرية » التي نشرتها الطرق الصوفية ، وقد حاول الكثيرون تأويل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية وتصويرها على أنها تعبير عن « حتمية » لا مناص منها ، ولا يمكن التحرر من أحداثها . ولذا فلا محل لبذل المحاولات للخروج من أية نكبة تنزل بنا ، يضاف إلى هذا انحطاط المدارك وميلها إلى تصديق الخرافات والأباطيل ، وفقدان ألمعية البرهان ، وتحكيم العقل ، وغلبة مفاهيم العاطفة والغيبيات . ويرى « انيان دينيه » أن السبب الأول في تدهور المسلمين هو الخروج عن مبادىء المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهد خلال سني حياته في فرضها ، والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . والسبب الثاني هو التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للاسلام ، وهي التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات المنطق . فقد خمدت حماسة الروح الاسلامية العلمية شيئاً فشيئاً ، مكتفية بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون .

ويرى شكيب أرسلان أن أهم عوامل تأخر المسلمين هي :

(١) ترك المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم .

(٢) إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية .

(٣) الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة ، واللهو بالقشور عن اللباب .

(٤) اليأس من رحمة الله ، وفقدان الثقة في النفس .

(٥) استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية .

(٦) مواطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياها .

(٧) فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية .

(٨) عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيات والشركات.

(٩) فساد الأخلاق عامة ، وأخلاق الأمراء خاصة .

(١٠) فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات .

(١١) تفوق الأوربيين في العدد وطمعهم في مجاورتهم لجميع البلاد الإسلامية وثباتهم ، وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين.

(١٢) تخييم الجهل على الأمم الإسلامية .

(١٣) عدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء .

(١٤) كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة .

(١٥) الدعايات الاستعمارية التبشيرية .

* * *

ويلخص عبد الرحمن الكواكبي ضعف المسلمين في عدة عوامل :

(١) العقائد التي أقحمت على الإسلام وفي مقدمتها العقيدة الجبرية .

(٢) الجهل .

(٣) تحول الحكومات الإسلامية من نيابية ديمقراطية إلى ملكية مطلقة .

(٤) جهل أمراء المسلمين .

(٥) حرمانهم من الحرية وفقدان الحرية من أسباب موت النفوس ،

وضعف الهمم ، وتعطيل الشرائع ، وإحلال القوانين.

(**٦**) إهمال الدين ، لأن الدين يدعو إلى عدم الذل لغير الله .

(**٧**) انحلال الرابطة الدينية ، والإسلام مبني على أن لاولاء فيه لغير المسلمين .

(**٨**) تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المذلسين .

(**٩**) الانحلال الذي أصاب السلطة القانونية بسبب فسادها ، أو بسبب تغلب الأهواء الشخصية عليها .

(**١٠**) اقتصر علماء المسلمين في بحثهم ودراساتهم على العلوم الدينية ، وعلى قليل من العلوم الرياضية ، وأهملوا ما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوها ، وصارت نسيا منسيا .

(**١١**) شعور المسلمين باليأس ، وعدم القدرة على مباراة أهل الغرب .

(**١٢**) عدم وجود تربية قومية تنشىء شعبا له رأي عام لا ينقسم على نفسه ولا يتخاذل أمام عدوه .

(**١٣**) الفقر مصدر كل شر وعيب ، فمنه جهلنا ، وفساد أخلاقنا وانقسامنا .

(**١٤**) عدم وجود الجمعيات المختلفة من سياسية وغيرها .

(**١٥**) تكبر الكبراء وميلهم إلى العلماء المتحملقين المنافقين الذين يتواضعون أمامهم ،ويتذللون لهم .

(**١٦**) الدين بوضعه الحالي ، فقد نشأ الدين من أصل صحيح يسير على معتنقيه . ثم طرأ عليه التأويل ، ودخل فيه التحريف والزيادات .

لماذا تأخر المسلمون

هذا هو السؤال الذي ألح على المفكرين والباحثين خلال الأعـوام المائـة الأخيرة ، وحاول الكثيرون الإجابة عنه كل من وجهة نظره ، ومن الزاوية التي يراها العامل الأهم من عوامل الضعف والتأخر ، والحق أن عوامل التأخر طبيعية ولا بد من وقوعها اعترافا بسنن الكون وطبيعة النـواميس ، ودورة التـاريخ ، والأمم شأنها شأن الكائنات الحية تنشأ وتنمو وتقوى وتضعف وتذوي . ثم تعود مرة أخرى إلى الحياة . وقد جاءت مرحلة الضعف في تاريخ الإسلام بعد دورة ضخمة طويلة المدى استغرقت أكثر من عشرة قرون ، ثم لم تلبث أن انحسرت بعد قرن واحد ، حتى ليمكن أن يقال إن عالم الإسلام لم يمر إلا بمرحلة قصيرة قبل أن يتنبه من جديد ويأخذ في عوامل اليقظة والقوة . أما أنه لم يصل بعد إلى مكانه الطبيعي مرة أخرى حتى الآن . فإنما يرجع ذلك إلى عوامل جديدة ضاغطة ما زالت تحول بينه وبين استعادة مكانته ، هذه العوامل تتمثل في القوى الأجنبية التي استطاعت خلال فترة الضعف أن تضع قيوداً تغلغلت في المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي إلى حد النخاع وبات التحرر منها أمراً بالغ العسر . ومن هنا يمكن القول إن « مرحلة اليقظة العربية الإسلامية » لم تكن في الحق إلا محاولة لفك هذه الأغلال وتحطيم هذه القيود . ومن هنا طال الصراع بين عوامل التأخر ودوافع التقدم وتأخر عالم الإسلام طويلاً عن الأخذ بمقدراتـه التـي تمكنـه من التماس مكانه الطبيعي .

وعندنا أن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الاساسية للاسلام هذه القيم التي تدعو إلى القوة والايمان والوحـدة فحـين تخلف عالـم

الاسلام عن هذه القيم حل به الضعف والتفكك والتخلف عن ركب الحضارة ، واستطاعت القوة الأخرى المواجهة أن تكسب الجولة وأن تسيطر على مقدرات العلم التجريبي التي حققها الاسلام ، وأن تسير بها إلى ميادين الكشف والاختراع ، وكانت القوة العسكرية والحربية والبحرية هي العامل الأول في انتصار الغرب على المسلمين ، والسيطرة على عالم الاسلام واحتلاله وتطويقه .

ولقد ظلت الحرب سجالا بين أوربا وعالم الاسلام منذ بزغ ضوء الإسلام ، وكان عالم الإسلام في موقف المقاومة والصمود بعد مرحلة التوسع الأولى . وقد ظلت الموجات الإسلامية البدوية المتوالية ، ممثلة في السلاجقة والبربر والمماليك . ثم في الأتراك العثمانيين تقاوم الغزو الغربي حتى ضعفت قوة العثمانيين في القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) . واستطاعت أوربا أن تزحف لتطوق عالم الإسلام ، ثم لم تلبث في القرن الثالث عشر (١٩ م) أن أطبقت عليه في حركة احتلال ضخمة .

والحق أن عالم الاسلام في خلال تاريخه الطويل كان يمر دوماً بمثل هذه الأزمات : أزمات التخلف والضعف والاضطراب ، نتيجة انفصاله عن قيم الإسلام الأساسية ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إلى القوة والوحدة ويجدد كيانه ، وأنه كان قمينا بأن يفعل ذلك في هذه الأزمة ، لولا أن القوة المواجهة كانت قد بلغت قدرا من القوة ، واستطاعت أن تستثمر نتاج المنهج العلمي الإسلامي في أسلحة جديدة لمواجهة الإسلام ، والتوسع الإسلامي بعد مرحلة الدولة العثمانية التي سيطرت على أوربا خمسة قرون .

ومن هنا لم تكن « أزمة التخلف » قضية منفصلة عن القوى الغازية الضاغطة التي كانت تحمل معها مفهوما جديدا هو : القضاء على مصادر القوة في عالم الإسلام بحيث لا يستطيع - إلى أمد ما - التمكن من السيطرة على بقائه خيفة الزحف على أوربا مرة أخرى ، ولم تكن عوامل القوة هذه إلا ممثلة في الإسلام نفسه ، ومن هنا كانت الحرب : حرب فكر وتغريب وتبشير وشعوبية تثير عواصف الشبهات والشكوك والانتقاص من الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث على نحو منظم ، ومن خلال أجهزة قادرة مسيطرة يملكها الاستعمار في مقدمتها المدرسة والصحافة والكتاب . هذا في اعتقادي هو العامل الأساسي في استطالة مرحلة التخلف ، وعجز المسلمين عن استرداد القوة القادرة على أن

تقيمهم مرة أخرى على طريق التقدم . ولقد حاول الغربيون أن ينسبوا أسباب تأخر المسلمين إلى الإسلام نفسه ، وإلى مبادئه في محاولة للقضاء على مقوماته وتذويب عالم الإسلام في مفهوم الفكر الغربي القائم على جماع الوثنية والمادية ، وجرى على هذا النهج كثيرون من أتباعهم ، وغفلوا عن أن المسلمين استطاعوا بالإسلام بناء حضارة باذخة ، وحققوا تقدماً ملموساً في مجال العلم التجريبي والقانون والفلسفة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة هي حجر الأساس في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وأن الإسلام هو الذي أمد الفكر الإنساني بأصول النهج العلمي ، والاتجاه نحو الكشف بتحريضه أتباعه بالنظر إلى الكون واكتشاف أسراره ، وتحرير نفوسهم من أغلال الوثنية ، وإطلاقها بالتوحيد ، وبناء النهضة على أساس الإيمان والخلق وصياغة مفهوم الانسان على نحو يجعله سيداً للكون تحت حكم الله . قد أتيحت له كل طيبات الأرض ودفائنها خالصة له ، ولا شك أن دوافع التقدم هي التحرر من عوامل التأخر .

الباب الثامن

فلسفة تاريخ الاسلام

(٤٤)

فلسفة التاريخ الاسلامي

اتمثل فلسفة التاريخ الإسلامي في هذا النحو :

مبدأ تاريخ الإسلام « جماعة » لها منهج تستمده من « الإسلام » وقد سارت به من قلب الجزيرة العربية حتى بلغت به أطراف العالمين تتدفق في مجرى ممتد (قوامه منهج وأحداث وقادة) ظل يعمق ويتسع . هذه الجماعة « كونت المجتمع الإسلامي » وبنت « الحضارة الإسلامية » وفق مقومات فكر أساسية ، قوام فكرها دعوة إنسانية للعالمين : إلى الحرية والعدل والحق والمساواة .

في طريق هذه الحركة إلى غايتها ، واجهت مرتين :

(أولاً) معارضات قوية ، وقوى مصادمة تحول بينها وبين طريقها المرسوم .

(ثانيا) هذا المجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه . وتلك سنة الحياة : قوة من بعد ضعف ، وضعف من بعد قوة .

« ومنهج » هذه الجماعة هو منطلقها ، فإذا تخلت عنه بلغت موقف الضعف والتخلف ، وانتصر عليها معارضها فإذا عادت إلى مقوماتها واستمسكت بها ، انتصرت بعد هزيمة ، وقويت بعد ضعف ، وصفحات التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا تجري على هذا النحو : تتدفق في مجرى ممتد قوامه « منهج : وأحداث : وقادة » وفق ناموس واضح لا يتخلف .

ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام هي مصدر القوة واليقظة ، فإذا انحرف المجتمع عنها بدأت مرحلة الضعف والتخلف ، فإذا أعاد الأمة قائد أو مفكر إلى هذه القيم برزت نهضة جديدة وتجدد شباب التاريخ .

(٢) هذه رؤية جديدة للإسلام من خلال التاريخ الإنساني ، يتمثل خلالها « تاريخ الإسلام » في صورة مجرى طويل ممتد ، بدأ منبعه عند بحيرة واسعة هي : الجزيرة العربية ، ثم مد فروعه أحدها إلى المشرق حتى بلغ الصين ، والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس ، والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقيا . وما زال هذا المجرى يعمق ويتسع حتى شمل القارتين آسيا وإفريقيا وأوغل في أوربا من طرفيها ، فبلغ نهر اللوار من ناحية الغرب وأسوار فينا من ناحية الشرق . ثم هو منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وهو بالغ الأثر في حركة التاريخ ، وفي تطور الإنسانية ، غير منفصل عن العالم في مسيره ومصيره ، تأثيراً وتأثراً . والإسلام في مفهومه الصحيح « منهج حياة » وإطار واسع لأيديولوجية شاملة متكاملة يرتبط فيها الانسان بالله وبالكون والحياة . ليس الإسلام في حركة التاريخ هو الدولة الاسلامية ، أو الحضارة الاسلامية ، أو الأمة العربية إلا بقدر ما يتصل ذلك بالاسلام نفسه . والاسلام يبدو من خلال تاريخه في صورة « كائن حي » له جناحان : فكر وحضارة ، متجدد الخلايا ، يمر بمراحل القوة والضعف . حركته الدائبة وخطوه المتصل الدافع إلى الأمام شأن الكائن الحي ، كلما تقلص طرف منه استرد قوته في طرف آخر ، وأبرز ظواهره ظاهرة التجدد والتغير وتصحيح المفاهيم « من خلال إطاره الجامع » يتصا ذلك في كلا جناحيه : جناح « الفكر » يتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأي ، وجناح « الحضارة » يتجدد بظهور بناة الدول وصناع الأحداث . « المفكرون » يجددون الجوانب العقلية ، ويعيدون صياغة المناهج ، ويدحضون شبهات الانحراف « والقادة » يبنون الجهة الداخلية ويردون القوى الخارجية ، وحركة التاريخ الاسلامي تجمع دوماً بين الخط المستقيم ، والدائرة فهو من خلال الخط المستقيم يتجه نحو التقدم الى الأمام ، ومن خلال الدائرة يتحرك ولا يقف ، واحياناً تبدو حركة التاريخ أمامية ورائية ، فهي رجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام .

لم يجمد « الإسلام » أمام حركة « التاريخ » خلال العصور أو تطور

الحضارات والمدنيات . ولم يتوقف عن مدها في إيجابية وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها . بل ربما سبقها خطوات .

***

ومن أبرز سنن التاريخ الإسلامي : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية .

فكلما ضعفت حياة « المجتمع » وانحرف ، ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل اللواء ، وكلما تحول « منهج الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يرده إلى الجادة . وهكذا عاش تاريخ الإسلام بين « التحدي » ورد الفعل ، تعتوره الأحداث قوة وضعفا ، ولكنها لا تقضي عليه ، تهاجمه القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثا لكنه لا يلبث أن يتماسك في مواجهتها ، فينتصر عليها ويذيبها في بوتقته ، وتصارعه القوى من الداخل ، فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى ، وقادرة على إعادة صياغة الحياة .

والإسلام في التاريخ حركة أوسع من الأمة العربية أو الدولة الإسلامية أو الحضارة ، وأعمق من الحدود التي تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول وسقوطها أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك .

فالإسلام في الحق هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الإنسان من ربقة الظلم ، وإقرار حقوق الأفراد والجماعات وتحريرها من الاستعباد . وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب التي اتصلت به سواء من دانت له أو أساغت فكرته ومقوماته .

ولقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية معنى واضح الدلالة ، هو اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث الرسول من أهلها ، ونزل القرآن بلغتها . ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم . فمنذ بزغ الاسلام ارتبط تاريخ العرب به أوثق ارتباط . لقد ظهر في الأمة العربية أولاً ، وفي حياة الرسول دانت الجزيرة العربية له ، فكانت البحيرة التي امتدت منها روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التي تحركت شرقاً وغرباً وشمالاً ، فحملته الأمة العربية إلى العالم

أجمع ، وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته ، فالفكر الذي كونتـه الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً بحيث لا يمـكن أن يوصف بأنـه فكر عربـي محض ، أو فكر إسلامـي خالص ، وكذلك الحضارة . بل هو : فكر عربي إسلامي ، وهي حضارة عربيو إسلامية ، شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية : فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية ، تبلورت جميعها في إطار الاسلام وفق مفهومه ومضمونه ، شارك في هذه المرحلة العرب وغير العـرب ، شاركوا في الحضـارة والفكر والحكم . وقد رسم الاسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر ، لا على أساس الجنس . ووسع دائرة الاخاء الانساني ، وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التبريز والتفوق والتفاضل من العمل لا من العرق ، ومن الشخصية لا من الوراثة .

تكامل مفهوم التاريخ الاسلامي

وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم « تكامل » التاريخ الإسلامي ، واستقلالية منطقة : يقول ولفرد كانتول سميث « إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ » على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي .

« فالرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ، ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس ، والهندي مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ، ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب . أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط .

(١) المثل الأعلى غير قابل للتطبيق . (٢) والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . هذان الخطان يسيران في نفسه متجاورين أو متباعدين . ولكن على غير اتصال « والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه » .

أما الماركسي فهو مؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ،ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس . بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

« أما المسلم » فإنه يحس إحساسا جاداً بالتاريخ . إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردي أو جماعي . وكل شعور فردي أو جماعي ، بمقدار قربه أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ، ولا اصطناع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلما باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وان الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره[1] أهـ

* * *

إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها . فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد إلا وهو « الاسلام » .

ويقول اليان وايدغراي في كتابه « تفسيرات التاريخ » : -

إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناءة فهم يرون أن البشرية إذا

---

(١) ك/ الإسلام في التاريخ الحديث

اعتنقت تعاليم الوحي القرآني فإن إرادتها حينذاك تتطابق و إرادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصي أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ، ويعلم أن لا مردّ لارادة الله .

ويشارك بوجه عام تياران يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ الاسلامي المسلمين ، المفهوم الحركي ، والمفهوم القدري . وكلها تظهر بوضوح في تفسير تقلبات القوى الاجتماعية ، وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بكل ما هو وقتي وفوري ، وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس إلا وهماً .

***

وإذا كان مفهوم المسلم لمنطلق التاريخ يختلف عن مفهوم غيره . فإن وجهة التاريخ الإسلامي قد سارت في طريق يختلف عن وجهة التاريخ الأوربي ، من حيث حركته الخصبة السريعة في التوسع . ومن حيث أثره في الأمم والشعوب التي اتصل بها . ويصور هذا المعنى هاملتون جب في عبارة دقيقة حين يقول : إن التاريخ الإسلامي سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوربي على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاض الإمبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلاً ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعوري . وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة . انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئا في بلاد العرب ، وأقام بسرعة تكاد تعلو على التصديق في أقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية ، وأقام نظاماً سياسيا شمل جميع المناطق المتسعة ، ومن ضمنها فارس ، وواجه مهمة أخرى هي إدخال هذه المناطق في نظام ثقافي ديني مشترك قائم على مفهومه العالمي الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمي السابق (المسيحية) في غرب آسيا ، والنصف الجنوبي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويضعفه إلى أقصى حد ممكن ، ويحطم الزرادشتية ، والديانات التترية في فارس ، وبين النهرين ، وأن يقيم حاجزاً في وجه انتشار البوذية في أواسط آسيا .

قانون التاريخ الاسلامي مستمد من طابعه

ولقد اتسم تاريخ الإسلام بسمات جعلت له طابعه ومفهومه :

ذلك أنه لما كان الاسلام هو دين وفكر ومجتمع وحضارة ، فإن « التاريخ السياسي » في تاريخ الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة ، حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأمجاد في تاريخ الإسلام الفكري والعلمي والعقلي ، وفي مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية الاجتماعية ، وأبرز جوانب التاريخ الإسلامي تتمثل في القادة والأعلام والمفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامي مستمدة من « القرآن » . أولئك المصلحون والمجددون ، وحملة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الإسلام خلال مراحله وأدواره المختلفة .

في هذا المجال تجد طبقات الأطباء وأخبار الحكماء ، والنحاة والرواة والأدباء ، وطبقات الفقهاء والفلاسفة والمؤرخين الاجتماعيين ، وتاريخ أعيان كل عصر . فليس تاريخ الإسلام إذن تاريخاً سياسياً فحسب . وليس التاريخ السياسي إلا جناحاً من أجنحته ، بل ربما أقلها خصوبة وعمقاً وأثراً في حركة التاريخ ونموه وتجدده ولكنه تاريخ شامل قوامه ، تاريخ فكر متحرك في مجالات الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتربية .

ومن هنا تسقط تلك الشبهة التي يرددها دعاة التغريب من اقتصار تاريخ الإسلام على حياة الخلفاء والملوك . بل تتناول مختلف مظاهر حياة المجتمع والحضارة . وقد حفلت كتب الأنساب والطبقات والوفيات وموسوعات الأصفهاني والحصري والجاحظ وأبي حيان التوحيدي بإفاضة ، بأخبار المجتمع

بسائر طبقاته ، ومختلف قطاعاته ، وفي مفهومي إن التاريخ في جوهره ليس سرد وقائع وحروب ودول تقوم ، ودول تذهب ، وأحداث سياسية . بل هو تطور شامل متصل ، وحركة اجتماعية يدفعها مفهوم وعقيدة في مختلف ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وعندنا أن دراسة تاريخ الإسلام في هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها لفهم الأحداث ، وتطور المجتمع ، ولمعرفة مكاننا في العالم الإسلامي والأمة العربية من الحضارة العصرية . فإن نظرتنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت في ظل مفهوم شامل ، وفي إطار تاريخ الإسلام نفسه ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة ، هي : ردّ فعل لمرحلة قد سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام . وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامي ، وعلى بناء صاغه علماء العرب والمسلمين ، فنحن حين نتصل بها اليوم لا نكون غرباء عن جذورها ، فهي ملك للبشرية كلها التي صاغتها وشاركت في تكوين جوانبها المختلفة . لقد قدم الفكر العربي الإسلامي لهذه الحضارة علومه وفلسفاته ومعامله وجامعاته ، وبنى قاعدتها العريضة في الأندلس ، فهو متصل بها غير منفصل عنها حين يقتبسها اليوم .

***

وأبرز ظواهر تاريخ الإسلام : تكامله وشموله وترابطه ، ليس تاريخ الإسلام دوائر منفصلة ، ولكنه نسيج كامل . فالحدث السياسي لا يفهم إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . انها خيوط واحدة تكون « نسيج التاريخ » كل خيط له قيمته ، وأثره المتمثل في مدى التحامه مع سواه .

والتاريخ الإسلامي تاريخ حضارة مكتملة الدائرة ، وليس تاريخ شعب أو قومية معينة ، والقوميات كلها حلقات يطبعها طابع موحد ، وهو تاريخ ذو مضمون إنساني قوامه الحرية والعدل والتوحيد والمساواة . وتاريخ العرب كافة لا ينفصل عن تاريخ الإسلام كفكر كلي شامل . هذا الشمول يضم مختلف أوجه النشاط الإنساني : الاقتصاد والدين والعلم والفن والفلسفة والاجتماع .

ومن هنا فإن نظرة الباحث الغربي قد تقصر ولا تصل إلى أعماق هذه

المفاهيم ، نتيجة تأثره بمفهومه الغربي الخالص للتاريخ ، وهو غير مفهوم المسلمين والعرب للتاريخ ، والباحث الغربي بعيد بفطرته ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامي وقيمه ومناهجه التي قامت عليها أعمدة التاريخ الإسلامي .
ومن حيث إنه بحكم قيمه الخاصة مرتبط بمفاهيم قوامها تراث يوناني روماني مسيحي غربي ، أضيفت إليها فلسفات مادية موغلة في الانفصال عن الروح ، بل مخاصمة للأديان والتوحيد والغيبيات مخاصمة حادة ، وهي نظرات تقوم من خلال فكر « يؤمن بتجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين العلم والدين » أما مفهوم الفكر العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وسار عليه مسار التاريخ الإسلامي ، فقائم على أساس التوحيد ووحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وهو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الانسان ، والعبادة والعمل في نظام الحياة والدنيا ، وللآخرة في نظام الدين والسماء ، والأرض في نظام الكون[1] .

ومن هنا يجيء الخلاف في النظرة ، نتيجة للخلاف الجذري بين القيم الأساسية للفكر الغربي والفكر الإسلامي ، وهو خلاف بعيد المدى .

ويبدو من غير الطبيعي دراسة تاريخ الإسلام أو الحضارة الإسلامية ، أو المجتمع الإسلامي منفصلاً عن الإسلام بحسبان أنها جميعا تقوم في ظل مفاهيمه وقيمه .

والتاريخ في الحق هو حركة الزمن من خلال المجتمع . ولقد كان التاريخ الإسلامي متصلا بالمجرى الرئيسي للتاريخ الإنساني مؤثراً فيه ، متأثراً به . وكانت تحدياته دوماً هي تحديات الشعوبية والقوى الخارجية ، وتحريف النص ، ويقوم التاريخ الإسلامي حول فكرة ودعوة وثقافة ، على أساس فكرة لها طابعها المميز ، الذي تلتقي فيه جميع مظاهر الحضارة والمجتمع بحسبان أن « التوحيد » هو الفكرة العامة التي تحتضن جميع مظاهر الفكر الإسلامي .

« فالفكر » هو أساس التاريخ الإسلامي ، والعامل الموحد بين المسلمين ، وأساس كيان المجتمع الإسلامي الذي مازال قائما ومستمرا ، والذي أخذ عديداً من صور الوحدات السياسية الكبرى : كالخلافة أو الدول الكبرى ، أو الدول

---

(١) أحمد نصيف الجنابي : مجلة الأقلام ١٩٦٦ .

القومية . هذه التشكيلات السياسية في مختلف صورها ، ينتظمها روح واحد ، وفكر واحد ، وثقافة موحدة الجذور . هي الرابط المشترك الأعظم بينها ، مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، وهي جميعا تستمد أصلاً من القرآن الذي يمنحها القالب الذي تتشكل فيه كل أقطارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

* * *

والإسلام هو جماع المثل العليا التي أمدت الحضارة البشرية في خلال ألف وأربعمائة عام بصياغة جديدة مميزة للقيم تجمع بين العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة .

(البطل في تاريخ الاسلام)

وأبرز ما يتسم به تاريخ الاسلام وضوح وقائعه ، وملامح شخصياته ، وتفاصيل حياتها ، وضوحاً يكاد يكون كاملاً مع تعدد هؤلاء القادة في مختلف المجالات وتفاعلهم . فقد كان تاريخ الاسلام دوماً عملية تفاعل بين المجتمع والفرد الممتاز من بناة الدول ، أو قادة الفكر .

وإذا كانت حركة التاريخ تتمثل في أمور ثلاثة : « منهج وأحداث وأبطال » فإن البطل دائما هو المحرك الأساسي للأحداث ، والقادر على تحديد المنهج إذا انحرف المجتمع عن مفهومه الأصيل . قد طفقت القوة الشعبية الإسلامية الجامعة قادرة على تخريج القادة والمجددين والمصلحين ، وهي التي قدمت نماذج حية ، متصلة لم تتوقف ، في مختلف المراحل ، وفي مختلف الوحدات ، والمجالات ، قادة ومفكرون ومصلحون ، كلهم يلتمسون قدوتهم من بطل الأبطال « محمد رسول الله » . صلى الله عليه وسلم ، ومن مفهوم « القرآن » . وقد أعطت هذه القوة الزاخرة ، الأبطال والمجددين في وقت الحاجة إليهم .

لقد ظلت صورة الرسول محمد نبي الإنسانية ، في مختلف شمائله وتصرفاته وحركاته وأعماله ، قدوة لكل قائد ومفكر وبناء من بناة الدول في تاريخ الإسلام كله ، لم تحجب هذه الصورة مطلقاً ولم يتخلف قائد أو مفكر دون النظر إليها ، والتماس الخبرة والقدوة ، كما ظلت صورة الرعيل الأول من الأبطال والأعلام مثلا ومصدراً .

* * *

تمثلت البطولة في (١) المجددين ، مصححي المفاهيم . (٢) الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . (٣) علماء الرياضيات والفلك . (٤) بناة الدول .

كان البطل دائما هو قائد اليقظة ، ممثلا في بناة الدول ، وفي المفكرين ، وفي المصلحين . وهم جميعاً يستمدون قوتهم من المجتمع نفسه ، ويكونون استجابة لوجود الحاجة إليهم ، حين يلتمسها في قوة جديدة شابة ، ثم يبرز البطل بعد ذلك محققا للأهداف مستمدا قوته من أمل المجتمع وحاجته ، ثم لا يلبث أن يمضي خطوة أوسع ، فيقود الجماعة إلى مرحلة جديدة أكثر قوة وإيجابية .

وقد كان أبرز التحديات الداخلية التي واجهها الاسلام: « محاولة تحريف النص » أوالقضاء على مقوم من مقومات الإسلام . هذا المحاولات المنحرفة ، قد استطاع المصلحون والمجددون دوماً القضاء عليها ، وإبراز مفهوم الاسلام على حقيقته ، والكشف عن جوهر الاسلام وإعادته إلى مكانه الحق ، بعيداً عن التجزئة والانحراف والجمود ، شمولاً وتكاملاً وتوحيداً .

فقد أعاد المصلحون الفكر الإسلامي إلى الاتصال المباشر بجوهر الإسلام . بعد أن بلغوا متاهات الجدل في ظل غزو العقائد والمذاهب المختلفة ، وحرروا الإسلام من شكليات الصناعة والحرفة .

* * *

والحق أن تاريخ الإسلام في جميع مراحله ـ حتى في أشد عصوره تخلفاً وضعفاً ـ لم يخل من المصلحين الأحرار الذين كانوا يتوالون مرحلة بعد مرحلة ، فقد ظلت الجماعة الإسلامية قوية صلبة لم تتحطم ، وظلت تخرج القادة والمجددين والمصلحين ، وظل جوهر المجتمع الإسلامي حيًّا . نعم أعطت الجماعة الإسلامية هؤلاء الأبطال والمجددين وقت الحاجة إليهم .

* * *

وقد كان تاريخ الإسلام يمثل تطلعات المجتمع الإسلامي ومصالحه ، ممثلة في بطولة ، كان الأبطال الذين هم استجابة لمجتمعهم يدفعون هذا المجتمع إلى الأمام خطوة ، حتى ليمكن القول بأن موجات التاريخ الإسلامي كانت تمثل

اندفاعـات متـوالية لقـوى ممتـازة قائـدة على طريق تحقيق حتمية الإسـلام . والممتازون في تاريخ الإسلام كانوا استجابة لحاجات عصرهم ، توافوا إليه مع الضرورة التاريخية ، ثم كانوا من بعد دافعين إياه إلى الطريق الصحيح الـذي يكون قد انحرف بالموجة السابقة لهم ، والحق أنه لا يمكن بدون القادة أن تكون الأحداث ذات فاعلية ، ولا يمكن تصور التاريخ بدون قادة . « والتاريخ بأعتباره مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر يزودنا بنتيجـة علمية هامـة هي : أن حوادث التاريخ ليست مستقلة عن إرادة البشر » .

كانت مهمة القائد في تاريخ الإسلام هي : دفع العجلة ، ذلك أن حركة التاريخ كانت تجري في مجال مفهوم الإسلام وأيديولوجيته وقيمه ، وأن قائداً مهما بلغت براعته أو ذكاؤه لم يكن يعمل إلا في إطار الإسلام .

والحق أن تاريخاً ما ، من تواريخ الأمم والأديان والحضارات لم يضع قادته وحكامه وملوكه على مائدة التشريح ، ولم يعرضهـم للنقـد ابتـداءً من الخلفـاء الراشدين أنفسهم كتاريخ الإسلام .

حركة التاريخ الإسلامي

حركة التاريخ الإسلامي منذ فجره إلى اليوم ، حركة تقدمية متكاملة ، تتمثل فيها القدرة على الحركة والصمود ، والاستمرار ، وتعميق المجرى ، ومقاومة كل محاولة للتوقيف أو التعويق ، ويتمثل في تاريخه طابع القدرة على الانفتاح الدائم الواعي على الحضارات والثقافات ، وهو إذا ما توقف سياسيا بالغزو الخارجي من داخل عالم الإسلام ، شق له طريقاً في الأرض الجدباء ، وأضاف أمما جديدة تعتنقه وتؤمن به ، فهو حركة دائبة نحو التقدم والبناء ، وإشاعة الروح الإنساني . ومنذ أن ظهر الإسلام إلى اليوم ، وكل حدث عالمي مرتبط به على نحو من الأنحاء .

غائية التاريخ الاسلامي

غائية التاريخ الاسلامي أنه منهج الغد للإنسانية . , فالإسلام دعوة إنسانية ايجابية قادرة على الحياة والتأثير في مجرى الزمن والأحداث والحضارات ، في نظرة عالية متسقة الآفاق . وهي قادرة دوما على أن تقدم للبشرية الحل الإيجابي لازماتها وقضاياها ومشاكلها .

وغائية الإسلام في مجراه التاريخي هي الوصول إلى عموم الرسالة بحسبانه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة الإنسانية ، والعدل ، والمساواة ، والحرية .

أبرز ظواهر تاريخ الاسلام

١ ـ المقاومة .

أبرز مظاهر حركة التاريخ الإسلامي تتمثل في مقاومة القضاء عليه ، وشجب كل محاولات التآمر والانتقاض بالانتصار على القوى الغازية أوتذويبهافي بوتقته .

وحركة المقاومة في تاريخ الإسلام تمثل جزءًا هاما في كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يتمثل مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر في مواجهة العدو ، والمثل الأعلى في الجهاد : « الاستهانة بالموت والحرص عليه » . بحسبانه مصدراً للحياة « وإعداد القوة أساساً لإرهاب العدو لا لحربه » .

وقد عاش الإسلام تاريخه كله ، حياة مقاومة مستمرة لم تتوقف ، متصلاً بالأحداث والأزمات والمعضلات البشرية .

وقد قام الإسلام في مختلف أدواره على « التحدي ورد الفعل » متجها إلى تحقيق الوحدة الإنسانية على أساس العدل والإيمان والحرية ، قادراً على إزاحة القوة المانعة من الوحدة ، أو من المفهوم الصحيح ، وكانت تعقب كل عملية خارجية مرحلة يقظة وقوة وتجمع واندفاعة نحو المقاومة .

٢ ـ التفاعل .

ومن مظاهر حركة التاريخ الإسلامي : قدرته على التفاعل المستمر . فهو في طريقه الطويل لم ينفصل عن التيار الإنساني ، وسار في الخط الايجابي المتفاعل المؤثر .

٣ ـ تصحيح الانحراف .

ومن ظواهر حركة التاريخ الإسلامي قدرته على تصحيح المجرى إذا انحرف ، فهو يعيش سلسلة متصلة من حركات التجديد والإصلاح ، وتصحيح المفاهيم . وقد كان فكر الإسلام قادراً ، ولا يزال ، أن يعدل بالمجتمع عن الطريق المنحرف إلى الطريق الصحيح ، وكلما وقفت موجة وتجمدت اندفعت

موجة أخرى إلى الأمام تحمل نفس الهدف بصورة أخرى .

٤ - الاستمرار .

ومن ظواهر تاريخ الإسلام القوية « الاستمرار » فلم يكن من الملفت للنظر قيام هذا المجتمع الضخم ، وهذه الحضارة الكبرى في هذا الوقت القصير . بل العبرة بقدرتها على البقاء والاستمرار والامتداد والتأصل ، ولولا هذه القوة القادرة لما استطاعت أن تصمد أمام حملات الغزو الخارجي التي استمرت تنتقض على عالم الإسلام ، ولكانت قادرة على تمزيق هذه الجماعة ، لولا صلابة مضمون الإسلام الذي حفظ لها قدرتها على الاستمرار . ولقد كان المجتمع الإسلامي قادراً بقوة فكره ووضوح مفاهيمه الأساسية على أن يرتفع على الضروريات التي كان يتعرض لها كالغزوات والكوارث ، واستطاع في إبان حركات الغزو أن يتجمع ويتوحد ويدفع من أعماقه قوى جديدة قادرة على أن تكون على مستوى المعركة ، وهو في مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول ، وسرعان ما يستجمع نفسه ، ويتحدى الضربة ، ويقاوم بشدة ، ويتخلص من ركوده ويسترد حيويته .

٥ - الاتصال .

ولم تكن الوقائع في تاريخ الإسلام منفصلة إحداها عن الأخرى ، بل متصلة دوما ، لم يكن هناك انفصال بين الموجات المتوالية . بل كانت كل موجة استجابةلتحدسابق لها ، أو تحديا لمرحلة ضعف ، أو مدًّا لحالة جزر . لقد كان الحادث الواقع في تاريخ الإسلام استجابة لحادث سابق في سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات .

٦ - وحدة الفكر .

ووحدة الفكر هي أبرز علامات حركة التاريخ .

قد انتظم مختلف وحدات التاريخ الإسلامي ودوراته وموجاته ، فكر واحد ، وثقافة واحدة ، هي الرابط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، هذا الفكر هو روح الجماعة ، والمحرك الأساسي ، والقالب الذي تتشكل فيه مختلف أفكارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية

والاقتصادية ، ولعل أبرز ما يتمثل في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية هو « الأصالة » فقد قاما على أسس جديدة لا صلة لها بالحضارة السريانية والفارسية أو اليونانية ، قوامها التوحيد والنبوة والمساواة والعدل .

٧ ـ التكامل .

طوابع الشمول والتكامل والوسطية والحركة والوحدة هي أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامي ، فإذا بدت عملية تجزؤ قابلتها حركة تكامل ، وإذا برزت حركة تراخ قابلتها حركة يقظة . وقد ظلت عملية التجزؤ والتكامل في الفكر والتراخي واليقظة في المجتمع عمليتين مستمرتين لا تتوقفان . وحركات القوة والضعف ، التراخي واليقظة حركات طبيعية ، غير أن عامل الأزمة الحقيقي كان يتمثل دائما في الغزو الخارجي . وقد جاء دوماً نتيجة فقدان الوحدة والقوة واليقظة وحراسة الثغور والحركة مع الزمن والتطور مع الحضارة، وكل الأجزاء التي سقطت ، إنما سقطت بفعل « قوة خارجية » نتيجة التخلي عن القوة العسكرية والحربية ، وكان الانحلال الخلقي والاجتماعي في المجتمع عاملا قويا من عوامل الضعف والمقاومة والعجز عن الدفاع .

غير أن كل عملية غزو خارجية للاسلام كانت تتبعها عملية رد فعل وتحد حيث تبرز قوة جديدة شابة تحمل لواء اليقظة والوحدة والتجمع والاندفاع والمقاومة . وقد ظهر ذلك واضحاً في تاريخ الاسلام بظهور السلاجقة والأتابكة والأيوبيين ، والمماليك والبربر والعثمانيين .

مفهوم التكامل

« التكامل » من أبرز طوابع تاريخ الإسلام :

وتاريخ الإسلام ـ شأن الإسلام نفسه ـ لا يُفهم إلا على أساس الشمول والتكامل . فهو وحدة متصلة الحلقات مهما تعددت جوانبه ، وهو « كل متصل » لا ينفصل أبدا مهما بدا من مظاهر التعدد والانقسام .

فالتاريخ السياسي ، والتاريخ العسكري ، والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الثقافي ، كل متكامل لا ينفصم أبداً مهما بدا الانفصال ظاهراً فيه . . كل جانب من هذه الجوانب يتصل بالآخر ، ويعتمد عليه اعتماداً تامًا ، وهي جميعها تشكل الإطار العام للحضارة .

ولم تكن حركة التاريخ الإسلامي قاصرة على الأمة التي حملت لواءه ، ولا الدولة التي قامت باسمه ، ولكنه ذلك التيار الضخم الحي المتحرك المتدفق الذي يبرز من وراء كل ظواهر المجتمعات والحركات ، والثقافات والمذاهب . فالإسلام ليس هو الدين وحده ، ولكنه ذلك الطابع الذي يصوغ الحياة كلها فكراً وثقافة ومجتمعا ، ويعطيها مفهوما شاملاً متكاملاً : قوامه الروح والمادة الفردية والجماعية والعقل والقلب .

والواقع أنه لا سبيل للنظر إلى تاريخ الإسلام إلا « كوحدة تامة » منذ بزوغ فجره إلى اليوم حيث تتمثل صورته شاملة كاملة في مجالين واسعين :

(أولا) بناء الفكر (٢) بناء الحضارة .

وهما مجالان متكاملان لا ينفصلان ، فقد سار بناء الحضارة ، وتطور الفكر في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجمود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية والداخلية في آن . وتاريخ الإسلام بمثابة الإطار الواحد الذي تتكامل عناصره ، وتتسق فيه الوقائع والحقائق ، بحيث لا يمكن أن ننظر فيه إلى موقف أو حدث زمني نظرة منفصلة عن سابقتها أو ما بعدها ، كما لا يمكن أن ننظر إليه نظرة إقليمية جزئية ، فهو متصل الحلقات والمراحل ، كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، وكل مرحلة متولدة من المرحلة السابقة لها ، وليس مصدر الخطأ في المواقف والوقائع الا ناتجاً من النظرة الزمنية أو الإقليمية الجزئية .

***

وتبدو مظاهر التكامل في تاريخ الإسلام في أمرين :

« كل موجة » من موجات اليقظة أظهرت قوة جديدة بدوية تولت مقاليد القيادة السياسية ، لم تتخلف قوة واحدة عن العمل ، جنساً كانت أو مذهباً : العرب ، الفرس ، السلاجقة ، البربر ، كذلك السنة والشيعة .

و « كل عاصمة » جاء عليها دور اليقظة والقوة : بغداد . قرطبة . القيروان . دمشق . فاس . القاهرة . حلب . أصفهان . غزنة . الري . بلخ . وكل عاصمة أخرجت علماء وقادة .

وكانت حركة التاريخ تتمثل في ظهور القوة في وحدة من ·حدات عالم الإسلام ، في نفس الوقت الذي تظهر فيه مرحلة الضعف في وحدة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضعف الوحدة القوية ، ويتجدد كيان الحضارة والمجتمع في الوحدة الضعيفة .

ومن أبرز مظاهر التكامل : أن تاريخ الإسلام كله حفل بالقوة والحركة ، وظهور الأعلام والمصلحين : ولم تكن عظمة الإسلام قاصرة على مطالعه الأولى وحدها . بل لقد ظلت مضطردة في تاريخه كله وفي كل مراحله ، وظل مفهوم الإسلام قادراً على الحركة طوال التاريخ ، وليس فقط الصف الأول ، ولا القادة الأول . ولا الرعيل الأول هو وحده الذي كان يمثل مفهوم الإسلام في المجتمع

والحكم ، ولكن على مدى العصور ، كانت تظهر الشخصية ذات الطابع الإسلامي في كل مجال ، مجال بناة الدول ، مجال الدعاة والأئمة والقادة .

ومن أبلغ مظاهر التكامل في تاريخ الإسلام أن قوة وحدها من قوى المجتمع لا تستطيع أن تمثل عصرها ، فلا يمكن أن يقال إن الفقهاء وحدهم أو الشعراء وحدهم ، هم صورة العصر ، ولكن القوى المختلفة كانت جميعها تتفاعل وتتحرك :

العلماء والأمراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والشعراء . . الخ .

سنن الضعف والقوة

تتمثل سنن الضعف والقوة في تاريخ الإسلام في الاقتراب أو الابتعاد عن قيمه الأساسية ، فلم يضعف الإسلام في مرحلة من مراحل تاريخه إلا حين تخلف مجتمعه عن مفاهيمه ، وانحرف نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرف عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته بالانحراف عن : القوة أوالوحدة أو الإيمان .

وتبدو سنن الضعف طبيعية في دورات التاريخ ، فكلما وقفت موجة وتجمدت وضعفت عن العمل اندفعت موجة أخرى إلى الأمام .

غير أن ظاهرة الغزو الخارجي الواضحة في تاريخ الإسلام من خلال حركات انقضاض شديدة ، فهي معزوة أساساً إلى التخلف عن مفهوم الإسلام نفسه من حيث الغفلة عن القوة ، أو تمزق الوحدة ، أو غلبة الترف والانحلال في المجتمع .

ولكن سرعان ما كان المسلمون يستردون حريتهم عندما يلتمسون قيمهم الأساسية ، فهي القادرة دوماً على إزاحة « القوة الغازية » ودحرها أو تصفيتها أو امتصاصها . وقد استطاع الإسلام على طول تاريخه ، ومازال قادراً على مقاومة كل قوة حاولت القضاء عليه أو السيطرة : (الصليبيين ، التتار ، الفرنجة ، الاستعمار) وكما قاوم كل قوة تحاول تغيير مفهومه أو صهره في مفاهيم فكر أو حضارة أخرى .

ففي الداخل حمى تطور الحركة الفكرية ودفعها إلى الأمام ، ووصلها بالحضارة والعصر ، وصحح كل انحراف طرأ عليها .

لقد ظل الإسلام يمد المجتمعات والحضارات في عالم الإسلام بطابعه ، وظل قوة قادرة حية على الحركة والتفاعل ، وظلت قيمه خلاقة بناءة متولدة قادرة على مواجهة التحدي والتغلب عليه .

أما نزعات التاريخ الاسلامي المحلية فهي أمور لابد منها في كل مجتمع حي ، إنها لم تكن تؤثر على خط السير الحضاري إلا مزقت عامل الوحدة ، ولم يكن ضعف المجتمع الإسلامي ، بعد قوة ، إلا ظاهرة طبيعية لكل مجتمع . غير أن فاعلية الإسلام وقدرته كانت دوماً قادرة على بعث الحياة في المجتمع الإسلامي بعد هبوطه وانحداره ، بالتماس مفهوم الإسلام مستمداً من القرآن .

ويتمثل في تاريخ الإسلام القدرة على الاستمرار ، والقدرة على تعميق مجرى الحياة . ومقاومة كل محاولة للتوقف .

وقد ظل جوهر المجتمع الإسلامي حيا بالرغم من مختلف وجوه الاضطراب والانحلال ، فاستطاع إخراج القادة والمصلحين والمجددين جيلاً بعد جيل ، وموجة بعد موجة . ومن هنا تتأكد الظاهرة التي يكشف عنها تاريخ الإسلام كله وهي : أنه لم يتخلف المسلمون عن الحضارة والقوة إلا حين تخلفوا عن التمسك بقيمهم ومفاهيمهم .

وقد ظل تاريخ الإسلام حافلاً باستمرار التجدد والتوسع ، فهو في كل يوم يكسب أرضا جديدة ، وفي نفس الوقت يتجدد بإقصاء عناصر الانحراف والتجزئة والزيوف عن معدنه والكشف عن جوهره الأصيل وقيمه الأساسية .

وقد تفوق المسلمون عندما استطاعوا « صهر » ثقافات الأمم وفلسفاتها في قوالب فكرهم ، وفي إطار التوحيد ، وانحدر المسلمون عندما استطاعت هذه الثقافات والفلسفات أن تسيطر على قيمهم الأساسية ، وتضعف فاعليتها .

وقد ظلت « المقومات الأساسية » ثابتة بالرغم من قدرة الفكر الإسلامي على الحركة ، ولا تزال هي العوامل الأكيدة في بناء النهضة ، فإذا انصرف عنها المسلمون انحدروا ودخلوا في مرحلة الأزمة والغزو الخارجي .

وهذه المقومات هي : « التوحيد ، الوحدة ، النبوة ، القوة ، الاجتهاد ، الإيمان ، الجهاد ، العدل ، الحرية » .

فالإسلام أساساً : دين وفكر وحضارة ، ومجتمع ، في منهج قوامه : عقيدة ومعاملات ، وأخلاق ، فالجتمع الإسلامي صيغ أساسا ، والدين جزء منه ، وقامت فيه القيم على أساس الالتقاء بين العقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والروح والمادة ، والجماعة والفردية ، فإذا تخلخل أساس من هذه الأسس حلت مرحلة « التخلف » ، وإذا التمست هذه المفاهيم بدأت مرحلة « اليقظة » .

تحرك التاريخ في إطار الاسلام

كان المجتمع الاسلامي دوماً يتحرك مع التاريخ ، ولا يتحرك ضد التاريخ ، لأنه لم يحقق المثل الأعلى الذي رسمه الإسلام ، ومازال منطلقا إلى تحقيقه .

لقد تحرك المجتمع الإسلامي في إطار الإسلام ، ولكنه لم يطاول مفهوم الإسلام ، فالإسلام في ذاته مقومات أساسية كلية مرنة ، وليس خطوطاً محدودة مرسومة أو ثابتة . أو بالأحرى « ثابت الإطار متطور المضمون والمفهوم » تتمثل الصور في تعددها مشتقة منه ، دائرة في فلكه ، قريبة منه آنًا أو بعيدة آنًا آخر ، وهي بقدر اتصالها به والتماسها منه ، وأخذها عنه تكتب لها الحياة ، فإذا تخلفت وبعدت وتحللت بدا ضعفها وبدأ اضطرابها .

وقد كانت الدول والمجتمعات تتفاوت في اصطباغها به ، وفي تحركها في إطاره ، وهذا هو السر في بقاء الإسلام مع تغير الدول .

« تاريخ الاسلام والتاريخ الانساني »

تاريخ الإسلام ـ لا شك ـ شطر من التاريخ الإنساني متصل به لا ينفصل عنه ، وإن كان له طابعه المتميز في منطقه ومنطلقه ومفهومه . كما أن تاريخ الإسلام ، مادة أساسية وجزء أصيل من « تاريخ الإنسانية والعالم » فهو متفاعل مع هذا التاريخ مؤثر فيه ، حتى ليمكن أن يقال إن تاريخ الغرب كله منذ ظهور الإسلام هو تاريخ الصراع مع الإسلام . وهو متصل بالأمم والحضارات والثقافات مفتوح عليها ، يأخذ منها ويعطي ، ولقد ظل تاريخ الإسلام متصلاً بالتاريخ العالمي ، مؤثرا ومتأثرا ، وظلت النظرة إلى الإسلام من خلال العالم ، والنظرة إلى العالم من خلال الإسلام متصلة ، وإذا أمكن أن يقال إن هناك عالمين : عالم الإسلام ، وعالم الغرب ، أمكن القول بأن الصراع لم يتوقف بينهما منذ بزوغ الإسلام إلى اليوم ، وهو الصراع بين فكرين مختلفين أساساً . فقد كان الشرق منذ مطالع فجره ، وهو أرض النبوات والرسالات ، والإيمان بالله ، وكان الغرب أرض الفلسفات الحرة المنطلقة ، التي تؤمن بالصراع بين البشر وبين الآلهة ، فلما غزت المسيحية أوربا ظل مفهوم الغرب قائما على أصوله الأولى لم يتغير إلا قليلا . فهو لم يقبل المسيحية على سماحتها وبساطتها ، ولكنه أدخلها في إطار من وثنية اليونان ، وقوانين الرومان ، ثم بنى بها جميعاً حضارته الحديثة ، وظل على موقف الخصومة للإسلام ، يصارعه من بيزنطة ومن الأندلس ، ويغزوه بالحروب الصليبية ، ثم يطوق عالم الإسلام ويسيطر عليه بحركة الاستعمار الحديث ، والإسلام في خلال هذا التاريخ كله يقاوم الغزو

ويتمدد في أرض جديدة ، ويعمق رسالته في العقول والقلوب في حركة دائبة لم تتوقف ولم يزدها الصراع إلا قوة وصقلا .

ظل تاريخ عالم الإسلام رمزاً على الصمود في وجه الغزو الخارجي في حملاته المتصلة التي تحاول أن توقفه عن الانتشار ، وترده عن الامتداد . فهو لا يلبث أن يضعف تحت ضغط العدوان المسلح حتى يسترد قوته وأرضه ، ثم هو من الناحية الأخرى يتوسع ذاتيا ، ويضيف ملايين جديدة إلى معتنقيه دون حرب أو قتال .

وأما تاريخ فكر الإسلام فقد ظل قادراً على التجدد ، معيداً لصياغة مقوماته وفق روح العصر ، لا يتوقف عن الحياة والحركة ، وقد عجزت الحملات المتوالية عن القضاء على عالم الإسلام ، أو إضافته إلى الحضارة الغربية إضافة التابع .

كما عجزت حملات الغزو الفكري أن تحطم مقوماته ، أو تضيف إليها ما ليس منها ، أو تؤكد الشبهات أو الشكوك المثارة . بل على العكس من ذلك . كان هذا التحدي عاملاً هاما في تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والتماس القيم الأساسية للإسلام ، مستمدة من القرآن ، قاضية على الانحرافات والبدع والجبرية ، مما أصاب الفكر الإسلامي في مرحلة الضعف . نعم استطاع الإسلام أن يصحح مفاهيمه وأن يبرز نقيا ، وأن يكشف عن جوهره ، قادراً على لقاء مختلف تطورات الحضارة ودعوات الفكر على نحو من الاستقلال ووضوح الشخصية ، والقدرة القادرة على الهضم والإساغة ، والاقتباس من مختلف الثقافات والحضارة بما تريده قوته وحيويته .

وقد واجه حملات الغزو العسكري ، في الشرق ، التتار ، والصليبيين في الشمال والفرنجة في الغرب ، ثم واجه حملة الاستعمار الحديث ، ومعها حملات التغريب والتبشير والشعوبية . وقد حاربت الإسلام قوى كبرى ، ثم زالت وانتهت بزوال البرتغاليين والأسبان ، وانصهر المغول والتتار وانحسر ظل بريطانيا وفرنسا .

ويمكن القول إن في تاريخ الإسلام اتجاهين أساسيين : اتجاه الانتشار والتوسع ، واتجاه التطبيق ، وتاريخ الإسلام لا يزال يمثل تاريخ الانتشار الذاتي بعد الانتشار في المرحلة الأولى بالتوسع . أما اتجاه التطبيق فلا يزال في مراحله الأولى .

فالمجتمع الإسلامي لم يستطع بعد أن يحقق مفهوم الإسلام كاملا في إطاره .

مفهوم الإسلام بالنسبة للأجناس والألوان هو المساواة التامة الصريحة . غير أن الموالي لم يجدوا تطبيقاً بهذا المفهوم ، وهذا سر ثورتهم ، وظهرت نزعة التفاضل بين الأجناس والصراع بينهم ، وهي مما لم يقره الإسلام .

ودعا الإسلام إلى العدل الاجتماعي . غير أن الطبقات الدنيا لم تجد طوال هذا التاريخ ما يحقق لها هذا العدل ، وظلت الطبقات الحاكمة بمعزل عن الشعوب ، ودعا الإسلام إلى الاعتدال ، غير أن الترف اجتاح الطبقات العليا ، مما نتج عنه رد فعل في ظهور مؤامرات الانتقاض وحركات الزهد والانعزال عن المجتمع ، أقول هذا وأنظر إلى العصور : الأموية ، والعباسية ، والعثمانية . وقد بدت بشائر التحول في اليقظة العربية الإسلامية الأخيرة .

والخلاصة

(أولا حركة تاريخ الإسلام في مختلف مراحله ، تتجه نحو الحرية والعدل والتوحيد والمساواة . بهدف تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد ، وتحرير فكره من القيود والتقليد والمحاولات التي تريد أن تقصيه عن التوحيد والحرية والعدل .

(ثانيا) عاش تاريخ الإسلام نظرية التحدي ورد الفعل في مجالين :

* مجال قيام بناة الدول ، ودعاة التجديد وقادة الحركات الإصلاحية كلما ضعفت القوى العاملة ، أو انحرف مجراها .

* في مواجهة كل حركة غزو خارجية حيث تظهر قوى جديدة قادرة على رد الغزو .

(ثالثا) كانت حركة التاريخ الإسلامي دائرية لولبية (تجمع بين الخط المستقيم والدائرة) الخط المستقيم الذي يوحي بالتقدم إلى الأمام ، والدائرة التي توحي بالحركة اللولبية ومعناها حركة أمامية ، وحركة ورائية راجعة إلى الوراء قليلا من أجل التقدم إلى الأمام .

(رابعا) التطور حركة تقدم وتراجع ، ونهضة ونكسة .

التاريخ الإسلامي كالكائن الاجتماعي له صفة أساسية هي قدرته على نزع الأعضاء الضعيفة في كيانه ، واستبدالها بأعضاء أقوى وفي دفع عوامل المرض والفناء .

(خامسا) مقومات الإسلام هي عامل القوة في تاريخه .

التوحيد ، الوحدة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، الإيمان ، العدل ،

الحرية ، فإذا ضعفت انحدر ، فإذا عاد إلى جوهر مفاهيمه دخل مرحلة القوة .

وبالجملة فإن تاريخ الاسلام :

(أولا) قاوم القوى الداخلية المنحرفة .

(ثانيا) واءم بين الفكر الإسلامي والتطور .

(ثالثا) قاوم القوى الخارجية الغازية .

(رابعا) صهر خصوم الإسلام في بوتقته .

(خامسا) كسب أرضاً جديدة بعد مرحلة التوسع .

(سادسا) دفع الحضارة البشرية إلى الأمام خلال ألف عام .

(سابعا) أعطى المرحلة الأوربية من الحضارة « المنهج التجريبي » أساس العصر الحديث .

أنور الجندي

أبرز وقائع تاريخ الاسلام .

هـ م

١ ـ ٦٢٢ الهجرة
١١ ـ ٦٣٢ وفاة النبي
١١ ـ الراشدون إلى ٤١/ ٦٦١ م
٤١ ـ الدولة الأموية إلى ١٣٢/ ٧٤٩
١٣٣ ـ ٧٥٠ الدولة العباسية
٢٩٧ ـ ٩١٠ الدولة الفاطمية
٣٤٥ ـ ٩٥٦ الدولة السلجوقية
٣٤١ ـ ٩٥٢ الفاطميون في مصر
٤٨٣ ـ ١٠٩٠ دولة المرابطين
٥٤٥ ـ 1150 دولة الموحدين
٦٤٥ ـ ١٢٥٤ المماليك في مصر
٦٩٩ ـ ١٣٠٠ الدولة العثمانية

هـ م

١١٤ ـ ٧٣٢ بلاط الشهداء
٤٧٨ ـ ١٠٨٥ سقوط طليطلة
٤٧٩ ـ ١٠٨٦ الزلاقة (هزيمة الأسبان)
٤٦٤ ـ ١٠٧١ موقعة ملاذ كرد
٤٩٣ ـ ١٠٩٩ الصليبيون في القدس
٥١٥ ـ ١١٧١ هزيمة فرنسا في دمياط
٥٤٢ ـ ١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية
٥٨٦ ـ ١١٩٠ الحرب الصليبية الثالثة
٥٨٣ ـ ١١٨٧ حطين (استعادة بيت المقدس)
٥٩٣ ـ ١١٩٦ معركة الأرك

٦٥٦ - ١٢٥٨ سقوط الخلافة في بغداد
٦٥٩ - ١٢٦٠ عين جالوت وهزيمة المغول
٦٩٠ - ١٢٩١ نهاية الحروب الصليبية
٨٥٧ - ١٣٥٤ العثمانيون يحتلون القسطنطينية
٨٩٨ - ١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية الأندلس
١٠١٨ - ١٦٠٩ ترحيل المسلمين من الأندلس
١٢١٣ - ١٧٩٨ الحملة الفرنسية
١٢٤٦ - ١٨٣٠ احتلال الجزائر
١٢٩٩ - ١٨٨١ احتلال تونس
١٣٠٠ - ١٨٨٢ احتلال مصر
١٣٣٠ - ١٩١٢ احتلال طرابلس
١٣٣٦ - ١٩١٨ تقسيم الدولة العثمانية
١٣٤٣ - ١٩٢٤ نهاية الخلافة العثمانية

هـ م

١٣٩ - ٧٥٥ عبد الرحمن الداخل
٤٥٦ - ١٠٦٣ الب أرسلان
٥٠١ - ١١٠٧ محمد بن تومرت
٥٤١ - ١١٤٦ نور الدين زنكي
٥٦٢ - ١١٢١ صلاح الدين
٦٦٥ - ١٢٦٦ الظاهر بيبرس
٨٥٥ - ١٤٥١ محمد الفاتح
٩٠٨ - اسماعيل الصفوي
١١٥٣ - ١٧٤٠ محمد بن عبد الوهاب
١٢٢٠ - ١٨٠٥ محمد علي
١٢٥٩ - ١٨٤٣ محمد بن علي السنوسي
١٢٨٧ - ١٨٧٠ المهدي في السودان
١٢٩٣ - ١٨٧٦ السلطان عبد الحميد

المصادر العامة (*)

محمد بن إسحاق : سيرة الرسول.......................٧٦٧ هـ
ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى...............٨٤٤ هـ
ابن هشام : سيرة رسول الله.................٨٣٤ هـ
الطبري : تاريخ الأمم والملوك.................٩٢٣ هـ
ابن مسكوبه : تجارب الأمم.................١٠٣٠ هـ
ابن الأثير : الكامل في التاريخ.................١٢٣٢ هـ
ابن كثير : البداية والنهاية.................١٣٧٢ هـ
المسعودي : مروج الذهب.................٩٥٦ هـ
البلاذري : فتوح البلدان.................٨٩٢ هـ
الذهبي : تاريخ دول الاسلام.................١٣٤٧ هـ
ابن خلدون : المقدمة . العبر والمبتدأ والخبر.........١٤٠٦ هـ
المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك.......١٤٤١ هـ
المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.....١٦٣١ هـ
ابن العربي : العواصم من القواصم : تحقيق وتعليق فخر الدين الخطيب
أبو الفداء : مختصر تاريخ البشر.................١٣٣١ هـ
ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور..........١٥٢٣ هـ
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة.................١٤٦٩ هـ
المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب.........١٢٢٤هـ
الهمداني : الاكليل.......................٩٤٥ هـ
الدينوري : الأخبار الطوال.................٨٩٥ هـ
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان.....................١٢٥٦ هـ

* المراجع وردت في صلب البحث